

كل النسخ

ISSN: 2090 - 0449

<https://kan.journals.ekb.eg>

Dawriyyat Kān al-Tārīhiyyat

نصوص من مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر

76

السنة
التاسعة عشرة

العدد ٧٦ من مجلة كل النسخ، مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر

٢٠٢٢ فبراير
١٤٤٧ رمضان

Historical Kan Periodical



تأسست في ١٤٢٩ هـ ونشرت العدد الأول في ٢٠٠٨ م

رقمية الموطن عربية الهوية عالمية الإحاطة

دورية كان التاريخية- س ١٩، ٧٦ (فبراير ٢٠٢٦ / رمضان ١٤٤٧)

Dawriyyat Kān al-Tārīhiyyat
Iliktrūniyyat, muḥakkamat, rub' sanawiyyat
Vol. 19, no. 76 [Feb. 2026]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
Egyptian Knowledge Bank.
Information on this issue: <https://kan.journals.ekb.eg>

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر- س ١، ١٤ (سبتمبر ٢٠٠٨). القاهرة: المؤسسة،
٢٠٠٨ – ٢٠٢٦ .

دورية إلكترونية مُحَكَّمَة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردم ٢٠٩٠ – ٠٤٤٩

٢- الآثار

١- تاريخ

٤- التراث

٣- التراجم

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical

Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo:
Organization, 2008 – 2025.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.

© ٢٠٢٦ دورية كان التاريخية – جميع الحقوق محفوظة

Copyright © 2025 Historical Kan Periodical

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, microfilming, recording or otherwise, without written permission from the publisher.

- النتائج والتفسيرات والاستنتاجات الواردة في هذه الدورية هي للمؤلفين، ولا تمثل بالضرورة المشرف العام أو رئيس التحرير أو أعضاء هيئة التحرير أو أعضاء الهيئة العلمية، أو أعضاء الهيئة الاستشارية، ولا يترتب عليها أي مسؤولية.
- ليس في التسميات المستخدمة في هذه الدورية، ولا في طريقة عرض مادتها، ما يتضمن التعبير عن أي رأي كان من جانب المشرف العام أو رئيس التحرير أو أعضاء هيئة التحرير أو أعضاء الهيئة العلمية، أو أعضاء الهيئة الاستشارية، بشأن المركز القانوني لأي بلد أو إقليم أو مدينة أو منطقة أو سلطات أي منها، أو بشأن تعيين حدودها أو تخومها، كما أن الخرائط الواردة في المقالات والدراسات لا تعتبر مرجعاً للحدود الدولية.
- الهدف من الروابط الإلكترونية الموجودة في هذه الدورية تسهيل وصول القارئ إلى المعلومات، وهي صحيحة في وقت استخدامها، ولا تتحمل الدورية أي مسؤولية عن دقة هذه المعلومات مع مرور الوقت، أو عن مضمون أي من المواقع الإلكترونية الخارجية المشار إليها.
- لا يعني ذكر أسماء جهات أكاديمية، أو مؤسسات علمية، أو شركات تجارية أن دورية كان التاريخية تدعمها.

أول دورية عربية إلكترونية محكمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول 1429هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر 2008م



ISSN: 2090 – 0449 Online

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات البليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأداة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

<https://kan.journals.ekb.eg>

أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:

دار ناشري للنشر الإلكتروني

أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ - الكويت

www.nashiri.net



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:

أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي

منظمة غير ربحية - سان فرانسيسكو - الولايات المتحدة

www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية

دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" - السعودية

www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة بيانات المنهل

أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ - الإمارات

www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"

شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن

www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:

دليل الدوريات العربية المجانية

الدوريات العلمية الفخمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً

www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:

هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة

الايكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ - كاليفورنيا

www.icann.org



معتمدة من مركز مؤثر - برلين:

المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية

عن الالتزام بشروط النشر العلمي المعتمدة عالمياً.

<https://indexpolls.de>



المنتترف العام

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

أ.د. عبد العزيز غوردو

أستاذ التاريخ والحضارة

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين

وجدة - المملكة المغربية

الهيئة الاستشارية

أ.د. خالد بلعربي	جامعة الجيلالي اليابس	الجزائر
أ.د. خليف مصطفى غرابية	جامعة البلقاء التطبيقية	الأردن
أ.د. الطاهر جبلي	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر
أ.د. عارف محمد عبد الله الرعوي	جامعة إب	اليمن
أ.د. عائشة محمود عبد العال	جامعة عين شمس	مصر
أ.د. عبد الرحمن محمد الحسن	جامعة بخت الرضا	السودان
أ.د. عبد الناصر محمد حسن بس	جامعة سوهاج	مصر
أ.د. محمد الأمين ولد أن	جامعة نواكشوط	موريتانيا
أ.د. محمد عبد الرحمن يونس	جامعة ابن رشد	هولندا
أ.د. محمود أحمد درويش	جامعة المنيا	مصر
أ.د. ناظم رشم معتوق الأمارة	جامعة البصرة	العراق
أ.د. نهلة أنيس مصطفى	جامعة الأزهر	مصر

الهيئة العلمية

أ.د. أنور محمود زناتي	جامعة عين شمس	مصر
أ.د. عبد الحميد جمال الفراني	جامعة الأقصى	فلسطين
أ.د. غسان محمود وشاح	الجامعة الإسلامية	فلسطين
أ.د. ماجدة مولود رمضان الشرع	جامعة طرابلس	ليبيا

هيئة التحرير

د. إبراهيم برمّة أحمد	جامعة الملك فيصل	تشاد
د. زينب عبد التواب رياض	جامعة أسوان	مصر
د. غلا الطوخي إسماعيل	جامعة بنها	مصر
د. فهد عباس سليمان	جامعة كركوك	العراق
د. مأموؤو كان	جامعة العلوم الإسلامية	موريتانيا
د. محمد الصافي	جامعة الحسن الثاني	المغرب

” حسب الترتيب الأبجدي

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام



"كان التاريخية" أول مبادرة عربية مستقلة متخصصة، تدعم مبدأ "المعبر المفتوح" في تداول المعرفة على شبكة الإنترنت بتشجيع النشر الرقمي للدراسات التاريخية، "كان التاريخية" غير هادفة للربح وتتيح نصوصها كاملة على شبكة الإنترنت، وتسعى إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي.



كان التاريخية

حاصلة على "معامل التأثير العالمي" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية.

حاصلة على "معامل التأثير العربي" (AIF) للدوريات العلمية العربية المَحَكَّمة.

مسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨١٤.

مصنفة ضمن تخصص التاريخ الفئة الوسطى المرتفعة (Q2) في معامل التأثير أرسيف.

عضو في الجمعية الدولية للمجلات العلمية الناشرة باللغة العربية.

رئيس التحرير

أ. د. أشرف صالح محمد سيد

أستاذ تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة ابن رشد



An Afternoon of Debate

by Eduard Theodor Ritter von Grützner
(German, 1846 - 1925)

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم

رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com



historicalkan



groups/kanhistorique



kanhistorique



kanhistorique.blogspot.com



goodreads.com/kanhistorique



www.kan.nashiri.net



https://kan.journals.ekb.eg

كان التاريخية علمية. عالمية. محكمة. ربع سنوية

السنة التاسعة عترة - العدد السادس والسبعون - فبراير ٢٠٢٦

الإستعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعتبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمل دورية كان التاريخية أية مسؤولية عن الموضوعات التي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكية أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

حقوق الطبع والنشر والترجمة

جميع حقوق الطبع والنشر الورقي والرقمي والترجمة محفوظة لدورية كان التاريخية، وبموجب الاعتماد والتسجيل الممنوح للدورية يحق لرئيس التحرير اتخاذ الإجراءات القانونية تجاه أي فرد أو مؤسسة أو موقع على شبكة الإنترنت يعيد استخدام محتويات الدورية بدون اتفاقية قانونية.

رخصة التشارك الإبداعي

دورية كان التاريخية مسجلة تحت التراخيص العامة غير التجارية لدى منظمة التشارك الإبداعي في سان فرانسيسكو استنادًا إلى موقعها الإلكتروني. "كان التاريخية" غير تجارية ولا تفرض رسوم على المراجعة والتحكيم والنشر.

إدارة المعرفة

كان التاريخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهوية الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.



الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.

أَخْلَاقِيَّاتُ النَّشْرِ وَالنَّزَاهَةُ الْعِلْمِيَّةُ

يستند بيان أخلاقيات النشر وسوء الممارسة الخاص بدورية كان التاريخية على مدونة قواعد السلوك والمبادئ التوجيهية لأفضل الممارسات التي تهّم محرري المجلات العلمية والتي أصدرتها (COPE) لجنة أخلاقيات النشر (Committee on Publication Ethics) وتتخذ هيئة التحرير جميع الإجراءات اللازمة ضد أي نوع من الممارسات الخاطئة في مجال النشر، وذلك بحفاظها على مراقبة جميع المراحل والإجراءات المتضمنة في عملية النشر العلمي. وبناءً على هذا يعتبر منع سوء الممارسة في النشر مثل الانتحال أو إعادة الطبع غير المصرح به، أحد المسؤوليات الملزمة لفريق عمل الدورية، الذي لا يتسامح بدوره مع أي نوع من السلوك الذي لا يلتزم بأخلاقيات النشر، وهو مدرك تمامًا مسؤولياته والتزاماته الأخلاقية.

عملية التحكيم

تتم مراجعة المقالات في البداية من طرف رئيس التحرير. وقد يرفض رئيس التحرير المقال المقدم قبل إخضاعه لعملية مراجعة الأقران، إما لأنه لا يتصل بنطاق وموضوعات الدورية أو لأنه ذو جودة متدنية تجعله لا يرتقي للتحكيم على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير تقييم المقالات بغض النظر عن انتماءات المؤلفين العرقية أو جنسهم أو معتقداتهم الدينية أو جنسيتهم أو مواقفهم الفكرية. وينبغي أن يستند قرار رئيس التحرير بقبول أو رفض المقال المقدم للنشر إلى أهمية العمل وأصالته ووضوحه وصلته بأهداف ومجال تخصص الدورية. يتم إرسال المقالات التي اعتبرت مؤهلة للمراجعة إلى محكمين اثنين على الأقل ممن لديهم خبرة في مجال المادة المقدمة. ويجب أن يكون المحكمون للمقال غير معروفين لبعضهم البعض. كما يطلب منهم أن يقرروا ما إذا كان المقال قابلاً للنشر كما هو، أم أنه قابل للنشر مع تغييرات طفيفة، أو تغييرات جذرية، أو لا يمكن نشره على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير عدم النظر في إعطاء المؤلفين إمكانية ترشيح محكمين أو طلبهم ألا يقوم محكمون معينون بمراجعة أوراقتهم.

النزاهة الأكاديمية وتضارب المصالح

يجب على رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير عدم استخدام المواد غير المنشورة التي تم الكشف عنها في الورقة المقدمة لأغراضهم البحثية. ويجب الحفاظ على سرية الأفكار المبتكرة أو البيانات المكتسبة في عملية مراجعة الأقران بكل حزم ويجب عدم استخدامها للمصلحة الشخصية. ويجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكمين الكشف عن أي تضارب مصالح عند قبولهم تحكيم عمل ما وعند إرسال تقارير التحكيم. كما يجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكمين رفض المشاركة في التحكيم إذا كانوا في وضع لا يسمح لهم بالقيام بمراجعة غير متحيّزة.

مسؤولية رئيس التحرير

يتكون فريق عمل دورية كان التاريخية من متخصصين معترف بهم في مجال الدراسات التاريخية والأثرية والتراثية. ويتولّى رئيس تحرير الدورية نشر أسماء أعضاء الهيئة الاستشارية وهيئة التحرير وانتماءاتهم ومعلومات الاتصال بهم على موقع الدورية الرسمي عبر شبكة الإنترنت.

قرار النشر

يتحمل رئيس التحرير مسؤولية التصرف النهائي في جميع عمليات التقديم للنشر والمراجعات الرئيسية أو الجزئية أو القبول أو الرفض. ويستند قرار النشر أو عدم النشر إلى تقارير المحكمين وملاحظاتهم والقيمة العلمية للبحث وأصالته ووضوحه وجدواه وصلته بمجال تخصص الدورية. وقد يحتاج رئيس التحرير إلى استشارة المحررين الآخرين أو المحكمين المتخصصين في اتخاذ القرارات حول البحوث المقدمة. ويأخذ رئيس التحرير أيضًا بعين الاعتبار المسوغات القانونية المتعلقة بالتشهير وانتهاك حقوق الطبع والنشر والسرقة الأدبية.

السرية

رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير ليسوا ملزمين بالكشف عن أي معلومات حول البحث المقدم لأي شخص آخر غير المؤلف والمحكمين والمراجعين المحتملين ومستشاري التحرير الآخرين والناشر حسب الاقتضاء. إن عملية المراجعة العلمية سرية للغاية، والدورية ملتزمة التزامًا تامًا بسياسة مراجعة الأقران المزدوجة التعمية.

كان التاريخية هي أول دورية عربية مُحَكَّمَةٌ ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني، تأسست غرة جمادى الأولى ١٤٢٩ هجرية، وصدر العدد الأول منها في أيلول ٢٠٠٨. كان التاريخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهوية الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

مسؤولية المؤلف (الكاتب)

يلتزم المؤلفون بمبادئ ومعايير أخلاقيات البحث والنشر العلمي، وتخضع جميع الأوراق العلمية لكشف السرقة الأدبية، وتُرفض كل ورقة بحثية لا تلتزم بسياسات وقواعد النشر المحددة من قبل دورية كان التاريخية. ويجب على المؤلف عند تقديم البحث تجنب الموضوعات غير الأخلاقية، والعرقية، والمذهبية، والمعلومات المزيفة، مع إدراج تفاصيل المصادر والمراجع ضمن الورقة البحثية.



الأمانة وسلوك التأليف المسؤول

يجب على المؤلفين الابتعاد عن جميع أنواع السلوك غير الأخلاقي مثل الانتحال والافتعال والتزوير. وتجنب السلوك غير الأخلاقي بتقديم البحث نفسه إلى أكثر من مجلة واحدة في الوقت نفسه. كما يجب على المؤلفين تقديم أعمال أصلية خالصة، ويجب ذكر مساهمة الآخرين فيها بشكل صحيح، مع الاستشهاد بالأبحاث التي كان لها أثر في تحديد طبيعة البحث المقدم. وإذا اكتشف المؤلف خطأ فادحاً في عمله المنشور يجب عليه إبلاغ رئيس التحرير أو الناشر بحذف الخطأ أو تصويبه.

حقوق النشر

يحتفظ المؤلفون بحقوق الطبع والنشر لعمالهم، وبمجرد قبول الورقة للنشر فإن حقوق الطبع والنشر والترجمة لورقته العلمية تنقل إلى دورية كان التاريخية، وتُوزع بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) والذي يسمح بالاستخدام غير المقيّد والتوزيع والاستنساخ في أي وسيط بشرط ذكر كل ورقة علمية وتوثيقها توثيقاً صحيحاً وعزوها إلى مصدرها.

تضارب المصالح

إذا كان هناك أي تضارب مصالح محتمل أثناء أو بعد عملية مراجعة الأقران يجب على المؤلفين الإفصاح عنه لرئيس التحرير أو الناشر على الفور. ومن أجل تأمين عدم تضارب المصالح يتم اختيار مراجع ليس له علاقة أو مصلحة مع المؤلف، أو أحد المؤلفين، أو المؤسسات الجامعية أو الهيئة العلمية التي ينتمي إليها المؤلف، وفي كل الأحوال تُعتمد المراجعة المزدوجة للأبحاث المقدمة للنشر.

يجوز للمشرف العام، ورئيس التحرير، وأعضاء الهيئة الاستشارية، والعلمية، وهيئة التحرير بالدورية التقدم بأبحاث أو دراسات علمية للنشر، وتلتزم الدورية بخضوع هذه المواد للتحكيم العلمي الكامل، ضماناً للشفافية، وتفادياً لأي تعارض محتمل في المصالح، وبما يتوافق مع المعايير الدولية لأخلاقيات النشر العلمي في المجلات المُحكّمة.

مسؤولية المحكم (المراجع)

تتبنى دورية كان التاريخية أسلوب مراجعة الأقران المزدوجة التعمية. ويساعد المحكمون رئيس التحرير على اتخاذ القرارات التحريرية، كما يمكن أن يساعدوا المؤلف على تحسين الورقة البحثية من خلال تقاريرهم العلمية.

سلوك التحكيم المسؤول

لا يفترض أن يقوم المحكمون بفحص البحوث التي تقع خارج مجال تخصص دورية كان التاريخية. ويجب على أي محكم خارجي غير مؤهل أو غير مستعد لمراجعة البحث المقدم أن يعلم رئيس التحرير وينسحب من عملية التحكيم. وعلى المحكم المبادرة والسرعة في القيام بتقييم البحث الموجه إليه في الآجال المحددة، ويجب ألا يستخدم المحكمون أي معلومات أو بيانات تم الحصول عليها من البحث التي تم تحكيمه لمصلحتهم الشخصية. ويجب ألا يقبل المحكمون بتحكيم البحوث التي يكون لهم فيها تضارب مصالح نتيجة لعلاقات تنافسية أو تعاونية أو غيرها مع المؤلف (المؤلفين). كما يجب على المحكمين أن يعلموا رئيس التحرير بأي تشابه أو تداخل كبير بين البحث الذي تم تحكيمه وأي أعمال أخرى منشورة يعرفونها.

السرية والموضوعية

يجب على جميع المحكمين الذين يقومون بمراجعة الأوراق العلمية أن يفهموا ويتقيدوا بمعايير السرية، ومعاملة البحوث التي تم استلامها للتحكيم كوثائق سرية. ويجب عليهم عدم الكشف عنها أو مناقشتها مع الآخرين باستثناء ما يأذن به رئيس التحرير. وينبغي على المحكمين إجراء عملية التحكيم بشكل موضوعي ويجب ألا يوجهوا أي نقد شخصي للمؤلف. ويجب على المحكمين التعبير عن وجهات نظرهم بنزاهة ووضوح مع ذكر الأدلة والحجج الداعمة.

دورية كان التاريخية هي دورية علمية عالمية مُحكّمة تعتمد سياسة المراجعة المزدوجة وتصدرها مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر. إن الهدف الرئيس من الدورية هو دعم الدراسات التاريخية المتخصصة وتوفير منصة فكرية للباحثين من كافة أنحاء العالم. تصدر الدورية أربعة أعداد في السنة وتقبل الأوراق البحثية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية. كما تنشر الدورية مقالات أصلية وعالية الجودة في مجالات العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظراً لطبيعة التاريخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. ويشمل ذلك مجموعة واسعة من مواضيع ومناهج ورؤى متخصصة تستجيب لطيف كبير من القراء ذوي التخصصات المتعددة.

تشرح العملية التحكيمية

- هيئة التحرير تدير عملية التحكيم السري للمقالات والدراسات المقدمة لتحديد صلاحيتها للنشر، ويلتزم الباحث بالأخذ بملاحظات المحكمين.
- يتم تقييم وفحص جميع الأوراق المقدمة للنشر مبدئيًا من قبل المحرر للتأكد من ملاءمتها للمجلة.
- يتم إرسال المقالات والدراسات التي تعتبر مناسبة عادةً إلى ما لا يقل عن اثنين من الخبراء المستقلين المراجعين لتقييم الجودة العلمية للورقة.
- مدة التحكيم ثلاثة أسابيع و يبلغ المحكم بذلك، وبعدها يجب أن يرد المحكم أما (قبولاً) وهو قبول البحث للنشر، أو (قبولاً بشرط التعديل)، وهو قبول البحث للنشر بشروط إجراء بعض التعديلات عليه، أو (رفضاً) وهو التوصية بالاعتذار عن نشر البحث.
- المحرر مسؤول عن القرار النهائي بشأن قبول المقالات أو رفضها.
- لا يشارك المحررون في القرارات المتعلقة بالأوراق التي كتبوها بأنفسهم أو التي كتبها الزملاء. ويخضع أي إرسال من هذا القبيل لجميع الإجراءات المعتادة للمجلة، مع التعامل مع التحكيم (مراجعة الأقران) بشكل مستقل عن المحرر المعني ومجموعات البحث الخاصة بهم.

التسليم

- ترسل الأوراق العلمية مع مرفقاتها بالبريد الإلكتروني إلى الدورية.
- يقدم المؤلف نسخة من البحث مكتوبة على برنامج Microsoft Word.
- يرفق الباحث سيرته العلمية وبيانات التواصل معه.
- يتلقى المؤلف إشعارًا بالاستلام من مديرية التحرير.

الفحص الأولي

- تقوم هيئة التحرير بفحص الورقة العلمية للنظر إذا ما كانت مطابقة لقواعد النشر الشكلية المعلن عنها ومؤهلة للتحكيم العلمي.
- يعتمد في الفحص الأولي على ملاءمة الموضوع للدورية، ونوع المادة العلمية (مقال / دراسة / ترجمة / تقرير / عرض كتاب / عرض أطروحة)، وسلامة اللغة، ودقة التوثيق والإسناد بناءً على نظام التوثيق المعتمد في الدورية، بالإضافة إلى عدم خرق أخلاقيات النشر العلمي.
- يجري إبلاغ المؤلف باستلام الورقة البحثية وبنتيجة الفحص الأولي.
- في هذه المرحلة إذا وجدت هيئة التحرير أن الورقة البحثية بحاجة إلى تحسينات ما قبل التحكيم، فتقدم للمؤلف إرشادات أو توصيات ترشده إلى سبل التحسين مما يساعد على تأهيل الورقة البحثية لمرحلة التحكيم.

التحكيم

- تخضع كل دراسة للمراجعة المزدوجة من أعضاء لجنة المراجعة والتحكيم العلمي.
- يُبلغ المؤلف بتقرير من هيئة التحرير يبين قرار المراجعة العلمية، وخلاصة الملاحظات والتعديلات المطلوبة إن وجدت، ويرفق معه تقارير المراجعين أو خلاصات عنها.
- تبقى أسماء المراجعين مغفلة في التقرير الذي يُرسل إلى المؤلف.

دورية كان التاريخية مجهزة وتم اعتماد محتوياتها ضمن عدد وافر من قواعد البيانات العلمية العربية والعالمية التي تتيح مجال الاستفادة منها والرجوع إليها باستمرار. وهي ضمن المجلات العلمية المعتمدة من اتحاد الجامعات العربية منذ نوفمبر ٢٠١٩. وحاصلة على معامل التأثير العالمي منذ (٢٠١٥) ومعامل التأثير العربي منذ (٢٠١٦)، ومعتمدة من المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية (٢٠١٨)، ومسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم (٦٨٨٨١٤). وحاصلة على الجائزة العربية للتميز العلمي والتكنولوجي (٢٠١٩).

إجراء التعديلات

- يقوم المؤلف بإجراء التعديلات اللازمة على الدراسة استنادًا إلى نتائج التحكيم.
- يعيد المؤلف إرسال المقال / الدراسة إلى الدورية بعد استيفاء طلبات المراجعين.

القبول والرفض

- تحتفظ الدورية بحق القبول والرفض استنادًا إلى التزام المؤلف بقواعد النشر وتوجيهات هيئة التحرير.
- يرسل إلى المؤلف خطاب قبول النشر، ويأخذ المقال دوره في جدول النشر حسب أسبقية الوصول، وترسل نسخة من الدورية إلى البريد الإلكتروني للمؤلف فور النشر.

أجور المحكمين

- لا تعتمد دورية كان التاريخية أية رسوم مقابل المراجعة العلمية والتحكيم والمراجعة اللغوية والتنسيق والنشر والأرشيف وفهرسة المقالات والدراسات.
- يتعاون مع دورية كان التاريخية بصفة تطوعية هيئة من المراجعين والمحكمين من ذوي الخبرة البحثية والمكانة العلمية المتميزة. ولا تدفع الدورية أية مكافآت مالية مقابل عملية المراجعة والتحكيم وتقييم المقالات والدراسات المقدمة للنشر.

أعضاء هيئة التحكيم

تتميز دورية كان التاريخية بهيئة تحكيم متخصصة ذات كفاءة من أساتذة الجامعات العربية والخبراء ممن عرفوا بطول الباع في مجال الدورية والمجالات ذات العلاقة، وممن أصدروا كتباً أو أبحاثاً علمية متميزة في تخصص الدورية. وتعتمد هيئة التحكيم مبدأ الحياد والموضوعية في تحكيم المواد العلمية المرشحة للنشر مع الحرص على خلو الأعمال من التطرف الفكري أو مساسها بمبادئ الأشخاص أو الأنظمة.

المقيّمون والمحكمون

أ.د. إبراهيم القادري بوتشيش	جامعة مولاي إسماعيل	المغرب
أ.د. إبراهيم خليل العلاف	جامعة الموصل	العراق
أ.د. أحمد السري	جامعة صنعاء	اليمن
أ.د. أحمد عبد الله الخسّو	مركز الحسو للدراسات الكمية والتراثية	بريطانيا
أ.د. أسامة عبد المجيد العاني	كلية الفارابي الجامعة	العراق
أ.د. إمام الشافعي محمد حمودي	جامعة الأزهر	مصر
أ.د. أمين محمد علي الجير	جامعة ذمار	اليمن
أ.د. أيمن وزيري	جامعة الفيوم	مصر
أ.د. بوحسون العربي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د. حبيب البدوي	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. الحسن تاوشينخت	المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث	المغرب
أ.د. حسين صالح حسين العنسي	جامعة ذمار	اليمن
أ.د. حنفي هلايلي	جامعة جيلالي ليايس	الجزائر
أ.د. خالد حسين محمود	جامعة عين شمس	مصر
أ.د. ذاكر محي الدين عبد الله العراقي	جامعة الموصل	العراق
أ.د. رضوان شافو	جامعة الوادي	الجزائر
أ.د. سعاد يمينية شبوط	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر
أ.د. سعيد بن محمد الهاشمي	جامعة السلطان قابوس	سلطنة عمان
أ.د. شعيب مقنوني	جامعة "أبو بكر بلقايد" تلمسان	الجزائر
أ.د. صالح محمد زكي اللهبي	جامعة الجزيرة	الإمارات
أ.د. عادل بن يوسف	جامعة صفاقس	تونس
أ.د. عبد الرحيم مرشدة	جامعة جدارا	الأردن
أ.د. عبد العزيز رمضان	جامعة الملك خالد	السعودية
أ.د. عبد القادر سلامي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د. عبد الله علي نوح	جامعة بنغازي	ليبيا
أ.د. العربي عقون	جامعة قسنطينة (٢)	الجزائر
أ.د. عطاء الله أحمد فشار	جامعة زيان عاشور	الجزائر
أ.د. عماد جاسم حسن الموسوي	جامعة ذي قار	العراق
أ.د. فاروق إسماعيل	جامعة حلب (سابقا)	سوريا
أ.د. كرفان محمد أحمد	جامعة دهوك	العراق
أ.د. كمال السيد أبو مصطفى	جامعة الإسكندرية	مصر
أ.د. لمياء بوقريوة	جامعة الحاج لخضر باتنة	الجزائر
أ.د. مبارك لمين بن الحسن	جامعة ابن زهر	المغرب
أ.د. محمد دوكوري	الجامعة الإسلامية	النيجر
أ.د. مصطفى غطيس	جامعة عبد الملك السعدي	المغرب
أ.د. وجدان فريق عناد	جامعة بغداد	العراق

- التاريخ المقارن.
- التراجم والنسب.
- تاريخ العالم القديم.
- تاريخ الأدب العربي.
- تاريخ الأمراض والأوبئة.
- تاريخ العصور الوسطى.
- تاريخ الحروب الصليبية.
- العمارة والعمران والمدن.
- المستكشفون والرحالة.
- منهج البحث التاريخي.
- تاريخ الكتب والمكتبات.
- تاريخ الأديان والتصوف.
- التاريخ الحديث والمعاصر.
- الآثار والتراث المادي والشفهي.
- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.
- الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.

”حسب الترتيب الأبجدي

يتم تحديث القائمة حسب مساهمات الأساتذة للمرة الأولى في نشر أبحاثهم على صفحات الدورية، وبعد الاطلاع على السيرة العلمية، ومراعاة الخبرات الأكاديمية، والإنتاج الفكري، والإشراف على الأطاريح الجامعية، ومدى الاستعداد للانضمام إلى فريق عمل الدورية بصفة تطوعية.

ترحب دَّورِيَّةُ كَانِ التَّارِيخِيَّةِ بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظراً لطبيعة التَّارِيخِ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقاً للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
 - تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
 - يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
 - يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
 - تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسباً للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.
 - يجوز للمشرف العام، ورئيس التحرير، وأعضاء الهيئة الاستشارية، وهيئة التحرير بالدورية التقدم بأبحاث أو دراسات علمية للنشر، شريطة أن تخضع هذه الأعمال لكامل إجراءات التحكيم العلمي المعتمدة بالدورية، وفق نظام التحكيم المزدوج السري، وبما يضمن استقلالية القرار العلمي ونزاهة العملية التحريرية.
 - وفي هذه الحالة، يُستبعد صاحب العمل من أي دور إداري أو تحريري أو إشرافي يتعلق بمسار تحكيم مادته أو اتخاذ القرار بشأنها، ويُحال الإشراف الكامل على إجراءات التحكيم والبت النهائي إلى عضو مستقل من هيئة التحرير أو إلى محرر ضيف، دون أي تدخل مباشر أو غير مباشر من مقدم المادة.
- هيئة التحكيم:**
- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمياً سرياً بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوءها يتم تقويم العمل العلمي.
 - يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
 - البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
 - تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
 - في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
 - تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيَّةُ كَانِ التَّارِيخِيَّةِ إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكتاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

رسوم النشر

تلتزم دورية كان التاريخية بمجانبة النشر، وتُعفي الباحثين والمؤلفين من جميع رسوم النشر والمراجعة والتحكيم.

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألا يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال / الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات / منتديات / مواقع / مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجودة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

عنوان البحث:

يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.

نبذة عن المؤلف (المؤلفين):

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم / الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون - الموبايل / الجوال - الفاكس).

صورة شخصية:

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

ملخص البحث:

يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٣٥٠ - ٣٠٠) كلمة. البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

الكلمات المفتاحية:

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواءم مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

مجال البحث:

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

المقدمة:

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتسائلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.

موضوع البحث:

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سليمة واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).

الجدول والأشكال:

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

الصور التوضيحية:

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في «ملف منفصل» على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution).

خاتمة (خلاصة):

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

الهوامش:

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وإمكان الباحث استخدام نمط "APA" American Psychological Association الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

المراجع:

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقاً للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية... إلخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسؤولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأي كاتبها وعلى مسؤوليته هو وحده ولا تعبر عن رأي أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسؤولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهاماً معنوياً من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

مكافآت الباحثين

لا تدفع دورية كان التاريخية أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما يُنشر في الدورية إسهاماً معنوياً من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي عامة ومجال الدراسات التاريخية بصفة خاصة.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصاً وافياً لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف / المحقق / المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل بموضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر / ورشة عمل / سيمينار) مركزاً على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دورية كان التاريخية أربع مرات في السنة: (مارس، يونيو، سبتمبر، ديسمبر) بالإضافة إلى أعداد خاصة حسب الحاجة.
- مقالات الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني الرسمي على شبكة الإنترنت.
- تُرسل الأعداد الجديدة إلى كُتّاب الدورية بالبريد الإلكتروني.
- يُعلن عن صدور أعداد الدورية عبر منصات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسل الاستفسارات والاقتراحات إلى صفحة الدورية <https://www.facebook.com/historicalkan>
- تُرسل الأعمال المطلوبة للنشر عبر النظام الإلكتروني على موقع الدورية أو مباشرة إلى رئيس التحرير: <https://kan.journals.ekb.eg> mr.ashraf.salih@gmail.com

١٤	قوالب اللبن السحرية في مصر القديمة	زَيْنَب عَبْد التَّوَاب رِيَّاض خَمِيس جامعة أسوان	مصر
٢٥	تاريخ العمارة الطينية بتافيلالت ودورها في تعزيز المسارات السياحية	الحاج موسى عوني خليفة بوطيب جامعة سيدي محمد بن عبد الله	المغرب
٣٩	جوانب من الحياة الثقافية في إفريقيا: الطعام، الملابس، الموسيقى من الفترة القديمة إلى العصر الحديث	إسماعيل اللدريسي جامعة سيدي محمد بن عبد الله سايس	المغرب
٥٠	الدعوة الدينية ودورها في تأسيس الإطار النظري للدولة خلال العصر الوسيط: مقارنة بين الأسس النظرية للدعوة الدينية عند كل من المرابطين والموحدين	حميد اجميلي محمد امحرزي جامعة ابن طفيل	المغرب
٦٠	أضواء على ثورة أهل فاس وأواخر عصر بني مرين: الأسباب والتداعيات والعبر	نور الدين أمعيط جامعة السلطان مولاي سليمان	المغرب
٧٠	الإمامية في موريتانيا ودورها في الإصلاح السياسي خلال القرن السابع عشر الميلادي: تجربة الإمام ناصر الدين نموذجًا	محمد سالم ولد زيد جامعة نواكشوط العصرية	موريتانيا
٨١	أسماء أماكن منطقة باني في كتاب "التعرف على المغرب" لشارل دوفوكو (١٨٨٣ - ١٨٨٤): محاولة تنميط	عمر أوبلا جامعة ابن زهر أكادير	المغرب
١٠٥	العلاقات المغربية - الفرنسية من الاستعمار المباشر إلى الاستعمار الناعم	يوسف كريم دكتوراه في التاريخ الراهن	المغرب
١١٥	نماذج من تدبير المحاكم العرفية لشؤون وقضايا القاصرين وفاقدي الأهلية ببوادي زيان خلال عهد الحماية ١٩١٢ - ١٩٥٦	حنان اقشيل الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين فاس	المغرب
١٢٣	الحضور العسكري الأمريكي في المغرب إبان الحرب العالمية الثانية: نظرة في الدوافع الاستراتيجية والتداعيات السياسية والاجتماعية ١٩٤٢ - ١٩٤٥	طارق الهامل جامعة الحسن الثاني	المغرب
١٣٣	المرض والعلاج وحضورهما في الذهنيات: مقارنة أولية حول ثقافة التداءوي عند المغاربة خلال العصر الحديث	أنيس حمان جامعة محمد الأول	المغرب
١٤٦	الدور الريادي لسياسة الملك عبد العزيز آل سعود (رحمه الله) في تعزيز التنمية الاقتصادية	خليل خلف حسين الجبوري جامعة تكريت	العراق
١٦١	المقاومة المسلحة والاستقلال من خلال مدونة الشعر الشعبي التونسي بين ١٩٥٢ - ١٩٥٦	طارق محمدي كلية الآداب والعلوم الإنسانية - سوسه	تونس
١٧٩	معاهدة الأمن والتعاون المشترك بين اليابان والولايات المتحدة الأميركية ١٩٦٠: دراسة تاريخية	أحمد علي منصور جامعة ديالى	العراق
١٩٠	الشخصية المغربية: تأصيل وتأويل	عبد المجيد أيت القائد وزارة التربية	المغرب
١٩٦	المسألة المتعلقة بزراعة الكروم في المغرب	فؤاد المستفيد كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس	المغرب

عرض كتاب:

عرض أطروحة:



قوالب اللبن السحرية في مصر القديمة

أ.د. زينب عبد التواب رياض خميس

أستاذ بقسم الآثار المصرية
كلية الآثار – جامعة أسوان
جمهورية مصر العربية



ملخص

عُرف المصري القديم بأهمية الطين لا سيما بعد استقراره على ضفتي النيل، ورأى كيف كانت الأراضي الطينية هي أساس الخصب والنماء، فارتبط الطين في مخيلته بالخصوبة والرخاء والبعث والتجديد، وبالتدريج ارتبط الطوب اللبن بالولادة. ولقد استُخدم الطين كعنصر انشائي إذ صنع منه المصري القديم قوالب الطوب اللبن، وبازدياد خبرته ومعرفته بالطين صنع أوانيهِ الفخارية وبعض أدواته الحياتية، وتطور الأمر شيء فشيء فاستعمله في العديد من صناعاته الأخرى. ومن الناحية الدينية فقد كان الطين مادة مقدسة في مصر القديمة، إذ حرص المصري القديم على استخدامه بصورة رمزية عند إقامة منشآته الدينية، وفي بعض الشعائر والطقوس السحرية. أما من الناحية الجنائزية فقد وضحت أهمية الطين في البداية من خلال صبه في أرضية المقابر، أو أعلى الدفنة بعد اكتمالها، ثم ظهر بعد ذلك قوالب الأجر السحرية، والتي ارتبطت بالعقيدة والسحر والعادات الجنائزية في مصر القديمة، فعثر على العديد منها في بعض المقابر الملكية مخبئة داخل الجدران، وعثر على نماذج لقوالب من الطين كان لها مغزى دنيوي لا يخلو من فلسفة دينية.

كلمات مفتاحية:

قوالب سحرية؛ الحماية؛ الدين؛ بس؛ أوزير

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠١ نوفمبر ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٠٥ ديسمبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.450988.1325

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

زينب عبد التواب رياض خميس، "قوالب اللبن السحرية في مصر القديمة". - دورية كان التاريخية. - السنة التاسعة عشرة - العدد السادس والسبعون: فبراير ٢٠٢٦. ص ١٤ - ٢٤.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: nfrtkmt77@yahoo.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع المُنسب 4.0 (CC BY 4.0) (International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

تناول هذا البحث نشر لقالب ختم فريد للإله "بس" محفوظ في المتحف المصري، كما وضع وظيفة القالب ومغزى الإله "بس" عليه.

- Abd-El Rahman, E.G.A., *Magical bricks in ancient Egypt, (Study in Funerary rituals through the Book of the Dead)*, Degree of Ph.D in Arts from Department of History and Archaeology, Benha University - Faculty of Arts Department of History and Archaeology Division of Ancient History, 2016.

تناولت هذه الدراسة قوالب الآجر السحرية في مصر القديمة لا سيما دورها الجنائزي الذي وضع في كتاب الموتى.

تحاول الدراسة الراهنة "قوالب اللبن السحرية في مصر القديمة" إلقاء الضوء على قوالب الآجر السحرية، توضيح وظيفتها والغرض منها وأهميتها سواء الدينية أو الجنائزية، وأهم الرموز والمعبودات التي ظهرت على هذه القوالب السحرية. وقبل الدخول في التعريف بقوالب الآجر الطينية، لا بد أن يتم إلقاء الضوء أولاً على أهمية الطين في مصر القديمة.

أولاً: الطين بين الأهمية الدينية والجنائزية

لعب الطين دوراً محورياً وأساسياً في حياة المصريين القدماء وحضارتهم نظراً لتوفر طمي النيل بشتى جوانبها، فاستخدموه في مجموعة واسعة من المجالات سواء في الحياة اليومية: حيث صنع منه المصري القديم أوانيه الفخارية سواء المستخدمة في الطهي أو حفظ الطعام والشراب، وفي صناعة العديد من الأدوات المنزلية، كما كان للطين دور مهم في الاقتصاد والزراعة حيث أقيمت به صوامع الغلال مما ساهم في استقرار المجتمع وضمان الأمن الغذائي، وعلى صعيد الفن والتراث فقد صنعت الدمى والتماثيل الفنية في بداية الأمر من الطين، مما يعكس ثقافة المصريين القدماء وتطور حرفهم.

وفي مجال البناء والعمارة كان يتم تصنيع قوالب الطوب اللبن، والتي كانت عبارة عن طين (ممزوجاً بالقش أو التبن)، وكان هو المادة الأساسية

كان للطين أهميه كبرى في مصر القديمة، فهو مصدر الخصوبة وينبوعها، فمنه بدأت الحياة، ومنه خُلِق الإنسان، وما بين التوظيف الفعلي للطين، والدلالة العقائدية له تأكدت أهميته، إذ وضع الدور الديني والديني والجنائزي للطين في مصر القديمة منذ عصور ما قبل التاريخ، فقد شيد المصري القديم من الطين منشآته الدنيوية، وصنع منه أوانيه الفخارية، وكان للطين أيضاً خصائصه العلاجية التي جعلت المصري القديم يستخدمه أحياناً ضمن الوصفات العلاجية لبعض الجروح أو لجبر كسور العظام كضمادات طبيعية، ومن ثم فلم يكن الطين بالنسبة للمصريين القدماء مجرد مادة خام للاستخدام الديني، وإنما كان له أيضاً دلالة رمزية وضحت في جوانب عدة.

تركز الدراسة الحالية على قوالب الطوب اللبن السحرية، والتي كان لها رمزيتها الدينية والجنائزية في الحضارة المصرية القديمة، ومن الجدير بالذكر أنه كان هناك عدة أنواع من القوالب الطينية، مثل القوالب الأوزيرية وقوالب ايونو وإرتباطها بالمعبود أوزير، وقوالب الولادة والقوالب السحرية والقوالب الجنائزية والقوالب المختومة.

الدراسات السابقة:

- أحمد صلاح محمد الشاذلي بكر، القوالب ذات الرمزية الدينية في مصر القديمة، "دراسة أثرية حضارية"، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة المنيا، ٢٠١٨.

تناولت هذه الدراسة قوالب الطوب اللبن التي كانت لها رمزية دينية في الحضارة المصرية القديمة، وعالجت عدة أنواع من القوالب مثل القوالب الأوزيرية، وقوالب ايونو وإرتباطها بالمعبود أوزير، وقوالب الولادة، والقوالب السحرية، والقوالب الجنائزية، والقوالب المختومة.

- رانيا سمير زيدان؛ سهام دياب المصري، نشر ودراسة قالب ختم فريد للإله بس بالمتحف المصري، أوراق كلاسيكية، ج ٢٠، ع ٢٠٢٣، ص ٣٢٧-٣٦١.

ولقد كان لقوالب الطوب اللبن في مصر القديمة أهمية دينية ودينية كبرى وضحت بشدة في جوانب عدة، فقد ارتبطت قوالب الطوب اللبن بالولادة، إذ كانت المرأة في مصر القديمة تضع مولودها في وضع القرفصاء على زوج من قوالب الطوب، والمعروفة باسم كرسى الولادة، وكانت مسخنت إحدى الألهات المرتبطات بالولادة، وذلك لإبراز دورها كقالب طوب أستخدم لتقف عليه السيدة الحامل أثناء عملية الميلاد، ثم دورها كمكان أو موضع للميلاد نفسه ثم دورها كمكان لراحة الإلهة، ثم إبراز دور المعبودة كربة للميلاد وكربة لتحديد المصير والقدر بالإضافة لدورها في إعادة الميلاد في العالم الآخر والذي يُعدّ من أهم أدوارها في الديانة المصرية القديمة^(٢).

ولقد صورت "مسخنت" في بعض الأحيان على شكل قالب من الطوب اللبن مع رأس سيدة ترتدي غطاء للرأس (شكل: ١-٢)، وقد وضع تمثيل الإلهة مسخنت مجسمة على شكل قالب من الآجر، في الفصل ١٢٥ من كتاب الموتى-المتحف المصري بتورينو (a)، ومن بردية أني في المتحف البريطاني (b)^(٣). (شكل: ٢) عُرِف الفصل ١٢٥ من كتاب الموتى باسم "تعويذة الاعتراف السلبي" أو "محاكمة القلب"، وهو أحد أشهر فصول كتاب الموتى، ويتناول محاكمة المتوفى في العالم الآخر، حيث يتم وزن قلب المتوفى أمام الإله أوزير واثنين وأربعين من القضاة مقابل "ريشة الحقيقة"، ويقدم المتوفى قائمة اعترافات بأنه لم يرتكب خطايا محددة (الاعتراف السلبي) ليثبت استحقاقه للحياة الأبدية، وهو مشهد يمثل محكمة العدل الإلهية لتقييم حياة الشخص.

٢/١- الإله بس

كان الإله بس (Bes) إلهاً مصرياً قديماً شهيراً بالحماية والفرح والمرح، يصور كقزم ذي ملامح جريئة ومخيفة لطرد الأشرار، خاصة أثناء الولادة ولحماية الأطفال والنساء، وكان يمثل أيضاً إلهاً للتجميل والموسيقى، يظهر بس بشكل قزم منتفخ، ذي وجه عابس وذيل شبيه بالأسد، ويُعثر على تماثيله في المنازل والمقابر

لصناعة الطوب اللبن، وقد استخدم على نطاق واسع في بناء المنازل العادية والقصور والأسوار وغيرها من المنشآت المدنية، ولقد تميزت هذه المباني بخصائص عزل ممتازة، مما جعلها باردة في الصيف ودافئة في الشتاء، وقد استخدم الطين أيضاً كمادة لاصقة وعازلة في بناء الأسقف المصنوعة من جذوع النخيل والجريد. كما لعب الطين دوراً مهماً من الناحية الجنائزية بدءاً من عصر ما قبل وبداية الأسرات، حيث كان يتم صب الطين داخل المقابر بعد اتمام عملية الدفن، مروراً باستخدامه بعد ذلك في عصر الدولة القديمة في صناعة الأواني الفخارية الكانوبية - جنباً إلى جنب مع الأحجار في بعض الأحيان- لحفظ الأحشاء خلال عملية التحنيط، وفي صناعة الصواني الطينية التي كانت تستخدم أيضاً في مهام وطقوس التحنيط، كما استخدم الطين في صناعة الأواني المقدسة لحفظ الزيوت، وفي نحت التماثيل النذرية التي كانت تُقدم للإلهة داخل المعابد لا سيما في عصر بداية الأسرات، وقد وضع ارتباط الطين بالمعتقدات الدينية والحياة الآخرة أكثر فأكثر من خلال استخدام قوالب الطين السحرية، التي ارتبطت ببعض الآلهة والمعبودات في مصر القديمة، وعلى رأسها المعبودة "مسخنت"، والمعبود "أوزير" والإله "بس".



١/١- المعبودة "مسخنت"

كانت مسخنت واحدة من المعبودات المعنية بالحمل والولادة في مصر القديمة، كانت المرأة في مصر القديمة تضع مولودها في وضع القرفصاء على زوج من قوالب الطوب، والمعروفة باسم كرسى الولادة، وكانت مسخنت الإلهة المرتبطة بهذا الشكل من الولادة، ونتيجة لذلك كانت تصور في بعض الأحيان على شكل قالب من الطوب اللبن مع رأس امرأة، ورافقتها في تلك المهمة كلا من: المعبودة تاورت، المعبود بس، المعبود مين، المعبودة حقات، المعبودة نخبت، المعبودة حتحور، المعبودة إيسة، المعبود خنوم، المعبودة نبت -حت، المعبودة رننوت، المعبودة سرقت، المعبودة تحو^(١).

الشر، وتظهر صورته على الأدوات المنزلية مثل المرايا وأواني الزينة وجرار النبيذ^(١٠).

(٢/١) ١-تميمة الإله "بس":

ظهرت أشكال الإله "بس" كتمايم وصورت كذلك على بعض الجعارين والأختام منذ عصر الدولة الحديثة، واستخدمت التمايم بغرض درء الأرواح الشريرة والحماية من الأخطار^(١١)، وصنعت من المعادن لاسيما البرونز، والأحجار الكريمة سهلة التشكيل والزجاج، والفائس والطين والأحجار المحلية، وقد استمر ظهور تمايم الإله "بس" حتى العصرين اليوناني والروماني، واعتمدت في صناعتها على تقنية صناعة الصب في قوالب طينية من طمي النيل المحلي أو قوالب جصية؛ لإنتاج أعداد كبيرة من التمايم الصغيرة محلية الصنع^(١٢).

(٢/١) ٢-قالب ختم الإله "بس":

قبل تناول قالب ختم الإله "بس" بالشرح لابد أولاً من توضيح المقصود بقوالب الأختام؛ تعد قوالب الأختام أداة صنعت من كتلة طينية أو جصية أو حجرية، تتميز بسطح صلب محفور بنقش أو تصميم غائر، أسفل سطح القالب بحيث تطبع الصورة على مادة الختم بشكل بارز^(١٣)، بينما الزخرفة الموجودة على الختم تكون بارزة أو غائرة وتظهر على مادة الطباعة بشكل معكوس وبارز^(١٤)، ولقد استخدمت الأختام في مصر القديمة لختم الوثائق والأواني، وصُنعت من مواد متنوعة كالحجر والخشب والعاج والصلصال، وحفر عليها نقوش دينية أو أسماء وألقاب، وكانت الأختام الأسطوانية هي الأشهر في بادئ الأمر، ولكن حلت الأختام الجعراية محلها لاحقاً بسبب سهولة استخدامها، وكانت لأختام أهمية إدارية ودور مهم في الحماية وتأكيد الهوية.

أما عن تكنولوجيا قوالب صب الأختام، فكانت من أهم الطرق الفنية التي ابتكرها المصري القديم لتشكيل المنتجات الفنية مثل التمايم والتماثيل، وغيرها من المتطلبات الدينية والجنائزية، والجدير بالذكر أن المصري القديم ابتكر أنواع مختلفة من قوالب الصب مثل القالب المفتوح (المستدام)، والقالب المغلق، كما استطاع المصري القديم إنتاج الأشكال ثلاثية الأبعاد من خلال

كتمايم للحظ الجيد والحماية من الأرواح الشريرة والكوابيس.

شغل الإله "بس" مكانة هامة في مصر القديمة، وهو أحد الآلهة القزمية الذي اشتهر بمشاركته مع بعض الآلهة الأخرى في العديد من الممارسات السحرية وحماية الأحياء والأموات، وكان أيضاً من أشهر الآلهة الشعبية الحامية، وقد ظهرت شعبيته بصورة واضحة منذ عصر الدولة الحديثة، وزادت أهميته بشكل واضح في العصور المتأخرة والعصرين اليوناني والروماني^(١٥)، يتميز الإله "بس" بأنه كان يصور بشكل فريد وغريب في الفن المصري القديم، يجمع ما بين الهيئة البشرية والحيوانية في آن واحد، مرتدياً أقنعة تنكرية، وشعر مستعار أو ما يشبه الأسد، وخصائص أنثوية كالصدر المترهل، بينما يشير تصوير للإله بس يرجع إلى عصر الدولة الوسطى^(١٦)، ولقد صورته التمثيلات المبكرة لـ "Bes" على أنه رجل ذو أرجل أسد وله عرف وذيل. ومع مرور الوقت تتغير صورته، فيصبح أصغر حجماً، لكنه يحتفظ بشكل الأسد ويحمل السكاكين أو الدف^(١٧). وكان قدماء المصريين يعتقدون أن "بس" يحمي من الأرواح الشريرة التي تحاول التسلل إلى المنزل، بالإضافة إلى ذلك، كان يُعتقد أن "بس"، الحامي، كان إلهاً وقائياً للمتزوجين والنساء الحوامل^(١٨).

ولقد ظهر "بس" في عصر الدولة الحديثة نحيلاً وبأقدام قصيرة مقوسة مع لسان بارز من فمه، وتميز بطبيعته الهجينة التي تجمع بين ملامح الحيوان الأقرب إلى الأسد والقطط، ويصور أحياناً مرتدياً جلد القرد على ظهره، صنف من الآلهة الثانوية التي تدعم الآلهة الرئيسية مثل حورس وإيزيس وحتحور^(١٩) بالإضافة إلى ذلك، كان يُعتقد أنه إله الموسيقى والفرح والولادة، ولذلك كان يعتقد أن "بس" يحمي النساء والأطفال^(٢٠)، ومن الجدير بالذكر أن بعض الآلهة في مصر القديمة كان له معابد، بينما كان يُعبد البعض الآخر في المنزل، وقد تمت الإشارة إلى هذه الآلهة الأقل أحياناً باسم "الشياطين/الأرواح الشريرة/العفاريت" وتم تصويرها بمظاهر مخيفة تهدف إلى درء الأرواح الشريرة، وقد كان الإله "بس" أحد هذه الآلهة وكان محبباً للمرح ويطرد قوى

منطقة الرقبة، وعيون كبيرة وأنف أفطس وفم مفتوح وعادة يصور بلسان بارز ولكن معالم القالب غير واضحة، يرتدي تاجاً عبارة عن قاعدة مستطيلة يعلوها أربع ريشات، وظهره مستقيم وطويل وبطنه كبيرة يتوسطها تجويف صغير يمثل السرة وذراعيه طويلة مقارنة بجسده، وساقاه قصيرتان وفيهما تقوس ويستند بذراعيه على نهاية فخذه فوق الركبة مباشرة، ويلاحظ هنا أنه لم يظهر مشط القدم واكتفى الفنان بتصوير الساقين فقط، وبوضوح يتدلى ذيل بين ساقيه^(٢٠).

ولقد شاعت القوالب المصنوعة من الطين في مصر خلال العصرين اليوناني والروماني، وأغلب الأختام في مصر الرومانية لم يكن لها علاقة بالهوية، بل ارتبطت بالحماية والتأمين، وشرحت المغزى من حركة طباعة الختم على الشيء المراد ختمه وهي أنها تنقل قوة الإله السحرية عبر زخرفة الختم، إلى المادة المختومة وبالتالي تمنح طبعة الختم الحماية والقوة السحرية لصاحبها^(٢١).

ثانياً: قوالب الأجر السحرية

كان لقوالب الطين السحرية أهمية جنائزية عظيمة في مصر القديمة، حيث كانت تُستخدم لصناعة التماثيل والرموز التي تحمل أشكالاً ذات مغزى عقائدي، وكانت توضع هذه التماثيل داخل القوالب الطينية، وتوضع مع الموتى لحمايتهم من الشرور، وضمان الانتقال الآمن للعالم الآخر، وتوفير الرعاية الضرورية في الحياة الأبدية، مثل حماية الأجساد والأعضاء من التحلل، وتجسيد قوى إلهية للمساعدة، خاصة وأنها كانت تُصنع بتقنية دقيقة، وقد عُرفت هذه القوالب بـ "قوالب الطوب اللين السحرية"، وهي قوالب حرص المصري القديم على وضعها في أركان حجرة الدفن، واحدة لكل اتجاه أساسي، كعنصر من العناصر الجنائزية الهامة بالمقبرة^(٢٢)، ويُعتقد أن إرهابات ظهور قوالب اللين ذات الدلالة السحرية قد عُرفت منذ بداية عصر الأسرة السادسة على أقل تقدير، وربما كانت بداية ظهورها قد ارتبطت بإعادة الميلاد، وتم رؤيتها خلال عمليات الولادة التي وضع فيها دور الرية مسخنت التي ذكرتها بردية وست كار^(٢٣).

القالب المغلق، وكان يشكل هذا النوع من القوالب بواسطة الشمع، ويعتبر هذا النوع من القوالب غير مستدامة بعد عملية الصناعة، ولا ينتج هذا القالب أكثر من قطعة واحدة ثم يتلف نهائياً، وكان هذا النوع من القوالب مخصصاً لصب المعادن مثل صب البرونز والنحاس والفضة، ومعظم التماثيل المعدنية التي ترجع إلى مصر القديمة شكلت بهذه الطريقة، وقد استطاع المصري القديم باستخدام الطين إنتاج الكثير من الأختام والقطع الفنية^(١٥).

ولقد عثر من بين قوالب الأجر ذات الدلالة الطقسية والسحرية على قالب ختم فريد للإله "بس" محفوظ في المتحف تحت رقم 18953، وهو عبارة عن قالب ختم، وليس تميمة^(١٦) (شكل: ٤) يأخذ القالب شكلاً مستطيلاً، تتوسطه زخرفة غائرة تشغل تقريباً نصف المساحة الكلية للقالب، يصور الإله بس بهيئة قزمية وملامح أفريقية غير واضحة بشكل كاف^(١٧).

وقد عثر على نموذج آخر لقالب ختم (شكل: ٥) يصور "بس" واقفاً يرتدي تاج له قاعدة مستطيلة ومزينة بخمسة ريشات، ويضع يديه على فخذه، ويلاحظ هنا أن الإله يقف على قاعدة مستطيلة الشكل ونفذ الوجه وأطراف الساقين والقدمين بشكل أكثر آدمية عما كان يتم تصويره من قبل، بينما الوجه بملامحه المعتادة ويتدلى لسانه خارج فمه، وجاءت اللحية كثيفة وتغطي الرقبة تماماً، ويظهر تقوس في الساقين ولكن تم تنفيذها بشكل بسيط، كما راعى الفنان الصفات التشريحية للجسم الإنساني في تنفيذ جسد الإله حيث تبرز عضلات الذراع وتجويف السرة، وعموماً يتضح أن أغلب هذه القوالب تختلف عن قالب الدراسة حيث تتراوح أغلب مقاييس قوالب تماثيل بس في مدينة نقراطيس ما بين ١,٧٠ سم إلى ٣ سم، وبالطبع قوالب التماثيل تكون مجوفة^(١٨)، ومن الملاحظ أن أغلب القوالب التي صورته بالطريقة المحلية واقفاً يظهر فيها التاج مكون من خمس ريشات، كما أن أغلب هذه القوالب تعود إلى العصر البطلمي^(١٩).

وكثيراً ما ظهر الإله بس بمثل هذا الوضع الأمامي عارياً، له رأس كبيرة وجبهة عريضة وبارزة، وحواجب خطية تأخذ شكل نصف دائرة، وأذن دائرية ولحية تغطي

أما في الاتجاه الشرقي كانت توضع في قالب الطوب تميمة للإله أنوبيس الراقد^(٢٩)، ولقد مثلت تميمة الإله أنوبيس في مصر القديمة رمز للحماية في العالم الآخر، وكانت غالباً ما تأخذ شكل ابن آوى وجسم رجل) أو باللون الأسود (برأس ابن آوى وجسم رجل) أو كلب، تهدف تميمة أنوبيس إلى إرشاد الأرواح وحماية المومياء والمقبرة من اللصوص، وكانت تُصنع من مواد عدة مثل الطين والخشب أو الأحجار الكريمة (مثل الأوبسيديان الأسود) وتوضع في المقابر لضمان وصول المتوفى بسلام إلى قاعة المحكمة في الحياة الآخرة.

أما اللبنة الشمالية فكانت تحتوي على تميمة لتمثال خشبي صغير يشبه الأوشابتي^(٣٠)، ولقد كانت الأوشابتي (أو التماثيل المجيبة) في مصر القديمة عبارة عن تماثيل صغيرة توضع في المقابر لتقوم بالأعمال الشاقة للمتوفى في الحياة الآخرة، كخدمة رمزية لضمان راحة صاحبها في العالم الآخر، وتُصنع من مواد مختلفة وتأخذ شكل المومياء مع أدوات العمل، وتُعرف بـ "المجيبة" لأنها تستجيب لنداء المتوفى للقيام بالمهام، ووصل عددها لـ ٢٦٥ تماثلاً (بعد أيام السنة) في الدولة الحديثة.

أما قالب الآجر الموجود في الاتجاه الجنوبي فكان يشتمل على تميمة بشكل إناء بداخله فتيل، وهو ربما شعلة أو لهب من نوع ما، ربما كانت الشعلة بغرض إضاءة ظلمة العالم الآخر، إذ كانت طقسة إشعال الشعلة من أهم الطقوس التي تقام بالمعبد فكانت تقام بصفة خاصة في قدس الأقداس وذلك لإضاءة المكان المظلم، وكانت الشعلة تشعل من نار المبخرة التي يحملها الكاهن وترجع هذه الطقسة إلى عصر الدولة القديمة، ومن ثم يتبين أن قوالب الآجر السحرية بما تحويه من تمائم ما هي إلا نوع من التجهيزات الجنائزية ذات المغزى السحري العقائدي^(٣١). (شكل ٦)

ولقد تم العثور على قوالب الآجر السحرية أيضاً في كلا من مقبرة الملك تحتمس الرابع، وأمنحتب الثالث، وأمنحتب الرابع/ اخناتون، وتوت عنخ آمون، وآي، وحورمحب، ورمسيس الأول وسيتي الأول ورمسيس الثاني وكذلك مقبرة الملكة نفرتاري^(٣٢).

ومن الجدير بالذكر أن قوالب الطوب السحرية كان يغلب عليها اللون الكهرماني الممزوج بالطين، ويبدو أنه

عُرف هذا النوع من القوالب الطينية خلال عصر الدولة الحديثة باسم القوالب السحرية التي استمرت حتى نهاية العصر المتأخر^(٣٤)؛ وقد ظهرت هذه القوالب في عهد الملك تحتمس الثالث وآخر مثال تم العثور عليه حتى الآن يرجع للعام الخامس عشر من حكم الملك نخت نبف (نختنبو الأول) من الأسرة الثلاثين^(٣٥).

ومن الجدير بالذكر أن هذه القوالب الجنائزية كانت تُختم بنفس الأختام الموجودة على الأقماع الجنائزية التي توضح النقوش المدونة عليها أنها استُخدمت في العمارة الجنائزية، فمن المحتمل أن وظيفة القوالب الجنائزية هي نفس وظيفة الأقماع الجنائزية^(٣٦) أو (المخاريط الجنائزية الطينية)، والتي كانت توضع في مدخل المقبرة، خاصة خلال عصر الدولة الحديثة، وهي تحمل اسم المتوفى ولقبه، وتُعتقد أنها كانت تُستخدم كرموز معمارية، أو طراز يميز المقبرة، وكان لها دلالة روحية للمتوفى في عبور العالم الآخر.

وكانت قوالب الطين السحرية تنقش بنصوص سحرية بالهيراظيقية بالتعويذة رقم ١٥١ من كتاب الموتى، وهي نص جنائزي مهم يهدف إلى توفير الحماية للمتوفى، ومساعدته في رحلته عبر العالم الآخر، وقد اشتهرت هذه التعويذة بشكل خاص كون أجزاء منها منقوشة على القناع الذهبي للملك توت عنخ آمون لحمايته في رحلته إلى العالم الآخر، وعادة ما كان يتم تثبيتها في فجوات منحوتة "كوة" أو "مشكاة" في جدران حجرة الدفن^(٣٧)، وتم تزويد كل لبنة منها بفتحة لتناسب وضع تميمة، ففي الاتجاه الغربي كانت توضع تميمة الـ "جد"^(٣٨)، ولقد عبرت تميمة "الجد" (dd) "في مصر القديمة عن رمزاً هيروغليفيًا للثبات، الدوام، والاستقرار، وتُصور على هيئة عمود بأشرطة عرضية، وتُعتبر العمود الفقري للإله أوزير؛ استُخدمت كتميمة للأحياء والأموات للحماية وضمان البعث والخلود، حيث كانت توضع مع المومياء لضمان استعادة عمودها الفقري وقدرتها على النهوض في العالم الآخر، وارتبطت بالخصوبة، الطاقة، والطقوس الزراعية، خاصة طقس "رفع عمود الجد" الذي احتفل به الفرعون للتأكيد على استقرار الملكية وتجديد الحياة، وكانت عادة تصنع من القيشاني الأزرق أو الذهبي.

وقد نقش عليهما التعويذة رقم ١٥١ من كتاب الموتى، يحتفظ القالب رقم OIM 6330 بعدد من الفجوات وأجزاء من الطين حيث كانت تميمة ابن آوى "أنوبيس راقداً" قد وضحت في القالب، أما القالب رقم OIM 6401 فقد وضحت عليه فجوة للاحتفاظ بتميمة عمود الـ "جد" وهو مفقود الآن. (شكل: ٧)

ثالثاً: الطين في مصر بين الماضي والحاضر

١/٣-الطين من المنظور الحالي

يمثل الطين من منظور المصري الحالي تراثاً حضارياً عريقاً، فهو "مادة البناء الأساسية" (الطوب اللبن) ومادة خام في العديد من الحرف والفنون (الفخار والخزف، بينما في الفلسفة المعاصرة يرمز للطبيعة الأم والعلاج، مما يجمع بين الماضي العريق والحاضر الحرفي والمستقبلي في الاستخدامات الفنية والعلاجية، إذ يعد أكل الطين ممارسة قديمة حيث كان يتم تناول الطين في بعض الأحيان كوصفة علاجية، وذلك في حالات نقص بعض العناصر الغذائي (مثل الحديد)، أو كجزء من عادات ثقافية، خاصة بين الحوامل، ويُعتقد أنه يخفف الغثيان أو يزيل السموم لكنه يحمل مخاطر صحية كبيرة بسبب المعادن الثقيلة والطفيليات.

٢/٣-الطين من المنظور الديني

يمثل الطين من منظور الدين الإسلامي أصل خلق الإنسان وتكوينه المادي، حيث خُلق منه آدم عليه السلام، وهو يرمز للطبيعة الأرضية للإنسان وتواضعه (أصل الطين) مقابل الروح الإلهية التي نفخها الله فيه، مما يخلق ازدواجية طبيعة الإنسان (الطين والروح) ويؤكد على فناء الجسد وعودته للطين والبعث، كما يشير الطين إلى قدرة الله على الخلق والتكوين من مادة بسيطة، وهو ما يظهر في قصة خلق آدم وتحدي إبليس.

وهكذا يمثل الطين الجانب الأرضي والمادي للإنسان، بينما الروح تمثل الجانب السماوي الإلهي، وهو ما يمنح الإنسان طبيعة مزدوجة (من طين ومن روح الله)، هذا التكوين يذكر الإنسان بأصله المتواضع (التراب) وقدرته على الصعود الروحي، وأيضاً بفنائه وعودته إلى التراب.

كان بقايا البخور التي أضيفت عند تحضير قوالب الطوب وفقاً للتعليمات المصاحبة للتعويذة رقم ١٥١ من كتاب الموتى^(٣٣)، وهو تعويذة هيروغليفية مقدسة، تعد جزء من مجموعة نصوص سحرية وروحية تهدف لحماية المتوفى وتوجيهه في رحلته إلى الحياة الآخرة، وقد وُجدت هذه التعويذة على قناع توت عنخ آمون لضمان عبوره الآمن، وتعتبر جزءاً من مجموعة تعاويذ أوسع موجودة على لفائف البردي.

وتُعدّ غرفة دفن الملك توت عنخ آمون هي الغرفة الوحيدة التي تم فيها اكتشاف أربعة قوالب سحرية من الطوب اللبن على حالتها الأولى دون أن يمسه أحد، عُثر عليها داخل "كوات" أو فجوات بالجدران، ومع ذلك لم يتم وضع ثلاثة منهم (على الجدران الشرقي والغربي والجنوبي) كما المعتاد وفقاً لتعليمات كتاب الموتى، وإنما وضعت جرار النبيذ الثلاثة التي عُثر عليها في حجرة دفن توت عنخ آمون والموجودة على الأرض إلى الجدران الشرقي، والغربي والجنوبي، مما خالف التوجه الجغرافي لوضعيات الطوب اللبن المعتادة فيما عدا لبنة الـ "جد" السحرية في الجنوب على وجه الخصوص والتي تشير إلى تقوية الحماية الأوزيرية للمقبرة.^(٣٤)

ولقد تشابهت هذه قوالب الطين السحرية مع قوالب الطوب اللبن التي كانت تتكأ عليها النساء أثناء الولادة، وبالتالي فإن استخدام الطوب في سياق الطقوس الجنائزية هو أمر مجازي، يُقصد من خلاله الميلاد الرمزي للمتوفى، وكأنه يوفر له وجود الأدوات والمعدات التي كانت تُستخدم في الولادة الأرضية، لضمان إعادة ميلاد المتوفى في العالم الآخر، تماماً مثل استخدام الطوب في طقوس "فتح الفم"، فسواء استُخدم الطوب اللبن في الطقوس الجنائزية أو في مراسم تأسيس المعبد، ففي كلا الدورين كان للطوب اللبن مغزى رمزي ارتبط بإعادة الميلاد والبعث والتجديد.^(٣٥)

ولم تكن قوالب الآجر السحرية حكراً على الملوك وحدهم، فقد عُثر على عدد من هذه القوالب في جبانة أبيدوس، إذ عُثر على اثنين من قوالب الطين السحرية توجدا حالياً ضمن مجموعة متحف المعهد الشرقي بشيكاغو تحت رقم OIM 6330 و OIM 6401 (2)، تم العثور عليهما في أبيدوس مرتبطتين بالمقبرة D 57

خاتمة

كانت قوالب اللبن السحرية جزءاً من ممارسات شعائرية معقدة، ولقد تنوعت هذه القوالب بين القوالب الجنائزية التي كانت تُستخدم في طقوس الدفن والمقابر، وربما كانت تحتوي على نصوص أو رموز سحرية لضمان رحلة آمنة للمتوفى إلى الحياة الآخرة، والقوالب الأوزيرية التي ارتبطت على سبيل المثال بالمعبود أوزير إله العالم الآخر، وكانت تهدف إلى توفير الحماية والدعم للمتوفى في رحلته الأبدية، أما قوالب الولادة فكانت مرتبطة بالمعتقدات والطقوس المتعلقة بالخصوبة والحماية أثناء الولادة.

وكان الهدف الأساسي من هذه "القوالب السحرية" هو توفير الحماية الروحية وتفعيل الطقوس الدينية، حيث كان يُنظر إلى الطوب اللبن نفسه كرمز للخصوبة والتجدد نظراً لمصدره الأزلي من نهر النيل الذي يمثل شريان الحياة في مصر قديماً وحديثاً.

٣/٣-أوجه التقارب بين المصري القديم والمصري الحالي في نظرتهم للطين

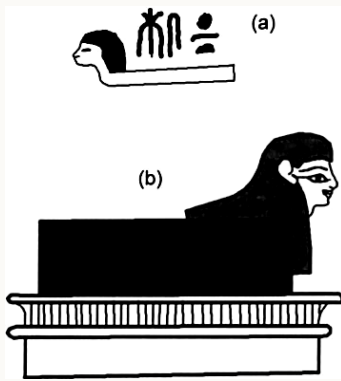
يكمن التقارب بين المصري القديم والمصري الحالي في نظرتهم لأهمية الطين في إدراكهم المشترك لقيمة هذه المادة كمصدر أساسي للحياة اليومية، سواء من خلال بناء المساكن أو صناعة الأدوات المنزلية، رغم تطور الأساليب التكنولوجية وتغير أنماط الحياة، ولقد اتجه العلم حالياً إلى استخدام الطين في العلاج الطبيعي لا سيما وأن له أثر بالغ في مداواة ومعالجة الأمراض الروماتيزمية إذ يعمل على زيادة القوة العضلية للعظام خاصة عظام القدمين والساقين، ويمتلك الطين العديد من الخصائص العلاجية للإنسان، فبالإضافة لكونه مسكن قوي للألم، فهو أيضاً يعمل على زيادة حرارة الجسم وتحسين الدورة الدموية وزيادة سرعة النبض وهذا يعمل على ترخية العضلات وبث الحيوية في الجسم، وله الكثير من الخصائص الشفائية،^(٣٦) وذلك لاحتوائه على كمية كبيرة من المضادات الحيوية التي تصلح لعلاج الجروح الخارجية، وكوقاية من بعض البوابات وكعلاج طبيعي لأمراض الجهاز العصبي وعيوب أعضاء الحركة.^(٣٧) ومن ناحية أخرى فالتراب في حد ذاته يعد نوع من أنواع التطهير، فعلى سبيل المثال يُعدّ ذلك النعل النجس بالأرض كفيل في حد ذاته بإزالة أثر النجاسة فهو طهور^(٣٨)، هذا من الجانب الديني، أما من الجانب الديني فكلاهما نظر إلى الطين كمادة للخلق، فلقد آمن المصري القديم بأن الإله "خنوم" خلق البشر من الطين على عجلة الفخار، وهو ما يؤمن به الإنسان الحالي مع فارق يقينه بأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق.

الملاحق:



شكل رقم (١)

يوضح السهم رمز المعبودة مسخنت على هيئة قالب طوب برأس آدمي. في بردية آني بالمتحف البريطاني.



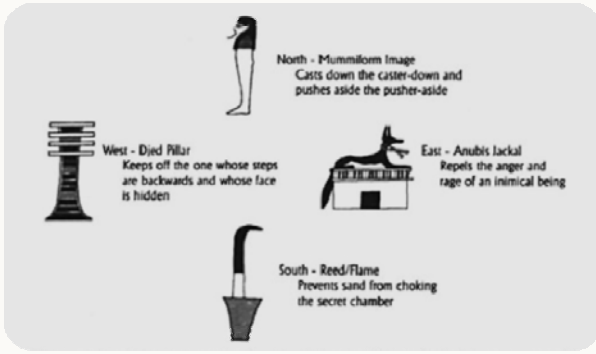
شكل رقم (٢)

رسم توضيحي للإلهة مسخنت مجسمة على شكل قالب من الآجر، الفصل ١٢٥ من كتاب الموتى-المتحف المصري بتورينو (a)، ومن بردية آني في المتحف البريطاني (b).
نقلًا عن:

Roth, A.M., & Roehrig, C, H., 2002, Fig. 4

نتائج الدراسة

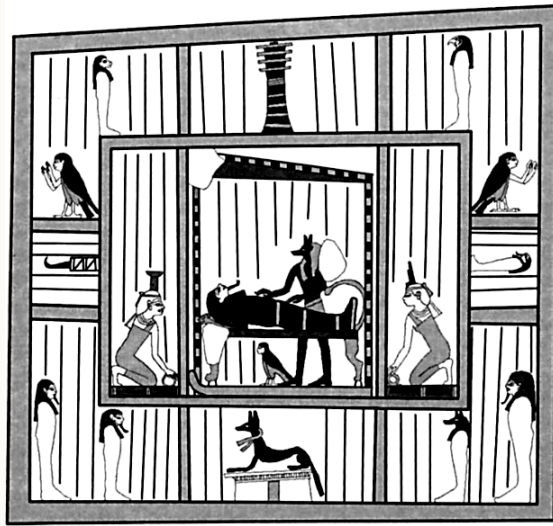
- لم يكن الدين في معزل عن الحياة في مصر القديمة، بل كان محركاً لها ومتحكماً في شتى تفاصيلها، فعبرت حياة المصري القديم عن عقيدته وفكره بكل دقة.
- ظهرت الأهمية العقائدية للطين فربطه المصري القديم بالبعث والخصوبة والتجدد والنماء والاستمرارية، وربطه كذلك ببعض الآلهة والمعبودات مثل المعبود أوزير، والمعبود خنوم والمعبودة حقات.
- اهتم المصري القديم بالعالم الآخر ولم يقل اهتمامه في ذلك عن الحياة الدنيا، وكان للطين أهميته الجنائزية فاعتبر رمز يعبر عن الحزن في حالة الوفاة، وارتبط بعادات الدفن لا سيما خلال عصر ما قبل وبداية الأسرات وصنع منه المصري القديم العديد من أنواع المتاع الجنائزي، بل وارتبط بعادات الدفن وبالتحنيط في كثير من الأحيان.
- اتخذ المصري القديم من قوالب الطوب اللين رمز للبعث والولادة، ورمز للسحر والحماية، وذلك بحسب التيممة الموجودة في قالب الآجر، أو النقش الذي يحمله، ومكان العثور عليه.
- ارتبط الطين بآلهة الحماية لا سيما المعبود "بس"، وارتبط كذلك بربات الولادة لا سيما "مسخنت" وهو ارتباط رمزي يدل على مدى قوة ملاحظة المصري القديم لحياته.
- أدرك المصري القديم أن نشأته الأولى كانت من الطين، وأن آخرته أيضاً مستقرها إليه، فاهتم بالطين وجعل له مكانة خاصة، واتخذ منه رمزاً مقدساً يجمع بين الحياة والموت.
- وهكذا لم يكن الطين مجرد مادة خام، بل كان جزءاً لا يتجزأ من نسيج حياة المصري القديم، وشاهداً على تطورهم التكنولوجي والثقافي.



شكل رقم (٦)

رسم تخطيطي يوضح وظائف الحماية المرتبطة بالطوب
السحري في الفصل ١٥١ من كتاب الموتى

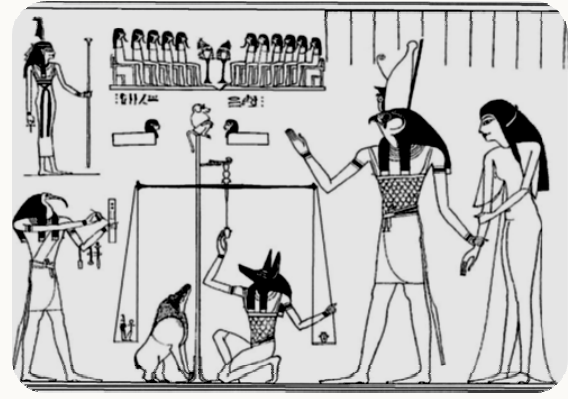
Roth, A.M., & Roehrig, C. H., 2002, Fig. 1



شكل رقم (٧)

رسم توضيحي يُصوّر الفصل ١٥١ من كتاب الموتى في
مقبرة سن نفر (96 TT)
نقلاً عن:

Roth, A.M., & Roehrig, C. H., 2002, Fig. 2



شكل رقم (٣)

اثنين من قوالب الآجر مجسمتان فوق الميزان في كتاب
الموتى، الفصل ١٢٥، من بردية آني في المتحف البريطاني
نقلاً عن:

Roth, A.M., & Roehrig, C. H., 2002, Fig. 5



شكل رقم (٤)

قالب ختم للمعبود "بس" محفوظ بالمتحف المصري
رانيا سمير زيدان؛ سهام دياب المصري، ٢٠٢٣،
صورة ١، شكل ١.



شكل رقم (٥)

قالب ختم لتميمة الإله بس، تم العثور عليه في نقراطيس،
محفوظ في المتحف البريطاني تحت رقم EA38290 رانيا
سمير زيدان؛ سهام دياب المصري، ٢٠٢٣، صورة ٥.

الإحالات المرجعية:

- (22) Virginia L. E., Mud-Brick Architecture, UCLA Encyclopedia of Egyptology, 1(1), 2011, P. 6.
- (23) Scaf, F., Magical Bricks in the Oriental Institute Museum of the University of Chicago, Studien zur Altägyptischen Kultur, Bd.38, 2009, P. 276.
- (٢٤) أحمد صلاح محمد الشاذلي بكر، **القوالب ذات الرمزية الدينية في مصر القديمة**، "دراسة أثرية حضارية"، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب، جامعة المنيا، ١٨، ٢٠١٧، ص ٦٩-١١٧.
- (25) See: Abd-El Rahman, E.G.A., Magical bricks in ancient Egypt, (Study in Funerary rituals through the Book of the Dead), Degree of Ph. D in Arts from Department of History and Archaeology, Benha University - Faculty of Arts Department of History and Archaeology Division of Ancient History, 2016.
- (٢٦) انظر: أحمد صلاح محمد الشاذلي بكر، ١٨، ٢٠١٧.
- (27) Silverman, D., Magical bricks of Hunuro. In Studies in honor of William Kelly Simpson, Vol. 2, Boston: Museum of Fine Arts, 1996, pp. 725 – 741.
- (28) Thomas, E., The four niches and amuletic figures in Theban royal tombs. Journal of the American Research Center in Egypt 3, 1964, pp. 71 - 72.
- (29) Virginia L. E., 2009, P. 6.
- (30) Virginia L. E., 2009, P. 6.
- (31) Virginia L. E., 2009, P. 6.
- (32) Silverman, D., Magical bricks of Hunuro. In Studies in honor of William Kelly Simpson, Vol. 2, Boston: Museum of Fine Arts, 1996, pp. 725 – 733; Roth, A.M., & Roehrig, C, H., Magical Bricks and the Bricks of Birth, The Journal of Egyptian Archaeology, Vol.88, 2002, P. 121.
- (33) Scaf, F., 2009, P. 278.
- (34) Jané, M.R.G., About the Orientation of the Magical Bricks in Tutankhamun's Burial Chamber, Journal of the American Research Center in Egypt, Vol.48, 2012, PP. 111-118.
- (35) Roth, A.M., & Roehrig, C, H., Magical Bricks and the Bricks of Birth, The Journal of Egyptian Archaeology, Vol.88, 2002, P. 121.
- (٣٦) عمر حسن على أبو غلبة، **أثر العلاج الطيني بعد عملية التنظير للغضروف الأنسى في مفصل الركبة**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية الرياضية، جامعة اليرموك، ٨، ٢٠١٨، ص ٣٨.
- (٣٧) أروى عبد الرحمن أحمد، **إعجاز الشفاء في الريق والتراب الإعجاز العلمي**، الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، العدد ٤٩، ١٥، ٢٠١٥، ص ٤٧، ٥٠.
- (٣٨) رطب عبد المنعم باظقة، **"التطهر في مصر القديمة: أصل فكرته المقدسة"**، دراسات في الوطن العربي، المجلد ١٩، العدد ١٩، ١٦، ٢٠١٢، ص ١٣.
- (١) للمزيد: حنان نصار سيد محمد، **الولادة في مصر القديمة من بداية عصر الأسرات حتى نهاية عصر الدولة الحديثة**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية البنات للآداب والعلوم والتربية، قسم التاريخ، جامعة عين شمس، ٢٠٢١.
- (٢) أحمد محمد أمين سليم، **المعبودة "مسخت" في مصر القديمة**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة المنصورة، ١٣، ٢٠١٨، ص ٣٨-٤١.
- (3) Roth, A.M., & Roehrig, C, H., Magical Bricks and the Bricks of Birth, The Journal of Egyptian Archaeology, Vol.88, 2002, pp. 136-137.
- (٤) عزة فاروق السيد، **الإله بس ودوره في الديانة المصرية**، القاهرة، ط ١، ١٣، ٢٠١٤، ص ١٤-١٣.
- (5) عزة فاروق السيد، ١٣، ٢٠١٦، ص ٢٥.
- (6) Romano, J.F., The Bes-image in Pharaonic Egypt, (Volumes I and II), Thesis (Ph.D.), New York University, Graduate School of Arts and Science, 1989.
- (7) Kaiser, K.R., Water, Milk, Beer, and Wine for the living and dead: Egyptian and syro-Palestinian Bes-vessels from the New Kingdom through the Graeco-Roman Period, PhD Thesis, University of California, 2003.
- (٨) رانيا سمير زيدان، **سهام دياب المصري، نشر ودراسة قالب ختم فريد للإله بس بالمتحف المصري**، أوراق كلاسيكية، ج ٢٠، ع ٢٣، ٢٠٢٣، ص ٣٢٩.
- (9) Malaise, M., Bes, The Oxford Encyclopedia of Ancient Egypt, Vol. 1, Oxford University Press, 2001, 179-180.
- (١٠) محمد البيومي محمد البيومي، نماذج لأواني بس المكتشفة والمصورة خلال الدولة الحديثة، مجلة الإتحاد العام للآثارين العرب، ج ٢٣، ع ١، ٢٠٢٢، ص ٢٠٧-٢٣٩.
- عزة فاروق السيد، ١٣، ٢٠١٦، ص ٨٧-٨٨.
- (12) رانيا سمير زيدان، **سهام دياب المصري**، ٢٣، ٢٠٢٣، ص ٣٣٨.
- (13) Siron, N., 2015, "Girl with a Heron: Gender and the Erotic in Greek Iconography (Sixth- Fourth Centuries BCE)", Open edition Journal, Online, vol. 42, PP. 213-239: 214.
- (١٤) رانيا سمير زيدان، **سهام دياب المصري**، ٢٣، ٢٠٢٣، ص ٣٣٩.
- (١٥) سليمان الحويلي، محمد عبد احميد سليمان، **قوالب الصب المفتوح في مصر القديمة**، مجلة بحوث كلية الآداب، مج ٢٩، ع ١١٥، ١٨، ٢٠١٨، ص ١١-١٠.
- (١٦) رانيا سمير زيدان، **سهام دياب المصري**، ٢٣، ٢٠٢٣، ص ٣٢٧-٣٢٨.
- (١٧) رانيا سمير زيدان، **سهام دياب المصري**، ٢٣، ٢٠٢٣، ص ٣٢٩.
- (١٨) رانيا سمير زيدان، **سهام دياب المصري**، ٢٣، ٢٠٢٣، ص ٣٢٨-٣٢٩.
- (19) Masson, A., 2018, Scarabs, Scaraboids and Amulets: Naukratis: Greeks in Egypt, the British Museum, p.11.
- عزة فاروق السيد، ١٣، ٢٠١٦، ص ٢٥-٢٦.
- (20) رانيا سمير زيدان، **سهام دياب المصري**، ٢٣، ٢٠٢٣، ص ٣٣٩-٣٤٠.

تاريخ العمارة الطينية بتافيلالت ودورها في تعزيز المسارات السياحية

خليفة بوطيب

باحث في سلك الدكتوراه

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة سيدي محمد بن عبد الله - المملكة المغربية



أ.د. الحاج موسى عوني

أستاذ التعليم العالي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة سيدي محمد بن عبد الله - المملكة المغربية



ملخص

لا يمكن الحديث عن العمارة الطينية بمحال تافيلالت، دون الحديث عن أدوارها التاريخية، في الاستقرار البشري في هذا المجال من الجنوب الشرقي للمغرب، الذي يمتاز بقساوة ظروفه الطبيعية صيفاً وشتاءً، حيث اهتدى الإنسان عبر كل المراحل التاريخية، إلى جعل الطبيعة مصدراً لمختلف المواد الأولية، قصد إقامة مختلف أشكال المعمار الطيني؛ مثل القصور والقصب، مما سهل على الإنسان في تلك المجالات التي يغلب عليها الطابع الواحي، أن يتأقلم مع تلك الظروف ويتكيف معها، ونظراً لتلك الأدوار التي لعبتها العمارة الطينية، أصبح لزاماً على الأشخاص والمؤسسات إيلاءها ما تستحقه من اهتمام، سواء عبر ترميمها وتثمينها أو توظيفها، خدمة لكل تنمية محلية عبر تعزيز المسارات التنموية خصوصاً السياحية منها بالجنوب الشرقي، حتى تكون جزءاً من التنمية البشرية المأمولة، رغبة في مزيد من دعم الإنسان الواحي اقتصادياً، وجعله أكثر ارتباطاً بعمارته الطينية معتزاً بها، دون نسيان ضرورة النهل من كل الأبحاث والتجارب العالمية، التي ترنو إلى إدماج البناء الطيني داخل المنشآت العصرية، قصد الاستفادة من مزاياه في مواجهة التقلبات المناخية والمناخية.

كلمات مفتاحية:

العمارة الطينية؛ تافيلالت؛ التراث؛ السياحة؛ تاريخ العمارة

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٨ أكتوبر ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢٢ نوفمبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.433864.1300

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الحاج موسى عوني، خليفة بوطيب، "تاريخ العمارة الطينية بتافيلالت ودورها في تعزيز المسارات السياحية". - جورية كان التاريخية. - السنة التاسعة عشرة - العدد السادس والسبعون: فبراير ٢٠٢٦. ص ٢٥ - ٣٨.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: b.filali2@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

يُنشر هذا المقال في جُورِيَّة كَان 4.0 Attribution International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

الظروف الطبيعية وسمّة الهجرة والانتقال التي كانت واحة تافيلالت وجهتها، مما خلف فسيفساء معمارية انطلقت من مواد أولية كان الطين والماء أساسها. فما هو تاريخ العمارة الطينية بتافيلالت؟ وماهي الأدوار التي لعبتها على مر العصور؟ وماهي التحولات التي شهدتها المجتمع الواحي خلال العقود الأخيرة والتي ساهمت في تراجع العمارة الطينية وتدهورها؟ وكيف السبيل لحمايتها واستغلالها في التنمية المحلية كإحدى المسارات السياحية بالمنطقة؟

أولاً: تاريخ العمارة الطينية بتافيلالت

إن الحديث عن تاريخ العمارة الطينية بتافيلالت، هو حديث عن تراكم حضاري بكل سماته الثقافية والاجتماعية والدينية، إذ العمارة عبر كل الأزمنة ما هي إلا انعكاس لحضارات الأمم بخصائصها وأبعادها المختلفة، التي تتغير مع تغير الزمان والمكان، الأمر الذي يؤدي إلى اختلاف في أنماط البناء والعمارة من منطقة إلى أخرى في كل عناصرها المعمارية. هذا الاختلاف الذي يرجع إلى أسباب ومؤثرات طبيعية وثقافية^(١). والعمارة الطينية بتافيلالت لم تخرج عن هذه القاعدة؛ إذ لا يمكن الحديث عن تاريخها بمعزل عن التأثيرات التي شهدتها المجال، نتيجة هجرات وتقلات بشرية متنوعة، استقطبتها المنطقة عبر فترات تاريخية، نتيجة احتضانها لمراكز تجارية هامة على طول الطرق التجارية الممتدة نحو السودان الغربي، والتي كانت تمر عبرها مختلف السلع والمنتجات والمعادن النفيسة، هذا بالإضافة إلى وجود مجاري مائية رغم قلتها، أسهمت بدورها في الاستيطان البشري العريق كزيز وغريس وكير.

كل هذا وذاك إذن، أدى إلى تلاقي حضاري، أثر إيجاباً على نمط العمارة الطينية سواء بتافيلالت وغيرها، فكان التنوع في الأصل والانتماء الجغرافي، سبباً في نقل أسلوب العيش والبناء من مناطق الاستقرار الأول، فامتزج الأسلوب المعماري والفني الذي حمله الوافدون على المجال الواحي، مع المعارف والتقنيات المحلية ليعطي طابعاً مميزاً وخاصاً. العنصر المحلي هذا، والذي رجع بنا أحد الباحثين الفرنسيين، إلى زمن

يعتبر الاهتمام بمواضيع العمارة الطينية، وجعلها في صلب كل نقاش أكاديمي أو تنموي، حجر الزاوية في سيرورة الاهتمام بالذاكرة الواحية، التي اختزنت على مر التاريخ مجموعة من القيم والأحداث، انطلاقاً من كون واحات الجنوب الشرقي المغربي، كانت مسرحاً لبلورة أحداث كبرى عبر مختلف العصور التاريخية، وأسهمت في تشكيل تاريخ المغرب انطلاقاً من احتضانها للطرق التجارية الأساسية التي تُعدّ الشريان الاقتصادي الأهم، الذي عبره كانت تنشط مختلف المبادلات التجارية، التي تنافست الأسر الحاكمة من أجل السيطرة عليها، وبالتالي كانت كل الأضواء موجهة للمجالات الواحية المحتضنة لهاته الشرايين الاقتصادية، عبر توفير كل سبل الاستقرار والأمن والسلم، سواء من طرف القوى السياسية، أو من يدور في فلكها من الأمراء أو من ينوب عن السلطان القائم. إن هذه العناصر والمميزات أسهمت أيضاً في تشجيع التقلات والهجرات القبلية والبشرية من وإلى تلك المناطق الواحية، وعليه شكلت فضاء للاستقرار عبر التاريخ والذي ارتبط أساساً بمؤسسة القصر والقصب، إذ احتضنت هذه الأخيرة فضاءات عمرانية ومعمارية تفاعلت إيجاباً مع معطيات المجال الواحي، المتسم بسيادة النموذج القبلي الذي يشير إلى كل ما هو "جمعي" تكافلي من جهة، ومن جهة ثانية، وإلى سيادة الظروف المناخية القاسية التي فرضت انتشار البناء الطيني بالمجال الواحي، وهو طراز من البنين الذي ساعد دون شك الإنسان هناك على البقاء والاستمرار لتفاعله مع قساوة الطبيعة صيفا وشتاء، انطلاقاً من أن "الإنسان لما جلب عليه من الفكر في عواقب أحواله، لابد أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى والحر والبرد، كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها"^(١).

تعتبر واحة تافيلالت، نموذجاً حياً لمنطقة عرفت انتشار القصور والقصب، التي كانت انعكاساً حياً لارتباط ساكنتها بالأرض، لهذا أبدع في إنجاز صنوف من العمارة الطينية، اعتبرت حسب الباحثين في هذا المجال، نتاجاً لتلاقح ثقافات وأعراف وقيم، أملت

إلا بطاقة صغيرة لا تسع اندفاع الشخص نحو الخارج، وتسمح في نفس الوقت بإنارة السلالم والسقيفة (السقيفة)، كما أن السطح يعتبر الملاذ الرئيس لاتصال المرأة بجاراتها مادام أن منازل القصور متلاصقة الجدران^(٩)، وعلى مستوى آخر، يمكننا القول إن الطين والتراب في هذه العمارة الواحية، تحول إلى مادة جمعت بين الطبيعة والثقافة، استطاع من خلالها البناؤون التعبير عن منظور محلي في الهندسة، عبرت عنه الفراغات والأحجام والأبعاد والمقاييس، برؤية جمالية يتصاهر فيها المجال بوظيفة الأعراف، فتحوّلت بساطة التراب وسهولة استخدامه إلى قيم معمارية ذات دلالات حضارية مباشرة ورمزية.^(١٠)

وخلال القرن الثاني الهجري، سيشهد مجال تافيلالت إقامة أحد أهم المراكز السياسية والتجارية بالغرب الإسلامي- بعد مدينة القيروان بإفريقية (تونس حالياً)- وهي سجلماسة العامرة، وستعرف المدينة تطوراً كبيراً حيث ستشكل نموذجاً فريداً للتعاظم بين العمارة الطينية والبيئة المحلية بتافيلالت، ومن المعلوم أن هذه المدينة أنشئت - حسب أغلب الروايات التاريخية- سنة أربعين ومائة، وبعمارتها خلت مدينة تدعى..ومدينة سجلماسة سهلية أرضها سبخة، حولها أرياض كثيرة، وفيها دور رفيعة... وسورها أسفله مبني بالحجارة وأعلاه بالطوب، بناه اليسع أبو منصور بن أبي القاسم سنة تسع وتسعين ومائة... وقسمها على القبائل على ماهي عليه اليوم ٥ ١١٥ م)... وجامعها متقن البناء بناه اليسع فأجاده^(١١).

وأضحت المدينة نقطة استقطاب لمختلف الفئات والمجموعات البشرية، حتى أصبح المجتمع السجلماسي فسيفساء اجتماعية مختلفة المشارب، أثر بدوره إيجاباً على أشكال البناء فيها والتي عرفت المزاجية والتداخل بين الطابع الصحراوي المحلي، المعتمد على الطوب واللبن، وكذا مختلف التأثيرات الفنية الأخرى الوافدة من المشرق والأندلس والسودان^(١٢)، وهو ما ساهم في نمو المدينة وتزايد إشعاعها مع مرور الزمن بفضل أدوارها التجارية والسياسية وكذا العلمية^(١٣). وعلى مستوى آخر، لا يكتمل الحديث عن سجلماسة دون ذكر القصور التي ارتبطت بها سياسياً وتجارياً واجتماعياً، ولعل

التوسع الروماني ليشير إلى أن الحضور اليهودي بالمناطق الجنوبية للمغرب، يعود للفترة التي احتكت فيها القبائل الأمازيغية بهذه المجالات، بعد أن فرت من المناطق التي يسيطر عليها الاحتلال الروماني^(١٤)، وقد ذكرت مصادر تاريخية حملة القائد الروماني ستيوس بلينوس الذي تجاوز بجيوشه جبال الأطلس، حتى وصل وادي كير سنة ٤١م، هادفاً من حملته هذه إلى مطاردة قبائل الرحل التي كانت تشن غاراتها على مناطق استقرار الرومان شمال المغرب^(١٥). وانطلاقاً من هذا لاشك أن كل هؤلاء قد ساهموا في تعمير الواحات بما فيها وادي نون ودرعة، وسجلماصة وتوات^(١٦).

ويذكر صاحب الاستبصار أن سجلماسة هاته كان موضعها سوقاً مهماً للبربر الرحل والمستقرين بتلك المجالات قبل بناء المدينة^(١٧)، وهو ما يؤكد الحضور الهام للبربر بالمجال، إلى درجة أن البعض قد أرجع ظهور نمط سكنى القصور بالمناطق الصحراوية إلى قبائل زناتة، التي أبدعت في نشر هذا النمط المعماري الطيني في أغلب الواحات الصحراوية ومنها واحات سوف ووادي ريغ ووركلة وتيدكلت وتوات^(١٨). ومن الطبيعي إذن أن يطبع الزناتيون عمارتهم، بطابعهم وقيمهم الثقافية المرتبطة بطبيعة الذهنية لدى المجتمعات الواحية، وهكذا يعتقد أحد الدارسين من خلال مقارنة سكن الزناتيين والصنهاجيين بأن سكن القبائل الزناتية يتكون من عدة طوابق، عكس المنزل الصنهاجي المكتفي بطابق أرضي، وأن هذا التباين يعكس اختلاف المجتمعين فيما يتعلق بموضوع المرأة، انطلاقاً من أن هذه الأخيرة شديدة الاحترام لدى الزناتيين، ولا يسمح لها بالاحتكاك بالخارج، ولذلك كان البناء يضمن السطح الذي يمكن النساء الزناتيات من الانفتاح على الخارج، في مقابل تساهل الصنهاجيين مع تحرك المرأة داخل محيطها... مما قلل من ضرورة منافذ عمودية في معمارهم^(١٩).

وبناءً على ما ذكر يمكن القول إن هناك تفاعل كبير بين العمارة الطينية بالمجال الواحي والأعراف والتقاليد التي تبنتها ساكنة المجال سيما الزناتيون، فالأعراف الاجتماعية تفسر كذلك وظيفة سوسيولوجيا البناء، وكمثال على هذا نجد أن إقامة النساء تكون بعيدة عن محل نزول الضيوف بالمنزل، الذي لا يفتح على الزقاق

شك أن استقبالها لموجات من الهجرات البشرية عبر مر العصور، رافقه إبداع وأصالة في نوعية العمارة الطينية، منحها خصوصية وانفراداً ناتج عن قدرتها على الصمود، قروناً طويلة أمام قساوة المناخ وتغير أحوال الإنسان.

ثانياً: العمارة الطينية بتافيلالت

(أدوارها ووظائفها)

تعددت الوظائف التاريخية للعمارة الطينية بتافيلالت بمختلف مكوناتها سواء أكانت قصوراً أو قصبات، مع العلم أن تحديد دور ووظيفة كل مكون منها مرتبط بنسبة كبيرة بأسباب بنائه أول مرة. وقصور تافيلالت كنموذج للعمارة الصحراوية، لا تخرج عن هاته القاعدة إذ أنشئت لأهداف مختلفة، فمنها ما شيد لأداء وظيفة سياسية وإدارية، ومنها ما اتخذ للوظيفة الاقتصادية والإستراتيجية، ومنها ما بني لأهداف دينية، ولذلك ارتبط تخطيط القصر بظروف نشأته^(٢٣). ويذهب أحد الدارسين إلى التعبير عن ذلك بشكل آخر باعتبار أن الجمع بين "الطبيعة" و"الثقافة" هو الذي يميز الهندسة المعمارية لقصور تافيلالت ... الشيء الذي جعل القصر يتحول إلى "عالم مصغر" تحاك فيه العلاقات على أساس القرابة الدموية، لتتحول الإقامة فيه إضافة إلى الماء والأرض، إلى مؤشر على الانتماء إلى الجماعة^(٢٤). إن القصر الفيلالي مكون رئيس للعمارة الطينية وأحد مشاهدها الأساسية ببلاد المغرب، وقد قام إذن بوظائف اجتماعية مهمة، إذ أن سكانه والمرتفقين به جبلوا منذ القدم على التعايش والتعاون في بيئة واحة تتسم بالندرة والقلّة وقساوة المحيط بكل تجلياته، فكان التكافل والتعااض سبيلاً لمواجهة ذلك.

حتى إن الطوبونيميا الفيلالية تأثرت بذلك حيث يوحي اسم قصور المعاضيد إلى هذا المعنى^(٢٥). ذلك أن اسم هذه القصور - التي توجد حالياً بالقرب من مدينة أرفود - مشتق في الغالب من التعااضد والتعاون للقيام بعمل ما أو دفع ضرر قريب، ومهما يكن فإن قصور المعاضيد جمعت في حلف واحد ثلاث قبائل تنتمي إلى عرب الصباح وهم: العبادلة والمكابر والتغيان، وجاء هذا التعااضد والتنسيق فيما بينها لمواجهة العصبية القبلية

أشهرها قصر آبار المخزن وقصر أبوعام وقصر تابوعصامت^(٢٦)، بل إن هاته القصور شكلت أحد مكونات عمران المجال الفيلالي إلى جانب مدينة سجلماصة، ومن البديهي أن العلاقات والتفاعلات بين المدينة ومحيطها كانت وثيقة سيما ما تعلق بفنون البنين والعمارة. لهذا استحققت أن توصف بكونها مدينة جليلة... ذات قصور مشيدة، وأبنية عليّة، وأبواب رفيعة^(٢٧).

وبأن الحكم المريني، عرفت المدينة ازدهاراً عمرانياً ومعمارياً واضحاً بالنظر لثقلها السياسي المتزايد وأهمية القوافل التجارية التي كانت تعبرها خلال رحلتها بين شمال المغرب وبلدان إفريقيا جنوب الصحراء. غير أن تبدل الأحوال وتراجع النفوذ المريني وما تخلله من تطور الأحداث السياسية في المجال السجلماصي، أدى إلى خراب المدينة بعد أن اندلعت ثورة عارمة في حدود العام (٧٩٦هـ / ١٣٩٣م)^(٢٨)، وقتل أهل البلاد الوالي وهدموا سور المدينة (...). وتجمع الناس فبنوا قصوراً ضخمة^(٢٩). ومن الطبيعي إذن بعد هذه الأحداث، أن تتزايد أعداد القصور لاستيعاب ساكنة المجال الفيلالي، حيث أكدت مصادر تاريخية أنها وصلت خلال القرن (١٠ - ١٦م) إلى ما يقارب ثلاثمائة قصر كبير، تتضاف إلى المداشر^(٣٠)، وهو ما يفيد بأن الأنشطة المزاولة داخل الواحة، والتي تميزت بها عبر تاريخها، ستتقل إلى القصور التي ستحتل مكانة معتبرة داخل المجال، وفي هذا الإطار نذكر قصر أولاد غانم، الذي قام بأدوار كبيرة بتافيلالت خلال نهاية العصر الوسيط^(٣١)، كما اشتهر قصر أبو عام بحركته التجارية ليس على مستوى المجال فحسب بل امتد نفوذه إلى مجالات أبعد، مما جعل البعض يلقبه بمدينة تافيلالت^(٣٢)، هذا الاسم - تافيلالت - الذي شاع استعماله مقابل اسم سجلماصة، لدرجة أصبح المصطلحان سجلماصة/ تافيلالت مشكلاً لدى الجغرافيين والإخباريين، إلى حدود أواخر النصف الثاني من القرن (١٣ هـ ١٩م).^(٣٣) والجدير بالذكر أن الرحالة الفرنسي شارل ذو فوكو، نظم رحلته قصد التعرف على المغرب ابتداء من سنة ١٨٨٣م، وأكد في شهادته ما تتميز به العمارة الطينية بقصور المنطقة من جمالية^(٣٤)، من خلال ما زاره في واحة تافيلالت، التي لا

بالمعايير، التي تتكون من ثلاثة ممرات تسهل الولوج إلى ساحة القصر^(٣٢). زيادة على هذا، فإن الفسيفساء البشرية والتنوع القبلي الذي احتضنته واحة تافيلالت، باعتبارها منطقة جذب واستقطاب تاريخي للهجرات العقلية وغيرها، لم تجد سوى القصور كبناء طيني لتجسد التلاقح والتعايش بين جميع عناصرها السكانية المختلفة، فكانت "قصور مطفرة [مدغرة] تعكس، سواء المدرسة أو الباقية، انصهار العنصر الأمازيغي والعربي، لكون المنطقة كانت توجد في المسالك التجارية نحو بلاد السودان".^(٣٣) من كل هذا يتأكد لنا أن العمارة الطينية تجسد روح الجماعة المرتكزة على ثقافة التعاون والتآزر في أرقى صورها، سواء في استدامة الملك المشترك مثل الباب الرئيس والأبراج والأسوار... أو الانضباط لروح الجماعة، في إعادة البناء والترميم أو الإصلاح، وهو ما يساعد على إعادة إنتاج القيم نفسها، المقوية لمبادئ التلاحم بين مكونات الجماعة، بالشكل الذي تتماسك به مكونات المعمار الطيني^(٣٤).

وإلى جانب وظيفته الاجتماعية قام القصر بوظيفة اقتصادية، باعتبار أن الدور الاقتصادي، كان سمة بارزة لقصور تافيلالت التي يحتضن مجالها الطرق التجارية المعروفة المارة عبر سجلماصة بالخصوص، وهو ما جعل فئات عريضة من السكان، تعتمد في أنشطتها على حركة القوافل التجارية المحملة بمختلف أنواع السلع، التي كانت تجد في أسواق المدينة^(٣٥)، وكذا مختلف القصور، مقصدا لمختلف التجار سواء أكانوا يهوداً^(٣٦)، أو غيرهم من التجار المغاربة، هذا الرواج التجاري الذي تؤكد الروايات التاريخية، استعماله لعملات نقدية قصد تسهيل المبادلات التجارية بين جميع الأطراف. وكمثال على هذا اتخاذ قصور بمجال سجلماصة لعملات من الفضة والذهب^(٣٧)، وهي الفترة التي كانت فيها تلك القصور، تتمتع بنوع من الاستقلال السياسي، حيث كان القصر تحت حكم أمير^(٣٨)، في إشارة إلى قوة النفوذ العقلي وسيطرته بمجال تافيلالت في تلك الفترة^(٣٩)، خصوصاً ما تعلق بالقصور الثلاثة المعروفة تانجيوت وتابوعصامت والمامون^(٤٠).

التي كانت منتشرة بالمنطقة^(٤١)، وهو الأمر الذي تؤكدته الوقائع والممارسات سواء داخل هذه القصور المذكورة أو غيرها من قصور الواحة، فجميع المنتمين للقصر يشاركون ويتعاضدون في حفر السواقي وإصلاحها بما هو عمل تطوعي "ينتظم في إطار ما يسمى "بالدور"، ويكاد يكون جماعياً وإجبارياً، وكذا التعاون في جني ثمر النخيل وحرث الحقول وحصاد منتوجها عبر "التوزيع". إضافة إلى "الشرط" بما هو تعاقد بين الفقيه-الإمام... وبين القبيلة التي تلتزم بتخصيص أجرة نقدية وعينية له حسب الفصول والمناسبات الدينية^(٤٢)، هذا التعاضد ومنع إلحاق الضرر بالآخر داخل القصر لا يمثل سوى نموذج من تلك القيم الاجتماعية المتوارثة والمستمدة من الشرع الإسلامي ومن الأعراف القبلية، ذلك أن العرف وجلب المصلحة ونفي الضرر بين أعضاء القبيلة هو أهم ما تقوم عليه ثقافة القصر، حيث تتعين الحقوق تبعاً لما يحكم المتجاورين من قرابة وملكية وحياسة^(٤٣).

بالإضافة إلى هذا، تعتبر ساحة القصر أو "الواسعة"، حسب التعبير المحلي، من أهم المكونات التي تجسد الوظائف الاجتماعية لقصور المجال الفيلاي. فالواسعة أو الساحة تختلف مساحتها من قصر لآخر، ويغلب على وظائفها الاستعمال الجماعي، إذ يستغلها السكان لإقامة أفراح القصر ومآثمه، كما توظف كملتقى للأطفال والشبان قبيل وبعد مغرب شمس كل يوم، للعب وتبادل الحكايات^(٤٤). ولا يتوقف دورها عند هذا الحد، بل يتجاوزها، على اعتبار أن أهميتها في بنية القصر جعلها بمثابة الفضاء المميز الذي تناقش فيه مختلف القضايا ذات الاهتمام والمصير المشترك سواء أكانت اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية في أوقات السلم والحرب، لهذا فإن ساحة القصر تشبه ساحة مجلس تتم فيه اللقاءات بين سكان دروب هذا القصر^(٤٥).

ويمكن الحديث أيضاً عن فضاء المصرية كمكون أساسي من بنية قصور تافيلالت باعتبارها مكاناً عمومياً، يجسد أدوارها الاجتماعية، فهي تتوفر على دكانات لجلوس الناس، تستغل غالباً من طرف مسني القبيلة أثناء مناقشتهم خلال فترات السلم والحرب^(٤٦). وكمثال على إحداها نذكر مصرية قصر العبادلة

للقوارض، لهذا رأى مخططو هاته المخازن بأن يطلّى جدران الأهرام بطين طيب، ويخلط به مكان تبين الشعير الكبريت أو الزرنخ أو كليهما، ويخلط في صابون أو رماد يفرك به القمح لقتل سوسه^(٤٩). كما أن المخططين والبنائين في المجالات الصحراوية - بما فيها تافيلالت- وخلال التخطيط لبناء المخازن والمطامير، كانوا يضعون صوب أعينهم معطيات المناخ، فالتزموا بعدم إضافة كوة مما يلي القبلة، مع تجنب إقامتها بجوار المطابخ ولا مرابط الدواب لحرها^(٥٠)، بالإضافة إلى اختيار باب المخزن مواجهها للغرب أو للجنوب، وكذلك يكون البيت^(٥١). ولتحقيق كل الضمانات الكفيلة بالمحافظة على الأقوات المخزنة، كان يفضل في بعض التجارب تجنب الطابق الأرضي للتخزين، فقد ذكر الوزان حين حديثه عن نخيل سجلماصة أنها تنتج تمرا غليظا من النوع الممتاز، يمكن تخزينه سبع سنوات في مستودع دون أن يفسد، والشرط هو أن يكون المستودع في الطابق الأول^(٥٢). وعليه شكل التخزين نشاطاً اقتصادياً معتبرا داخل المجال الواحي شجع مجموعة من السكان في عرض مخازنهم ومطاميرهم ومستودعاتهم لمن يرغب في كرائها، مكنهم من توفير مداخل سواء مالية أو عينية تكون غالباً من جنس المواد المخزنة^(٥٣). بل إن قبائل الرحل، بالصحراء اعتادت على اتخاذ مطامير في الفلوات، لتخزين الأقوات فيها^(٥٤).

كما أن القصر بمجال تافيلالت قام أيضاً بوظيفة أمنية ودفاعية، باعتبارها من وظائفه البارزة بالنظر لتصميمه وهيكلته العامة سيما الأسوار الطينية المحيطة به وأبراجه الضخمة وبابه الرئيس، فهذه المشاهد المعمارية كان لها ثقلها ووزنها في مجريات الأحداث التاريخية. فمن المعلوم أن أي خلل يمس الجانب الأمني والدفاعي للسكان، سيؤدي لا محالة إلى اختلال الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فكانت بالتالي هاته العمارة صمام أمان للقوافل والطرق التجارية، المارة عبر المراكز التجارية بمجال تافيلالت في اتجاه فاس ودرعة والسودان الغربي أو العكس، فكانت القوافل تجد في مختلف القصور والقصبات ملجأ آمناً. وفي هذا الإطار وغير بعيد عن موقع سجلماصة التاريخي، توجد بجبل أفيلال أطلال محصنة بأسوار

لم تقتصر الوظائف الاقتصادية للقصور على ما ذكرناه فقط، بل أسهمت بدور كبير في التخزين والحفاظ على أقوات الناس، وموادهم الغذائية التي يحتاجون إليها طوال العام، خصوصاً أن المجال الواحي معروف بالقلة، وسيادة مبدأ الكفاف والندرة وقساوة الطبيعة، والذي يستوجب اتخاذ مخازن ومطامير تتوفر فيها كل الشروط الصحية، قصد الحفاظ على ما تنتجه الواحة من الحبوب والتمور، خصوصاً أن سجلماصة اشتهرت بزراعة النخيل بكثرة^(٤١)، فقد أشارت بعض المصادر التاريخية أنها كانت تنتج ستة عشر صنفاً من التمر^(٤٢)، لدرجة أن ابن بطوطة أشار إلى أنها كثيرة التمر مثلها مثل مدينة البصرة، لكن تمر سجلماصة أطيب^(٤٣). وبالطبع، فكل هذا التميز سيكون مرتبطاً بالخبرة والدراية الكبيرة في الزراعة، والعناية بالنخيل والجني والتخزين التي يتمتع بها سكان تافيلالت^(٤٤). ومن الطبيعي أن تحتاج مثل هاته المنتوجات، لمخازن تحفظ للناس أقواتهم تحسباً لتقلبات وقساوة معطيات المجال شبه الصحراوي. ومن ثمّ تفنن سكان الواحة في تشييد أنواع من البناء الطيني من أجل تخزين أقواتهم. فأدخلوا على سبيل المثال هندسة المستودعات والمطامير ضمن مخططاتهم العمرانية، عندما اتخذوا من القصور الطينية كتجمعات سكنية، مواقع محصنة لخزن مؤنهم كأقوات تستهلك على مدار السنة، ولهذا كانوا ينظمون حراستها بالتناوب^(٤٥).

ورغبة في تعزيز أدوارها والحيلولة دون تلف المواد المخزنة في المطامير والمستودعات، وظف أهل سجلماصة تقنيات مهمة منها طلاء وتغليف جدران المخازن بالتبن، تفادياً لإصابتها بالتسوس^(٤٦)، كما لجؤوا إلى استخدام فضلات الضأن بعد تجفيفها، وإلقائها في قعر المطامير على اعتبار أنها تساعد في حفظ الحبوب من كل فساد^(٤٧)، هذا دون أن ننسى ما لعبته نسبة الملوحة التي تميز تربة سجلماصة، من دور في تشجيع التعمير البشري، وكذا صلاحية مطاميرها ومرافقها للتخزين، وحماية الأغذية من كل تعفن^(٤٨)، فنسبة الملوحة هاته تدخل ضمن شروط تعقيم المطامير والمخازن، إذ تسهم إلى جانب مواد طبيعية، في منع تعفن وفساد ما بها من قوت ومواد، خصوصاً التمر والحبوب الأكثر جلباً

شراؤها من قبل السلطان محمد بن عبد الله منتصف القرن (١٢ هـ/١٨م)، وتحولت في بداية القرن العشرين الميلادي إلى مقر سكنى عامل قصر السوق^(٦٤). بل وفي مجال قبيلة عرب الصباح زيز بتافيلالت، وبالصبط بمنطقة تيزيمي^(٦٥)، توجد كذلك، قصبة مولاي المامون ابن السلطان مولاي إسماعيل، وهي القصبة التي توجد في الجهة الجنوبية لغابة المعاضيد^(٦٦).

ومما يبرز أيضاً الدور الدفاعي والأمني للقصور والقصبات توفرها على باب رئيس ضخم ومحصن، فهو المنفذ الذي يفضي نحو بقية المرافق والبنيات الداخلية، لهذا يعتبر صمام أمان لسكانة القصبة أو القصر، بحكم أن المدخل، هو الذي يتحكم بواسطته فيمن يسمح له بالدخول إلى القصور والقصبات من عدمه حسب واقع الحال، لهذا فوظيفته الأمنية رئيسية، تتحكم فيه الجماعة عن طريق حارس من سكان القصر، ويمكن التمييز في هذا الجانب بين الأبواب البارزة والأبواب الملتصقة بالسور^(٦٧). هاته المداخل التي تعززها أبواب، تتخذ غالباً شكلاً مقوساً مزيناً بنقوش وزخارف متنوعة، تعلوها كذلك سلسلة من الأشكال المعمارية، كحالة باب قصر العبادلة بالمعاضيد^(٦٨). الذي يشبه تصميم واجهة بوابة قصر أبوعام، حيث إن كليهما محاطان ببرجين مربعين زينت أقسامهما العلوية، بنقوش هندسية طينية^(٦٩).

نستنتج إذن مما سبق، أن عناصر العمارة الطينية الدفاعية، هي أكبر دليل على خبرة الساكنة الواحية بالتقنيات والأساليب المعمارية الحربية، التي توظف في الدفاع عن القصور أثناء تعرضها لخطر ما، وتمثل ذلك في متانة الأبواب، واستخدام الحجر لبناء أساسات السور، وطريقة تصميم المدخل بكيفية تجعل الداخل يضطر للقيام بانعطافات قبل دخول أزقة القصر مباشرة^(٧٠)، كما لا يفوتنا هنا أن نشير للوظائف الدينية للعمارة الطينية والتي تمثلها المساجد والأضرحة والزوايا، حيث يتم تنظيم احتفالات الأعياد الدينية كعيد المولد النبوي الشريف، وكذا مواسم الزوايا المعروفة بمجال تافيلالت كما هو حال موسم سيدي العربي الهواري بتتجداد.

حجرية، تعود إلى فترة جد مبكرة من التاريخ الوسيط، يظهر أنها الحد الأقصى للسكن في حوض زيز في اتجاه الجنوب، كان الغرض منها آنذاك هو مراقبة القوافل المتجهة إلى بلاد السودان^(٥٥). وما يزكي هذا الطرح هو أن جبل أفيلال، يقع على الطريق التجارية الرابطة بين سجلماسة وتمبكتو^(٥٦). الشيء نفسه بالنسبة لقصور المعاضيد -المشار إليها أعلاه- فقد كانت محطة لمرور القوافل التجارية المستعملة للطريق فاس-تافيلالت، حيث كان التجار القادمون من فاس نحو قصر أبو عام وريث سجلماسة أو العكس، يستريحون تحت أسوار المعاضيد^(٥٧)، التي لم تكن سوى مرحلة من مراحل تتوقف القوافل التجارية، قبل استئناف رحلتها سواء في اتجاه شمال المغرب أو نحو أقصى جنوبه^(٥٨).

بالإضافة إلى هذا فقد عزز سكان قصور الواحة، دفاعاتهم وبناء أمنهم، عن طريق الاهتمام بسمك السور المحيط بكل قصر، هذا السمك الذي تفاوت حسب كل منطقة بتافيلالت، إذ منها ما يبلغ سمكه ما بين ١,٠٠ و ١,٥٠ متر، وعلوها ما بين ٥ و ١٠ أمتار^(٥٩)، هذه الأسوار التي تكون معززة بأبراج مربعة في جنباتها تفرضها الضرورات الأمنية في الغالب^(٦٠)، وهي الأبراج التي أوغلوا في صيانتها والمحافظة عليها، نظراً للظروف المحيطة بالواحة، خصوصاً خلال الأزمات والفتن السياسية والصراعات القبلية التي نذكر منها الصراع العطايي المعقلي الذي أدى أحياناً إلى تدخل المخزن المركزي لمنع الانفلات والسيبة^(٦١)، وهو الأمر الذي دفع السلطان مولاي إسماعيل، إلى تبني سياسة تشييد القصبات في إطار مشروع توحيد البلاد، وضبط الأمن وتسهيل حركة مرور القوافل والأشخاص، بفضل الشبكة الأمنية التي نشرها في أرجاء البلاد، والتي كان أساسها الحصون والأبراج والقلاع والقصبات، بعد فترة من التصدع السياسي والانفلات الأمني^(٦٢)، حتى قيل أن عدد هذه القصور والقصبات ناهز المائة وخمسة^(٦٣). ولجعل هذه الأخيرة أكثر تحصيناً، وقادرة على درء كل تهديد مفاجئ، فقد بنيت باتباع شروط العمارة الدفاعية، وكمثال على ذلك نذكر قصبة أولاد عبد الحليم التي بناها السلطان المريني المستقل بسجلماسة، عامي (٧٦٢ هـ و ٧٦٣ هـ / ١٣٦١ م - ١٣٦٢ م)، والتي تم

ثالثاً: البناء الطيني بين التثمين وتعزيز المسارات السياحية الواحية

اعتمد البنيان بالواحات على الطين والتراب وخشب النخيل على مر العصور والأزمنة، وهو مؤشر على كفاءة في الهندسة المعمارية، وتحكم في التقنيات والمعارف المتعلقة بطرق وأساليب البناء، ولقد شيدت القصور الفيلالية وفق المهارات والخبرات التي اكتسبها المعلمون عبر العصور وتناقلوها من جيل إلى آخر^(٧١). لهذا فلا يمكننا الحديث عن أي تثمين للعمارة الطينية، دون الحفاظ على تلك المهارات التي توارثت عبر الحقب التاريخية، فمكنت الإنسان الواحي من التأقلم مع معطيات البيئة الواحية، عبر استغلال ما هو متوفر من مواد، قصد إقامة عمارة تساعد على مواجهة القساوة والندرة، وبالتالي ساعدته على البقاء والاستمرار. فكيف السبيل إلى الحفاظ على هذا الموروث المعماري؟

إن العمارة الطينية بتافيلالت، تحمل عوامل تثمينها في ذاتها، لأن هندستها ملائمة للبيئة، باعتبار أن الطين مادة محلية المصدر، يوفر بطبيعته ظروف عيش تتكيف مع فصول السنة، خصوصاً فصلي الشتاء والصيف، كما أن استخدامه يحول دون الحاجة إلى نقل المواد المصنعة، وهو ما يعطي لتثمين هذه الهندسة المعمارية، بعدين مزدوجين: فني ووظيفي، مما دفع الباحثين إلى وصفها بألقاب تتماشى ودورها التتموي، من قبيل العمارة الخضراء والذكية والبيئية^(٧٢)، كل هاته الصفات والألقاب، لابد أن تكون قد استندت على أسس علمية، في ارتباط بالواقع الواحي المعاش، هاته الأسس والمعطيات العلمية التي لا شك، سيكون العمل على توثيقها وتنظيمها من خلال برامج ومناهج تهتم مراكز أبحاث وتطبيقات البناء بالطين، بجرّد طرق البناء التقليدية في ارتباط بدراسة أنواع التربة، مع حصر ما يصلح منها للبناء وتنويع وظائف المباني الطينية، كي تشمل الأنشطة السكنية والوظائف الثقافية والعمارة الدينية^(٧٣)، لتكون مثل هاته الخطوات، أفضل طريقة لتثمينها وحسن توظيف كل مهاراتها وتقنياتها المتوارثة. ولعل أكبر مثال لما يمكن أن تقوم به هاته المراكز العلمية في هذا الجانب، هو النهل من تجارب المركز الدولي

لأبحاث وتطبيقات البناء بالطين بغرونوبل، والاستفادة مما قام به في حصر طرائق البناء التقليدية، ودراسة مختلف أنواع التربة وتحديد ما يصلح منها للبناء، وهي الأعمال والبحوث التي استفادت منها الحكومة الفرنسية حيث قامت ببناء أحياء سكنية بالطين في إقليم دولفين^(٧٤)، بل والنهل من تجارب دولية أخرى مهتمة بالبناء الطيني سواء بالمشرق العربي أو غيرها. وما دمنا نتحدث عن مجال تافيلالت، فلا يمكننا المرور على إحدى التجارب الواعدة، التي تعود لتسعينيات القرن الماضي، وهي الفترة التي أصابت فيها عاصفة زلزالية قصر الزاوية، التابع لمنطقة أوفوس بإقليم الرشيدية، وهي العاصفة التي أدت لخسائر مادية مست بالخصوص المباني الطينية، عجلت بتدخل السلطات العمومية. وفي هذا الإطار، أكد لنا أحد سكان القصر، والذي عايش الحدث بأن السلطات قامت بإحصاء ومعاينة الدور المتضررة، فقامت بتقديم الدعم المادي واللوجستي للمتضررين، الذين استغلوا الفرصة لإدماج البناء الإسمنتي مع البناء الطيني، خلال إعادة بناء منازلهم المتضررة، انطلاقاً من رغبتهم في إقامة الطابق الأرضي من الطين، نظراً لفوائده صيفا وشتاء في مواجهة قساوة المناخ، مع دعمه بأساسات إسمنتية حديدية تمنع تكرار ما حدث، في حين أن الطابق العلوي تم بناؤه بالبناء العصري الإسمنتي^(٧٥) (انظر صورة رقم ٣).

هذا النموذج الحي، الذي رصدناه خلال زيارة ميدانية لعين المكان (ماي ٢٠٢٤) يعتبر مطلباً ملحاً مرتبطاً بإشكالية التغير المناخي وتوابعه، عمارة حديثة دامجاً لعنصر الطين في غالبية الأشكال المعمارية، عمارة تناسب عصرنا وواقعنا وحضارتنا ومجالنا بخصوصية مناخه، لأن العمارة الطينية في أصلها تحقيق للتوازن الطبيعي على كل الأصعدة، فهي انعكاس للروح والثقافة^(٧٦)، دون أن يعني هذا، الانخراط في أي سياسة عمرانية تفقد العمارة الطينية أصالتها وخصوصيتها، كجزء من ذاكرتنا الجماعية وكتراث مادي ذي حمولة تاريخية، وجبت صيانتها ضد الداء المعدي الذي يصيب المباني الطينية، بسبب رطوبة الشتاء وجفاف رياح الصيف المؤدية للتآكل والتشقق والتساقط،

في أفق دعم السياحة كوجه آخر للفندقة في صيغتها التقليدية وكسمة مميزة للاستقطاب السياحي، وداعمة للنهوض التنموي المحلي^(٧٨)، هذا النوع من المنتج السياحي، الذي يمكن إضافته، قصد تعزيز المسارات السياحية بالواحة، خصوصاً خلال إقامة المواسم السنوية، كموسم التمر بأرفود، أو موسم الخطوبة بإملشيل، وكذا فترة الاستشفاء برمال مرزوكة، ومهرجان الملحون بالريصاني، وكذا الندوات والمؤتمرات الدولية والوطنية بالمنطقة وغيرها من المناسبات، شريطة أن تتوفر في هاته الدور، شروط تستجيب لدفتر تحملات متعددة من طرف السلطة المكلفة بالسياحة. بل يمكن أن تكون تابعة لمالكها من السكان، الذين سيشفرون على جميع الخدمات المقدمة للسائح، من تغذية وإيواء وخدمة، وكل هذا بالطبع سيكون تحت متابعة من مختلف السلطات، سياحية ومحلية ومنتخبة، والتي ستتظم - وفق شروط عملية - منح رخص إقامة دور الضيافة، أو تحويل جزء من بنائهم الطيني لنفس الغرض، وهو ما سيساهم في مزيد من التعرف على التراث المحلي المعماري وتاريخه التليد. ولتعزيز هذا الاتجاه، لا بد من تشجيع تأسيس جمعيات المآوي السياحية ودور الضيافة، قصد جعلها المحاور الوحيد مع السلطات المذكورة أعلاه، أملاً في توحيد الرؤى وتجويد المنتج السياحي، وخلق تنمية محلية تعود بالنفع على السكان.

استغلال جزء من البناء الطيني كمتاحف داخل القصور والقصبات، لا يقل شأنًا عن تعزيز المسارات السياحية بتافيلالت. بالفعل، فالاطلاع على تجربة يحتضنها قصر العبادلة بالمعاضيد، يؤكد السير في هذا الاتجاه، حيث قام أحد الفنادق المشهورة والذي يدخل ضمن سلسلة فنادق "شالوكا-xaluka"، باقتناء منازل داخل قصر العبادلة، قصد تحويلها إلى متحف (دار الفنون لمعاضيد.. Arts House Maadid) وهو المتحف الذي يضم مختلف المنتوجات المحلية (انظر الصورة رقم ٤)، يقصدها زبناء الفندق المذكور من السياح الأجانب وغيرهم، وهي بدون شك فرصة كذلك، لمزيد من التعريف بتاريخ القصر وتاريخ العمارة الطينية بتافيلالت، والتي بالفعل، ستكون رافعة من رافعات التنمية ومحاربة الهشاشة والإقصاء.

عبر مخططات الترميم، التي يجب أن تستعين بخدمات المهنيين "المعلمين" من ذوي الخبرة الطينية، والذين بتغيبهم سيتم تشويه معالم البناء المرمم، ويفقده أصالته وحمولته الحضارية، بالإضافة إلى جعلهم يبحثون عن مورد رزق بديل، لتضيق بذلك ثروة بشرية من الصعب تداركها، في زمن أصبح للبناء الإسمنتي المسلح صولة وحضور.

وكل هذا يعتبر خطوة ضرورية للمحافظة على هذا التراث المادي، التي لن تكتمل إلا بإحداث مشاريع مدرة للدخل، سواء عبر التنمية السياحية، بتأهيل المساكن الطينية، وترسيخ ثقافة العمارة البيئية، وتثمين طرق استثمارها كمتاحف ودور ضيافة ومآوي، للإسهام في الحد من مختلف أشكال الهجرة، فضلاً عن استدامة العمارة التقليدية، والحفاظ على الثقافة المحلية وتنشيط الحركة الاقتصادية^(٧٩)، عن طريق استثمار التاريخ في التنمية، لتصبح الذاكرة آلية في تفعيل الموروث الثقافي المادي واللامادي، خصوصاً إذا أطر كل ذلك مؤسساتياً سواء من طرف وزارتي السياحة والثقافة، أو المؤسسات بالجهة التي تضم ذاك الموروث خصوصاً ما تعلق بالبناء الطيني، وهنا نقصد جهة درعة تافيلالت التي ستكون الأكثر تأهيلاً، لمعرفة مراكز الاهتمام وكذا الخصائص في مجال تأهيل العمارة الطينية بالمجال الفيلاي، سواء تعلق الأمر بالترميم والصيانة، أم تعلق كذلك بتوفير كل سبل دعم استقرار السكان داخلها، من خلال تزويدها بالبنى التحتية القمينة بتوفير سبل العيش الكريم. دون أن ننسى أن تفعيل وأجرأة كل ذلك، يجب أن يكون بإشراك وانخراط الفاعلين المحليين من قوى المجتمع المدني، بل وتشجيع كل المبادرات المحلية الهادفة إلى استغلال العمارة الطينية، في كل تنمية محلية شاملة، كعمارة عضوية نظيفة غير ملوثة للبيئة وسهلة الاستغلال الاقتصادي والاجتماعي، انطلاقاً من مساندتها لكل سياسة تنموية محلية أو جهوية.

ولعل نموذج "دور الضيافة" كوجه من أوجه استثمار رصيد العمارة الطينية أكبر مثال يمكن تطبيقه، بحيث ارتبط ظهور المبادرة الرسمية لمشاريع دور الضيافة سنة ١٩٩٧م بمجموع مشاريع الإنقاذ التي عرفتتها بعض المدن العتيقة، هاته الدور التي أدرجت لرد الاعتبار لهذه المدن،

بتافيلالت، ننقل تطبيقاً له على القطاع السياحي بمدينة أرفود كما يلي:

نقاط القوة strengths	نقاط الضعف weaknesses
-مؤهلات سياحية غنية ومتنوعة. -بنية سياحية مهمة. -موقع استراتيجي هام. -وفرة اليد العاملة.	-ضعف مساهمة السياحة في تنمية المنطقة. -موسمية القطاع السياحي. -المنافسة غير الشريفة بين مهنيي القطاع. -محدودية التسويق السياحي. -ضعف تكوين الفاعلين السياحيين المحليين
الفرص Opportunities	المهددات Threats
-تنوع التراث المحلي (طبيعي، تاريخي، ثقافي وفني...) -وجود استثمارات سياحية خاصة. -دعم سياسة الدولة (رؤية ٢٠٢٠) -وجود مؤسسات التكوين الفندقية ومهن السياحة. [تحويله لثانوية تأهيلية] -الإقبال الكبير على السياحة الصحراوية.	-الضغط الكبير على الموارد الطبيعية. -الموقف السلبي للسكان المحلية من القطاع السياحي. -التأثير السلبي للسياحة على الموروث الثقافي للمنطقة. -منافسة الوجهات السياحية الأخرى مثل ورزازات وزاكورة.

جدول رقم (١)

تطبيق نموذج SWOT على قطاع السياحة بأرفود^(٨٢)

يجب إذن تدعيم هاته التجارب الواعدة وتوسيعها بباقي قصور الواحة، خصوصاً تلك التي تحمل إرثاً تاريخياً، لأنها ستشجع على ترميم وإصلاح جزء من عمارتنا الطينية، حتى تصبح جزء من مؤهلات المنطقة السياحية الداعمة لمساراتها. دون نسيان ضرورة التعريف بها وإشهارها من خلال كتيبات تصدرها السلطات المكلفة بالسياحة جهوياً، تكون رهن إشارة الوكالات والفنادق السياحية، تتضمن في نفس الوقت نبذة تاريخية عن المواقع التي تحتضن مثل هاته المتاحف، دون نسيان ضرورة إخضاع المرشدين السياحيين لدورات تكوينية مستمرة، حول تاريخ المنطقة، وكذا المعالم التاريخية الطينية والمواد والتقنيات المستعملة منذ القدم في إنشائها، وكذا الوظائف التي أدتها على مر التاريخ، درءاً لكل تشويه أو تحريف يؤثر على الحقيقة التاريخية التي تحملها هاته الصناعة الطينية، التي تعتبر "أول صنائع العمران الحضري وأقدمها، وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للسكن والمأوى للأبدان في المدن"^(٧٩)، هذا دون إغفال ما تلعبه الأفلام القصيرة، من دور إشهاري لمختلف المعالم الطينية بالمنطقة، عبر استغلال شبكات التواصل الاجتماعي وغيرها في هذا الجانب. كما أن برامج وكالات الأسفار، يجب أن تتضمن زيارات لمواقع العمارة الطينية المشهورة بالواحة كالقصور والقصبات والزوايا والمزارات الدينية، لأن بعضها قد يغفل إدماج ذلك، لهذا فتدخل وزارة السياحة عبر دفتر حملات تحترمه جميع وكالات الأسفار والمؤسسات السياحية بالمجال، كفيل بتطبيق ذلك. (انظر نموذجاً لرحلة سياحية داخلية في الملاحق).

كما أن تحليل الرباعي أو ما يعرف بمصفوفة^(٨٠) SWOT على قطاع السياحة بتافيلالت باعتباره إطاراً تحليلياً لتقييم الموقع التنافسي للمقولة، ويحدد نقاط القوة والضعف والفرص والتهديدات التي تتعرض لها الأعمال التجارية على وجه الخصوص، كما يوظف كذلك في مجال التنمية البشرية اقتصادية كانت أو اجتماعية، ويعتبر تحليل SWOT نموذجاً تقييمياً لقياس ما (يمكن/لا يمكن) القيام به، بالإضافة إلى فرصها المتاحة والتهديدات التي تواجهها^(٨١). وكنموذج لتطبيق هذا التحليل على أحد المراكز السياحية المشهورة

حالة الاخلال بما يستحقه التراث بمختلف أنواعه من حماية وتثمين.

خاتمة

لقد أصبح المعمار الطيني جزءاً مهماً من الذاكرة الواحية، مهدداً بفعل التحول نحو البناء الإسمنتي المرتبط بمسلسل التمدين، نتيجة مجموعة من التحولات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، التي تعرضت لها الواحة منذ دخول الاستعمار الفرنسي بداية القرن الماضي، وما رافقه من بناء مراكز حضرية مثل أرفود سنة ١٩١٨م، كان الهدف منها "تفجير" مؤسسة القصر من الداخل، وربط ساكنته بأنماط استهلاكية وثقافية جديدة، وهو ما أدى إلى بداية انحصار نمط العمارة الطينية، رغم استمرارها في احتضان جزء مهم من المجموعات البشرية بمجال تافيلالت، والتي مازالت تجد في البناء الطيني خير داعم في سيرورة التأقلم مع تغيرات المناخ القاسي.

وانطلاقاً من الوظائف التاريخية التي قامت بها العمارة الطينية في المجالات الصحراوية عبر التاريخ، باعتبار ارتباطها بمجموعة من الأحداث التاريخية التي بنت تاريخ المغرب عبر مختلف العصور، فلا مفر من تثمينها ورد الاعتبار لمكوناتها والاهتمام بصيانتها وترميمها، بل باستغلالها في إطار التنمية المحلية الشاملة، واستخدامها كعمارة بيئية سكنية، وفق تخطيط معماري متعدد الرؤى بما فيه السياحية، عن طريق تعزيز مساراتها خدمة لأي نموذج تنموي رصين.

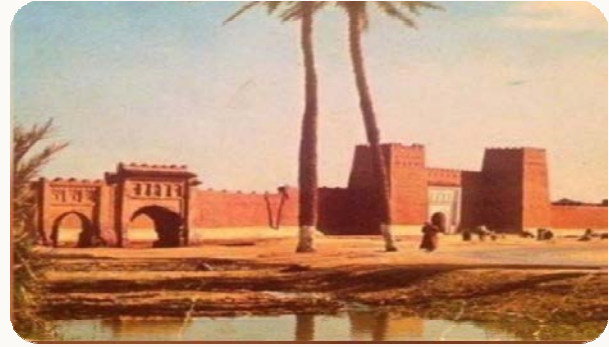
زيادة على ذلك، فلقد نظمت القوانين الجاري بها العمل ما يمكن لبقية المؤسسات الرسمية القيام به في هذا الجانب، إذ جاء في إحداها بأنه "يناط بالسلطة الحكومية المكلفة بالثقافة مهمة إعداد وتنفيذ سياسة الحكومة المتعلقة بالتراث والتنمية الثقافية والفنية. وتتولى لهذه الغاية مع مراعاة الاختصاصات المسندة إلى الوزارات الأخرى بموجب النصوص التشريعية والتنظيمية الجاري بها العمل"^(٨٣)، كما أن مؤسسة الجهة بما لها من صلاحيات واختصاصات سيكون تدخلها فعالاً في هذا الجانب، ومن ذلك ما يدخل في الاختصاصات الذاتية المتعلقة بالتنمية الجهوية والمتمثلة ثقافياً في الإسهام في المحافظة على المواقع الأثرية والترويج لها وتنظيم المهرجانات الثقافية والترفيهية^(٨٤)، ولا يفوتنا في هذا الشأن أن نشيد ونثمن عالياً، صدور الظهير الشريف رقم ١،٢٥،٤٨ صادر في ٩ ذي الحجة ١٤٤٦ (٦ يونيو ٢٠٢٥)، بتنفيذ القانون ٣٣،٢٢ المتعلق بحماية التراث بالجريدة الرسمية بحيث يهدف هذا القانون إلى تحديد القواعد العامة المتعلقة بحماية التراث الثقافي والطبيعي والجيولوجي، بما يضمن المحافظة عليه وصيانتته وتثمينه^(٨٥)، هذا التثمين بما يضمه من محافظة وصيانة، جاءت جميع المواد ١٣٣ المكونة لهذا القانون منسجمة مع أهدافه. بالفعل، فقد قام المشرع في المادة ٠٢ منه بتصنيف أنواع التراث، والتي من بينها التراث الثقافي المادي غير المنقول الذي يضم "المجموعات التاريخية والتراثية (...)" والتي تكتسي أهمية يحكم طابعها المعماري أو حمولتها التاريخية أو تفرداها أو انسجامها أو اندماجها مع محيطها، مثل المدن العتيقة، أو المدن المندثرة، أو القرى، أو القصور، أو القصبات، أو الأنسجة العتيقة الحضرية والقروية^(٨٦). ليأتي إحداث السجل الوطني لجرد التراث - حسب ما تضمنته المادة ٥ أهم خطوة ترنو إحداث قاعدة بيانات، تقيد فيها عناصر التراث الثقافي والطبيعي، والذي يهدف إلى اتخاذ إجراءات استباقية لوقايتها وحمايتها والمحافظة عليها، وهو ما دقت تفاصيله ديباجة جميع المواد من ٦٢ إلى ٧٠^(٨٧). هذا دون إغفال العقوبات الجزرية التي تضمنها القانون المشار إليه أعلاه، في

الملاحق



صورة رقم (٢)

منزل بقصر الزاوية - الدويرة
حيث البناء شبه الطيني.



صورة رقم (١)

صورة توضيحية



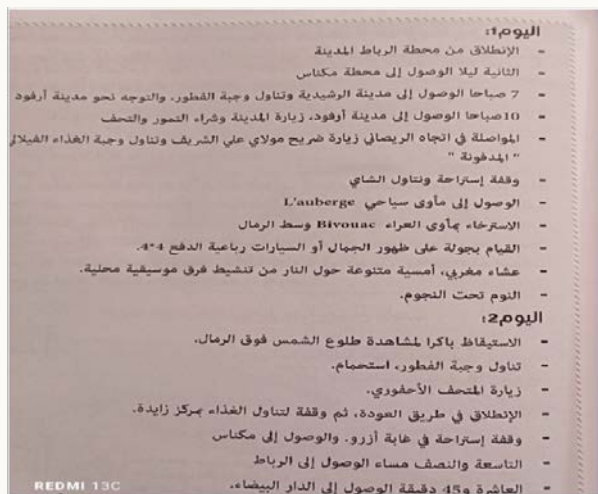
صورة رقم (٤)

دار الفنون لمعاظيد بقصر العبادة



صورة رقم (٢)

مدخل قصر العبادة لمعاظيد
المؤدي للمصرية ثم الساحة



نموذج رقم (١)

نموذج لبرنامج رحلة لتافيلالت^(٨٨)

مصدر الصور ٢، ٣، ٤: عدسة الباحث

الإحالات المرجعية:

- والنشر، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، مطابع المعرفة الجديدة، الرباط ٥١٤٠-٥١٤٠٩-١٩٨٨-١٩٨٩م، ج٣، ص. ١٥٤.
- (١٧) الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج٢، م.س، ص. ١٢١.
- (١٨) المصدر نفسه، ص. ١٢٥.
- (١٩) عبد الرحمن بن خلدون، **تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، الجزء ٦، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس الأستاذ خليل شحادة، مراجعة الدكتور زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٣١ هـ - ٢٠٠٩م، ص. ٤٦٢-٤٦١.
- (٢٠) روجي لوطونو، **فاس قبل الحماية**، ترجمه إلى العربية محمد حجي محمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤٠٦/٥١٩٨٦م، ج١، ص. ٥٩٩.
- (٢١) سعيد واحيحي، **آثار اندثار وانهار مدينة سجلماسة على المجال (من ٥٧٩٦/١٣٩٣م إلى ٤٣٠/١٦٣٣م)**، مجلة سجلماسة العالمية، العدد الخامس، ٢٠٢٢، منشورات الكلية المتعددة التخصصات، الرشيدية، مطبعة نيكوفير، الرشيدية، ص. ١٦٧.
- (3) De la Chapelle (F): Esquisse d'une histoire du Sahara occidentale, Hespéris, Tome XI; 1930; p: 40
- (4) De La chapelle, L'expédition de Suetonius paulinus dans le Sud-est du Maroc: 1934, Hespéris, Tome XIX, p:107.
- (5) De la Chapelle (F): Esquisse d'une histoire du Sahara occidentale, Hespéris, Tome XI; 1930, p: 40.
- (٦) كاتب مراكشي مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق د سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص. ٢٠١.
- (7) Lewicki, Tadzysz, Sur le titre Libyco-Berbère, Etude maghrébines et soudanaises. Studio nad maghreb Varseviev, Edition Scientifique de Pologne, Publication de l'Académie Polonaise des Sciences, Comité des Etudes Orientales, 1983, p: 44.
- (8) E.F. Gautier, Le passé de l'Afrique, p: 228-229.
- (٩) يُنظر: حسن حافظي علوي، **سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية-المملكة المغربية، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٤١٨/٥١٩٩٧م، ص. ١١٥-١١٤.
- (١٠) المصدر نفسه، ص. ١١٣.
- (١١) أبو عبيد الله البكري، **المسالك والممالك**، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢، ج٢، ص. ٨٣٥-٨٣٦.
- (١٢) حافظي علوي، **سجلماسة وإقليمها**، م.س، ص. ١١٣.
- (١٣) سعيد واحيحي، **مهدوية ابن أبي محلي الفيلالي ومخطوطة تقييد في التعريف بمدينة سجلماسة**، ٢٠٠٩، ص. ٣.
- (١٤) يعود بناء قصر آبار المخزن إلى حوالي القرن ١١/٥٥م، أما قصر تابوعصامت الذي يوجد بمنطقة السفاليت فيرجع تشييده إلى ما قبل القرن ١١/٥٥م، واشتهر قصر أبو عام بسوقه الحافل الذي يعقد كل عام أي ما يعرف بـ "القافلة السنوية" المتجهة إلى بلاد السودان بعد تراجع الطرق التجارية الغربية، انظر سعيد بنحمادة، **العمارة الطينية بتافيلالت بين البحث التاريخي والتداول السوسيوثقافي**، ضمن كتاب **العمارة الطينية بالوحدات تقاطعات التاريخ والثقافة**، تنسيق أحمد الصديقي، طبعة ٢٠٢٠، مطابع الرباط نت، ص. ٢٨-٢٩.
- (١٥) ابن قنبل الله العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، ج٤، ص. ١٠٦.
- (١٦) مارمول كاربخال، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي محمد زنيبر محمد الأخضر أحمد التوفيق أحمد بن جلون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة

- (٤٣) ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ١، ١٩٨٧، ص. ٤٠٠-٤٠١.
- (٤٤) الحسن المراني والخليفة بن عيسى وكريمي عبد الكريم ومحمد كرومي، **أرفود ٧٨ سنة من الريادة في قطاع التمور**، ضمن كتاب **أرفود المجال-التاريخ- المجتمع ١٩١٨-٢٠١٨**، مطبعة وراق بلال، فاس، ص. ٣٤٤.
- (٤٥) العبدري، **رحلة العبدري المسماة: الرحلة المغربية**، تحقيق وتقديم وتعليق محمد الفاسي، منشورات وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، ١٩٦٨، ص. ٢٣٥.
- (٤٦) ابن ليون التيجيبي، **اختصار من كتاب الفلاحة**، دراسة أحمد الطاهري، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ١٤٢٢/٢٠٢٠م، ص. ١١٣.
- (٤٧) ابن العوام، **كتاب الفلاحة**، دراسة وتعليق غارسيا سانشيز استيفان فرنانديز ميخو، مدريد، ١٩٨٨م، ج. ١، ص. ٦٧٨-٦٧٩.
- (٤٨) البكري، **المسالك والممالك**، الجزء الخاص ببلاد المغرب، ص. ٢٦٤-٢٦٥.
- (٤٩) ابن الحجاج، **المقنع في الفلاحة**، تحقيق صلاح جرار وجاسر أبو صفية، تدقيق وإشراف عبد العزيز الدوري، عمان، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ص. ١٦.
- (٥٠) ابن حجاج، **المقنع في الفلاحة**، م.س، ص. ١٦.
- (٥١) ابن ليون التيجيبي، **اختصارات من كتاب الفلاحة**، م.س، ص. ١١٣.
- (٥٢) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. ٢، م.س، ص. ١١٩.
- (٥٣) ابن الخطيب، **المعيار**، م.س، ص. ٨٩.
- (٥٤) ابن رشد الجد، **البيان والتحصيل والشرح والتعليل في مسائل المستخرجة**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨/١٤٠٨م، ج. ١٦، ص. ٢١٦.
- Jacques-Meunié (Djinn) et Meunié (Jacques), Abbar, cité royale du Tafilalet, Hespéris, Tom: XVI.1° et 2° trimestre 1959, p: 63.
- (٥٦) حافظي علوي، **سجلماسة وإقليمها**، م.س، ص. ١٢٠.
- (٥٧) روجي لوطورنو، **فاس قبل الحماية**، م.س، ص. ٥٩٩.
- (58) Meunié (J), Le Maroc Saharien, Vol.1, p.128.
- (٥٩) عبد اللوي علوي، **مدغرة وادي زيز**، ج. ١، م.س، ص. ٢١٢.
- (٦٠) المصدر نفسه، نفس الصفحة.
- (٦١) التقى العلوي، **اتحادية آيت عطا، مجلة البحث العلمي**، ع. ٢٣، ١٩٧٤، ص. ١١٨.
- (٦٢) امبارك بوعصب، **العمارة الدفاعية...**، ص. ١٦٨.
- (٦٣) أبو العباس أحمد خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، دار الكتاب، ١٩٥٦، الدار البيضاء، ج. ٧، ص. ١٠٢.
- (٦٤) سعيد بنحمادة، **العمارة الطينية بتافيلالت...**، ص. ٢٨٠.
- (٦٥) عبد الرحمان بن زيدان، **المنزعة اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف**، تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي، مطبعة إديال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٤١٣/١٩٩٣م، ص. ٣٣٦.
- (٦٦) عبيدي، **قصور الواحات بالمغرب**، م.س، ص. ٥٥.
- (٦٧) امبارك بوعصب، **العمارة الدفاعية**، م.س، ص. ١٨٥.
- (٦٨) عبيدي، **قصور الواحات بالمغرب**، م.س، ص. ١٣١.
- (٦٩) لحسن تاوشيت، **عمران سجلماسة دراسة تاريخية وأثرية**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨، ج. ٢، ص. ٤٨٩.
- (٧٠) امبارك بوعصب، **العمارة الدفاعية**، م.س، ص. ١٩٤.
- (٧١) بنحمادة، **العمارة الطينية بتافيلالت**، م.س، ص. ٢٤.
- (٧٢) عصام صلاح سعيد وياسر خالد السقا، **"المباني الطينية من منظور معاصر"**، مجلة العلوم الهندسية، كلية الهندسة، جامعة أسيوط، م. ٤٥، شتبر ١٧، ٢٠١٧، ص. ٧١١.
- (٧٣) المصدر نفسه، ص. ٧١٥.
- (٧٤) المصدر نفسه، ص. ٧١٢.
- (٧٥) شهادة شافية للسيد علي بوزيان، قصر الزاوية، الدويرة، الرشيدية، عصر يوم الجمعة ٣ ماي ٢٠٢٤.
- (٧٦) محمد البركة، **المعمار الطيني مقومات جغرافية وخصوصية ثقافية بأفق تنموي**، ضمن كتاب: **العمارة الطينية بالواحات تقاطعات التاريخ والثقافة**، طبعة ٢٠٢٠، مطابع الرباط نت، ص. ٦٠.
- (٧٧) الصديقي، **تقديم**، م.س، ص. ١٢.
- (٧٨) محمد البركة، **المعمار الطيني**، م.س، ص. ٢٩٨.
- (٧٩) ابن خلدون، **المقدمة**، م.س، ص. ٩٤٤.
- (٨٠) كلمة SWOT هي اختصار لأربع كلمات بالإنجليزية تمثل العناصر الأربعة التي تقوم عليها عملية التحليل، والتي ظهرت نتيجة البحوث التي أجريت في معهد ستانفورد للبحوث عام ١٩٦٠، تتعلق تلك الكلمات بتحليل البيئة الداخلية والخارجية وهي: weaknesses: نقاط الضعف - strengths: نقاط القوة - Opportuniti: الفرص - Threats: التهديدات. عبد لوي عبد الغاني وصباح سرغيني، **السياحة رافعة للتنمية المحلية بمدن واحات المغرب**، الهامش ١١، ص. ١٢٩.
- (٨١) عبدلوي عبد الغاني وصباح سرغيني، **السياحة رافعة للتنمية**، م.س، ص. ١٢٩-١٣٠.
- (٨٢) نفس المصدر، ص. ١٣٠.
- (٨٣) مرسوم رقم ٢٠-٦-٣٢٨ صادر في ١٨ من شوال ١٤٢٧هـ (١٠ نوفمبر ٢٠٠٦) بتحديد اختصاصات وتنظيم وزارة الثقافة. **الجريدة الرسمية** عدد ٤٨٠ الصادرة يوم الخميس ٧ دجنبر ٢٠٠٦.
- (٨٤) القانون التنظيمي رقم ١١١، ١٤ المتعلق بالجهات، **الجريدة الرسمية** عدد ٦٣٨ بتاريخ ٦ شوال ١٤٣٦ (٢٣ يوليو ٢٠١٥) المادة: ٨.
- (٨٥) **الظهير الشريف** رقم ١، ٢٥، ٤٨ صادر في ٩ ذي الحجة ١٤٤٦ (٦ يونيو ٢٠٢٥) بتنفيذ القانون ٣٣، ٢٢ المتعلق بحماية التراث، **الجريدة الرسمية** عدد ٢٦، ٧٤١٥ ذو الحجة ١٤٤٦ (٢٦ يونيو ٢٠٢٥)، ص. ٤٥٣٥.
- (٨٦) المصدر نفسه، ص. ٤٥٣٦.
- (٨٧) المصدر نفسه، ص. ٤٥٤٥-٤٥٤٦.
- (٨٨) عبدلوي عبد الغاني وصباح سرغيني، **السياحة رافعة للتنمية المحلية بمدن واحات المغرب (حالة مدينة أرفود)**، ضمن كتاب **أرفود المجال-التاريخ-المجتمع ١٩١٨-٢٠١٨**، مطبعة وراق بلال-فاس المغرب، ص. ١١٧.

جوانب من الحياة الثقافية في إفريقيا الطعام، الملابس، الموسيقى من الفترة القديمة إلى العصر الحديث

إسماعيل الإدريسي

باحث في سلك الدكتوراه
جامعة سيدي محمد بن عبد الله سايس
فاس – المملكة المغربية



مُلخَص

يتضح أن المعطيات الخاصة بالجانب الاجتماعي لإفريقيا قليلة حيث طغت الأحداث السياسية والمعلومات الاقتصادية والطرق التجارية على اهتمامات الرحالة والمؤرخين القدماء وبقيت المعطيات الخاصة بالجانب الاجتماعي والإنساني غامضة، وإن وجدت فهي قليلة، وركزت على الجانب الغرائبي والعجائبي فيها. لذلك حاولنا في هذا المقال استنطاق النصوص التاريخية لأجل التعرف على بعض المعطيات التي تهم جوانب الحياة الثقافية في إفريقيا من خلال تناول موضوعات الطعام، الملابس، والموسيقى في الفترات القديمة والوسطية والحديثة. يحلل الباحث التنوع الاجتماعي والثقافي في إفريقيا استناداً إلى نصوص تاريخية قدمها رحالة ومؤرخون عرب وأوروبيون، مبرزاً التفاوت الطبقي والاقتصادي في الغذاء والملبس بين الفئات الاجتماعية المختلفة. يبدأ المقال بتناول تطور اللباس في إفريقيا، من الأزياء التقليدية المصنوعة من جلود الحيوانات وأوراق الشجر في العصور القديمة إلى الملابس الفاخرة مثل الكسكس مع لحم الغنم، بينما كان طعام العامة كما يناقش التنوع الغذائي بين الأغنياء والفقراء، حيث كان الملوك يتناولون أطعمة فاخرة مثل الكسكس مع لحم الغنم، بينما كان طعام العامة يتكون من الأرز والذرة واللحوم الحيوانية. علاوة على ذلك، يسلط المقال الضوء على دور الموسيقى في الحياة الإفريقية، حيث كانت تُستخدم في المناسبات الرسمية والفولكلورية وترافق السلاطين في تنقلاتهم. في الختام، يعيد المقال تساؤلات حول الصورة النمطية التي سادت عن سكان إفريقيا في الأدبيات الاستعمارية، محاولاً تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة عن الحياة الاجتماعية والثقافية في إفريقيا، ومؤكداً على غنى إفريقيا الثقافي والحضاري. يشير الباحث إلى ضرورة المزيد من التحقيقات والأبحاث لتفنيد التصورات المهيمنة التي أنتجتها القوى الاستعمارية.

كلمات مفتاحية:

طعام الملوك؛ الطبخ؛ الأطباق الإفريقية؛ اللباس؛ العصر الوسيط

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٢ أكتوبر ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ١٦ نوفمبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.431748.1295

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

إسماعيل الإدريسي، "جوانب من الحياة الثقافية في إفريقيا: الطعام، الملابس، الموسيقى من الفترة القديمة إلى العصر الحديث". دورية كان التاريخية. - السنة التاسعة عشرة - العدد السادس والسبعون: فبراير ٢٠٢٦. ص ٣٩ - ٤٩.

X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>Internet Archive: https://archive.org/details/@historical_kan_periodicalCorresponding author: kortouba23@gmail.comEditor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.comEgyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان 4.0 This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

ما جادت به بيئته من مواد أولية، قبل أن يعرف تطورات لاحقة بفعل التفاعل والتأثير المتبادل مع المحيطين الداخلي والخارجي.

١/١) ١- اللباس بإفريقيا خلال الفترة القديمة

يظهر أن اللباس في إفريقيا يتغير مع اختلاف الحقب والعصور، فخلال الفترة القديمة التي تميزت ببساطة نمط عيش الإنسان الإفريقي، وبتحكم المواد الأولية الطبيعية في لباس سكان إفريقيا، فكان اللباس الإفريقي بسيطاً في مكوناته (جلود الحيوانات، أوراق الشجر). وذكر هيرودوت نماذج من اللباس الإفريقي خلال الفترة القديمة من خلال حديثه عما شاهده ساطاسبيس في رحلته إلى إفريقيا فقال: «فانتقل ساطاسبيس إلى مصر حيث اقتنى سفينة وشغل بحارة من البلد. فأبحر نحو أعمدة هرقل، وبعد عبورها تجاوز رأس ليبيا المعروف بصولويس^(١) ثم اتجه نحو الجنوب. وعبر مسافات كبيرة في الماء خلال عدة أشهر، وبما أن الرحلة طالت قرر العودة من حيث أتى، إلى مصر. ومنها اتجه إلى الملك كسيركسيس^(٢) وحكى له بأنه في آخر نقطة في رحلته، ساحل منطقة آهلة بالأقزام الذين يتدثرون بأوراق النخيل»^(٣). وفي حديثه عن الليبيين^(٤) قال: «تزين نسائهم بوضع حلقة من البرونز حول كل ساق، ولهن عناية خاصة بتسريح شعورهن»^(٥).

«وتزين نساء الكندان (Gindanes) كواهلن بحلقات من الجلد. تضع المرأة حلقة من الجلد حول الكاحل عن كل رجل عاشرها، وكلما ازداد عدد حلقات الجلد حول كاحلها، ذاع صيتها وازدادت جاذبيتها، لأن كثرة الحلقات تعني كثرة المعجبين بها من رجال الكندان»^(٦). كما أن ملابس الليبيات مصنوعة من الجلد وأن الأهداب المدلاة من الدرع ليست ثعابين، ولكنها عبارة عن سيور جلد الحيوان كما يضعن فوق ملابسهن جلود ماعز خال من الشعر محاط بأهداب ومصبوغة باللون الأحمر حلقة من الجلد حول الكاحل عن كل رجل عاشرها^(٧). وتطور اللباس في إفريقيا عبر الزمن بفعل عدة أسباب تداخل فيها العامل الديني والثقافي والاجتماعي، فدخل الإسلام إلى إفريقيا جنوب الصحراء وتوافد التجار

إن النش في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لتاريخ شمال إفريقيا وإفريقيا جنوب الصحراء لمهمة تتطلب جهداً مضاعفاً على اعتبار أن المؤرخين اهتموا كثيراً بتناول الأحداث السياسية والتاريخ الغرائبي أكثر من حديثهم عن الجوانب الاجتماعية والاقتصادية. ولعل ذلك يدخل في إطار الحديث عن تاريخ المهمشين الذين لا تاريخ لهم. غير أن رحالة المغرب الأقصى كابن بطوطة الذين زاروا تلك البلاد ذكروا العديد من المعطيات والمعلومات التاريخية الهامة التي أنارت جزئياً عتمة تاريخية لحياة الأفارقة الذين اعتبروا حسب الرحالة الأوروبيين الذين زاروا إفريقيا خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي متوحشون وعرة وسحرة.

يظهر أن سكان إفريقيا جنوب الصحراء تناولوا أطعمة اختلفت حسب الطبقات الاجتماعية السائدة، وارتدوا ملابس تنوعت بين المحلية والمستوردة. كما عرفت إفريقيا الموسيقى، وتوفرت آلات الطرب والغناء الذي كان يمتد إلى وقت متأخر من الليل. فهل يمكن اعتبار ما ذكره الرحالة الأوروبيين عن سكان إفريقيا جنوب الصحراء مجانب للصواب؟ باعتبار أنهم نظروا إليهم من منظار المركزية الأوروبية التي ترى في كل مخالف لها ثقافياً واجتماعياً متوحشاً؟ أم أن نظرهم كانت واقعية على اعتبار أن أوروبا كانت متفوقة من الناحية العلمية وبالتالي فهي الأقدر على منح أحكام على المجتمعات الأخرى؟ وهل استطاع المؤرخون العرب والأفارقة ضحذ موقف الأوروبيين؟

أولاً: اللباس في إفريقيا وخلفياته

١/١- تنوع اللباس في إفريقيا عبر العصور

إن الزي لم يكن عنصراً ثابتاً أو معزولاً عن محيطه، بل ارتبط بطبيعة الحياة السائدة، وبالتحولات التي عرفها المجتمع الإفريقي في مختلف مراحله. فقد عكس اللباس أنماط العيش والإمكانات المتاحة، وتأثر بالعوامل الدينية والاجتماعية والثقافية التي أسهمت في تشكيل ملامحه. ومن ثم، فإن تناول الفترة القديمة يقتضي الوقوف عند الخصائص الأولى التي اتسم بها اللباس، في سياق بساطة العيش واعتماد الإنسان الإفريقي على

البلور، ويقف بمحاذاة رأسه أربعة من الأمراء، في أيديهم حلية من فضة يطردون بها الذباب على السلطان^(١٢).

يصف ابن بطوطة لباس سلطان مالي بقوله: "يخرج السلطان من باب في ركن القصر، وقوسه بيده، وكنانته بين كتفيه، وعلى رأسه شاشية ذهب، مشدودة بعصابة ذهب، لها أطراف من شبر وأكثر لباسه جبة حمراء موبرة، من الثياب الرومية التي تسمى المطنفس^(١٣). ويلبس السلطان منسى سليمان عباءة فضفاضة من القطيفة الحمراء^(١٤). كما أن ملك صوفالة^(١٥) وزوجاته لا يكتسبون بالمنسوجات الأجنبية خوفا مما قد يكون بها من مواد سامة. ويرى مارمول كاربخال أن: «عظمة الملك لا تُقاس بأثاث فاخر ولا بزخارف القصر، وإنما يتباهى بما لديه من منسوجات قطنية مصنوعة في البلاد خصيصاً له، وتزينها الرسوم على شاكلة الزرابي التي تصنع في الخارج»^(١٦). أما الأعيان ونسائهم فيلبثون ثياباً حريرية^(١٧). يظهر أن غنى بلاد صوفالة بالذهب جعلهم يهتمون بصناعة الملابس في بلدهم، وارتدائهم للملابس باهضة الثمن^(١٨).

ويلبس سلاطين سنغاي كرازين تشبه العمامة يضعونها على رؤوسهم. ويرتدون كذلك السراويل والقميص السوسي الأخضر وأربعة قمصان وهو أفضل لباس عندهم ويتزينون بالذهب المرصع. أما حكام ما سنه فإنهم يرتدون القميص والمآزر، وملوك زافون يلبسون أثواباً مزركشة ويتلفعون برداء أبيض. أما حكام تاد مكة، فيرتدون الثياب الملونة وهي عبارة عن عمامة حمراء وقميص أصفر وسراويل زرقاء^(١٩). أما ملوك كياك^(٢٠) فإنهم لا يخرجون في زينتهم، ولا يلبسون العمامة، ولا يجلسون على الفرش، إنما هو في الفلانيين أبداً، وربما يجلس بين أصحابه مختلطاً بهم، ولا يعرف من بينهم، ولا يملك من كثرة خيول جيشه إلا فرساً واحداً أبداً، عادة جارية فيهم، مع قوة سلطنته. ولا يخرج من بيته إلى زيارة أحد، ولا يخرج من بيته إلا إلى الجهاد فقط، ولا يدخل المسجد إلا لصلاة العيد. وكانوا يقولون: كفى الملك زينة ملكه وسلطنته، ولا يحتاج إلى الزينة بعد ذلك^(٢١).

المسلمين الذين استقروا في هذه الربوع كان له تأثير كبير على أنواع الألبسة بإفريقيا جنوب الصحراء.

٢- اللباس بإفريقيا خلال العصر الوسيط (١/١)

والحديث

ظهرت خلال العصر الوسيط المنسوجات القطنية والحريرية، بفعل التجارة مع المغرب الأقصى، ويظهر أن لكل طبقة اجتماعية لباسها التي يميزها عن باقي الفئات الأخرى. ويمكن التمييز بين أنواع من الألبسة في العصور الوسطى:

لباس عليا القوم: من الطبيعي جداً أن يتميز لباس الحكام عن غيرهم من الخاصة وكذا العامة، انسجاماً مع ضرورة الحرص على هيبة الدولة، وإضفاء لطابع الإجلال والوقار، (وهو جزء لا يتجزأ من مراسيم أخرى تشمل المراكب وآلة الحرب، والألوية وغيرها)، يقول ابن خلدون في هذا الصدد: «اعلم أن للسلطان شارات وأحوالاً تقتضيها الأبهة والبذخ، فيختص بها ويتميز بانتحالها عن الرعية والبطانة وسائر الرؤساء في دولته»^(٨). ويلبس ملك غانا المخيط وفي ذلك يقول البكري «لا يلبس المخيط من أهل دين الملك غيره وغير ولي العهد وهو ابن أخته»^(٩)، وملكهم يتحلى بحلي النساء في العنق والذراعين ويجعل على رأسه الطرايطير المذهبة عليها عمامة القطن الرفيعة وهو يجلس للناس^(١٠). ويضع عليه عمامة مصنوعة من القطن ويقتصر المخيط على الملك وولي عهده، كما يلبس ملوك غانا إزاراً حريراً يتوشحون به أو بردة يلتفون بها وسراويل في وسطهم ونعل شركي في أرجلهم، وفي الأعياد والمناسبات لهم زي خاص. ويأتي زي الوزراء في المرتبة الثانية بعد زي الملك، فهم يلبسون ملابس فضفاضة ومآزر^(١١).

ويرتدي ملك مالي سراويل واسعة، طولها عشرون نصفه، لا يجزئ أحد على لباس هذا الزي من الطبقات الباقية.... وللملك مراسيم معينة في المناسبات والأعياد الدينية، ففي يوم العيد يخرج لأداء الصلاة، مرتدياً طيلساناً على رأسه، يقتصر لبسه عليه شخصياً. وفي الأعياد، وبعد صلاة العصر من يوم العيد يجلس السلطان على مصطبة معدة له، ويأتي كبار موظفي الدولة للحدارية، بتراکش الذهب، والفضة، ودبابيس

محمود كعت: «فنادى ألع كعت كاتبه بكر لنبار فجاء، فقال له: أردت أن أبعثك إلى أسكي بحاجة لنا. فقال: له قل لأسكي إني محتاج قصدناه به، فإني لي أربع بنات وخمسة بنين، ويدخل بهن أزواجهن.... وأما البنون أريد لهم العمامة وأريد كسوة العام: قميصين وعمامتين وقلنسوتين».^(٢١)

أما زي أهل سامة، إحدى مقاطعات غانا وهي على مسيرة أربعة أيام من غانا، يعرف أهلها بالبكم، فيسيرون عراة، إلا أن المرأة تستر عورتها بسيور تضفرها. ويلبس الزغاوه الجلود المدبوغة ويتفننون في صناعتها. وزى أهل ونقارة الأز، والأكسية والقداوير، وهم شديدي السواد. ولباس أهل مدينة غريل الصوف. ويرتدي نساء غانا حلياً مصنوعة من النحاس والخزر والنظم من الزجاج وغيرها^(٢٢). وتطور عنها في عهد مالي، فبدأت النساء ترتدين حلي الذهب. وفي فترة سنغاي كانت النساء تتحلى (بتطاريح) من الذهب على رؤوسهن، وأسوار ذهب وفضة في معاصمهن كما يرتدين الملحفة السوداء.^(٢٣) ونساء مدينة جني يتلثمن بلثام كبير، من القطن مصبوغ باللون الأزرق أو الأسود يغطين به رؤوسهن، وبعض من فتياتهن الأباكار لا يسترن عوراتهن، أما نساء مدينة تبكت فمتحجبات مثلثات باستثناء الإيماء اللائي بيعن الأكل وكذلك نساء مدينة ولاتة مثلثات^(٢٤).

ولم يكتف الأفارقة بالثياب المحلية، بل كانوا يعتمدون على الملابس الأوربية المستوردة. غير أن سكان غينيا لم يكونوا يتخوفون من اللباس الأجنبي" ويستبدل الصناعات النسيجية القطنية بمختلف أنواع الثياب المستوردة من أوروبا عن طريق بلاد البربر"^(٢٥). وارتدى شعب المكارانجا^(٢٦) حتى القرن السادس عشر الميلادي الملابس المصنوعة من الأقمشة وهي السلع الرئيسية التي كانت تستوردها البلاد في مقابل صادراتها من العاج والذهب^(٢٧). كما أن تجار كاواكان يستوردون الأنسجة الأوربية، ولاسيما منها الثياب الحريرية الحمراء أو الزرقاء التي يبلغ ثمن الذراع منها عشرين مثقالاً، في حين، أن غيرها من الثياب لا يتجاوز ثمن الذراع منها ستة مثاقيل.^(٢٨)

وكان بتبكتو دكاكين نساكي أقمشة القطن، وتصل أيضاً إلى تبكتو أقمشة أوروبا يحملها تجار بلاد

ويلبس الفرسان مالي أساور ذهبية، وإذا زادت شهرته وفاق أقرانه. فإنه يلبس معها أطواقاً من ذهب تميزه عن غيره من الفرسان، وكلما ازدادت فروسيته، ارتدى معها خلاخل ذهبية. وإذا أبدع أكثر في الفروسية، ألبسه الملك سراويل واسعة من فوق وضيقة عند الساقين.^(٢٩) وسكان كاوكا الأغنياء لا سيما الجبليين، يسيرون حفاة في الصيف ولا يرتدون أي لباس غير شبه سروال من الجلد يستر عورتهم.^(٣٠)

لباس العامة: أما زي الشرفاء والعامة فهو عبارة عن جلابيب طويلة وعمائم ولهم شعر يصل إلى شحمة الأذن اقتداء بالرسول (ﷺ)، ورجال أهل سنغاي يرتدون الملف والقميص والقفاطين المصنوعة من كتان (دب) والحرير والملف والقمصان والسراويل الكبيرة والعمائم كما يرتدون البرنس^(٣١). يرتدي أغلب المجتمع المالي ملابس تشبه إلى حد كبير الزي العربي المغربي، والذي يتألف من عمائم، وجبات، ودراريح، بدون تخريج، وعادة ما تكون مصنوعة من القطن ولونها أبيض، ولهم مهارة في نسج الملابس التي تعرف عندهم بالكميصا^(٣٢).

ويلبس ساير الناس ملاحف القطن والحرير والديباج على قدر أحوالهم وهم أجمع يحلقون لحاهم ونساؤهم يحلقن رؤوسهن^(٣٣). ويرتدي أهل غينيا لباساً حسناً، ويتلثمون بلثام كبير من قطن أسود وأزرق يغطون به حتى رأسهم، لكن الأئمة والفقهاء يتلثمون بلثام أبيض.^(٣٤)

يسير أهل بورنو عراة في الصيف بمأزر من جلد ويتدثرون في الشتاء بجلود الغنم، ويفترشونها كذلك^(٣٥). أما في قرى كاغو فيرتدي الفلاحون جلود النعام في الشتاء. أما في الصيف فيمشون عراة حفاة، غير أنهم يسترون عوراتهم بمئزر صغير، وينتعلون أحياناً بنعال جلد البعير^(٣٦). ويرتدي أهل صوفالة ملابس قطنية مصنوعة محلياً أو مجلوبة من الهند^(٣٧). وفي التكرور يرتدي السكان الذين يخالطون البيض الجلود المدبوغة، ويضعون على رؤوسهم قبعات من الصوف والقطن، والحرير، والديباج على قدر طاقتهم. أما عامة أهلها فيلبسون الجلود لستر عوراتهم ويلبسون القداوير، والأكسية، ويضعون على رؤوسهم الكرازين، وحليهم الذهب، وخواصمهم يلبسون الأز. ومما كان يلبسه العرسان القميص والعمامة والقلنسوة وفي ذلك يذكر

المغرب وليبيا فالبرنس زي يرتديه أهل المغرب وانتقل عبر المؤثرات الحضارية إلى منطقة إفريقيا فيما وراء الصحراء وكذلك التطاريج والملاحف التي كانت تلبسها النساء الليبيات في عدة مناطق منها الصيعان والنوائل^(٤٥)

وفيما يخص ارتداء الأفارقة للزي المغربي فعل ذلك يعود لما ذكره ابن خلدون بأن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه، ونحلته وسائر أحواله وعوائده، حيث ذكر: «أن النفس أبداً تعتقد الكمال في مَنْ غلبها وانتادت إليه. إما لنظره بالكمال. بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها، حصل اعتقاداً، فانتحلت جميع مذاهب الغالب، وتشبهت به، وذلك هو الاقتداء. أو لما تراه. والله أعلم- من أن غلب الغالب لها ليس بعصية ولا قوة بأس، وإنما هو بما انتحله من العوائد والمذاهب، تغالط أيضاً بذلك عن الغلب، وهذا راجع للأول، ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله»^(٤٦).

وتحكمت في طبيعة هذه الألبسة مجموعة من العوامل: فلباس الرجل يسعى من خلالها إلى المحافظة على الطبيعة الذكورية الذي يجب أن يتأنق ويحسن هيئته ومظهره، لكن بالشكل الذي لا يفقده خشونته ورجولته، مع ظهور بعض الاستثناءات لدى بعض الطبقات الراقية التي تتخذ من اللباس مظهراً للتمييز عن باقي الطبقات. وهناك عامل آخر وهو العامل الطبيعي المتعلق بالمناخ من حيث البرودة والحرارة، ففي الحالة الأولى تكون الألبسة ثقيلة ودافئة وغليلة ومصنوعة في الغالب، من جلود الحيوانات أو من صوفها أو من القطن حماية للجسم من أضرار البرد. أما في الحالة الثانية فتكون خفيفة ورهيفة انسجاماً مع الطبيعة الحارة والمناخ الجاف والساخن، وهذا ما يفسر سلوك العراء الذي تتصف به بعض أقوام البلدان الإفريقية كالسودان^(٤٧).

وعلى إبراهيم الحجري اختلاف أزياء الملوك والحكام الوارد ذكرهم في المتون الرحلية تبعاً لتكوينهم الشخصي من جهة، ولأحوال الموارد الاقتصادية للدولة من جهة

البربر^(٣٩). ويتضح غلاء الأقمشة فأبسط قماش أوربا يباع بأربعة مثاقيل ولكنه والقماش الرفيع مثل «المنتشينو» و«المينمو» يباع بخمسة عشر مثقال، أما القماش البندقي الرفيع كالقرمزي والبنفسجي والأزرق فيصل إلى ثلاثين مثقال. وجميع أدوات الخياطة والعطارة باهظة الأثمنة^(٤٠). ودفع فقر بعض البلدان الإفريقية إلى بيع الرقيق للأوروبيين لقاء الحصول على الأسلحة النارية التي يقوون بها جيوشهم ودولهم، وليس هذا فحسب، بل إنهم كانوا يفعلون ذلك أيضاً للحصول على البضائع التي تبيدهم في حياتهم الاجتماعية مثل الأقمشة والآلات والمواد الخام المطلوبة لصناعة الحديد المحلي والمصانع الأخرى وغير ذلك من المواد التي تحتاجها مجتمعات شديدة الرغبة في أن تزيد من ثرواتها وقوتها لكي تستطيع الوقوف أمام حضارة أوربا وأفكارها^(٤١).

واهتم شعب الحوصا بزراعة القطن ونسج الأقمشة وصبغها، وكانت تعتبر من الصناعات الهامة في هذه المدن وأصبحت صناعة الجلد الحوصري مشهورة في كل مناطق شمالي وغرب إفريقيا^(٤٢). ويصف إبراهيم الحجري اللباس في بلاد السودان في الجدول التالي^(٤٣):

زي	الزردخانة، العمامة البديعة الصنع،
الرجال	السيف الذهبي، الخف، المهاميز، قوس كنانة، شاشية، عصابة ذهبية، سكاكين جبة، الوبر، ثياب رومية، المطنفس
زي النساء	عاريات لا يحتجن ولا يحتشمن من النساء

٢/١-قراءة في اللباس بإفريقيا والعوامل التي

تحدد طبيعته

يتضح أن المعلومات المتعلقة بزي المرأة قليلة وينسجم ذلك مع المرجعية الفقهية للرحالة العرب التي تدعو إلى غرض الطرف عن كل ما يتعلق بزينة النساء ومفاتنتهن، اتقاء لشياطين الرغبة، مع أن (المرأة أكثر ميلاً للزينة من الرجل، لأن الزينة ملائمة لطبيعتها ومكملة لجمالها)^(٤٤). من خلال عرض زي الرجال والنساء في سنغاي، يظهر تأثير شمال إفريقيا واضحاً، وخاصةً

بإفريقيا جنوب الصحراء على مواد فلاحية زراعية وحيوانية لتلبية حاجياتها وتوفير ما يحتاجه المطبخ الإفريقي، وكان بإفريقيا طبابخات تميزن بمهارتهم في طبخ الطعام والحلوى. وعلى العموم يمكن التمييز بين:

(٢/٢) ١- طعام الملوك:

يتكون طعامهم من الكسكس أو الفتات عليه لحم الغنم المطبوخ أو المشوي أو الملفوف في شرائح من العجين المتناهي الدقة ومعه أصناف من الأطعمة منها دقيق القمح الذي كان يحمله جنكي خديم أسكيا الحاج محمد له. ومن حفاوة كرم حكام إفريقيا أن ضيوفهم يتناولون معهم الغذاء ولو كانوا صغارا في السن وهذا الحسن الوزان لم يتجاوز عمره ست عشرة سنة دعاه ملك تبتكت، لتناول وجبة العشاء والفطور معه دليلاً على الحفاوة التي يكنها له^(٥٣). وكان الملك أسكيا الحاج محمد لا يأكل معه إلا العلماء والشرفاء وأولادهن وسن^(٥٤) ولو كان صغيراً^(٥٥).

(٢/٢) ٢- طعام عامة الناس:

يختلف غذاء عامة الناس من منطقة لأخرى، ولو أن الاختلاف طفيف فهو ينقسم إلى الشق الأول: يتمثل في الأرز والذرة والدخن وتوجد في تادمكة وكذلك الكسكس ووجبة الكما التي تطبخ مع لحم الإبل وتكون وجبة غذائية. الشق الثاني: يتكون من العسل ولبن المواشي بما فيها الإبل ودقيق الكوهمني، والمتكون من حبات القصب وهو يدق ويخلط بالماء ويشرب وخاصة في أوقات الحر. الشق الثالث: يتمثل في لحم الغنم والماعز والبقر، والإبل والغزلان ولحوم الحيتان الطرية والطيور بمختلف أنواعها فهي تمثل الغذاء الرئيسي للسكان^(٥٦).

زيادة على العديد من الأطعمة الأخرى التي ذكرها الرحالة حيث تحدث ابن بطوطة عنها «ففي الغابة التي بين أيوالاين ومالي ما يشبه ثمرة الإجاص، والتفاح والخوخ والمشمش، وليست بها. وفيها أشجار تثمر شبه الفقوس، فإذا طاب انطلق عن شيء شبه الدقيق، فيطبخونه ويأكلونه، ويبيع بالأسواق. ويستخرجون من هذه الأرض حبات كالقول، فيقولونها ويأكلونها، وطعمها كقطع الحمص المقلو. وربما طحنوها وصنعوا منها شبه الإسفنج، وقلوه بالغرتي، والغرتي (بفتح الغين المعجم

أخرى، فمنهم من كان يميل إلى التواضع ويختار الزهد طريقة في الحياة، فيلبس ما يستر الجسد، ومنهم من يتطلع إلى أسمى غايات الترف والبذخ، فيلبس الخلع المزركشة بالذهب والفضة وما إلى ذلك من جوهر وحرير ومرجان وغيرها، مما ينسجم مع نزوع الفئة الحاكمة إلى الاستهلاك والميل إلى جمع الثروة والمال عن طريق (اقتناء المباني، والمساكن، والملابس، والتأنق في أحوالها بمقدار ما يتحصل من الثروة والترف)^(٥٨).

ولعل اهتمام ملوك إفريقيا بارتداء ملابس أنيقة يعود إلى: «أن الأمة إذا تغلبت وملكت ما بأيدي أهل الملك قبلها، كثر رياضها ونعمتها، فتكثر عوائدها ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته، إلى نوافله ورقته وزينته، ويذهبون إلى اتباع من قبلهم في عوائدهم وأحوالهم، وتصير لتلك النوافل عوائد ضرورية في تحصيلها وينزعون مع ذلك إلى رقة الأحوال في المطاعم والملابس، والفرش والآنية ويتفاخرون في ذلك، ويفخرون فيه غيرهم من الأمم، في أكل الطيب ولبس الأنيق»^(٥٩).

ثانياً: أنواع الأطعمة في إفريقيا

١/٢- الطعام بإفريقيا خلال الفترة القديمة

اختلفت الأطعمة في إفريقيا فهيرودوت يقول «بأن الإثيوبيين يقتاتون الأعاعي والسحالي وغيرها من الزواحف»^(٥٠). ويأكل الناسمونيون الجراد بعد تجفيفه تحت أشعة الشمس يطحنونه طحناً دقيقاً ويصبونه في الحليب، ويتغذون من هذا المزيج^(٥١). ويتضح أن هناك بعض الأغذية التي كانت محرمة: «فالليبيون يعرضون عن لحم البقرة وعن تربية الخنازير، بل إن نساء قورينة يعتبرون أكل لحم البقرة نوعاً من الإثم احتراماً لـ إيزيس الربة المصرية، التي يكرمونها بالصيام والاحتفالات، وكذلك تمتنع نساء برقة عن أكل لحم البقرة والخنزير سواء بسواء»^(٥٢).

٢/٢- تنوعت الأطعمة بإفريقيا خلال الفترة

الوسيط والحديثة

انقسم الطعام في إفريقيا جنوب الصحراء إلى قسمين (الأغنياء-عامة القوم)، فلكل فئة اجتماعية أغذية تناسب غناها وثروتها، وتوفرت بعض البلدان

وراء الصحراء أواني القرعة الكبيرة في حفظ العسل، والحساء الساخن، والدقيق. بأن تفتح فتحة صغيرة من أعلى بحيث تدخل فيها اليد ويحمل فيها الأشياء إلى مناطق بعيدة دون أن تتأثر وتعرف أواني القرعة عند الفلان باسم فاد.

واستخدم أهل إفريقيا فيما وراء الصحراء لطهو طعامهم القدور والأقداح المصنوعة إما من النحاس أو الفخار. كما استعملوا الدلو المصنوع من جلد البقر، والإبل والماعز بعد دبغه في استخراج الماء من البئر... كذلك من الأدوات التي تستعمل في حفظ الماء والزيت والدقيق واللحم المجفف القرب والتي تصنع من جلد ذكور الماعز لقوتها وطريقة اعدادها بأن يخرج جلد الماعز من رقبته عند سلخه وتدبغ بلوازم الدبغ كما استعمل أهل إفريقيا فيما وراء الصحراء الزق وهو قذح عادة ما يصنع من الفخار يشرب فيه الماء واللبن والخمر، وقد تغنى به شعراء عصر ما قبل الإسلام كما كانت الخابية من الأدوات التي يحفظ فيها الماء^(٦٧). واستخدم القرع لصنع الأواني والقرع ببلاد السودان يعظم، ومنه يصنعون الجفان، يقطعون القرعة نصفين، فيصنعون منها جفنتين، وينقشونها نقشا حسنا. وإذا سافر أحدهم يتبعه عبيده وجواريه، يحملون فرشة وأوانيها التي يأكل ويشرب فيها، وهي من القرع^(٦٨).

٤/٢-تميزت إفريقيا بوجود طبابخات ماهرات

تعتبر المرأة سيده المطبخ السوداني فهي التي تقوم بعملية الطهي وعادةً ما تكون الوجبة السودانية من اللحم، والسمن ومعها البهارات، وتوضع على النار وتعطي رائحة طيبة وقد ذكر كمت في ذلك ما نصه: «فإذا هي مملوءة طعاما مطبوخا بأنواع الأدام واللحم والسمن الكثير ويطبخ لحم البقر ويسقى بسمن الغنم والماعز على السواء كما تقوم المرأة بإعداد وجبة الكسكس بعد طحن القمح، وخلطه بدقيق الحنطة ويسقى بالخضروات»^(٦٩). واشتهرت جوازي أودغست بمزايا كثيرة منها المهارة في الطبخ، يقول الحميري: «يجلب منها سودانيات طبابخات محسنات تباع الواحدة منهن بمائة دينار كبار وأزيد لحسن عمل الأطعمة الطيبة، ولاسيما أصناف الحلالات مثل الجوزينيات

وسكون الرء وكسر التاء المثناة) هو ثمر كالإجاص، شديد الحلاوة، مضر بالبيضان إذا أكلوه، ويدق عظمه، فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع، فمنها أنهم يطبخون به، ويسرجون السرج ويقلون به الإسفنج، ويدهنون به»^(٥٧).

وتحدث كذلك عن طعام السودان فقال: «فإذا وصل قرية، جاءت نساء السودان بأنلي واللبن والدجاج ودقيق النبق والأرز والفوني، وهو كحب الخردل يصنع من الكسكسو، والعصيدة، ودقيق اللوبيا، فيشتري منهن ما أحب من ذلك»^(٥٨). وهناك طعام «يطلق عليه العصيدة تصنع من شيء شبه القلقاس، يسمى القافي (بقاف وألف وفاء)، وهي عندهم مفضلة على سائر الطعام»^(٥٩). ذكر ابن بطوطة كذلك طعاماً قدم له لما ارتحل إلى مالي «ثلاثة أقراص من الخبز وقطعة لحم بقري مقلو بالغرتي وقرعة فيها لبن رائب»^(٦٠). وفي تنبكتو «الخبز واللحم فيها كثيران جداً، لكن الخمر والفواكه منعدمان. حقاً إن البطيخ والخيار والقرع الجيد والأرز توجد فيها بكميات ضخمة وآبار الماء العذب عديدة»^(٦١).

وفي أودغست هناك فئة اجتماعية تبدوا من خلال مظهرها الاجتماعي وأسلوب عيشها مظاهر الثراء والترف ونعني هنا فئة التجار بصفة خاصة، وهي الفئة التي تلتقي مع الملوك في أسلوب العيش، فالقمح يأكله ملوكهم، وأهل اليسار منهم أما سائر أهلها فيأكلون الذرة^(٦٢). ويشغل أهل البلاد برعي المواشي أو بالفلاحة، لأن الأرض تنتج كميات مهمة من الحبوب والأرز والقطن. وتوجد بالإقليم مناطق جبلية تكسوها الأشجار، وتتبع فيها عدة عيون، يسقى منها شجر البرتقال والقرص الوحشي، والتي لا تختلف فواكهها كثيراً عن فواكه البلدان الأخرى التي تنتج مثلها^(٦٣). وتناول الافارقة بعض الثمار التي تثبت من شجرة كور «وشجرة كور»^(٦٤) الذي لا يوجد مثلها في الأرضين من التكرور إلا أرض برك^(٦٥). وكان بتبكت مخازن للحبوب والأطعمة يطلق عليه الهري^(٦٦).

٣/٢-الأواني المستخدمة في الطبخ بإفريقيا

وظف الأفارقة خلال تلك الفترة أواني متنوعة لطبخ وحفظ الطعام، حيث استعمل أهل منطقة إفريقيا فيما

والفقوس والبصل والقرع وكثيراً من الخضر التي يوجد مثلاً في بلاد البربر وكميات مهمة من الأرز الجيد، لكن لا ينبت فيه عنب ولا يوجد فيه خمر ولا فاكهة، إلا التمر الذي يأتي من الواحات الصحراوية.^(٨٠)

ثالثاً: الموسيقى في إفريقيا خلال العصر الوسيط والحديث

يتبين أن إفريقيا في القديم كانت تعرف الموسيقى يقول الحسن الوزان «وقد فطر أهل تنبكتو على المرح، وتعودوا على التجوال في المدينة بين الساعة العاشرة ليلاً والواحدة صباحاً، وهم يعزفون على آلات الطرب ويرقصون»^(٨١). وكانت تستعمل الموسيقى في حضرة السلاطين إفريقيا «ويخرج بين يديه المغنون بأيديهم قنابر (تطلق كاف في المغرب) الذهب والفضة وعند جلوسه تضرب الطبول والأبواق والانفاز»^(٨٢). ويجلس «الأجناد والولاة والفتيان ومسوفة وغيرها خارج المشوار، في شارع هنالك متسع، فيه أشجار وكل فراري بين يديه أصحابه بالرماح والقسي والأطبال والأبواق، بوقاتهم من أنياب الفيلة، وآلات الطرب المصنوعة من القصب والقرع وتضرب بالسطاعة، ولها صوت عجيب وكل فراري له كنانة قد علقها بين كتفيه، وقوسه بيده، وهو راكب فرسه...»^(٨٣). ويرافق «ملك صوفالة في حله وترحاله، في يقظته ونومه، جوق يردد أنغاماً موسيقية ومستملحات فكاهية شعار المملكة، معزفة لها قبضة من العاج يحملها الملك في حزامه خلال السلم»^(٨٤).

وأهل السودان أشخاص يتصفون بالليونة والظرافة وحسن المعاملة والبشاشة، يغنون ويرقصون على نغمات طبول صغيرة ومزامير^(٨٥). وعرفت مملكة أسكيا الحاج محمد فن المديح وفي ذلك يقول محمود كعت «ولا من يناديه باسمه في مجلسه إلا كسرديك»^(٨٦). واستخدم السلطان أسكي محمد بنكن الموسيقى داخل السفن «وأول من مشى بالدفوف في السفينة. وهو الذي اخترع فترف وكبتند آلتى اللهو، وفترف (بفاء مضمومة) بعدها تاء مضمومة فراء مكسورة ففاء مضمومة) يشبه البوق، وكبتند وهو كالطبل إلا أن صوت الطبل أرفع منه، وهما معروفان عندهم ولم يكن فترف إلا لسلطان أير»^(٨٧). ويرى أحد الباحثين المعاصرين انخراط الموسيقى الزنجية هي الأخرى في ذات الهم الثقافي

واللوزينجات، والقاهرات، والكنافات والقطائف والمشهدات وأصناف الحلوات، فلا يوجد أحذق بصنعتها منهن»^(٧٠). وحوالي مدينة غانة توجد أبار عذبة منها يشربون وعليها يعتملون الخضروات^(٧١).

وتحدث محمود كعت عن طريقة تقديم الطعام للضيوف في إفريقيا جنوب الصحراء فقال: «ونزل أسكي محمد، وعانقه محمود والقائد مامي والكبراء كافة، ورحب بهم، وأخذ بيده وساقاه إلى خبايا وأجلساه على مرتبتهما بين نمركته وجلس تحته... وأمر محمود ومن معه من سلسلته وأهل الدائرة وحلوا غرائر التمر والزبيب والكور، وفي أيدي بعضهم طيفور»^(٧٢)، وبعضهم في أيديهم المناديل، يتبعون صفوف أصحاب أسكي، ويناولهم، ثم أخرجوا إليهم الموائد واللحوم والمشويات وأكلوا، وبعضهم واقفون على رؤوسهم بالماء في طست، ومنهم من يناولهم الماء بعد الفراغ من الأكل، ومنهم من يحمل الماء لغسل الأيدي، والمناديل يمسحون أيديهم فيها»^(٧٣). ويتحدث الحسن الوزان عن أمراض منتشرة ناتجة عن حالة الأطعمة المتأولة فيها كالسّمك واللبن والزبد واللحم الممزوج بعضها ببعض ونصف المواد الغذائية الموجودة بتبكتو مستوردة تقريباً من كبرة^(٧٤). والملح كذلك يستورد من تغزة^(٧٥).

٢/٥- اعتمدت الأطباق الإفريقية على غنى

الموارد الفلاحية في بعض البلدان الإفريقية

توفرت إفريقيا على مناطق فلاحية غنية، حيث كانت غينيا تنتج القطن والشعير والأرز، ولها أنعام كثيرة وأسماك وفيرة في شواطئها^(٧٦). ويتوفر إقليم مالي على أراضي خصبة تنتج الوفير من الحبوب والقطن، وترعى فوق مراعيها، قطائع هامة من الأغنام، وكل هذه الخيرات، تُضاف إلى التجارة، فتجعل الأهالي يرفلون في الثراء والرخاء.^(٧٧) وتوفرت تمبوكتو على أراضي خصبة، تنتج كميات وافرة من القمح والذرة والشعير، ويملك الفلاحون كثيراً من الأنعام، ولا تنقص المواطنين الألبان والزبدة، لكن الملح قليل في الأسواق، ويتحتم استيراده من مقالع تغزة التي تبعد بنحو مائة وسبعين فرسخاً.^(٧٨) ويزخر إقليم كاو^(٧٩) بتوفر الأراضي الخصبة والمراعي الخضراء والأنعام الكثيرة، وينتج البطيخ

الإحالات المرجعية:

- (١) رأس صولوويس هو رأس أشقار أو رأس كانتان، مصطفى أعشي، «أحاديث هيرودوت عن الليبيين (الأمازيغ) (٤٨٩/ ٤٨٧- ٤٢٥) قبل الميلاد»، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠٠٩م، ص ٣٥.
- (٢) الملك الفارسي أكسيركسيس حكم ما بين (٤٨٦ و ٤٦٥ ق.م)، قاد حملته على الإغريق سنة ٤٨٠ ق.م. وفي هذا الصدد يذكر هيرودوت أن أكسيركسيس (كسرا) استعان في معركة ترمولولي بالمقاتلين الليبيين (الأمازيغ) من راكبي العربات البالغ عددهم عشرين ألف مقاتل. وهذا يعني أن هذا الملك كان يعرف الأمازيغ ويعرف قارتهم ليبيا. لذلك هيأ رحلة استكشافية تطوف حول القارة الليبية تنطلق من البحر الشمالي (البحر الأبيض المتوسط) ثم تتجه إلى مضيق أعمدة هرقل ومنها إلى الجنوب ثم العودة بواسطة الخليج العربي (البحر الأحمر). مصطفى أعشي، «أحاديث هيرودوت عن الليبيين (الأمازيغ) (٤٨٩/ ٤٨٧- ٤٢٥) قبل الميلاد»، مرجع سابق، ص ٣٥.
- (٣) مصطفى أعشي، «أحاديث هيرودوت عن الليبيين (الأمازيغ) (٤٨٩/ ٤٨٧- ٤٢٥) قبل الميلاد»، مرجع سابق، ص ٣٥.
- (٤) الليبيون: يقصد بهم هيرودوت الأمازيغ سكان شمال إفريقيا، تبدأ مواطنهم من غرب النيل شرقا وتمتد إلى رأس صولوويس (أشقار أو كانتان) غربا. ومن البحر الشمالي (الأبيض المتوسط) شمالا إلى أراضي الإثيوبيين جنوبا. مصطفى أعشي، «أحاديث هيرودوت عن الليبيين (الأمازيغ) (٤٨٩/ ٤٨٧- ٤٢٥) قبل الميلاد»، مرجع سابق، ص ٣٦.
- (٥) مصطفى أعشي، «أحاديث هيرودوت عن الليبيين (الأمازيغ) (٤٨٩/ ٤٨٧- ٤٢٥) قبل الميلاد»، مرجع سابق، ص ٣٦.
- (٦) مصطفى أعشي، «أحاديث هيرودوت عن الليبيين (الأمازيغ) (٤٨٩/ ٤٨٧- ٤٢٥) قبل الميلاد»، مرجع سابق، ص ٥٠.
- (٧) مصطفى أعشي، «أحاديث هيرودوت عن الليبيين (الأمازيغ) (٤٨٩/ ٤٨٧- ٤٢٥) قبل الميلاد»، مرجع سابق، ص ٥٠.
- (٨) إبراهيم الحجري، «الإنسان القروسطي، الملامح والعلاقات»، المجلة العربية ٢٢٢، د، د، ن، الرياض، ١٤٣٦هـ، ص ٧٦.
- (٩) أبي عبيد البكري، «المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب»، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د، ت، ط، ص ١٧٥.
- (١٠) أبي عبيد البكري، «المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب»، مرجع سابق، ص ١٧٥.
- (١١) الهادي المبروك الدالي، «التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن ١٥م إلى بداية القرن ١٨م»، دار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٩، الطبعة الأولى، ص ٤٠.
- (١٢) الهادي المبروك الدالي، «التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن ١٥م إلى بداية القرن ١٨م»، مرجع سابق، ص ٨١.
- (١٣) ابن بطوطة، «تحفة النظار في غرائب عجائب الأسفار»، الجزء الأول، حققه محمد عبد المنعم العريان، مصطفى القصاص، دار احياء العلوم، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص ٦٩٨.
- (١٤) توماس هودكير، «ممالك السودان الغربي» فجر التاريخ الإفريقي، ترجمة: عبد الواحد الإمبابي، الدار القومية للطباعة والنشر، د، ت، ط، ص ٢٩.

الشمولي فعكف الفنانون السود على صياغة أصوات إيقاعات تعكس تلالده تلك الموسيقى وصميميتها كما تعكس خلفيتها الطقوسية ملازمتها للمارسي واليومي في حياة الأسود ومنها جاءت فريدة الإبداع الموسيقي الزنجي وكذا منشأ احتكاره للذوق العالمي^(٨٨).

خاتمة

يتبين أن اللباس في إفريقيا يختلف من طبقة إلى أخرى ومن مدينة إلى أخرى، غير أن المعطيات التي قدمها الرحالة العرب تدفعنا إلى التساؤل: كيف يمكن أن تكون إفريقيا غنية بالذهب وفيها رواج تجاري والناس فيها عراة أو يلبسون جلود الحيوانات؟ هل يعود ذلك إلى تفاوت طبقي داخل إفريقيا؟ أم يرجع إلى عدم استفادة الأفارقة من الثروات التي تزخر بها إفريقيا؟ وهل يرجع ذلك إلى عدم اهتمام الإفريقي بمظهره؟ وهل يمكن أن نقول إن ذلك يعود إلى رغبة الرحالة العرب في تكريس النظرة التي كانت سائدة عن الإفريقي العبد بكل ما يحمله من دونية وبالتالي الإفريقي الذي يعيش كالحيوانات وينتقل عاريا الذي لا يعرف كيف يأكل ويخلط الأغذية فيصاب بالمرض.

إن هذا المقال يفتح المجال للعديد من التساؤلات والفرضيات. الإفريقي الذي يعرف الموسيقى والفن والمرح لا يلبس ثيابا يخرج عاريا وكيف يمكن تقبل فكرة انتشار العلم بإفريقيا وعدم قدرة الأفارقة على تنظيم غذائهم وبالتالي معرفة الأسباب المؤدية للأمراض، بإفريقيا التي عرفت السحر عرفت العلاج الطبي بالنباتات الطبية، وفي ذلك يرى «فكيكوبو» «أن ممارسة السحر هي وسيلة للانتقال بالتفكير عند الفرد والاتصال به روحياً إن السحر والتعاويذ التي تشفي من الأمراض ما هي في الواقع إلا علاج بالتأثير النفسي على المريض»^(٨٩).

إن هذه المعطيات المقدمة تحتاج الكثير من البحث والتدقيق والتحقيق ولذلك يحاول الباحثون الأفارقة تفنيد المسلمات والمعطيات المقدمة عن الإنسان الإفريقي والتي سعت الدول الإمبريالية إلى تأكيدها كمبرر لاحتلال الشعوب الإفريقية ونشر المدنية والحضارة بإفريقيا.

- (٣٣) الهادي مبروك الدالي، «التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن ١٥ إلى بداية القرن الثامن عشر»، مرجع سابق، ص ٣٦.
- (٣٤) الهادي مبروك الدالي، «التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن ١٥ إلى بداية القرن الثامن عشر»، مرجع سابق، ص ٣٧.
- (٣٥) مارمول كاريخال، «إفريقيا»، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ١٩٩-٢٠٠.
- (٣٦) شعب الماكارانجا: كان يعيش في القرن ١٦م وهو السلالة المضطربة للشعب الأصلي الذي أقام مباني الزمبابوي الحجرية الأولى في تاريخ يقع في فترة المائتي عام أو الخمسمائة عام قبل ذلك. رونالد أوليفر، «لغز زمبابوي» فجر التاريخ الإفريقي، ترجمة عبد الواحد الإيمابي، الدار القومية للطباعة والنشر، د، ت، ط، ص ٣٩.
- (٣٧) رونالد أوليفر، «لغز زمبابوي» فجر التاريخ الإفريقي، ترجمة عبد الواحد الإيمابي، مرجع سابق، ص ٣٩.
- (٣٨) مارمول كاريخال، «إفريقيا»، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ٢٠٥.
- (٣٩) الحسن بن محمد الوزان، «وصف إفريقيا»، الجزء الثاني، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، مرجع سابق، ص ١٦٦.
- (٤٠) الحسن بن محمد الوزان، «وصف إفريقيا»، الجزء الثاني، ترجمة/ محمد حجي ومحمد الأخضر، مرجع سابق، ص ١٧.
- (٤١) ج. د. فاج، «دول غابات غينيا» فجر التاريخ الإفريقي، ترجمة عبد الواحد الإيمابي، مرجع سابق، ص ٥٣.
- (٤٢) د. ه. جونز، «شعوب ممالك السودان الأوسط» فجر التاريخ الإفريقي، ترجمة عبد الواحد الإيمابي، مرجع سابق، ص ٤٦.
- (٤٣) إبراهيم الحجري، «الإنسان القروسطي»، الملامح والعلاقات، مرجع سابق، ص ٥.
- (٤٤) إبراهيم الحجري، «الإنسان القروسطي»، الملامح والعلاقات، مرجع سابق، ص ٥١٥.
- (٤٥) الهادي مبروك الدالي، «التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن ١٥ إلى بداية القرن الثامن عشر»، مرجع سابق، ص ٣٦.
- (٤٦) ابن خلدون، «مقدمة ابن خلدون»، الجزء الأول، حققه عبد الله محمد الدرويش، د، د، ن، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، الطبعة الأولى، ص ٢٨٣.
- (٤٧) إبراهيم الحجري، «الإنسان القروسطي»، الملامح والعلاقات، مرجع سابق، ص ٥٢.
- (٤٨) إبراهيم الحجري، «الإنسان القروسطي»، الملامح والعلاقات، مرجع سابق، ص ٧٦-٧٧.
- (٤٩) ابن خلدون، «مقدمة ابن خلدون»، الجزء الأول، حققه عبد الله محمد الدرويش، مرجع سابق، ص ٣٣.
- (٥٠) مصطفى أعشي، «أحاديث هيرودوت عن الليبيين (الأمازيغ) ٤٨٧/ ٤٨٨-٤٢٥ قبل الميلاد»، مرجع سابق، ص ٦٢.
- (٥١) مصطفى أعشي، «أحاديث هيرودوت عن الليبيين (الأمازيغ) ٤٨٧/ ٤٨٨-٤٢٥ قبل الميلاد»، مرجع سابق، ص ٤٣.
- (٥٢) مصطفى أعشي، «أحاديث هيرودوت عن الليبيين (الأمازيغ) ٤٨٧/ ٤٨٨-٤٢٥ قبل الميلاد»، مرجع سابق، ص ٦٨.
- (٥٣) الهادي مبروك الدالي، «التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن ١٥ إلى بداية القرن الثامن عشر»، مرجع سابق، ص ٢٨.

- (١٥) بلاد صوفالة: بلاد شاسعة الأطراف، يسوس شعبها ملك أسود اسمه بيناموطابا، وقد أطلق عليه البرتغاليون لقب امبراطور الذهب، نظراً لما يوجد في ملكه من مناجم من المعدن النفيس. تتاخم صوفالة بلاد الكونغو وتتضمن أقاليم كبيرة يقطنها قوم من السود. يتواجدون خصوصاً بين جبال البطح والبحر. مارمول كاريخال، «إفريقيا»، الجزء الثالث، ترجمه محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر وآخرون، دار نشر المعرفة الرباط. ١٤٠٨-١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٨-١٩٨٩ م، ص ٢٣٩.
- (١٦) مارمول كاريخال، «إفريقيا»، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ٢٤٣.
- (١٧) مارمول كاريخال، «إفريقيا»، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ٢٤٣.
- (١٨) انظر: مارمول كاريخال، «إفريقيا»، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ٢٤١.
- (١٩) الهادي مبروك الدالي، «التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن ١٥ إلى بداية القرن الثامن عشر»، مطابع الوحدة العربية، الزاوية، ٢٠٠١، الطبعة الثانية، ص ٣٤-٣٥.
- (٢٠) مملكة كياك: من الدويلات التي قامت إثر تفكك غانة القديمة. كانت تحت زعامة عشائر صوصو، وهي المجموعات الجنوبية لقبائل سوننكي، توسعت مملكة كياك على حساب جاراتها خاصة في أيام ملكها المحارب سومانغورو كاتيه، وهو الذي استولى على دير في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي.. محمود كعت التنيكتي، «تاريخ الفتاش»، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق، ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م، الطبعة الأولى، ص ١٣.
- (٢١) محمود كعت التنيكتي، «تاريخ الفتاش»، مرجع سابق، ص ١٣١-١٣٢.
- (٢٢) الهادي المبروك الدالي، «التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن ١٥م إلى بداية القرن ١٨م»، مرجع سابق، ص ٨١.
- (٢٣) الحسن بن محمد الوزان، «وصف إفريقيا»، الجزء الثاني، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي بيروت، ١٩٨٣، الطبعة الثانية، ص ١٧٨.
- (٢٤) الهادي مبروك الدالي، «التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن ١٥ إلى بداية القرن الثامن عشر»، مرجع سابق، ص ٣٥.
- (٢٥) الهادي المبروك الدالي، «التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن ١٥م إلى بداية القرن ١٨م»، مرجع سابق، ص ٨٢.
- (٢٦) أبي عبيد البكري، «المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب»، مرجع سابق، ص ١٧٥.
- (٢٧) الحسن بن محمد الوزان، «وصف إفريقيا»، الجزء الثاني، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، مرجع سابق، ص ١٦٣.
- (٢٨) الحسن بن محمد الوزان، «وصف إفريقيا»، الجزء الثاني، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، مرجع سابق، ص ١٧٦.
- (٢٩) الحسن بن محمد الوزان، «وصف إفريقيا»، الجزء الثاني، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، مرجع سابق، ص ١٧.
- (٣٠) مارمول كاريخال، «إفريقيا»، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ٢٤٣.
- (٣١) محمود كعت التنيكتي، «تاريخ الفتاش»، مرجع سابق، ص ٢١٨.
- (٣٢) الهادي المبروك الدالي، «التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن ١٥م إلى بداية القرن ١٨م»، مرجع سابق، ص ٤١.

- (٧٣) محمود كعت التنبكتي، «تاريخ الفتاش»، مرجع سابق، ص ٢٧٧-٢٧٨.
- (٧٤) الحسن بن محمد الوزان، «وصف إفريقيا»، الجزء الثاني، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، مرجع سابق، ص ١٦٨ - ١٦٩.
- (٧٥) الحسن بن محمد الوزان، «وصف إفريقيا»، الجزء الثاني، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، مرجع سابق، ص ١٦٦.
- (٧٦) مارمول كاريخال، «إفريقيا»، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ١٩٩.
- (٧٧) مارمول كاريخال، «إفريقيا»، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ٢٠١.
- (٧٨) مارمول كاريخال، «إفريقيا»، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ٢٠٢.
- (٧٩) يبعد إقليم كاو عن تنبكتو بنحو مائة وخمسين فرسخاً، ويقع في شرقها الجنوبي ويسمى الاقليم باسم عاصمة كاو التي تشبه مدينة كبيرة. مارمول كاريخال، «إفريقيا»، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ٢٠٤.
- (٨٠) مارمول كاريخال، «إفريقيا»، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ٢٠٤-٢٠٥.
- (٨١) الحسن بن محمد الوزان، «وصف إفريقيا»، الجزء الثاني، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، مرجع سابق، ص ١٦٧.
- (٨٢) ابن بطوطة، «تحفة النظار في غرائب عجائب الأسفار»، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٦٩٨.
- (٨٣) ابن بطوطة، «تحفة النظار في غرائب عجائب الأسفار»، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٦٩٧.
- (٨٤) مارمول كاريخال، «إفريقيا»، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ٢٤٤.
- (٨٥) مارمول كاريخال، «إفريقيا»، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ٢٠٣.
- (٨٦) كسردنك: أي المداح الشعبي، ولعل مناداته للأسكيا باسمه الصريح، فيها اعتبرا فني، وهو أن طبيعة المدح تستلزم في الرؤية الجمالية الفنية في إفريقيا التنصيص على اسم الممدوح واسم أمه وأبيه وقبيلته، قبل إضفاء الألقاب الممكنة على الممدوح. محمود كعت التنبكتي، «تاريخ الفتاش»، مرجع سابق، ص ٩٢.
- (٨٧) محمود كعت التنبكتي، «تاريخ الفتاش»، مرجع سابق، ص ١٨٨.
- (٨٨) النزعة الزنجية في الشعر المهاجر محمد الفيتوري نموذجاً، الجزء الثاني، منشورات اتحاد كتاب المغرب طبعة ٢٠١٤م، ص ١٣٤.
- (٨٩) كلود فوتيه، «إفريقيا للإفريقيين»، ترجمة أحمد كمال يونس، دار المعارف القاهرة، دت، ط، ص ٥٣ - ٥٤.
- (٥٤) سن: طبقة العلماء، وكان مقرهم حي المسجد الجامع الذي نسب- فيما بعد- إليهم، فقبل، سن كري، أي حي سن. محمود كعت التنبكتي، «تاريخ الفتاش»، مرجع سابق، ص ٩٢.
- (٥٥) محمود كعت التنبكتي، «تاريخ الفتاش»، مرجع سابق، ص ٩٢.
- (٥٦) الهادي مبروك الدالي، «التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن ١٥ إلى بداية القرن الثامن عشر»، مرجع سابق، ص ٢٩.
- (٥٧) ابن بطوطة، «تحفة النظار في غرائب عجائب الأسفار»، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٦٩٢.
- (٥٨) ابن بطوطة، «تحفة النظار في غرائب عجائب الأسفار»، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٦٩٣.
- (٥٩) ابن بطوطة، «تحفة النظار في غرائب عجائب الأسفار»، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٦٩٥.
- (٦٠) ابن بطوطة، «تحفة النظار في غرائب عجائب الأسفار»، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٦٩٦.
- (٦١) الحسن بن محمد الوزان، «وصف إفريقيا»، الجزء الثاني، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، مرجع سابق، ص ١٦٩.
- (٦٢) الحبيب الجنتاني، «المجتمع العربي الإسلامي الحياة الاقتصادية والاجتماعية»، عالم المعرفة، العدد ٣١٩، سبتمبر ٢٠٠٥م مطابع السياسة الكويت، ص ١٧٨.
- (٦٣) مارمول كاريخال، «إفريقيا»، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ٢٠٧.
- (٦٤) شجر غور: تعرف هذه الشجرة علمياً ب(c.nitida) وطعم ثمارها مر، وتنبت هذه الشجرة في الغابات المطيرة على امتداد المناطق من سواحل غينيا إلى الكونغو. وللغور خواص كثيرة جعلتها ثمرة مميزة في الوسط الإفريقي، فتحتوي مواد نيكوتين منعشة ومنشطة، تسهل على ماضغها العمل بنشاط، وتساعد التجار على قطع المسافات الشاسعة في الصحراء الكبرى دون عطش أو جوع أو إعياء شديد، وبمرور الوقت تغلغت في الحياة الاجتماعية والثقافية لشعوب إفريقيا. محمود كعت التنبكتي، «تاريخ الفتاش»، مرجع سابق، ص ١٢٨.
- (٦٥) محمود كعت التنبكتي، «تاريخ الفتاش»، مرجع سابق، ص ١٢٨.
- (٦٦) محمود كعت التنبكتي، «تاريخ الفتاش»، مرجع سابق، ص ٢٧٢.
- (٦٧) الهادي مبروك الدالي، «التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن ١٥ إلى بداية القرن الثامن عشر»، مرجع سابق، ص ٣٠-٣١.
- (٦٨) ابن بطوطة، «تحفة النظار في غرائب عجائب الأسفار»، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٦٩٢.
- (٦٩) الهادي مبروك الدالي، «التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن ١٥ إلى بداية القرن الثامن عشر»، مرجع سابق، ص ٣١.
- (٧٠) الحبيب الجنتاني، «المجتمع العربي الإسلامي الحياة الاقتصادية والاجتماعية»، مرجع سابق، ص ١٦٤.
- (٧١) الهادي المبروك الدالي، «التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن ١٥م إلى بداية القرن ١٨م»، مرجع سابق، ص ١٧٥.
- (٧٢) طيفور: تعني أطباق الطعام، محمود كعت التنبكتي، «تاريخ الفتاش»، مرجع سابق، ص ٢٧٨.

الدعوة الدينية

ودورها في تأسيس الإطار النظري للدولة خلال العصر الوسيط

مقارنة بين الأسس النظرية للدعوة الدينية

عند كل من المرابطين والموحدين

محمد امحرزي

باحث بسلك الدكتوراه
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية



د. حميد اجميلي

أستاذ التعليم العالي
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية



ملخص

يتناول هذا المقال دور الدعوة الدينية في تأسيس الإطار النظري للدولة خلال العصر الوسيط، من خلال مقارنة الأسس النظرية للدعوة الدينية عند المرابطين والموحدين. يبرز المقال كيف اعتمدت كل من الحركتين على الدعوة الدينية لتحقيق مشروعيتها وسلطتها السياسية في سياق التحديات السياسية والدينية التي كانت سائدة في العالم الإسلامي آنذاك. في حالة المرابطين، تم تأسيس مشروعيتها الدولة عبر المذهب المالكي، الذي أصبح المذهب الرسمي للدولة، وكان جزءاً من مشروعهم لتوحيد بلاد المغرب والأندلس. كما اعتمدوا على دعم الخلافة العباسية لإضفاء شرعية دينية على حكمهم، وجعلوا الجهاد ضد العدو النصراني جزءاً من مشروعهم الإصلاحية. أما الموحدون، فقد استخدموا الدعوة الدينية لتأسيس مشروعهم السياسي عبر تأثرهم بالمذهب الشيعي ونظرية المهديّة. حيث قدموا أنفسهم كـ "أمراء المؤمنين" وتجاوزوا الخلافة العباسية لتبرير سلطتهم. اعتمدوا على مزج أفكار من مختلف المذاهب الإسلامية لتحقيق هدفهم في إسقاط دولة المرابطين. يركز المقال على المقارنة بين الدعوتين الدينيّتين من حيث الأيديولوجيات واستخدام الدين كأداة سياسية، مشيراً إلى تأثير هذه الدعوات على استقرار الدولة وسقوطها. في الختام، يشير المقال إلى أن الدعوة الدينية لم تكن فقط أداة لبناء السلطة، بل كانت أيضاً سبباً للتحديات الداخلية التي واجهتها الدولتان.

كلمات مفتاحية:

الدعوة الدينية؛ المرابطون؛ الموحدون؛ مشروعيتها الدولة؛ السلطة السياسية الإسلامية

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٣ أكتوبر ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ١٩ نوفمبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.432361.1297

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد امحرزي، حميد اجميلي، "الدعوة الدينية ودورها في تأسيس الإطار النظري للدولة خلال العصر الوسيط: مقارنة بين الأسس النظرية للدعوة الدينية عند كل من المرابطين والموحدين". - دورية كان التاريخية. - السنة التاسعة عشرة- العدد السادس والسبعون: فبراير ٢٠٢٦. ص ٥٠ - ٥٩.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: mohamed.mharzi2@uit.ac.ma

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع المُنسب 4.0 (Creative Commons Attribution 4.0 International License) (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

الرمزي الذي حرص عليه يوسف بن تاشفين مع المستظهر العباسي^(٥).

في حين نجد أن الاختلاف البين بين الدعوة الدينية للمرابطين والموحدين قد أثر على فهم كل واحدة منهما لمفهوم المشروعية، فنجد هذه الأخيرة حرصت كذلك على التأسيس لمشروعيتها السياسية من خلال استعمال الانتقائية والأخذ من كل المذاهب التي تخدم مشروعهم السياسي وتبرر قيامهم على المرابطين، فأسس مذهبهم من خليط من الأفكار فقد أخذوا مبدأ التوحيد من المعتزلة، وأشبعوه بنظرية المهديوية الشيعية التي تعتبر من أكثر النظريات تشدداً في الفكر الإسلامي، وادعت الخلافة لنفسها متجاوزة الخلافة العباسية، فتلقب الحكام الموحدون بلقب "أمير المؤمنين" منذ البداية في عهد عبد المؤمن بن علي، وكان خلفاؤه من بعده خاصة في مرحلة قوة الدولة واضحين في ذلك إلى درجة السعي إلى الاستيلاء على بلاد مصر وما وراءها بكامل الثقة باعتبارهم خلفاء وأصحاب مشروع إصلاح يشمل كل العالم الإسلامي وبكونهم ورثة المهدي^(٦).

وقد عكست الألقاب التي حملها كل من حكام المرابطين والموحدين، التوجه العام لكل دولة هذا التوجه الذي كان ينبع من اختلاف المرجعية التي استندت عليها كلا منهما، فلقب أمير المسلمين الذي حمله الأمراء المرابطين كان تعبيرا منهم على التشبث بوحدة العالم الإسلامي بقيادة بغداد التي زكت الأمر وثبتته عبر تزكيتها لمشروعية المرابطين بكل من المغرب والأندلس، أما الموحدين فقد اتخذوا من مناهضة الزعامات الشرقية أمرا لا محيد عنه^(٧)، حيث نجدهم يجتاوزون الخلافة العباسية ويمنحون أنفسهم لقب الخلفاء وأمراء المؤمنين، على اعتبار أنهم ورثة بن تومرت باعتباره "المهدي" والذي تفضل على نفسه بلقب الإمام الذي يعتبر الحاكم الأوحده للعالم الإسلامي فور ظهوره حسب الفكر الشيعي الذي نهلت منه الحركة الموحدية فكرة المهديوية^(٨)، فقد اختارت الحركة بكل بساطة أن يتجاوز طموحها بلاد المغرب، ليشمل بلاد المشرق وأقامت مشروعيتها على الانتساب إلى الشرف أولا في زمن ابن تومرت، ثم إلى القرشية في عهد عبد المؤمن^(٩).

يكاد يتفق كل المؤرخين والمهتمين بمسألة أسس قيام الدولة في العصر الوسيط في العالم الإسلامي على أن الدعوة الدينية كانت حاضرة وبقوة لدى كل الحركات السياسية المطالبة بالإصلاح، فحتى تتحقق مسألة المشروعية التي تبحث عنها كل الحركات السياسية قبل قيامها على الدولة الحاكمة، وذلك لتبرير وشرعنة خروجها على السلطة الحاكمة من جهة، ولأن المنظومة الإسلامية ترى بأن مسألة الغزو وحمل السلاح لا بد أن تتشع بوشاح الإصلاح في الداخل أو الإعلان عن الجهاد ضد العدو المتربص بدار الإسلام، فكان من اللازم أن يكون الإصلاح والغزو مجتمعين في نسق واحد^(١)، وبالتالي فالمشروعية تتمثل فيما يمكن أن نسميه اليوم بمشروع إصلاح مؤسس، بمعنى أن الدولة تقوم دائماً بالاستناد إلى مشروع إصلاحي مؤسس منذ بدايتها، أو تعمل على الاحتماء بمن يحمل صفة الإصلاح ويزعم أن له القدرة على رد الأمور إلى نصابها^(٢).

فبالنسبة للدولة المرابطية فقد تمثلت مشروعيتها السياسية في توحيد المغرب والأندلس تحت راية المذهب المالكي، وكان هذا هو مرتكز انطلاقها منذ مرحلة الدعوة على يد مؤسسي الحركة، واقتفت كل الطرق الشرعية لتتيمم هذه المشروعية التي استكملت ببيعيتها للخلافة العباسية لتكسب سنداً شرعياً آخر من عمق منظومة الحكم الإسلامية التي تمثلها خلافة بغداد، التي باركت التحركات الجهادية التي قام بها يوسف بن تاشفين في الأندلس لتحسين دار السلام ودفع الخطر النصراني عليها^(٣)، حيث تبنى المرابطون نظرية السلطة السياسية العليا السنية، والتي تعتبر الشورى والاختيار ركيزتها الأساسية، فالفقهاء باعتبارهم أهل الحل والعقد في هذا المنظومة، وباعتبارهم كذلك واضعوا الإطار النظري الذي قامت عليه الدولة، أوعزوا للمرابطين باحترام الخلافة الإسلامية في المشرق، رغم أن دولتهم قامت بمجهوداتهم الخاصة، فقتنوا بلقب أمراء المسلمين احتراماً لمبادئ النظرية الدينية التي قامت عليها دولتهم والتي تؤمن بوحدة الأمة^(٤)، وهذا ما يفسر الاتصال

الفاطمي الإسماعيلي الباطني في الغرب الإسلامي كما أسلفنا الذكر^(١٤)، والقضاء على الإمارات الزناتية التي أرهقت ساكنة البلاد بالمغارم والضرائب غير الشرعية، وهذا ما أعطى للحركة المرابطية بعدها الديني والاجتماعي وجعل معظم المغاربة يلتفون حولها ويساهمون في إنجاح سيطرتها على البلاد، وفي المقابل فقبائل صنهاجة الصحراء كانت على وعي تام بمجريات الأمور بالمنطقة.

فلقاء يحيى ابن إبراهيم الجدالي بأبي عمران الفاسي^(١٥) في طريق عودته من رحلته الحجية، والتي توج بها النهضة التي حققتها القبائل الصنهاجية جنوب المغرب، إذ نجحت في إعادة تشكيل حلف صنهاجي استطاع السيطرة على شرايين التجارة الصحراوية، وأصبحت تطلعاته تتنامى شيئاً فشيئاً لتحقيق مشروع سياسي ينقله من طور فيدرالية قبلية إلى مرحلة الدولة الجامعة لشتات كل المجال المغربي^(١٦)، وهذا المنطلق كان متفقاً عليه من طرف كل القوى السياسية التي حكمت المغرب، فالمستوى الاقتصادي كان له دور حاسم في التأسيس للمشروع السياسي لذلك كانت السلطة السياسية حريصة بدرجة كبيرة على التحكم بالمسالك التجارية، وعياً منها بأنها مفتاح السيطرة الاقتصادية التي ستمكنها فيما بعد من تحقيق طموحاتها السياسية، لذلك غالباً ما نلاحظ أن هناك تمسكاً شبه حتمي بين السيطرة على الطرق التجارية وغزو المجال من قبل الجهة السياسية العسكرية التي تتزعم حركة الغزو والتجميع والمركزة^(١٧)، ولم تخرج التجربة المرابطية عن هذه القاعدة حيث حرصت على تتبع مسار الطرق التجارية، وهو ما مكنها في النهاية من فتح المجال المغربي وتوحيده، واحتكاره بعد القضاء على الكيانات السياسية المنافسة لها، حيث عملت على حرمانها من شريان حياتها والممثل في الطرق التجارية، ثم هزيمتها عسكرياً كقوة سياسية، ولكن قبل ذلك عمل مؤسس الحركة على البحث عن سند ديني.

فجاءت رحلة يحيى ابن إبراهيم لتحقيق هذه الغاية حيث كان لزاماً على الحركة الصنهاجية البحث عن سند ديني لإعطاء المشروع طموحاتها السياسية وهو الأمر الذي يفسر اللقاء الشهير بين الفقيه المالكي أبي عمران

ويمكن أن نستخلص بأن كلا من الدولتين سواء المرابطية أو الموحدية حملت لواء مذهب خاص بها، اختارت الأولى الانطلاقة من الواقع السياسي والتاريخي الذي يزكي قوة المذهب المالكي وشراسة نضال فقهاء المالكية في نشره وتهيئ الأرضية لسيادته فيما بعد على كل بلاد المغرب، بينما بحثت الثانية أي الدولة الموحدية على نظرية تتجاوز بها قوة المشروع المرابطي المتجذر في وجدان المغاربة من خلال القول بنظرية المهدوية والإمامة، لكن النقطة التي اتفقت عليها كلا الدولتين هو تغليب هاجس الدعوة على كل الاعتبارات الأخرى حتى السياسية منها التي كانت الهدف الرئيس للموحدين على الأقل وذلك للظهور بمظهر المصلح المنقذ^(١٨).

أولاً: الدعوة الدينية عن المرابطين

شكل المذهب المالكي المذهب الرسمي للدولة المرابطية بل إن نواتها الأولى انبثقت من رحم الحركة الدينية السرية المالكية التي كانت تهدف إلى توحيد بلاد المغرب مذهبياً وسياسياً، وتتصدى لتمدد المذاهب الأخرى وخاصة الشيعية منها، وهذا ما يذهب إليه أحد الباحثين الذي يرى بأن قيام دولة الملتزمين، كانت في الحقيقة رد فعل من المالكية ضد انتشار المذهب الشيعي على يد الدولة الفاطمية التي انطلقت من الجناح الغربي للعالم الإسلامي وكانت تسعى للسيطرة على الخلافة بالمشرق والقضاء على المذهب السني سياسياً على الأقل، فاتخذ خصومهم ببلاد المغرب من المذهب المالكي السني سلاحاً دينياً وفكرياً ضدهم^(١٩)، بمبادرة من فقهاء المالكية ابتداءً من أبي عمران الذي أنشأ مجالس وحلقات علمية، كان بمثابة خلايا سرية لإنشاء وإخراج الدعاة^(٢٠)، في إطار شبكة من العلاقات غير المكشوفة التي انخرط فيها كبار فقهاء المالكية بالمغرب ووزعوا الأدوار بينهم لتهيئة الظروف المناسبة لتحقيق مرادهم^(٢١)، وما أن وجدوا العصية التي يستندون عليها ممثلة في قبائل صنهاجة حتى خرجوا للعمل في العلن، لتوحيد كامل بلاد المغرب والأندلس تحت سلطة سياسية مالكية سنية، هدفها القضاء على بقايا الخوارج البرغواطية في المغرب الأقصى وبالضبط على طول الشريط الساحلي بمنطقة تماسنا، وتطوير المذهب

داعية الموحدين أعطاه معنى مخالف لما كان يروج في الغرب الإسلامي آنذاك من خلال تأسيس مذهب يقوم على أساس انتقاء أفكار من عقائد ومذاهب شتى، من أجل محاربة فقهاء المالكية أكثر من المذهب المالكي نفسه^(٢٢)، والذي كان يمثل في نظره السلطة المرابطية التي ظهرت فيها العديد من المناكر التي يجب تقويمها للوصول إلى العقيدة الصحيحة حسب زعمه، متخذاً من مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منطلقاً لتأليب الرعية على أمراء الدولة وفي نفس الوقت سلاحاً يكسب به تعاطف العامة ويصوره بصورة التأثير التقني، ونجح الموحدون إلى حد بعيد في حملتهم الدعائية ضد المرابطين حيث قاموا بحملة تشويه منظم لسلطتهم لم يسبق لها مثيل في التاريخ الإسلامي، اللهم في مرحلة التمهيد للدعوة العباسية بالمشرق، ومن طرف الفاطميين بالمغرب ولا نستبعد أن بن تومرت اطلع على التجريبتين واستفاد منهما على المستوى التنظيمي على الأقل^(٢٣).

ومن بين الروايات الدعائية التي عمل الموحدون على استغلالها بشكل كبير هي مسألة لقاء بن تومرت بالغزالي ببغداد ودعوته على المرابطين وبأن تكون نهاية دولتهم على يدي بن تومرت بعد أن بلغه إحراق كتابه على يديهم، ومن المشككين في أمر هذا اللقاء نجد ابن الأثير^(٢٤)، وعبد الواحد المراكشي^(٢٥)، فالغزالي هاجر بغداد منذ سنة ٤٨٩هـ، ثم إلى دمشق والقدس وبعدها التحق بطوس ومنها إلى نيسابور، في الوقت الذي كان فيها ابن تومرت يدرس بالمدارس النظامية ببغداد^(٢٦)، بل إن الباحثين المحدثين من يشك حتى في وصول ابن تومرت إلى بغداد نظراً لتضارب الرواية التي تقدمها المصادر الموحدية التي تصطدم بمجموعة من الإشارات حول مغادرة أبي حامد الغزالي إلى بلده طوس حيث توفي هناك سنة (٥٠٥هـ / ١١١١م)^(٢٧)، مما يعني استحالة حدوث لقاء بينهما لأن الغزالي لم يكن متواجداً في المدينة وقت قدوم بن تومرت إليها، ويرجع الاهتمام الذي أبدته المصادر الموحدية لمسألة هذا اللقاء، إلى تأثير فكر أبي حامد الغزالي على الحياة الدينية ببلاد المغرب الذي كان واضحاً لكل ذي عين فاحصة، إذ تبنته العديد من الوجوه الفقهية كابن النحوي (ت. ٥١٣هـ / ١١١٩م)، وهذا ما يفسر إصرار أتباع بن تومرت على ترويج فكرة لقاء

والزعيم الصنهاجي يحيى ابن إبراهيم الذي وجد في فقهاء المالكية ضالته المنشودة وذلك في بداية القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، والذي عرفت بدايته انتصاراً بينا للمذهب السني حيث أضحت القيروان قلعة ومنارة للمالكية عم إشعاعها كل الغرب الإسلامي^(٢٨).

ولم يكن نفوذ المالكية أمر جديداً أو مستحدثاً في الغرب الإسلامي، بل إن بلاد المغرب والأندلس احتضنت المذهب في وقت مبكر وخاصة في القرن الثالث الهجري، فقد كان لفقهاء الصدارة في الأندلس والمناطق التابعة منذ عهد الدولة الأموية كم سبق أن أشرنا إلى ذلك، وقد ساهمت المرحلة التي سبقت المرابطين والتي تميزت بالصراعات الأموية الفاطمية على طول مجال بلاد المغرب، إلى انقسام المجال ما بين نحل ومذاهب شتى فإلى جانب المذهب المالكي والمذهب الشيعي الإسماعيلي نجد المذهب الخارجي الذي لازال نشيطاً في أطراف البلاد، بالإضافة إلى ما يمكن أن نسميه بالنحلة البرغواطية، وظلت المنطقة تسودها فسيفساء مذهبية متصارعة إلى أن ظهر المرابطون في جزء مهم من الغرب الإسلامي، مما أعطى للمذهب المالكي ولفقهاءه السيادة والنفوذ على اعتبار دورهم الحاسم والرئيسي في انتصار المرابطين^(٢٩)، وبالتالي كانوا أداة ساهمت في نجاح المرابطين في توحيد جزء مهم من بلاد الغرب الإسلامي، بعد أن فشلت كل المحاولات الوحدوية السابقة لهم، إذ فشلت كل من التجربة الوحدوية الأموية التي انطلقت من الأندلس، كما انتهت تجربة الفاطميين بالمغرب إلى نفس المآل^(٣٠)، ولعل الميزة الثانية التي ميزت المشروع الوحدوي المرابطي هو أنه لم يجري بمعزل عن منظومة وحدة الأمة ودار الإسلام حيث كان وفيّاً للخلافة السنية بالمشرق^(٣١).

ثانياً: الدعوة الدينية عند الموحدين

بالنسبة للموحدين فابن تومرت اتخذ من الدعوة الدينية مطية لتحقيق طموحاته السياسة والمتمثلة في إسقاط الدولة المرابطية، حيث أسس بن تومرت دولة جديدة قامت على أساس عقيدة التوحيد بالرغم من أن كل المجتمع المغربي في تلك الفترة مسلم موحد، لكن

على مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منذ دخوله مصر، حيث مارس مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الشيء الذي أدى إلى نفيه من طرف سلطات الإسكندرية، ولم يتوقف عن ذلك حتى بعد ركوبه البحر وقد أورد عبد الواحد المراكشي رواية يقول فيها: "بلغني أنه استمر على عادته في السفينة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى أن ألقاه أهل السفينة في البحر، فأقام نصف يوم يجري في ماء السفينة لم يصبه شيء، فلما رأوا ذلك من أمره، أنزلوا إليه من أخذه من البحر، وعظم في صدورهم ولم يزلوا مكرمين له إلى أن نزل من بلاد المغرب بجاية"^(٢٢)، والتي ما إن حل بها حتى فعل الأمر نفسه وأضاف إليه تصحيح الأحكام الشرعية وطلب العلم وتلقيه في كل من تونس والمغرب الأوسط وإلى حين دخوله إلى فاس وصولاً إلى مراكش، حيث كان حريصاً على تجنب المواجهة مع أصحاب السلطة أو التصدي لأصحاب النفوذ، بل إنه لا يظهر أي ميل للسياسة وأهلها.^(٢٣)

وغالب الظن أن الرواية التي ذكرها المراكشي قد سمعها من أحد المؤمنين بمهدوية بن تومرت من دعاة الموحدين^(٢٤)، الذين لم يجدوا حرجاً في استعمال سعة الخيال لتقديم مهديهم بطريقة أسطورية، وحتى وإن كانت هذه الرواية تضيي على ابن تومرت هالة من القداسة وتجعل منه صاحب كرامة وصلاح، إلا أنها تحمل في طياتها صورة عن وعي بن تومرت بأهمية مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي اتخذته جميع الحركات السياسية مبدأً وغاية.^(٢٥)

ويشير البيدق إلى أن بن تومرت عندما دخل إلى تونس كان من بين ما قام به هو الإمامة للصلاة، وفي يوم الجمعة بعد صلاة الظهر صلى على الجنائز وحسب الرواية التي قدمها فقد "نظر الإمام إلى جنازة من وراء الناس فقال لهم لم لا تصلون على هذه الجنازة، قالوا له يهودي كان يصلي، فقال لهم رضي الله عنه أفيكم من يشهد له بالصلاة؟ فقال الناس نعم من كل جانب ومكان، فقال لهم شهدتم له بالإيمان، ثم أمر من يقيم الصفوف وصلا عليه ونحن وراءه"^(٢٦)، قد تبدو هذه الحادثة عادية وبديهية بالنسبة لفقيه، فإقامة الصلاة وشهادة الجماعة للمتوفي على إقامتها كافية لتشهد له بالإسلام، وهذا ما

زعيمهم مع أبي حامد الغزالي خلال رحلته المشرقية^(٢٨)، بل إنهم حاولوا فيما بعد ترتيب مراحل نشأة وتطور حركتهم على نمط حياة الرسول (ﷺ)، بهجرتها ومحناتها ودعوتها وسراياها وأحداثها وعثراتها وفوزها وفتوحاتها^(٢٩)، مما يعني أن كل الدوافع كانت لديهم لوضع روايات لا علاقة لها بالواقع التاريخي ولا بالمنطق إذ أن بعضها يعد من المعجزات والخوارق التي لا تصح إلا في حق الأنبياء أو الأولياء.

وبالرجوع إلى مسألة لقاء ابن تومرت بالإمام الغزالي، هناك نص بالغ الأهمية أورده صاحب الحل الموشي يوحى بأن مسألة هذا اللقاء كان محط شك حتى داخل الدعوة الموحدية بعد وفاة ابن تومرت، فأثناء زيارة وفد من إشبيلية لمراكش لمبايعة عبد المؤمن، وكان من بينهم القاضي أبو بكر بن العربي، وهو فقيه تكون بالمشرق على يد شيوخ متعددي المشارب والمذاهب من بينهم الإمام الغزالي كما هو معروف^(٣٠)، ولم يفوت عبد المؤمن هذه الفرصة حيث "سأل ابن العربي عن المهدي، هل رآه قط، أو لقيه في مجلس الإمام أبي حامد الغزالي ببغداد؟ فقال له لم ألقه، وإنما سمعت به، وإن الشيخ كان يقول لا بد من ظهوره"^(٣١)، وطريقة سؤال عبد المؤمن حسب هذه الرواية توحى إلى أنه لم يكن يعتقد أن ابن تومرت التقى بالإمام الغزالي أو على الأقل كان يشكك في حدوثه، ونعتقد أن جواب ابن العربي كان في الأساس إرضاءً لعبد المؤمن فقط، بل يمكن القول بأن جوابه لم يكن خالياً من التقية القائمة على المسالمة تجنب الاستفزاز، فملك عبد المؤمن قام على ادعاءات ابن تومرت بالمهدوية، أما قوله "وإن الشيخ كان يقول لا بد من ظهوره"، فهذا لا يعني ابن تومرت نفسه ففكرة المهدي مترسخة في كل المذاهب الإسلامية، ولا بد أن الشيخ كان يقصد مهدياً آخر خارج زمان ومكان انتشار دعوة الموحدين.

ولم تتوقف الدعاية له عند هذا الحد بل صورته بصورة الحريص على تغيير الفساد أينما وجد، فباستقراء المصادر التاريخية التي ذكرت مسار رحلة عودته إلى المغرب، نخلص إلى أن أفعال بن تومرت في مجملها لم تكن فيها ما يشير إلى وجود تطلعات سياسية لديه على الأقل في هذه المرحلة، حيث ركز بشكل كبير

ذهب إليه بن تومرت، بمعنى أنه كان معتدلاً في أمره بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يكن يجرأ على تكفير أحد في إطار سياسته لكسب القلوب واستمالة عامة الناس، السؤال هنا: ما الذي جعله يغير هذه القاعدة مع أمراء المرابطين؟ رغم إقامتهم الصلاة ووقوفهم عند الحدود كما تشهد بذلك جل المصادر التي تناولت تاريخهم، حيث وصل به الأمر إلى تكفيرهم وهم أولياء الأمور حسب القاعدة الفقهية، وحسب ما تشير إليه كل النصوص الدينية المتعلقة بهذا الأمر، أم أن هناك تحولاً طرأ على تفكير بن تومرت وأصبح يتجاوز القواعد الفقهية ويستخدمها حسب مصالحه السياسية، مما يجعله سياسياً أكثر منه فقيهاً.

ويمكن اعتبار ما قام بن تومرت عملاً أصيلاً لرجل داهية استطاع الربط بين القاعدة الدينية التي تأسست عليها حركته، وبين الطموح الشخصي في الوصول إلى السلطة بالاستناد إلى عصبية كانت تحتاج فقط إلى مبرر سياسي وديني لقيامها على الدولة ومتجاوزة لنظريتها في الحكم، فوجدت ضالتها في تجربة بن تومرت التي يظهر من خلالها أنه كان على دراية بكل الأفكار التي ترتبط بالمهدوية^(٣٧)، ومنطلقاً من مبدأ أصيل في الإسلام وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويكفي أن نورد بعض الأمثلة لمعرفة غاية بن تومرت من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمواقف السابقة لابن تومرت وعدم قدرته على الوقوف في وجه العامة أثارت اعتراضهم عليه وتهديدهم له ولأتباعه بالقتل والتشكيل أثناء دخوله لدرق قلل، حين أمر أهله بتغيير المنكر، فأجابوا أصحابه "معروفنا عندنا ومعروفكم عندكم، سيرا وإلا نمثل بكما وبفقيهكما"^(٣٨)، ولما بلغ جوابهم بن المرابطيين، ار الهرب على تغيير المنكر حيث قال لمن يرافقه من أصحابه "سيروا لئلا يصيبهم بلاء فيصيبنا معهم"^(٣٩)، ونفس الموقف كان له في مكناسة، فقد أورد ابن خلدون أن بن تومرت أثار غضب التي ضربته وأرغمته على الفرار من المدينة^(٤٠)، فكيف له أن يهرب بجلده خوفاً ممن لا يمتلك أدنى سلطة ولو رمزية، ويتجرأ على الأمير علي بن يوسف -وهو الذي يرأس أقوى تنظيم سياسي وعسكري في بلاد المغرب- أثناء لقائه بقوله حسب رواية البيدق "إنما أرى جوارى

منقبات"^(٤١)، وكلام البيدق فيه الكثير من التهويل والمبالغة، إن لم نقل التلغيف المقصود للخط من المرابطين ممثلين في رأس النظام الحاكم، في مقابل الرفع من جانب بن تومرت الذي لا يزال إلى ذلك الحين مجهولاً لدى السلطة المركزية الحاكمة^(٤٢)، مما يجعل هذه الرواية محطاً للشك والريبة إذا ما قارناها مع مواقف بن تومرت السابقة والتي كان فيها حريصاً على تجنب المواجهة مع كل من يستطيع إلحاق الأذى به، ولعل الرواية الأقرب إلى الصحة هي أن اللقاء الأول بين بن تومرت والأمير علي بن يوسف، كان في المسجد حيث دخل بن تومرت المسجد وجلس في الصف الأول قبالة المنبر، ولما نبهه الحراس بأن المكان مخصص للأمير المسلمين لم يعر اهتماماً لذلك على اعتبار أن المساجد بيوت الله وليست ملكاً للأمير، ولما وصل هذا الأخير وقف جميع المصلين احتراماً له وتقديراً لمنزلته، ماعداً بن تومرت، وما أن انتهت الصلاة حتى توجه إليه مسرعاً وخاطبه قائلاً بأن عليه أن يغير المنكر في بلاده، لأنه هذا يدخل ضمن مسؤوليته وسيحاسب على ذلك يوم القيامة، وقد استغرب الأمير من كلام بن تومرت لكنه لم يجبه في الحال، ولما رجع إلى قصره أرسل من يسأله عن حاجته فرد بن تومرت بأنه لا يريد ولا يسعى لشيء غير النهي عن المنكر^(٤٣)، وهذا ما تفيد به الرواية التي أوردها الزركشي الذي يؤكد أنه "لقي أميرها علي بن يوسف اللمتوني بالمسجد الجامع في صلاة الجمعة، فوعظه وأغلظه له القول، ففاوض الفقهاء في شأنه، وكانوا ملئوا منه رعباً وحسداً لما كان ينتحل مذهب الأشعرين في تأويل المتشابه وينكر عليهم، وأحضر للمناظرة بمحضر علي بن يوسف، فكان له الظهور عليهم، فخرج وفر من يومه، فلحق بأغमत وغير المنكر بها على عادته فأغرى به أهلها علي بن يوسف فخرج هو وتلامذته ولحق بمسفيوة"^(٤٤)، صحيح أنه سيستغل هذا اللقاء في الدعاية السياسية ضد المرابطين ولكنه لم يتم بالطريقة التي قدمها مؤرخو الدولة الموحدية.

مما يؤكد أن مسألة القاعدة الدينية عند بن تومرت كان إطارها الأول سياسي بامتياز، وما كان حرصه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما كان يراه^(٤٥)، سوى دعاية سياسية لما سيقوم به فيما بعد، مستغلاً المناخ

على الموحدين، بل إن التناقض البين في دعوته جعل ملوك الموحدين المتأخرين غير مقتنعين بها، بالإضافة إلى ترهل العصبية التي استندت عليها الدولة، وبالتالي يمكن القول أن الدولة سقطت من الداخل قبل أن تجهز عليها العصبية المنافسة لها فيما بعد، فتداول السلطة في المغرب كان يتم من خلال تعاقب هذه العصبيات على الحكم بشكل أو بآخر، وهي في تعاقبها كانت تعتمد بالأساس على التضامن العصبي واللحمة القبلية، وتعمل في الغالب على تبني دعوة دينية تمكنها من بسط سيطرتها خارج إقليمها الأصلي، لتقوم بتجربتها الخاصة في مجال الوحدة والتوحيد^(٥٢).

فقد أخفق الموحدون بشكل كبير في جعل أهل المغرب يتقبلون المذهب التومرتي ويتجاوبون معه إذ ظل مرتبطاً فقط بالفئة الحاكمة التي فرضت على المجتمع الالتزام بتعاليم المهدي بالإرغام والسيوف، وهذا ما جعل مذهبهم منتشرًا بشكل سطحي في كل المجال الذي بسطوا نفوذهم عليه، أو ربما بسبب تجذر المذهب المالكي في وجدان المغاربة فاستطاع الاستمرار في المقاومة وإن بشكل سري، بل نجده لم يخفني أبداً من ساحة القضاء ولا من العبادات في أوج العصر الموحد^(٥٣)، أو بسبب الممارسة البسيطة للدين التي قدمها التصوف والتي لبت حاجات الناس إلى حد بعيد^(٥٤). وعموماً فالملاحظ أن الحركة الموحدية رغم سيطرتها على المشهد السياسي والعسكري في المغرب طيلة القرنين السادس والنصف الأول من القرن السابع الهجريين فإنها لم تفض دائماً إلى ما كان يصبو إليه مؤسسها الأول بن تومرت من سيطرة روحية أو نفوذ معنوي عبر اعتناق العقيدة الموحدية والإيمان بها على مستوى الشعور التلقائي والإحساس^(٥٥)، ذلك أن مسألة امتناع المجتمع عن هذه العقيدة المتعددة التلوينات المذهبية ورفضها منذ الوهلة الأولى، كان له أثر عميق على بنية نظام الحكم فيما بعد، إذ سرعان ما أصبح البيت الحاكم نفسه يعبر عن رفضه لهذه العقيدة، وتوج ذلك بقيام الخليفة المأمون بإبطال الدعاء للمهدي وإلغاء القول بعصمته^(٥٦)، حيث أمر "بزوال اسم المهدي من السكة وغيرها، ومن الخطبة، وأزال اسمه من جميع رسوم الموحدين، مما كان العمل به في سائر دولتهم"^(٥٧)، وأتبع ذلك بإجراء أثر على

الديني في تلك الفترة ومستنداً إلى التقاليد الإسلامية المهدوية التي ساهمت بشكل كبير في انتشار الاعتقاد بزمن المهدي^(٥٨)، كما أنه استغل واقعة إحراق كتاب الإحياء استغلالاً يترجم دهاءه وذكائه في نفس الوقت، فقد كانت هناك ما يشبه مقاومة عنيدة ومتمحدة للإجراءات القمعية التي نهجها المرابطون ضد كتاب الإحياء، كانت تحتاج فقط لمن ينظمها ويوجهها فوجدت ضالتها في ابن تومرت ودعوته^(٥٩).

فالمعروف عن بن تومرت نهمه الشديد للأخذ من كل ما جد من علوم الدين، وتنقل من أجل هذه الغاية من الظاهرية إلى المعتزلية عبر الأشعرية، بل إننا نجده يتجاوز حدود المذهب السني كلياً ليأخذ من المذهب الشيعي وغايته في ذلك قضية الإمام المعصوم الذي يعتبر جزءاً من عقيدة غلاة الشيعة، "حيث لم تحفظ عنه فلتة في البدعة إلا ما كان من وفاقه الإمامية الشيعة في القول بالإمام المعصوم"^(٥٨)، وقد كان حريصاً على جمع الأحاديث المنسوبة للرسول (ﷺ)، والتي تتحدث عن ظهور المهدي^(٥٩)، ومن الواضح أن ظاهرة المهدوية ذات الصبغة الشيعية ظهرت خلال هذه الفترة ضمن المعتقدات المتداولة في الوسط الشعبي في كل من المغرب والأندلس، ويرجع الفضل لتوسيع دائرة انتشاره إلى كل من بن تومرت بالنسبة للمغرب وإلى ابن قسي فيما يخص الأندلس في أواخر الدولة المرابطية^(٥٩).

وعلى العموم فما يمكن الخروج به أن الدعوة الموحدية كانت عبارة عن خليط من المذاهب الإسلامية، انتقى فيها بن تومرت ما يخدم مصلحة دعوته التي طغى عليها الجانب السياسي على حساب الجانب الديني الذي لم يكون سوى واجهة لشرعنة قيامه على الدولة المرابطية، فقد كان بن تومرت رجلاً ذو طموحات سياسية وفكرية واضحة، كما تمتع بقدرات عالية في التنظيم لدعوته ومخاطبة الجماهير المحبطة وإقناعها بضرورة التغيير^(٥٩)، حيث كانت رغبته الجامحة في إسقاط العصبية الصنهاجية ممثلة في المرابطين، وتمكين المصامدة من السيطرة على السلطة تحت ستار الدعوة الموحدية كبيرة، وأنسته أن دعوته حملت بذور سقوط دولته المنشوذة في ذاتها، حيث استعملت نفس أفكاره فيما بعد وخاصة فكرة المهدوية لإعلان الثورة

تتراجع شيئاً فشيئاً ما إن وصلت إلى مرحلة الدولة، وهذا ما يؤكد أنها كانت في الأساس دعوة دينية تغلب عليها الصبغة السياسية هدفها مناوئة المرابطين، إذ لم تستطع مبادئها الدينية أن تزاحم القاعدة النظرية للمالكية المترسخة حتى داخل الدعوة الموحدية نفسها وإن بشكل سطحي، فلم يكن الناصر ولا يعقوب المنصور أول من أبدوا عدم إيمانهم بعقيدة المهدي، بل يمكن القول أن عبد المؤمن نفسه لم يكن يؤمن بما جاء به بن تومرت، ولا أدل على ذلك هو مخالفته لمبدأ الشورى في بيعته ولي عهده، إذ اختار ابنه الأكبر ليكون خليفة من بعده^(١١)، متجاوزاً أسياد الموحدين الذين بنوا الدولة بسيفهم حيث أصبح الملك وراثياً بعد ذلك في ذرية عبد المؤمن.

خاتمة

في الختام، يظهر أن الدعوة الدينية كانت حجر الزاوية في تأسيس مشروعية السلطة السياسية لدى الحركات الإسلامية في العصر الوسيط، وخاصة لدى المرابطين والموحدين. فقد استطاع كل منهما أن يبرز مشروعه السياسي عبر توظيف العقائد الدينية بما يتماشى مع طموحاتهما السياسية، إلا أن هذا التوظيف لم يخلُ من تعقيدات وتناقضات أيديولوجية.

من خلال دراسة الدعوة الدينية لدى المرابطين، نجد أن المذهب المالكي كان الأساس الذي انطلقت منه مشروعية دولتهم، حيث تمسكوا به لتوحيد بلاد المغرب والأندلس، بينما اعتمدوا على تأييد الخلافة العباسية لإضفاء شرعية إضافية على حكمهم. في المقابل، قدم الموحدون نموذجاً مختلفاً تماماً، حيث استندوا إلى مبدأ المهدوية وأخذوا من المذاهب المختلفة لبناء عقيدة دينية جديدة تبرر قيامهم على أسس فكرية بعيدة عن السلطة العباسية، ورفعوا شعار الإصلاح من خلال تجاوز المفاهيم التقليدية للدولة الإسلامية.

العصبية التي يستند عليها حكم الموحدين، إذ سيقوم بتصفية العديد من الرافضين لبيعته ولما أقدم عليه من إلغاء رسوم المهدوية، فحسب ما "حدث السيد أبو زيد بن السيد أبي زكرياء، أنه وصله كتاب المأمون يخبر أن عدد الرؤوس المقطوعة كانت أربعة عشر ألفاً"^(٥٨)، وهذا ما يعبر عن حجم الشرخ الذي أصاب الدولة الموحدية في أواخر عهدها، حيث تم نقض أغلب الأسس التي قامت عليها، وهو ما سهل على أعدائها مهمة إسقاطها فيما بعد.

والعجيب أن الموحدين أنفسهم واجهوا مباشرة بعد تمكنهم من تصفية لمتونة ودخول مراكش، ثورات استخدمت إرث ابن تومرت وطريقته في تأويل واستخدام النصوص الدينية، حيث سجد خليفته عبد المؤمن "لما توالى عليه الفتح، واستوثق له الأمر قام عليه قائم ببلاد السوس الأقصى، وهو محمد بن عبد الله بن هود الماسي، وتسمى بالهادي، وادعى الهداية، اقتداءً بالمهدي، محمد بن عبد الله بن تومرت، وكان قصاراً ببحر سلا فأقبل الناس عليه من كل مكان، واجتمعوا عليه اجتماعاً طار به الذكر في الآفاق، وقامت بدعوته أمم لا تحصى، واتصلت دعوته في جميع أقطار العدو حتى لم يبقى منها إلا مراكش وفاس، وخالفت عليه سائر البلاد ورفضوا دعوة الموحدين"^(٥٩)، وهذا يعني أن المناخ العام للمغرب كان يسمح بتقبل مثل هذه الأفكار خاصة من طرف الفئات التي دب إلى نفسها اليأس وأصبحت تتطلع للتغيير، وبالنسبة لمرحلة ما بعد المرابطين فقد كان تقبل الأفكار المهدوية تعبيراً عن رفض الناس للدعوة الموحدية، ولجؤوا لمحاولة التخلص منها بنفس الأفكار التي تأسست عليها دولة الموحدين.

واستمرت هذه الحال إلى حين انهيار دولتهم التي حيث قامت على أساس عقيدة المهدي ثورات ذات مرجعية نهلت من نفس المصدر الديني المتمثل في المرجعية الشيعية التي تؤمن بفكرة المهدوية، وربما يرجع ذلك إلى نجاح داعيتهم المهدي بن تومرت نفسه من استغلال هذه الفكرة للوصول إلى الحكم، فنالت بذلك استحسان كل شذاذ الافاق والمغامرين الذين حاولوا أن يسيروا على نهجه لتحقيق نفس الغاية^(٦٠)، حيث استغلوا فتور الدعاية للدعوة الموحدية التي أصبحت مبادئها

(١٠) محمد القبلي، **الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط علائق وتفاعل**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٩٧، ص. ١١١.

(11) Laroui Abdelah, *L'histoire du magreb, un essai de synthese*, Maspero, TOM 1. Paris, 1976, T. I. pp.146-147.

(١٢) مصطفى بنسباع، **السلطة بين التسنن والتشيع والتصوف ما بين عصري المرابطين والموحدين**، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، ص. ٢٣.

(١٣) إبراهيم القادري بوتشيش، **تاريخ الغرب الإسلامي، قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة**، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، ص. ٥٤.

(١٤) مصطفى بنسباع، **السلطة بين التسنن والتشيع والتصوف ما بين عصري المرابطين والموحدين**، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، ص. ٩٥-٩٦.

(١٥) قال عنه ابن بشكوال على لسان أبو القاسم حاتم بن محمد "كان من أحفظ الناس وأعلمهم، وكان قد جمع حفظ المذهب المالكي، وحفظ حديث النبي عليه السلام والمعرفة بمعانيه، وكان يقرئ القرآن بالسبعة ويجودها، مع المعرفة بالرجال والمعدلين منهم والمجرحين..."، ابن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس...، المجلد الثاني، ص. ٢٤٩.

(١٦) إبراهيم القادري بوتشيش، **تاريخ الغرب الإسلامي، قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة**، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، ص. ٥٤.

(١٧) محمد القبلي، **الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط علائق وتفاعل**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، ص. ٧٦.

(١٨) إبراهيم القادري بوتشيش، **تاريخ الغرب الإسلامي، قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة**، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، ص. ٥٩.

(١٩) محمد فتحة، **النوازل الفقهية والمجتمع: أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن ٦ إلى ٩ هـ / ١٢ إلى ١٥ م)**، جامعة الحسن الثاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق الدار البيضاء، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط ١٩٩٩م، ص. ١٣٤.

(٢٠) إبراهيم القادري بوتشيش، **تاريخ الغرب الإسلامي، قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة**، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، ص. ٥٦.

(٢١) إبراهيم القادري بوتشيش، **تاريخ الغرب الإسلامي، قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة**، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، ص. ٦٩.

(٢٢) محمد فتحة، **النوازل الفقهية والمجتمع: أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن ٦ إلى ٩ هـ / ١٢ إلى ١٥ م)**، جامعة الحسن الثاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق الدار البيضاء، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط ١٩٩٩م، ص. ١٣٠.

وقد أدت هذه الاختلافات الأيديولوجية بين المرابطين والموحدين إلى تأثيرات متباينة على استقرار الدولتين. ففي حين تمكن المرابطون من تأكيد سلطتهم وتحقيق الوحدة السياسية عبر استنادهم إلى المذهب المالكي، عانت الدولة الموحدية من التحديات الداخلية بسبب تباين العقائد التي تم تبنيها وتطبيقها في سياق سياسي متغير. ورغم نجاحهما في تأسيس دول قوية، إلا أن التناقضات الفكرية والسياسية التي سادت بين الدعاوى الدينية والسياسية في هاتين الحركتين كانت من العوامل المؤثرة على مصير كل منهما.

في النهاية، نجد أن الدعوة الدينية كانت وسيلة أساسية للمشروعية السياسية في العصر الوسيط، لكنها لم تكن فقط أداة لخلق الوحدة، بل كانت أيضاً سبباً للتحديات والانقسامات التي قد تؤدي إلى تراجع الدولة عندما تفتقر إلى التناغم بين العقيدة السياسية والعقائد الدينية المتبناة.

الإحالات المرجعية:

(١) محمد القبلي، **الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط علائق وتفاعل**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٩٧، ص. ١٠٤.

(٢) محمد القبلي، **الدولة والولاية والمجال**، ص. ٧٩.

(٣) محمد القبلي، **الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط علائق وتفاعل**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٩٧، ص. ١٠٧.

(٤) مصطفى بنسباع، **السلطة بين التسنن والتشيع والتصوف ما بين عصري المرابطين والموحدين**، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، ص. ١٤٢.

(٥) محمد القبلي، **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، ص. ١٣.

(٦) محمد القبلي، **الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط علائق وتفاعل**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٩٧، ص. ١٠٧.

(٧) محمد القبلي، **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، ص. ١٣.

(٨) محمد القبلي، **الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط علائق وتفاعل**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٩٧، ص. ١٠٨.

(٩) محمد القبلي، **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، ص. ١٤.

- (٤٤) محمد بن إبراهيم اللؤلؤي الزركشي، **تاريخ الدولتين الموحديتين والحفصية**، تحقيق الحسين يعقوبي، المكتبة العتيقة، جامع الزيتونة، تونس، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، ص. ١٢.
- (٤٥) مصطفى بنسباغ، **السلطة بين التسنن والتشيع والتصوف ما بين عصري المرابطين والموحدين**، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، ص. ٣٣.
- (٤٦) محمد فتحة، **النوازل الفقهية والمجتمع: أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن ٦ إلى ٩هـ / ١٢ إلى ١٥ م)**، جامعة الحسن الثاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق الدار البيضاء، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط ١٩٩٩م، ص. ١٥١.
- (٤٧) محمد القبلي، **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، ص. ٢٣.
- (٤٨) محمد بن إبراهيم اللؤلؤي الزركشي، **تاريخ الدولتين الموحديتين والحفصية**، تحقيق الحسين يعقوبي، المكتبة العتيقة، جامع الزيتونة، تونس، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، ص. ١٧.
- (٤٩) أمبروسيو هويثي ميراندا، **التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية**، ترجمة عبد الواحد أكيمير، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م، ص. ٤٠.
- (٥٠) إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين المجتمع-الذهنيات-الأولياء**، ص. ١٢٠.
- (٥١) إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، الجزء الأول، من عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية الموحدين، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، طبعة ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، ص. ٢٤٢.
- (٥٢) محمد القبلي، **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، ص. ١١.
- (٥٣) إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، الجزء الأول، من عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية الموحدين، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، طبعة ٢٠٠٩م، ص. ٢٥٦.
- (٥٤) محمد فتحة، **النوازل الفقهية والمجتمع: أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن ٦ إلى ٩هـ / ١٢ إلى ١٥ م)**، جامعة الحسن الثاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق الدار البيضاء، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط ١٩٩٩م، ص. ١٣٦.
- (٥٥) محمد القبلي، **الدولة والولاية والمجال**، ص. ٦٢.
- (٥٦) إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، الجزء الأول، من عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية الموحدين، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، طبعة ٢٠٠٩م، ص. ٣٠٠.
- (٥٧) الحلل الموشية، ص. ١٦٤.
- (٥٨) الحلل الموشية، ص. ١٦٥.
- (٥٩) الحلل الموشية، ص. ١٤٦.
- (٦٠) محمد فتحة، **النوازل الفقهية والمجتمع: أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن ٦ إلى ٩هـ / ١٢ إلى ١٥ م)**، جامعة الحسن الثاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق الدار البيضاء، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط ١٩٩٩م، ص. ١٥٤.
- (٦١) عبد الله علام، **الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن بن علي**، دار المعارف، القاهرة، ص. ٢٢٦.

- (٦٢) إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، الجزء الأول، من عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية الموحدين، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، طبعة ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، ص. ٢٤٢.
- (٦٣) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، مج ٩، تحقيق محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، ٢٠٠٣م، ص. ١٩٥.
- (٦٤) عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في الجمهورية العربية المتحدة، القاهرة، ١٩٦٨م، ص. ٢٤٥.
- (٦٥) إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، الجزء الأول، من عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية الموحدين، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، طبعة ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، ص. ٢٤٧.
- (٦٦) حسين مؤنس، **معالم تاريخ المغرب والأندلس**، دار الرشاد، القاهرة، الطبعة الخامسة ٢٠٠٣م، ص. ٢٠٤-٢٠٣.
- (٦٧) علاوة عمارة، **الكتابة التاريخية في الغرب الإسلامي الوسيط**، مجلة **التاريخ العربي**، العدد ٣٢، خريف ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، جمعية المؤرخين المغربية حي الليمون، الرباط-المغرب، ص. ٣٤٩.
- (٦٨) عبد الله العروي، **العرب والفكر التاريخي**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٦م، ص. ٨٤.
- (٦٩) محمد القبلي، **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، ص. ٣١.
- (٧٠) الحلل الموشية، ص. ١٤٨.
- (٧١) المعجب، الدار البيضاء ١٩٥٤م، ص. ١٧٩.
- (٧٢) مصطفى بنسباغ، **السلطة بين التسنن والتشيع والتصوف ما بين عصري المرابطين والموحدين**، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، ص. ٣٣.
- (٧٣) عبد الله علام، **الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن بن علي**، دار المعارف، القاهرة، ص. ٥٤.
- (٧٤) إبراهيم القادري بوتشيش، **تاريخ الغرب الإسلامي قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة**، دار الطليعة، بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٤م.
- (٧٥) البيدق، **كتاب أخبار المهدي وبداية دولة الموحدين**، ص. ١١.
- (٧٦) محمد فتحة، **النوازل الفقهية والمجتمع: أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن ٦ إلى ٩هـ / ١٢ إلى ١٥ م)**، جامعة الحسن الثاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق الدار البيضاء، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط ١٩٩٩م، ص. ١٥٢.
- (٧٧) البيدق، **كتاب أخبار المهدي وبداية دولة الموحدين**، ص. ٢٢.
- (٧٨) البيدق، **كتاب أخبار المهدي وبداية دولة الموحدين**، ص. ٢٢.
- (٧٩) ابن خلدون، **العبر**، الجزء السادس، ص. ٤٦٧-٤٦٨.
- (٨٠) البيدق، **كتاب أخبار المهدي وبداية دولة الموحدين**، ص. ٢٧.
- (٨١) عبد الله علام، **الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن بن علي**، دار المعارف، القاهرة، ص. ٥٩.
- (٨٢) أمبروسيو هويثي ميراندا، **التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية**، ترجمة عبد الواحد أكيمير، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م، ص. ٥٤.

أضواء على ثورة أهل فاس أواخر عصر بني مرين الأسباب والتداعيات والعبر

أ.د. نور الدين أمعيط

أستاذ باحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة السلطان مولاي سليمان
بني ملال – المملكة المغربية



ملخص

تستعرض الدراسة ثورة أهل فاس عام (١٤٦٩هـ/١٤٦٥م)، التي أفضت إلى إسقاط حكم دولة بني مرين بعد مقتل السلطان عبد الحق الثاني. ركزت الدراسة على أسباب هذه الثورة، التي تداخلت فيها عوامل اقتصادية واجتماعية وسياسية، إذ عانت فاس، كبقية المدن المغربية، من تدهور الأوضاع الاقتصادية نتيجة السياسات الضريبية القاسية، إضافة إلى ضعف السلطة المرينية التي أدت إلى استبداد الوزراء، خاصة وزراء بني وطاس، وتعيين مسؤولين يهود في مناصب حساسة. كما كانت سياسة العنف الضريبي جزءاً أساسياً في استفزاز العامة ودفعهم للثورة ضد السلطان، الأمر الذي عزز من غضب السكان. لقد تم تناول تأثير الثورة على السلطة السياسية، إذ أدت إلى تدمير دولة بني مرين وخلق فوضى عارمة. كما لفتت الدراسة إلى أن الثورة أثرت في السياسة الداخلية والخارجية للمغرب، إذ أدت إلى توسيع التدخلات الأجنبية، وبالأخص من البرتغاليين. فضلاً عن ذلك، شهدت المرحلة تحولاً كبيراً في مفهوم الشرعية السياسية في المغرب، حيث عاد الشرف كعامل رئيس في بسط السلطة السياسية مع صعود الأشراف في السلطة السياسية. تختتم الدراسة بالتأكيد على أن العوامل الدينية، الاجتماعية، والسياسية كانت محورية في الثورة، مع التأكيد على دور الفقهاء والنخب في التحريض والتوجيه السياسي، كما أنها تقدم دروساً مهمة في فهم العلاقة بين الظلم الاجتماعي والسياسي في المغرب في تلك الحقبة، وآثارها المدمرة على استقرار المجتمع والدولة.

كلمات مفتاحية:

ثورة فاس؛ دولة بني مرين؛ المصادر؛ الأسباب؛ نتائج الثورة؛ الدروس والعبر

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٠ أكتوبر ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢٤ نوفمبر ٢٠٢٥

معرف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2026.488550



الاستشهاد المرجعي بالمقال:

نور الدين أمعيط، "أضواء على ثورة أهل فاس أواخر عصر بني مرين: الأسباب والتداعيات والعبر"، - دورية كان التاريخية، - السنة التاسعة عشرة - العدد السادس والسبعون، فبراير ٢٠٢٦، ص ٦٠ - ٦٩.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: nour7404@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت ترخيص Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

لم تتل ثورة فاس أواخر عصر دولة بني مرين، حظها اللازم من الدراسة والبحث والتتقيب^(١)، وذلك على الرغم من أهميتها، بالنظر لما أسفرت عنه من نتائج وتداعيات كان لها الأثر البارز على مغرب القرن (التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي)، فهي الثورة الوحيدة في مغرب العصر الوسيط، بعد ثورة ابن تومرت، التي أفلحت في إسقاط نظام الحكم وإقامة بديل سياسي عن الدولة المرينية سنة (٨٦٩هـ/ ١٤٦٥م)، بفعل هبة اجتماعية غاضبة، أسفرت عن ذبح السلطان المريني عبد الحق الثاني، وتنصيب خلف له ممثلاً في محمد بن علي العمراني الجوطي أحد أحفاد الشرفاء الأدارسة.

وعلى الرغم من وفرة المصادر المغربية التي دونت زمن بني مرين، فإن ما تحدثت منها عن ثورة أهل فاس، يعد في حكم العدم أو المفقود، وأن أول مصدر مغربي ذكر ثورة أهل فاس سنة (٨٦٩هـ/ ١٤٦٥)، جاء بعد مضي أكثر من قرن ونصف عن زمن الثورة، ويتعلق الأمر بأحمد بن القاضي المكناسي المتوفى عام (١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م)، في كتابه درة الحجال في أسماء الرجال، أثناء ترجمته للسلطان عبد الحق المريني، غير أن ثمة مصادر أخرى أجنبية معاصرة للحدث ولاحقة عنه، قد أماطت اللثام، وإن بشكل متفاوت، عن كثير من الجوانب المعتمدة التي تخص هذه الواقعة.

وتسعى هذه المساهمة إلى تسليط الضوء على بعض مضمرات هذه الثورة، من خلال الكشف عن مختلف المصادر التاريخية التي احتفظت بأصدائها، مع النبش في أسبابها العامة، بما في ذلك الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للمغرب، وسياسة العنف الضريبي للدولة المرينية، مما جعل المغاربة يخلعون بيعة السلطان المريني عبد الحق ويطلقون باب الأشراف من آل البيت، فضلاً عن البحث فيما آلت إليه الأوضاع السياسية بالمغرب آنذاك، وذلك بالتفصيل في نتائج الثورة وتداعياتها المختلفة مع الخروج بجملة من الخلاصات والنتائج المفيدة لحاضر المغرب ومستقبله الاجتماعي والسياسي.

أولاً: المصادر التاريخية التي احتفظت

بأصداء ثورة فاس سنة (٨٦٩هـ/ ١٤٦٥م)

تعددت المصادر التاريخية التي تناولت موضوع ثورة الفاسيين أواخر عصر بني مرين ما بين مصادر مغربية مسلمة وأخرى مشرقية، وثالثة يمكن تسميتها بالمصادر المغربية اليهودية والمصادر المسيحية.

١/١- مصادر عربية مغربية مسلمة

ذرة الحجال في أسماء الرجال لأحمد ابن القاضي المكناسي^(٢) المتوفى عام (١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م)، وهو كتاب تراجم ذكر ثورة (٨٦٩هـ/ ١٤٦٥م) ضمن عمله الذي استأنف خطه سنة (٩٩٩هـ/ ١٥٩١م)، بعد مضي أكثر من قرن نصف على حدث الثورة^(٣). وقد ذكر أحداث ثورة فاس بشكل مختصر في سياق ترجمته للسلطان عبد الحق المريني، وإن لم يذكر مصادر روايته، فقد لمح لمسؤولية السلطان عبد الحق عما آلت إليه الأوضاع بالمغرب، فذكر أنه "كان سلطاناً مسلوب الإرادة"^(٤).

جدوة الاقتباس لأحمد ابن القاضي المكناسي^(٥) المتوفى سنة (١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م)، وقد أشار إلى حدث الثورة في سياق ترجمته للفقير عبد العزيز بن موسى الوريغلي، خطيب جامع القرويين، فحمله مسؤولية إشعال فتيل الثورة، إذ ذكر أن هذا الفقيه، قد "ثارت العامة على يديه على عبد الحق المريني الأصغر، وكان الولي العالم الصالح أحمد بن أحمد البرنوسى الشهير بزروق يترك الصلاة خلفه لفعلته هاته"^(٦).

كتاب قضية المهاجرين المسمون اليوم بالبلديين لمؤلف مجهول^(٧)، وقد لامس الأسباب العميقة لثورة أهل فاس ضد اليهود المسمون بالمهاجرين أو البلديين^(٨)، فذكر أن "الناس سكتوا عن غش اليهود ومكرهم دهرًا طويلاً إلى آخر بني مرين"^(٩). مبرزاً دور الملك عبد الحق في تأجيج ثورة أهل فاس "بقتل وزرائه من بني وطاس وتولية وزيره هارون اليهودي وحاجبه شاول وقائد شرطته بفاس الحسيسن اليهودي الذي كان يحكم ويأخذ المغارم من جميع من بفاس علماء وشرفاء وصلحاء فضلاً عن غيرهم من سائر الناس"^(١٠).

نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني لمحمد بن الطيب بن عبد السلام القادري المتوفى سنة

٩٣٢هـ/١٥٢٥م، وقد قدم رواية لاحقة لأحداث ثورة (٨٦٩هـ/١٤٦٥م)، غير أنها قريبة منها زمنياً، وتميزت بالتركيز والاختصار، وفيها ينسب للشرفاء مؤامرة التمرد ومقتل السلطان عبد الحق المريني^(١٨)، وإن كان يرد السبب الرئيسي في الثورة إلى شطط اليهودي هارون ومرافقيه، في وقت كان فيه السلطان غائباً يحارب بني وطاس في كل من تازة وطنجة التي يبدو أنها قد سقطت في الواقع بأيدي البرتغال، إلى جانب مدينة أصيلا، منذ سنة ١٤٦٤م^(١٩).

٣/١- مصادر مسيحية وأخرى يهودية مغربية

ومنها مصدر مغربي كتب باللاتينية وترجم إلى العربية، ونقصد كتاب وصف إفريقيا لمحمد بن الحسن الوزان^(٢٠) المعروف بليون الإفريقي الذي أكد التعسف والشطط الضريبيين بمدينة فاس وتظلمات رؤساء الشرطة. ومصادر مسيحية ترجمت إلى العربية ممثلة في كتاب إفريقيا لمارمول كاربخال^(٢١) وقد أشار إلى أحداث الثورة بشكل مختصر وجزئي، محملاً أسباب الثورة للشريف العمراني الذي "اغتال عبد الحق آخر ملوك بني مرين، وقد حمد الناس عمله لما عانوه من طغيان ذلك الهالك"^(٢٢). فضلاً عن مصادر أخرى مغربية يهودية، أمعنت في إبراز معاناة اليهود بالمصادرة والتقتيل زمن الثورة وبعدها، سواء داخل مدينة فاس أو خارجها^(٢٣).

ومما سلف يمكن الخروج بالخلاصات التالية:

أ- على الرغم من أن الثورة، كانت حدثاً سياسياً واجتماعياً بارزاً، زلزل هياكل دولة بني مرين، وسمعت أصداءه داخل المغرب وخارجه، فإن معظم المصادر المغربية اختارت الصمت بخصوص حيثيات الثورة وتفاصيلها، وهو ما تنبه إليه أحد الباحثين^(٢٤)، مؤكداً أن فعل السكوت قد شكل السمة الغالبة على هذه الثورة ضمن المصادر.

ب- قلة المصادر التاريخية التي عاصرت حدث الثورة، فباستثناء ابن شاهين التاجر والكاظم المصري الذي عاصر أحداث الثورة ولم يصل إلى فاس^(٢٥)، لا نكاد نصادف مصدراً معاصراً لحدث الثورة. ونفس الملاحظة تتسحب عن المصادر المغربية المسلمة منها

(١١٨٧هـ/١٧٧٣م)^(١١)، وقد أعاد نفس رواية ابن القاضي المكناسي، مصرحاً بالمصادر التي أخذ عنها، ومنها ذرة الحجال لابن القاضي، وكذا كتاب الذر السني للنسابة المغربي عبد السلام القادري (ت. 1110هـ/١٦٩٨م)^(١٢).

كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأحمد بن خالد الناصري^(١٣) (١٢٥١هـ-١٨٣٥م-١٣١٥هـ-١٨٩٧م)، وهو المصدر الذي أدمج كل الروايات السابقة مفصلاً في أسباب الثورة مع التركيز على حادثة اليهودي مع المرأة الشريفة وتنكيله بها بالضرب رغم توسلها له بالنبي محمد (ص)، ودور السلطان عبد الحق في تأجيج غضب العامة بتوليته مسؤولين يهود في الوزارة والحجابة والشرطة وجباية الضرائب.

٢/١- مصادر عربية مسلمة غير مغربية

كتاب الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم لصاحبه عبد الباسط بن خليل بن شاهين الحنفي^(١٤)، المتوفى سنة (٩٢٠هـ/١٥١٦م)، وهو كاتب وتاجر مصري، كان يتردد على إفريقيا الشمالية والأندلس، وقد بلغ تلمسان في ذي الحجة ٨٦٨هـ/ غشت ١٤٦٤م، بنية التوجه إلى فاس، غير أن الأحداث السياسية وما طبعها من قلق بهذه المدينة نتيجة الثورة، حالت دون وصوله، فظل في تلمسان وأقام به حولا ونيف قبل أن يغادرها إلى الأندلس. وتعتبر رواية صاحب الروض الباسم الأكثر تفصيلاً، حتى يمكن اعتبارها مصدراً مباشراً لثورة أهل فاس (٨٦٩هـ/١٤٦٥م).

كتاب البحر الزخار والعيلم التيار لمصطفى بن حسن الجنابي^(١٥) المتوفى سنة (٩٩٩هـ/١٥٩٠م). وهو مصدر احتوى معطيات مفيدة عن الثورة، وإن كان بعضها منقول عن كتاب الروض الباسم، وإن كان قد ختم روايته بتمجيد عصر عبد الحق الذي حل محله نقيب الشرفاء محمد بن عمران، ولم يحل الجنابي عن أي مصدر لروايته، غير أنه كان على دراية بكتاب الروض الباسم الذي اقتبس منه عدة فقرات بحسب تقدير أحد الباحثين^(١٦).

كتاب تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الزركشي^(١٧) المتوفى سنة

على المغرب، وتدخل الدول المجاورة، وخاصة بنو عبد الواد وبنو الأحمر، في شؤون الدولة المرينية، وهجمات الإيبيريين على السواحل المغربية واحتلالهم لكل من سبتة سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م، ثم القصر الصغير سنة ٨٦٢هـ/١٤٥٨م، ثم طنجة سنة ٨٦٨هـ/١٤٦٤م، مما تسبب في تدمير نفسية المغاربة^(٢٧)، نتيجة الغليان الشعبي وعجز السلطة عن التصدي للخطر المسيحي المتزايد، وتقديم حلول عملية لمتطلبات وهموم المجتمع.

- تفشي الصراع على الحكم وكثرة الاغتيالات وتولي سلاطين ضعاف، فمنذ مقتل السلطان أبي عنان، تسلط الوزراء على دواليب الحكم، فكان من نتائج الصراع بين السلاطين المرينيين ووزرائهم، أن قتل عشرة سلاطين مرينيين خلال العصر المريني الثاني^(٢٨).

- تمردات القبائل ضد السلطة المرينية ومنها قبائل الشاوية وعرب أنكاد، وزحف القبائل العربية نحو السهول الوسطى والشمالية، وهيمنة قبائل بني معقل على الجنوب المغربي.

- التحول التدريجي للطرق التجارية نحو الشرق عبر حافة الصحراء، مما ساهم في تضرر خزانة الدولة المرينية وانعكس سلباً على الامتيازات التي كانت تدرها السلطة على مجموعة من مكونات المجتمع وخاصة بعض الشرفاء والمتصوفة، فتدهورت مكانتهم لدى السلطة وتآزمت علاقتهم معها.

٢/٢-أسباب مباشرة

(٢/٢) ١-هيمنة وزراء بني وطاس وضعف

شخصية السلطان عبد الحق

ذكر ابن خلدون في مقدمته أن الظلم مؤذن بخراب العمران^(٢٩)، وهو ما ينطبق على الأسباب المباشرة التي أفرزت ثورة الفاسيين أواخر حكم دولة بني مرين، إذ تؤكد المصادر أن الشرارة الأولى للثورة، قد اندلعت بفعل الظلم والاستبداد بالسلطة من طرف الوطاسيين منذ تولي الوزير أبي زكريا يحيى الوصاية على العرش المريني^(٣٠)، وفي هذا يقول الناصري "وفي سنة ثلاث وستين وثمانمائة (...) قدم للوزارة أبو زكريا يحيى بن يحيى بن عمر بن زيان الوطاسي، (...) وكانت ولاية هذا الوزير هي مبدأ الشر ومنشأ الفتنة، وذلك أنه لما استقل

واليهودية، التي جاءت متأخرة بدورها، فابن القاضي، وإن فصل في جزئيات الثورة، فقد ولد بعد حوالي تسعين سنة من تاريخ وقوعها (٩٦٠-١٠٢٥هـ/١٥٥٢-١٦١٦م)، في حين نقل صاحب قضية المهاجرين (عاش خلال ق. ١٧٠م) تفاصيل الثورة عن ابن القاضي بعد مضي أكثر من قرنين من الزمن، ونقل القادري بدوره عن سابقه جزئيات الثورة بعد مضي ثلاثة قرون (عاش ما بين ١١٢٣هـ/١٧١٢م-١١٨٦هـ/١٧٧٣م)، فيما جمع الناصري الذي عاش (ما بين ١٢٥١هـ/١٨٣٥م-١٨٩٧هـ/١٣١٥م). ما تداولته المصادر السابقة، لذا جاءت روايته أكثر إجمالاً وتفصيلاً.

ج- إن هذه المصادر التي تعد من جنس التراجم والوفيات، وإن قربتنا إلى حد كبير من أسباب ونتائج هذه الثورة، فإنها أطبقت الصمت بخصوص بعض الجزئيات المهمة في تاريخ المجتمع المغربي أواخر عصر بني مرين، من قبيل مواقف الفقهاء والصلحاء والمتصوفة من الثورة، إذ لم تفصح عن ذلك بشكل صريح عدا إشارات باهتة من قبيل تلك التي وردت لدى أحمد ابن القاضي المكناسي في جدوة الاقتباس في سياق ترجمته للفقهاء عبد العزيز بن موسى الورياغلي، خطيب جامع القرويين، فذكر أنه ساهم في التحريض و"ثارت العامة على يديه على عبد الحق المريني الأصغر، وكان الولي العالم الصالح أحمد بن أحمد البرنوسي الشهير بزروق يترك الصلاة خلفه لفعلته هاته"^(٣١).

ثانياً: أسباب ثورة أهل فاس سنة

(٨٦٩هـ/١٤٦٥م)

١/٢-أسباب غير مباشرة

وتتمثل فيما عرفه المجتمع الفاسي، ومعه المجتمع المغربي عامة، من حالة الاضطراب والقلق والفوضى بفعل تردي الأوضاع الأمنية طوال العصر المريني الثاني (٧٣١هـ/١٣٣١م - ٨٦٩هـ/١٤٦٤م)، وهو ما تولدت عنه أوضاعاً اقتصادية واجتماعية متردية، بحيث صار المغرب يتخبط في أزمتين داخلية وخارجية متعددة الأوجه، لعل من مظاهرها:

-وباء الطاعون الأسود سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م. الذي كانت له نتائج اقتصادية واجتماعية وديموغرافية قاسية

في العسف واستلاب الأموال، واستمر الحال على ذلك والناس في شدة" (٣٦).

ويبدو أن السلطان عبد الحق، كان يصدد استرجاع سلطته من خلال محاولته اجتثاث جذور وزراء بني وطاس من هياكل الدولة، واسترجاع الموظفين المعزولين مع تقريبه لعلماء مكناسة الذين نصب بعضهم في مواقع القرار نظير أحمد بن سعيد الحباك المكناسي (ت. ٨٧٠هـ/١٤٦٦م) الذي قلده منصب الخطابة، وأبي عبد الله محمد بن قاسم القوري المكناسي (ت. ٨٧٢هـ/١٤٦٨م) الذي جعله على رأس خطة الإفتاء. وإذا كان من أهم أسباب الثورة، تعيين السلطان عبد الحق لجماعة من اليهود (٣٧) على رأس إدارة الدولة، فإنه كان يقصد، من دون شك، الاستفادة من خبرتهم في المجال المالي (٣٨) في وقت باتت فيه خزينته تشكو عوزاً مالياً مهولاً، فضلاً عن الرغبة في استغلال مكانتهم الاقتصادية والسياسية.

(٢/٢) ٣- سياسة العنف الضريبي للدولة المرينية

تؤكد العديد من المصادر سياسة العنف الضريبي التي نهجتها الدولة المرينية وما كانت تمثلها من عبء على الرعية (٣٩)، ومن سوء حظ السلطان عبد الحق ووزيره هارون اليهودي، أن وقع اختيارهما على رجل يهودي آخر يدعى "لحيسن" (٤٠)، ليتولى مهمة جباية الضرائب، وهو الذي حاول أخذ المال بالقوة من إحدى الشريفات فصدته متوسلة بالرسول، لكنه اشتط غضبا وأمعن في ضربها، فشاع الخبر. ويذكر الناصري في رواية أكثر تفصيلاً إن "اليهودي عمد إلى امرأة شريفة من أهل حومة البلدة فقبض عليها، والبلدة حومة بفاس، قالوا: وكانت بدار الكومي قرب درب جنيرة فانحنى عليها بالضرب، ولما ألهبتهما السياط، جعلت تتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم، فحمى اليهودي وكاد يتميز غيظاً من سماع ذكر الرسول، وأمر بالإبلاغ في عقابها، وسمع الناس ذلك فأعظموه، وتمشت رجالات فاس بعضهم إلى بعض، فاجتمعوا عند خطيب القرويين الفقيه أبي فارس عبد العزيز بن موسى الورياغلي، وكانت له صلابة في الحق وجلادة عليه، بحيث يلقي نفسه في العظام ولا يبالي، وقالوا له: "ألا ترى إلى ما نحن فيه من الذلة

بالحجاجة، أخذ في تغيير مراسم الملك وعوائد الدولة، وزاد ونقص في الجند، ونقض جل ما أبرمه قبله الوزراء، وعامل الرعية بالعسف، ومن جملة ما نقم عليه، أنه عزل قاضي فاس الفقيه أبا عبد الله محمد بن محمد بن عيسى بن علال المصمودي، وقدم مكانه الفقيه يعقوب التسولي (٣١) وكان المصمودي من الدين وتحري المعدلة بمكان، فلما رأى السلطان عبد الحق فعل الوزير، واستحوذه على أمور الدولة وتبين له أن الوطاسيين، قد التحفوا معه رداء الملك وشاركوه في بساط العز وكادوا يغلبونه على أمره، سطا بهم سطوة استأصلت جمهورهم إلا من حماه الأجل منهم" (٣٢).

وبالفعل، فقد أجمعت المصادر (٣٣) أن هيمنة وزراء بني وطاس على دواليب الحكم، جعلت السلطان عبد الحق يدبر مذبحة جماعية في حقهم بقصد التخلص منهم، بعد أن تبينت سطوتهم وتناولهم على صلاحياته، وخاصة بعد إقدام الوزير يحيى الوطاسي على تغيير الموظفين والقواد القدماء وتدخله في صلاحيات السلطان بعزل القاضي والخطيب بجامع القرويين الفقيه أبي عبد الله محمد بن عيسى بن علال المصمودي (ت. ٨٨٤هـ-١٤٧٩م/ أو ٨٨٥هـ-١٤٨٠م)، وتعويضه بالفقيه يعقوب التسولي (٣٤)، وهو المنصب الذي كان يكتسي خطورة كبيرة في توجيه الحياة السياسية والدينية داخل عاصمة الدولة فاس، وأن قرار التعيين في هذا المنصب، كان من نصيب السلطان وحده.

(٢/٢) ٢- تعيين السلطان لمسؤولين يهود

على رأس إدارة الدولة

وبينما كان السلطان عبد الحق، يعتقد أنه قد تخلص من سطوة بني وطاس، وأنه أشفى غليل الرعية فيهم، بلغه "أن العامة، وكثيراً من الخاصة، قد نقموا عليه إيقاعه بالوطاسيين"، وميلهم إلى محمد الشيخ الوطاسي الذي فر إلى أصيلا (٣٥) فكان رد فعله أن "ولى عليهم اليهوديين هارون وشاويل تأديبا لهم وتشفيا منهم (...). فشرع اليهوديان في أخذ أهل فاس بالضرب والمصادرة على الأموال، واعتز اليهود بالمدينة وتحكموا في الأشراف والفقهاء فمن دونهم، وكان اليهودي هارون قد ولى على شرطته رجلاً يقال له: الحسين لا يألو جهداً

والصغار وتحكم اليهود في المسلمين والعبث بهم حتى بلغ حالهم إلى ما سمعت"، فنجع كلامهم فيه وللحين أغراهم بالفتك باليهود، وخلع طاعة السلطان عبد الحق، وبيعة الشريف أبي عبد الله الحفيد الجوطي، فأجابوه إلى ذلك واستودعوا الشريف المذكور فبايعوه، والتفت عليه خاصتهم وعامتهم، (...)، ثم تقدم الورياغلي بهم إلى فاس الجديد فصدوا إلى حارة اليهود فقتلوههم واستلبوهم (...) واقتسموا أموالهم، وكان السلطان عبد الحق يومئذ غائبا في حركة له ببعض النواحي.^(٤١)

ويبدو أن السلطان عبد الحق، قد تعرض لخذلان جنده، إذ يذكر الناصري أنه "لما اتصل بعبد الحق الخبر، انفض مسرعا إلى فاس واضطرب عليه أمر الجند، ففسدت نياتهم وتكررت وجوههم، فأيقن (...) بالنكبة وعاین أسباب المنية"^(٤٢)، فدخل فاسا مكرها، بعد أن اقتاده الثوار الناقمين من جنده "فقالوا تقدم أمامنا إلى فاس فليس لك اليوم اختيار في نفسك، فأسلم نفسه، وانتهت محلته وفيئت أمواله وحلت به الإهانة، وجاؤوا به إلى أن بلغوا عين القوادس خارج فاس الجديد، فاتصل الخبر بأهل فاس وسلطانهم الحفيد^(٤٣) فخرج إلى عبد الحق وأركبه على بغل بالبردعة، وانتزع منه خاتم الملك وأدخله البلد في يوم مشهود حضره جمع كبير من أهل المغرب وأجمعوا على ذمه وشكروا الله على أخذه، ثم جنب إلى مصرعه فضربت عنقه صبيحة يوم الجمعة السابع والعشرين من رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة ودفن ببعض مساجد البلد الجديد، ثم أخرج بعد سنة ونقل إلى القلة فدفن بها وانقرضت بمهلكه دولة بني عبد الحق من المغرب والبقاء لله وحده"^(٤٤).

ثالثاً: نتائج ثورة فاس وتداعياتها

١٣- انهيار الدولة المرينية وسيادة

الاضطراب والفوضى

لعل من أهم نتائج ثورة أهل فاس عام (٨٦٩هـ/١٤٦٥م)، انهيار وتداعي أركان الدولة المرينية بشكل كامل، ومقتل السلطان عبد الحق الثاني ووزيره اليهودي هارون بن بطاش، وهو ما أدى إلى غياب الأمن وانتشار الفوضى، خاصة وأن وقود الثورة كان هو العامة والغوغاء، بل أقحم فيها عنصراً آخر أكثر خطورة، وهم

ولم تقتصر الفوضى على مدينة فاس وحدها، بل شملت مدناً أخرى، بحيث اتسعت رقعة الاضطرابات، وتم التكتيل بأنصار بني مرين أينما وجدوا، وخاصة اليهود منهم داخل فاس وخارجها، فقد "شاع في البلاد النائية عن فاس بهذه الكائنة فثاروا بيهود البلدان وفعلوا بهم نحو فعل أهل فاس بيهودها، وكانت كائنة عظيمة على اليهود"^(٤٥). وعلى الرغم من دخول الشريف إلى فاس، فإن عدة قبائل ظلت خارج سلطته، بحيث ثار ضده أهل تامسنا الذين خرج لمحاصرتهم، الأمر الذي استغله الوطاسيون لمهاجمة فاس والقضاء على حكمه^(٤٦)، فلم يمكث في الحكم سوى ست سنوات، ويذكر مارمول أن الشريف بقي "ملكا بفاس إلى سنة خمس وسبعين وثمانمائة، فعزل عنها وخلع، أزال ملكه ابو الحجاج بن منصور بن زيان الوطاسي، وكان ذلك سببا في طلوع الشريف إلى تونس بعد مدة يسيرة"^(٤٧).

٣-٢- اندلاع صراع جديد حول الحكم

ومن جهة أخرى، فإن ثورة أهل فاس، لم تضع حداً للصراعات الداخلية التي أنهكت الدولة، إذ سرعان ما اندلع صراع آخر أكثر دموية حول الحكم بين الشريف العمراني والوطاسيين الذين رأوا أن الفرصة مواتية لاستعادة حكم بني عمومتهم المرينيين بفاس، فلما بلغ بني وطاس ذلك، أرادوا الرجوع إلى فاس ودخولها، فلم يمكنهم دخول فاس بعد ذلك، وحسن ببال الشريف بقاؤه في الملك، وجمع له جموعاً من غير طائفتي بني مرين الملوك ومن بني وطاس الوزراء، واختلفت الكلمة بين أهل فاس وخارجها"^(٤٨).

ويبرز النص السالف الذكر، اختلاف الكلمة، وتردي الأوضاع السياسية والأمنية بشكل كبير داخل المغرب

الصعبة داخله، وتمكن من ضم جزء من المغرب الى دولته، بعد "أن وضع قائد سبته السابق صالح بن صالح نفسه رهن إشارة هذا السلطان، وأعلن ولاءه له وأصبح يؤدي له ضرائب المنطقة الخاضعة له"^(٥٦).

٤/٣- عودة الشرف باعتباره مصدرًا للسلطة

معلوم أن المغرب قد عرف هجرات العديد من فروع الشرفاء، خاصة الحسينيين والحسينيين خلال فترات مختلفة من العصر الوسيط، وقد حظي هؤلاء بمكانة سياسية ورمزية خلال الحقبة الإدريسية، غير أن نشاطهم السياسي ظل في حالة كمون طوال عدة قرون، إلى أن بزغ نجمهم بمدينة سبته منتصف القرن (السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي) على يد العزفيين حين صار للشرفاء مكانة معتبرة سياسياً واجتماعياً داخل المدينة. غير أن انتشار مكانة الشرفاء في عموم المغرب، كان بإيعاز من الدولة المرينية التي ظلت تبحث عن الشرعية عبر عدة قنوات فوجدتها في الأشراف بقصد الحصول على المساندة في الصراع ضد بني عبد الواد، والاستقلال عن الحفصيين، وربط الصلة بالمجتمع الحضري الذي كان يكن احتراماً كبيراً للشرفاء بمدينة فاس.

وبعد انهيار الدولة المرينية، عاد الشرف باعتباره مصدراً للسلطة السياسية والاجتماعية بالمغرب^(٥٧)، وحكم المغرب الشريف محمد بن عمران الجوطي وهو مزوار الشرفاء الأدارسة الحسينيين بفاس بعد أن عقدت له البيعة، الأمر الذي يجسد ثقة المغاربة في الأشراف من آل البيت، كلما حلت بهم نائبة أو ضائقة، ومن ثمة بدأ عامل الشرف، يلعب دوراً أكبر في تشكيل البنية السياسية المغربية، بل صار عامل الانتماء القبلي والعائلي مؤثراً بشكل واضح في كسب رهان الحكم وتوحيد المغرب، وتشكيل نخبة الحاكمة، وتجلي ذلك بوضوح من خلال بسط السعديين لنفوذهم على حكم المغرب، ومن بعدهم العلويين، معتمدين على عنصر الشرف كدعامة أساسية من دعائم الحكم.

بعد انهيار الدولة، مما أدى إلى اندلاع ما يشبه الحرب الأهلية بين فريقين، الأول كان يمثل أتباع الشريف العمراني الذي بوع بفاس، والثاني يمثل الوطاسيين والقبائل المناصرة لهم، خاصة عرب الخلط وسفيان، وقد وقعت بين الطرفين عدة مواجهات عسكرية، أسفرت عن هزيمة الوطاسيين في البداية، قبل أن يتمكنوا من دخول فاس وطرد الشريف العمراني الذي خرج إلى تونس، يؤكد مارمول، وهو من المعاصرين لهذه الفترة، أن "الوطاسي كاد يدخل فاسا، لكنه انهزم أمام الشريف، وانسحب بفلول رجاله إلى منطقة نفوذه ولما علم أن عساكر المنتزي، قد خرجت بقصد إعادة أهل تامسنا إلى الطاعة، وكانوا قد ثاروا في تلك الفترة، جمع ثمانية آلاف من العرب ومن عشيرته، فحاصر مدينة فاس، حيث انحبس الملك الجديد، دون أن يستطيع الخروج منها. فلما علم الوطاسي أن ملك البرتغال، قد حاصر مدينة أصيلا، وقد ترك فيها زوجته وأولاده، قام عن حصار فاس، وبادر لنجدها، ولما وجد أنها سقطت، عقد الهدنة مع ملك البرتغال، وعاد لحصار فاس، حتى دخلها صلحاً، وهرب المنتزي بأهله إلى مملكة تونس"^(٥٨).

٣/٣- تراجع هبة الدولة وتزايد الخطر الخارجي

أدت حالة عدم الاستقرار التي تلت سقوط الدولة المرينية، إلى زيادة التدخل الخارجي، خاصة من قبل القوى المسيحية في شبه الجزيرة الإيبيرية مستغلة ضعف وتراجع هبة الدولة، لاحتلال عدد من الثغور المغربية. ويبدو أن هذا التراجع والضعف، قد بدأ يدب في جسم الدولة قبل الانهيار الفعلي بعدة عقود، لذلك سيطر البرتغاليون على سبته سنة (٨١٨هـ/١٤١٥م)^(٥٩) وقصر مصمودة أو القصر الصغير سنة (٨٦٣هـ/١٤٥٨م)^(٦٠)، وانتزع الإسبان جبل طارق من بني الأحمر سنة (٨٦٧هـ/١٤٦٢م)^(٦١)، ثم احتلال مدينة طنجة سنة (٨٩٦هـ/١٣٦٤م)^(٦٢) وهو التاريخ الذي انتهت فيه دولة بني مرين في ٢٧ رمضان من السنة المذكورة، بعدما استمرت ٢٥٣ سنة.

وعلاوة عن الأطماع الإسبانية والبرتغالية في المغرب خلال هذه المرحلة، لم يتوقف السلطان النصري عن التدخل في شؤون المغرب، مستغلاً الظروف السياسية

رابعاً: ثورة أهل فاس (٨٦٩هـ/١٤٦٥م): دروس وعبر

إن سيادة الظلم وغياب العدل واستفحال العنف الضريبي، يؤدي حتماً إلى الثورة والتظاهر الشعبي، وهو ما نبه إليه ابن خلدون^(٥٨)، حين ذكر أن الظلم مؤذن بخراب العمران، فاستمرار الظلم من طرف الحاكم، يتسبب في انهيار المجتمعات وفقدان الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. وهو ما ينطبق على ثورة فاس أواخر دولة بني مرين.

إن استفزاز عقيدة المغاربة ومبادئهم الدينية، غالباً ما يؤدي إلى الثورة والاحتجاج، فقد أجمعت المصادر أن تنصيب السلطان عبد الحق لليهود على رأس إدارة الدولة، كان بمثابة استفزاز صريح للمجتمع المغربي، الذي وإن عرف بتعايشه مع اليهود، إلا أنه ظل يأبى الإهانة ويرفض الفساد الإداري والشطط الضريبي والتطاول على الأشراف والفقهاء الذين أجبروا بدورهم على أداء مغارم مستحدثة.

إن حاضرة فاس، شكلت نموذجاً للمدن الثائرة داخل المغرب، فقد شهدت هذه المدينة ثورات سابقة وأخرى لاحقة^(٥٩) عن الفترة المرينية، ضد العمال والحكام، ولا غرو، فقد امتازت بأصول ساكنتها العربية ذات الأصول الأندلسية المهاجرة إلى المغرب خلال فترات مختلفة من العصر الوسيط^(٦٠). ولم تكن العناصر الأندلسية التي تميزت برفاهة الحس والثقة المفرطة بالنفس، لترضى بعمال يسومونها المدلة والإهانة، لذلك ظل الفاسيون يعمدون إلى خلع العمال الذين لا يحسنون التصرف وينصبون عليهم عمالاً من بينهم، في انتظار أن تقبل السلطة الرسمية الأمر بالواقع أو تعين من جهتها من يقبله أهل البلد^(٦١).

دور الفقهاء والنخب العامة في التغيير السياسي والتأطير الاجتماعي بمغرب العصر الوسيط، فقد كان هؤلاء يقومون بدورهم السياسي والاجتماعي أحسن قيام، بل كان لهم دوراً حاسماً في صنع القرار السياسي، وهو ما ينطبق على فقهاء فاس الذين ورثوا عن فقهاء الأندلس، الجرأة والصراحة والشجاعة والتدخل في السياسة، خاصة وأن عدداً كبيراً من الفقهاء المغاربة

درسوا على يد الأندلسيين بقرطبة أيام عز عطائها العلمي، ولعل هذه الصفات، تنطبق تماماً على الفقيه الورياعلي الذي وصف "بصاعقة الزمان"^(٦٢) و"على يديه كان القيام على عبد الحق"^(٦٣) ووصف كذلك "بالغندور"^(٦٤) أي الشجاع، كما كان يحلو للفقيه أحمد زروق أن يلقيه، بل وسم أيضاً بالرجل الذي كان "يلقي نفسه في العظام"^(٦٥).

لم تكن كل الثورات دوماً ذات نتائج إيجابية، فبعد ثورة فاس، لم تستقر الأوضاع الداخلية، وشهد المغرب أزمة حكم ارتبطت أساساً بآليات التوريث المغذية للانقسامات العائلية، والمشجعة لتدخل الفاعلين المحليين والدوليين وتكاثر الانقلابات داخل الجهاز الحاكم، والمؤدية حتماً إلى خروج السلطة الفعلية بالتدريج من أيدي السلاطين.

خاتمة

ومما سلف، يبدو أن تعسف بعض العمال والملوك وسوء أخلاق الجباه ورجال الدولة، كانت من أكبر دواعي ثورة فاس أواخر دولة بني مرين، وهي الثورة التي شاركت فيها جميع فئات المجتمع الفاسي، فإلى جانب العامة أو الدهماء والعناصر المهمشة في المجتمع، ثارت الطبقة الأرستقراطية أيضاً، ممثلة في زعماء الجند وبعض الفقهاء ممن أفتوا بشرعية الثورة ثم الأشراف الذين تحينوا الفرصة لاستعادة مكانتهم الرمزية وسلطتهم السياسية. ولعل في نجاح الثورة وحسم الأمر سريعاً لصالح الثوار وتصفية السلطان عبد الحق المريني وحاشيته، ما يدل على أمرين أساسيين: أولهما: الوعي الذي ساد بفاس قبل الثورة وانتشار أفكار داعية إلى التغيير، والتي لعب فيها الفقهاء دوراً حاسماً، وثانيهما: أن السلطة المرينية لم يعد لها أي أساس مدني تستند إليه، وغياب كل علاقة وظيفية أو رمزية بينها وبين مكونات المجتمع سواء داخل فاس أو خارجها، خاصة بعد تولية عناصر يهودية في مناصب إدارية عليا، الأمر الذي ولد سخطاً شعبياً، وأنتج ثورة كاسحة أودت بحياة السلطان عبد الحق، وسقوط الدولة المرينية.

الإحالات المرجعية:

- (١٣) أحمد بن خالد الناصري، **كتاب الإستقصا لخبر دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، البيضاء، ١٩٥٤م، ج٤، ص.٩٨.
- (١٤) عبد الباسط بن شاهين، **الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم**، مصور بالخزانة التيمورية بدار الكتب، المصرية، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ط١، ١٤٥٣هـ/١٤٠١م، ج٣، ص.٣٣-٥٣-٥٤-٥٥-٥٦.
- (15) Mastapha, Djennabi, **Extraits inédits relatifs au Maghreb (Géographie et Histoire**, traduit de l'arabe et annoté par E. FAGNAN, Ancienne maison Bastide –Jourdan, Jules Carbonel, imprimeur-Libraire-Editeur, Alger, 1924.
- (16) Brinschvig, **La berbérie orientale sous les Hafsides**, Paris, 1940, T.1, p.31.
- (١٧) الزركشي، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تحقيق وتعليق محمد ماضود، المكتبة العتيقة، تونس، ط٢، ١٩٦٦م، ص.١٥٦.
- (١٨) يقول الزركشي: "وفي سابع عشر رمضان من العام المذكور (٨٦٩هـ)، قام بمدينة فاس مزوار الشرفاء محمد بن علي بن عمران الإدريسي على السلطان عبد الحق ابن السلطان أبي سعيد المريني وملك البلد، وكان السلطان بمحلته خارج البلد، فلما سمع فر عنه أصحابه، ورجع هو إلى فاس في أناس قلائل فقبض عليه، وقتل صبرا وقتل من بالبلد من اليهود، وقتل رئيس دولته هارون اليهودي(...)"، راجع: تاريخ الدولتين، م س، ص.١٥٦.
- (١٩) نفسه، ص.١٥٦ وما بعدها.
- (٢٠) الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م، ج١، ص.٢١٨ وما بعدها.
- (٢١) مارمول كاريخال، **إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد زبير ومحمد الأخضر، أحمد التوفيق واحمد بن جلون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ج١، ص.٤٢٤.
- (٢٢) مارمول كاريخال، م س، ج١، ص.٤٢٤.
- (23) Y.D.SEMACH, Une chronique juive de Fès: «**Le Yahias Fès de Ribbi Abner Hassarfaty**», In Hesperis, T.19, Fasc.1-2, 1934.pp.79-94.
- Haim Zeev, HIRSCHBERG, **History of the Jews in Africa**, E.J.Brill, Leiden, 1974-1981.
- (٢٤) محمد ياسر الهلالي، **ثورة فاس ضد السلطة المرينية سنة ٨٦٩هـ/١٤٦٥م، قراءة في أدوار الفقهاء ومواقفهم**، م س، ص.٥١٥.
- (٢٥) يبدو أن عبد الباسط ابن شاهين استقى أخباره عن طريق التجار، بينما مكث في تلمسان متحاشيا الوصول إلى فاس بسبب غياب الأمن وتصادد الاضطرابات الناتجة عن ثورة أهل فاس ٨٦٩هـ/١٤٦٥م.
- (٢٦) ابن القاضي، **جدوة الاقتباس**، م س، ص.٤٥٢.
- (٢٧) محمد ياسر الهلالي، **ثورة أهل فاس ضد السلطة المرينية: قراءة في أدوار الفقهاء ومواقفهم**، م س، ص.٥١٣-٥٤٤.
- (٢٨) نفسه، ص.٥٧١-٥٧٤.
- (١) باستثناء دراستين، الأولى للباحثة الإسبانية مرسيديس غارسيا أرنال، تناولت ثورة فاس وركزت فيها على ما تعرض إليه اليهود من مضايقة وتقتيل، والثانية للباحث محمد ياسر الهلالي الذي خصصها لدور الفقهاء ومواقفهم، لا نكاد نجد دراسة وافية في الموضوع. انظر: مرسيديس غارسيا أرنال، **ثورة فاس سنة ٨٦٩هـ/١٤٦٥م، وموت السلطان عبد الحق المريني**، ترجمة محمد الغرايب وتوفيق الله أفكينيش، ضمن: السلطة والفقهاء والمجتمع في تاريخ المغرب: الائتلاف والاختلاف، أعمال مهداة للأستاذ أحمد عزاي، تنسيق محمد الغرايب وعبد العزيز بلفايدة وعبد العزيز عيروز، مطابع الرباط نت، ٢٠١٣م، ص.٤٨٩. (ص.٤٨١-٥١٢). وانظر المقال الأصلي: Mercedes Garcia-Arenal, «**The Revolution of Fas in 869/1465 and the Death of sultan Abd al-Haqq al-Marini**», Bulletin of School of Oriental and African Studies, vol.41, n.1, 01978, pp.43-66.
- محمد ياسر الهلالي، **ثورة فاس ضد السلطة المرينية سنة ٨٦٩هـ/١٤٦٥م، قراءة في أدوار الفقهاء ومواقفهم**، ضمن السلطة والفقهاء والمجتمع: الائتلاف والاختلاف، أعمال تكريمية مهداة للأستاذ أحمد عزاي، تنسيق محمد الغرايب وعبد العزيز بلفايدة وعبد العزيز عيروز، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، ٢٠١٣م، مطابع الرباط، نت، ٢٠١٣م، (ص.٥١٣-٥٤٣).
- (٢) ابن القاضي المكناشي، **ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الحجال في أسماء الرجال**، تحقيق محمد الأحمد أبو النور، دار التراث، القاهرة، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٧٠م، ج٢، ص.٣٧١.
- (٣) نفسه، ج٢، ص.٣٩١.
- (٤) نفسه، ج٣، ص.١٥٦-١٥٧.
- (٥) ابن القاضي المكناشي، **جدوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣م، ص.٤٥٢.
- (٦) نفسه، ص.٤٥٢.
- (٧) مجهول، **قضية المهاجرين المسمون بالبلديين**، تحقيق محمد فتحة، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٤م، ص.٥٩-٦٣.
- (٨) سمي يهود فاس بالمهاجرين لهجرانهم الدين من اليهودية إلى الإسلام. وأما تسميتهم بالبلديين فنسبة إلى حومة البليدة بفاس القديمة التي كانت تسمى أغلان، وسكنها اليهود منذ تأسيس فاس على يد مولاي إدريس الثاني (ت.١٢١٣هـ/٨٢٨م)، راجع: **قضية المهاجرين**، م س، ص.٨.
- (٩) نفسه، ص.٥٩.
- (١٠) نفسه، ص.٥٩-٦٠.
- (١١) محمد بن الطيب بن عبد السلام القادري، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تحقيق أحمد حجي وأحمد التوفيق، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة الطالب، الرباط، د.ت، ج١، ص.١٩٤-١٩٥.
- (١٢) عبد السلام بن الطيب بن محمد القادري، **الذر السنني في بعض من بفاس من أهل النسب الحسنين**، نشر المثاني، ج١، ص.١٩٤-١٩٥.

Brunschvig, *Deux récits de voyages inédits en Afrique du - nord au XVe siècle*, Paris, 1936, II, p. 120.

(٤٦) كان يقوم هؤلاء الزعر أيضا بالدفاع عن مصالح أحيائهم، ويشكلون عصابات خارجة عن نظام الدولة، يرفضون أداء الضرائب ويقتلون الجباة. راجع: مرسيديس غارسيا أرينال، **م س**، ص. ٤٨٩. (ص. ٤٨١-٥١٢).

(٤٧) عبد الباسط شاهين، **م س**، ج٣، ص. ٥٨.

(٤٨) مارمول، **إفريقيا، م س**، ج١، ص. ٤٢٤.

(٤٩) **نفسه**، ج١، ص. ٤٢٤.

(٥٠) عبد الباسط شاهين، **م س**، ج٣، ص. ٥٨.

(٥١) مارمول كاريخال، **إفريقيا، م س**، ج١، ص. ٤٢٤.

(٥٢) الناصري، **م س**، ج٢، ص. ١٤٧.

(٥٣) **نفسه**، ج٢، ص. ١٤٩.

(٥٤) **نفسه**، ج٤، ص. ٩٨.

(٥٥) **نفسه**، ج٤، ص. ٩٨.

(٥٦) أوغست كور، **دولة بني وطاس (١٤٢٠-١٥٥٤م)**، ترجمة محمد فتحة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، أكادال، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ص. ٣٦.

(٥٧) عن الشرف ودوره في تأسيس الكيانات السياسية بالمغرب، راجع: محمد صدقي، **موقع الشرف في التجارب السياسية والمذهبية لدول العصر الوسيط، ٣١٧هـ/ ٩٢٩م-٧٥٩هـ/ ١٣٥٨م**، أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب الجديدة، جامعة شعيب الدكالي، ١٧-٢٠١٨م، (مرفوعة).

(٥٨) ابن خلدون، المقدمة، **م س**، ج١، ص. ٣٠٥.

(٥٩) عن نماذج من ثورات فاس، انظر ثورة ابن هيدور زمن السلطان المريني أبي الحسن عند الناصري، **الاستقصا**، ج٣، ص. ١٣٣. وعن ثورات فاس خلال العصر الحديث، راجع: الحاج ساسيوي الفلالي، **ثورات المدن في المغرب الأقصى الحديث، مدينة فاس في عهد السلطان مولاي اسماعيل (١٦٧٢-١٧٢٧م)**، دورية كان التاريخية، العدد: ١٧، السنة ٢٠١٢م، ص. ٦١-٦٦.

https://journals.ekb.eg/article_104451.html

(٦٠) كانت أهم هجرات الأندلسيين إلى فاس، بعد ثورة الريس سنة ٨١٢٥٢م، وتوالت بعدها هجرات أخرى لاحقة، انظر: محمد خالد مصطفى المومني، **الفقهاء وثورة أهل الريس في الأندلس (١٨٠٠-١٢٠٦هـ/ ٧٩٦-٨٢١م)**، أطروحة دكتوراه، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

(٦١) **نفسه**، ص. نفسها.

(٦٢) أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج بتطير الديباج**، عناية وتقديم عبد الحميد عبد الله هرامة، منشورات دار الكاتب طرابلس، ط ٢٠٠٢، ص. ١٨٢.

(٦٣) **نفسه**، ص. ١٨٢.

(٦٤) ابن القاضي، **درة الحجال**، ج٢، ص. ٣٧٦.

(٦٥) محمد بن جعفر بن ادريس الكتاني، **سلوة الأنفاس ومحادثة الكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني، حمزة بن محمد الطيب الكتاني، محمد حمزة بن علي الكتاني، دار الثقافة، البيضاء، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ج٢، ص. ٨٩-٩٠.

(٢٩) ابن خلدون، **المقدمة**، تصحيح وفهرسة محمد السعيد المنذوه، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، ط ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ج١، ص. ٣٠٥ وما بعدها.

(٣٠) عبد الباسط ابن شاهين، **م س**، ج٣، ص. ٤٩.

(٣١) يقول ابن القاضي إن من تولي القضاء هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله المكناسي وليس الفقيه يعقوب التسولي، راجع: **ذرة الحجال**، **م س**، ج١، ص. ٢٢.

(٣٢) الناصري، **م س**، ج٤، ص. ٩٧-٩٨.

(٣٣) عبد الباسط ابن شاهين، **م س**، ج٣، ص. ٥٤. الزركشي، **م س**، ص. ١٥٦. الناصري، **م س**، ج٤، ص. ٩٥ وما بعدها.

(٣٤) ابن القاضي، **درة الحجال، م س**، ج٣، ص. ١٥٦. **القادري، نشر المثنائي، م س**، ص. ١٩٤. **الناصر، كتاب الاستقصا، م س**، ج٤، ص. ٩٧.

(٣٥) الناصري، **م س**، ج٤، ص. ٩٨. مارمول، **م س**، ج١، ص. ٤٢٤.

(٣٦) الناصري، **م س**، ج٤، ص. ٩٨.

(٣٧) عبد الباسط ابن شاهين، ص. ٥٠-٥١. ابن القاضي، **درة الحجال**، ج٣، ص. ١٥٦-١٥٧.

(٣٨) محمد ياسر الهلالي، **ثورة أهل فاس ضد السلطة المرينية سنة ٨٦٩هـ/ ١٤٦٥م: قراءة في أدوار الفقهاء ومواقفهم، ضمن السلطة والفقهاء والمجتمع في تاريخ المغرب: الائتلاف والاختلاف**، أعمال تكريمية مهداة للأستاذ أحمد عزاوي، تنسيق محمد الغرايب وعبد العزيز بلفايدة وعبد العزيز العيوز، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الفينيطرية، مطابع الرباط نت، ١٣٠٢م، ص. ٥١٣-٥٤٤.

(٣٩) نور الدين أمعيط، **العنف في السياسة الجبائية من خلال كتاب المسند الصحيح لا بن مرزوق**، دورية كان التاريخية، العدد: ١٠، ديسمبر ٢٠١٧م، ص. (٣٩-٤٧).

https://journals.ekb.eg/article_120821.html

(٤٠) اختلفت المصادر في تسميته فالقادي، يسميه "لحسن" والناصر يسميه "الحسين"، تذكر المصادر أن لحسين هذا هو من قام بضرب المرأة الشريفة وإهانتها، وليس هارون لأن هذا الأخير كان غائبا مع السلطان عبد الحق، انظر: ابن القاضي، **جدوة الاقتباس، م س**، ص. ٣٦٢. **القادري، نشر المثنائي**، ج١، ص. ١٩٢. الناصري، **الاستقصا، م س**، ج٤، ص. ٩٨.

(٤١) الناصري، ج٤، ص. ٩٩.

(٤٢) **نفسه**، ج٤، ص. ٩٨.

(٤٣) المقصود بالحفيد، ابن الشريف محمد بن عمران الجوطي الحسني الذي عين وزيرا لوالده بعد إعدام السلطان عبد الحق.

(٤٤) الناصري، **الاستقصا**، ج٤، ص. ٩٩-١٠٠.

(٤٥) يصف عبد الباسط بن شاهين ملاقاته الثوار من العامة والغوغاء السلطان عبد الحق وقتله خارج مدينة فاس قائلا: "خرج السواد الأعظم، وهم مظهرون أنهم خرجوا لملاقاته، ومنهم الطائفة الذين يقال لهم الوكسارة، وهم نحو الزعر بهذه البلاد (...) وأخذ هو باليد وأنزل من على ففرسه، وباشر يحاكي بمجزرة كما يفعل بالغنم، وذبح صبرا في وقته، وذلك في الثاني والعشرين من شهر رمضان من هذه السنة وقتلوا الكثير من عساكره، ثم عادوا إلى فاس وبايعوا السيد محمد بن عمران وعقدوا له البيعة وملكوه عليهم". انظر: عبد الباسط شاهين، **م س**، ج٣، ص. ٥٥-٥٦-٥٧. ويعرف برانشفيك هؤلاء الزعر "بالقوادين"، راجع:

الإمامية في موريتانيا ودورها في الإصلاح السياسي خلال القرن السابع عشر الميلادي تجربة الإمام ناصر الدين نموذجاً

د. محمد سالم ولد زيد

دكتوراه في التاريخ الحديث
جامعة نواكشوط العصرية
الجمهورية الإسلامية الموريتانية



ملخص

كباقي سكان المعمورة، أدرك ساكنة المجال الموريتاني، ما للسلطة والدولة الموحدة من أهمية، نظراً لما يترتب على وجودهما من دفع المفسد وجلب المصالح، وبالتالي ظل البحث عن نظام جامع يوحد البلاد -وينشر الطمأنينة بين العباد، وتقام الفرائض في كنفه- بمثابة الشغل الشاغل لساكنة المجال الموريتاني، منذ سقوط الدولة المرابطية، وحتى قيام الدولة الوطنية الحديثة، وعلى الرغم من تعدد الأطروحات والمشاريع السياسية التي عرفها المجال الموريتاني، إلا أن ذلك لم يفلح في إخضاعه لسلطة جامعة إلا بعد قيام الدولة الوطنية الحديثة، حيث انفرد قبل ذلك كل جزء منه بتسيير أموره عن طريق إتباع سياسات خاصة به، وقد اعتمدت تلك السياسات في الغالب على تشريع فقهي يبرر لهذه السلطة أو تلك وجودها، ومن هذا المنطلق أردنا التوقف في دراستنا هذه عند تجربة إصلاحية مهمة عرفها جنوب غرب البلاد، خلال القرن السابع عشر الميلادي، وذلك من أجل التعريف برائدتها، ومعرفة الأسس والمركبات التي قامت عليها، وإبراز دورها في سد الفراغ السياسي الذي عانت منه المنطقة فترة زمنية طويلة.

كلمات مفتاحية:

الإمامية؛ السلطة؛ موريتانيا؛ الإصلاح السياسي؛ الإمام ناصر الدين؛ القرن السابع عشر

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٤ أكتوبر ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ١٨ نوفمبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.438933.1310

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد سالم ولد زيد، "الإمامية في موريتانيا ودورها في الإصلاح السياسي خلال القرن السابع عشر الميلادي: تجربة الإمام ناصر الدين نموذجاً"، دورية كان التاريخية، السنة التاسعة عشرة - العدد السادس والسبعون، فبراير ٢٠٢٦، ص ٧٠ - ٨٠.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: Salemzeid684@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دُورية كان ٤.0 This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made. فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقَدِّمَةٌ

وقبل أن نطيل الحديث عن هذه التجربة الإصلاحية الجديدة، ودورها في التحول السياسي داخل البلاد، يجدر بنا تقديم لمحة موجزة عن مفهوم الإمامة لغة واصطلاحاً، ثم التعريف بمن قام بتصميم، ومباشرة تنفيذ هذا المشروع الإصلاحي على أرض الواقع، فما هي الإمامة لغة واصطلاحاً؟ ومن هو الإمام ناصر الدين؟

أولاً: مفهوم الإمامة

يُعدّ مفهوم السلطة من بين المفاهيم التي يصعب تحديدها بشكل دقيق نظراً لما تحيل إليه من دلالات ومعان، وما قد تحمله تلك المعاني من شحنات قد لا يخلو بعضها من السلبية أحياناً كالسطوة والتسلط والإفراط في استخدام القوة، لذلك فقد فسرها المهتمون بالشأن السياسي كل حسب سياقه التاريخي ومرجعياته الثقافية، فالسلطة في السياق الإسلامي تحيل إلى "الإمامة" العظمى التي هي القيادة أو الرئاسة أو الخلافة، فهي حسب ابن خلدون "نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به"^(٧) ولا يبتعد أصحاب المعاجم كثيراً في تعريفهم للسلطة عن هذا المعنى، "فالسلطة لغة مصدر من فعل تسلط وتحكم وسيطر، ويقال سلطنه أي جعله سلطاناً"^(٨).

والسلطان هو الحاكم أو الملك أو الإمام الأعظم، وهو "القائد المؤتم به والمقتدى والمتبع" وهو شخص تقدم جماعة على بيعته"^(٩). ليتولى تسيير شؤونها وقد عرفه الرازي بقوله: "هو الحجة أو البرهان"^(١٠)، وقد يكون الإمام أو السلطان عادلاً متعباً للحق كما في قوله تعالى: "وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا"^(١١) وقد يكون عكس ذلك ضالاً كما في قوله تعالى: "وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ"^(١٢)، وفي القاموس المحيط "أم القوم أي تقدمهم وهي الإمامة"^(١٣)، وفي لسان العرب "الإمام كل من ائتم به قومه، وأم بهم أي تقدمهم"^(١٤)، أو ترأسهم أو تولى تسيير شؤونهم، ومن حيث الاصطلاح نلاحظ أيضاً أن العلماء المسلمين قد جعلوا السلطة مرادفة لمفهوم الإمامة العظمى، فقد عرفها "المارودي" في قوله: "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا من خلاله"^(١٥)، بينما عرفها "الحويني"

عرفت بلاد شنقيط -سابقاً موريتانيا حالياً- خلال القرن السابع عشر الميلادي، ظهور تجارب إصلاحية متعددة، حاول أصحابها ملأ الفراغ السياسي الذي عانت منه المنطقة بعد انفراط عقد الدولة المرابطية. وقد كانت حركة الإمام ناصر الدين من بين تلك المحاولات الإصلاحية، حيث ظهرت في سياق تاريخي صعب على المستوى المحلي، فكانت البلاد في وضعية صعبة، تمثلت في: تراجع التجارة الصحراوية التي كان عليها المعول في توفير الكثير من حاجات ساكنة البلد، هذا إضافة إلى غياب السلطة المركزية، واتساع رقعة الحروب الأهلية، وانتشار الأزمات البيئية، ناهيك عن الضغط الأوروبي على سواحل البلاد الأطلسية، مما جعل الناس في حيرة من أمرهم، متطلعين إلى مخلص من هذه الوضعية السيئة، والواقع السياسي المتري، واقع جاءت الإمامية لتكون بمثابة الثورة الجامعة عليه، بحجة أنه لا يتماشى مع النظام الإسلامي الذي ينبغي أن تحكم البلاد بواسطته، فما هي الإمامة لغة واصطلاحاً؟ ومن هو الإمام ناصر الدين؟ وما هي الأسس والمرتكزات التي أقام عليها خطابه السياسي؟ وهل أحدث ما جاء به تحولا على المستوى السياسي في البلاد؟ وما هي محددات ذلك التحول؟

في محاولة منه لانتشال البلاد من وضعيتها السياسية -المتهملة في أزمة الشرعية- قدم الإمام ناصر الدين، مشروعاً سياسياً استفاد فيه من مرجعيات متعددة، من أهمها: الخلافة الراشدة، وذلك حين قال: "نحن من الصحابة يوم القيامة كشبه الغراب بالغراب"^(١)، ومن التجربة (المرابطية)^(٢) حيث ظل الإمام ناصر الدين في جميع الحالات، هو رائد فكرة الحلف القبلي البدوي، بعد (أبو بكر بن عمر)^(٣) كشكل سياسي أرقى من مستوى القبيلة الواحدة^(٤).

كما تأثر بتجربة (المهدي بن تومارت)^(٥) في الصحراء، وذلك في طرحه الذي لا يخلو من المهدوية والركون إلى الغيبيات من أجل جمع الناس حوله، تماماً كما فعل (ابن تومارت)، "حين أعلن المهدوية كأسلوب سياسي.. تكون به التعبئة والتشديد، لتحقيق النصر"^(٦).

وقد حمل ألقاباً متعددة، خلال فترات زمنية متعددة، فسمى نفسه سيدنا، ثم بإمامنا بعد مدة، ثم مشيع الدين، ثم ناصر الدين^(٢٢). وكان من بين أثرياء الزوايا، وتجارهم المهرة^(٢٣) وقد عاش في القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي، وتربى كما يتربى أقرانه من الزوايا، فارتاد المحاضر، واعتنى بتربية مواشي أهله، وقد أسهب "اليدالي"^(٢٤) في تقديم معلومات تتعلق بصفاته حين قال ما نصه: "وكان رضي الله عنه أبيض اللون، جعد الشعر، قصيراً، مائل الأنف، أفجح الساقين، وكان يعلو وجهه نور ساطع.. وقد فاق بعض شيوخه، وبعض من تفقه معه وكانت له نفس أبيه، فاق أقرانه ورعا، حين قال إنه أعز فتى في قومه، وكان إذا اتجر أو سافر أرسل معه ضعفاء قومه بضاعتهم، ويملاً لهم أوعيتهم مما معه.. وذلك لتقواه وورعه، ثم يحسن إليهم بعد ذلك، وكانت تحته عقيلة قومه شرفاً وجمالاً، وقل ما يأوي إلى فراشها، لأنه كان صواماً قواماً، وكانت لناصر الدين مكاشفات عجيبية مشهورة"^(٢٥).

ثالثاً: تجربة الإمام ناصر الدين الإصلاحية الأسس والمرتكزات

إن أي نظرة مغربلة فيما كتبه (اليدالي) حول تجربة الإمام ناصر الدين ستفضي بصاحبها إلى القول بأن مشروعاً سياسياً جديداً بدأت تعرفه المنطقة في ركنها الجنوبي الغربي، وهو مشروعاً سياسياً يختلف عما كان سائداً قبله سواء على مستوى الأسس أو المفاهيم المستخدمة لتنفيذه. فإذا كانت القبائل (المغربية)^(٢٦) قد جعلت من القوة والعنف وسيلة للقضاء على خصومها والهيمنة عليهم، فإن الإمام ناصر الدين، قد أقام مشروع الإصلاح الوليد على مفاهيم وأسس جديدة، يمكن النظر إليها كمحددات لبداية تحول سياسي تجلى في النقاط التالية:

١/٣- الاعتماد على مفاهيم (باطنية) لم تكن مطروحة قبله

تمثلت في مفهوم الولاية والكرامة، وهي كلها مفاهيم دينية، ذات طبيعة سياسية، فمن الواضح أن الإمام أعطى أولوية للولي على حساب الفقيه وذلك في محاولة منه لسحب بساط السلطة الروحية من تحت أقدام

بقوله: "الإمامة رئاسة تامة، وزعامة عامة، تتعلق بالخاصة والعامة في مهمات الدين والدنيا"^(٢٧)، وعرفها "النسفي" في عقائده قائلاً: "هي نيابة عن الرسول (ﷺ) في إقامة الدين، بحيث يجب إتباعه على كافة الأمة"^(٢٨). والإمامة أيضاً هي: النظام الذي جعله الإسلام أساساً للحكم بين الناس بهدف اختيار الأفضل من المسلمين لتجتمع حوله كلمة الأمة وتتحد صفوفها وتقام به أحكام الشريعة.^(٢٩)

ومما سبق يمكننا القول؛ بأن الإمامة تعني القيادة أو الرئاسة أو الخلافة، وأنها وضعت في الأرض لخدمة الدين والدنيا معاً، مما يتعارض مع الطرح الذي يقول أصحابه بضرورة فصل الدين عن الدولة والسياسة، وهي ضرورة حياة لأن كل اجتماع بشري بحاجة ماسة إلى قيادة تضبط أموره، وتعمل على الدفاع عن مصالحه ودرء المفسدة عنه، فهي إذا متعلقة بالشأن السياسي وتدير أمور الرعية.

فالإمامة إذن هي: الآلية التي يمكن من خلالها بناء نظام شامل للأفراد في ظل الإسلام، وهي واجبة لما يترتب عليها من مقاصد منها: دفع ضرر الفوضى وإقامة الدين وحفظه، والدعوة إليه بالقلم واللسان والسنان، ودفع الشبه والأباطيل ومحاربتها، وحماية البيضة وتحصين الثغور، وإقامة الشرائع والحدود، وتنفيذ الأحكام وسياسة الدنيا بالدين، عن طريق تحكيمه في شتى شؤون الحياة، ناهيك عن دورها في إشاعة العدل ورفع الظلم وجمع الكلمة. وهي كلها أمور كان المجال الموريتاني بحاجة ماسة إليها خلال القرن السابع عشر الميلادي، نظراً للوضعية الصعبة التي كان عليها، وضعية دفعت الإمام ناصر الدين إلى محاولة تجاوزها انطلاقاً من تجربته الإصلاحية التي حاول تنفيذها على أرض الواقع، فمن هو الإمام ناصر الدين؟

ثانياً: نبذة عن حياة الإمام ناصر الدين

يكتنف الغموض التفاصيل الدقيقة لبداية حياة الإمام ناصر الدين، ذلك أن المعطيات المتوفرة لدينا تشير إلى أنه كان يحمل اسم "أبو بكر بن أبهم"^(٣٠) بينما كان اسمه الأصلي هو أوبك بن أبهم بن اشغ بن بهنض^(٣١)، وهو عالم من علماء أبناء ديمان، وكان صالحاً ناسكاً^(٣٢)،

إنما تبسم ليرينها، فقلت لهم ما تسألون عنه لست بأعلم به منكم" (٢٥)، وقد أعترف له بهذه الكرامات أيضاً الفقيه العالم (المصطفى بن القزاي) (٢٦)، حين سأله تلميذه الأديب (محمد بن الكريم بن الفاضل) (٢٧) عما عنده في الإمام ناصر الدين مما يدل على ولايته، قال: نعم، شاهدت فيه أربعة أمور، منها أنه أخبره بما فعل (ابن عبل) (٢٨) الذي أبطل الاتفاق المبرم بينهم مع (لمغافرة) بعد أن حرضهم ضد الزوايا، قال: فعلت أن مخبره بذلك ليس بإنسي وأنه كوشف له، كما أنه سمعه يقول في العشية التي سبقت وقعة (ترتلاس) (٢٩) بالله الذي لا إله إلا هو ليسلكن غدا تلك الفرجة منهزمين، يعني (لمغافرة)، فوقع ذلك كما أخبره به، ومن كراماته أيضاً أنه أخبر (المعزوز بن الأمين بن الفاضل) (٣٠) بأن زوجة الفقيه (محمد بن الفقيه بن المختار) (٣١) ستكون زوجة له، فاستشهد محمد، وتزوج المعزوز زوجته.

وزيادة على كل ذلك فإن الإمام ناصر الدين كان يخبر الناس بموعد آجالهم وموضع موتهم، كما حصل مع (باب أحمد بن سيد) (٣٢)، وأمه وخالتاه، وغير ذلك من أخبار الغيب، مما لا يعد ولا يحصر. (٣٣)

مما تقدم يتضح لنا أن الإمام ناصر الدين، قد أسرف كثيراً في الاعتماد على الخوارق والغيبات وهو أمر جعله يقع في صدام عنيف مع بعض فقهاء البلد (٣٤)، حيث رأوا فيه مجرد دجال، يحمل أفكاراً ينبغي قمعها بكل الوسائل حتى لا تفسد عقول الناس، ولذلك لم يجدوا بداً من رفع أصواتهم عليه مع العلم أن بعض أهل العلم لم ينكر كرامات الأولياء، لكن ما دامت في حدود المعقول "كأن تكون محصورة في إجابة دعوة أو إظهار طعام في أوان فاقعة من غير سبب ظاهر، أو حصول ماء في زمن عطش، أو تسهيل قطع مسافة في مدة قريبة، أو تخليصاً من عدو أو سماع خطاب هاتف" (٣٥) فما الذي دفع الإمام ناصر الدين إلى تجاوز المحظور مدعياً بأنه يأتيه خبر السماء عن طريق شخصية الخضر؟ أهو التوظيف السياسي لعقيدة المهدي المنتظر التي ظلت بمثابة أمل للشعوب المظلومة والمستضعفة نتيجة للأوضاع الداخلية المزرية والضغط الخارجي؟

صحيح أن ثمة عوامل خارجية وداخلية دفعت الإمام ناصر الدين إلى الاعتماد في مشروعه السياسي على

الفقهاء وتحجيم دورهم، لأن "علم علماء الظاهر (الفقهاء) كنقطة في بحار علم الأولياء" (٣٦). والولي من توالى طاعته، ومن تولى الحق سبحانه حفظه وحراسته فلا يخلق له الخذلان الذي هو قدرة العصيان وإنما يديم توفيقه الذي هو قدرة الطاعة (٣٧). قال تعالى: "وهو يتولى الصالحين"، (٣٨) وإضافة إلى مفهوم الولاية أعتمد الإمام ناصر الدين أيضاً في طرحه على مفهوم المكاشفة، "وكان بدأ مكاشفته فيما روى عنه العدول الثقة، أنه ورد بئر.. في اليوم الموافق عشرين من رمضان مع عبيده ليسقي بقره، وذلك لأنهم أهل بادية، يظعنون ويحلون.. ولم يصدر منها إلا بعد هدئ من الليل، قال فصليت بعد العشاء ما شاء الله أن أصلي مع التراويح، قال: ثم آويت إلى الفراش لأنام، فهتف بي هاتف أن قم فصل، ويقول "ليلة القدر خير من ألف شهر" (٣٩).. قال: فبينما أنا بين النائم واليقظان أراقب طلوع الفجر. إذ كشف لي عن أهل الجنة وأهل النار، وأحوال الناس في البرزخ وفي عرصات الآخرة." (٤٠)

ويبدو أن مكاشفة الإمام ناصر الدين أيضاً قد بلغت به في بعض الأحيان إلى إخبار الناس بأمور غيبية مثل: "قرب آجالهم، وما فاتهم من الصوم والصلاة، وما عليهم من التبعات، وحتى ديارهم في الجنة والنار"، (٤١) وفي هذا الكلام شطط واضح لأن صاحبه يخوض في أمور غيبية لا يعلمها إلا الله.

وعلاوة على تبني الإمام ناصر الدين، لمفهومي الولاية والمكاشفة فقد استعان أيضاً بالرواية الكرامية التي هي كالأسطورة "لم تمت في المجتمع العربي الراهن، وما تزال تطل بالإنسان على الأمل، وتمتزج بالبطولة الدينية، وتترك العنان للخيال، وتربط الفرد بالمطلق، وتعبّر عن تجارب روحية، وآليات نفسية دفاعية، أو تكييفية." (٤٢) وكان من كرامات الإمام ناصر الدين ما حصل له مع (المختار بن عمر) (٤٣) حين حدثه بما جرى بينه من حديث مع الولي الصالح المحجوب قبل وصولهم قصر "تكبة"، يقول المختار بن عمر: "فتذكرت القصة بعينها كلها، فعلمت أنه الفتى الذي أخبرني به المحجوب، فالتمست الأمارتين اللتين ذكر لي في وجهه... وقلت في نفسي كيف أرى التي في أسنانه، فكأنه كوشف له عما في ضميري، فتبسم فرأيت التي في أسنانه، فعلمت أنه

زيدان السعدي، وقطع رأسه، وعلقه على سور مراكش.. وزعم أصحابه أنه لم يمت ولكنه غاب وسيعود"^(٤٨)، ومن خلال المقارنة بين هذا الكلام، وبين ما أورده (اليدالي) عن الإمام ناصر الدين نجد أن هنالك أوجه تشابه بين الاثنين، تمثلت أساساً في إعلان الجهاد والأمر بالمعروف، فضلاً عن موقفهما ممن لم يسر على خطاهم وتخلف عنهم فأبو العباس^(٤٩) يعتبره موق، والإمام ناصر يعتبره مجرم، حين قال وقت بيعته لمن تخلفوا عنه "وامتازوا اليوم أيها المجرمون"^(٥٠)، وإن كان من الواضح أن أبا العباس أكثر جرأة وتطرفاً حين اعتبر أصحابه أفضل من الصحابة، في حين اكتفى الإمام ناصر الدين بتشبيه أصحابه بهم، حين قال "نحن من الصحابة كشبه الغراب للغراب".

وإذا كان الإمام ناصر الدين قد وجد في العامل الخارجي دافعاً جعله يعتمد على تلك المفاهيم لشيوعها في محيطه، فإن العوامل الداخلية قد جعلت الأرضية خصبة ومناسبة، لتلك المفاهيم السياسية التي ألبسها لبوساً دينياً ليقنع بها من حوله، خاصة أن هنالك مَنْ يفسر قبول فكرة المخلص بدلالة الأزمات السياسية والاجتماعية الحادة التي تمر بها الشعوب والمجتمعات المختلفة، فهي إذا وليدة التفكير الجمعي في مجتمعات تفكر تفكيراً تيوقراطياً في شؤونها السياسية، سيما وأن المخلص الذي تنتظره هذه المجتمعات له في أغلب الأحيان صفة مزدوجة دينية وسياسية معاً، وذا قوة خارقة يأتي للقضاء على الشرور والآلام، ويعيد الناس إلى الطريق القويم بعد ما ابتعدوا عنه، وانغمسوا في الملمات والآثام وهو نفسه قائداً غازياً فاتحاً ومحوراً^(٥١). وهذا ما نرى فيه تطابقاً مع الواقع الداخلي للبلاد خلال القرن السابع عشر الميلادي، خاصة إذا ما تذكرنا أن تجربة الإمام ناصر الدين لم تأت في ظروف طبيعية، فلا تجارة صحراوية، ولا سلطة مركزية، ومع هذه اللآلئ كانت الحروب الأهلية والحضور الأوروبي والجفاف، مما دفع الناس إلى الميل للغيبات والخوارق والبحث عن مخلص طال انتظاره، ويبدو أن شخصية الإمام ناصر الدين كانت تحمل بعض ملامحه.

وعلى الرغم من كون الإمام ناصر الدين قد أعطى أولوية للباطن على الظاهر إلا أن ذلك لا يعني أنه تخلى

مفاهيم لم تكن معهودة قبله محلياً كالولاية والمكاشفة والكرامة. فعلى المستوى الخارجي يبدو من الواضح أن الإمام في توظيفه لهذه المفاهيم في طرحه لم يكن بدعاً ولا نشازاً من موجة المهدوية، التي عرفها المحيط خلال القرن السابع عشر الميلادي، "فقد شهد الغرب الإسلامي عبر تاريخه المديد، الكثير من الحركات المذهبية، والدعوات السياسية، التي رامت التغيير والإصلاح، عامدة إلى استلهاهم ما كان سائداً لدى المغاربة، وعده ابن خلدون من خصائصهم من وقوع الخوارق فيهم وظهور الكاملين في النوع الإنساني من أشخاصهم، ولعل ذلك ما كان أقوى الأسباب الباعثة على اكتسابهم الاستعداد، والالتفاف حول مدعي المهدوية"^(٥٦)، وتتحدّر تلك الحركات غالباً من زوايا صوفية عمل أصحابها على توظيف الكرامة لغاياتهم، وأهدافهم السياسية، وذلك لجمع الناس حولهم، وإقناعهم بما هم عليه، فكثيراً ما "تظهر الحكايات الصوفية البطل متميزاً بوعي فوق المألوف، وحس يقفز إلى قلب الزمن ويتجاوزه، وعقل هو فوق المعقول، وهكذا تبدو الكرامة وسيلة لا للدفاع عن الشخصية بل لتمجيدها بأخلاق رفيعة، وخاصة بإرادة مطلقة، وتنظيم ذاتي للواقع وفق اللابسيبية في الكون والمجتمع، بل قد يبلغ به الأمر حد معرفة ساعة موته"^(٥٧)، ومكان قبض روحه ودفعه.

ويمكن القول بأن الإمام ناصر الدين قد تأثر بالشيخ أبي العباس (أحمد ابن عبد الله السجلماسي المغربي، المعروف بابن أبي محلي المتوفى ١٠٢٢هـ - ١٦١٤م)، الذي قال عنه الناصري "وكان أول أمره فقيهاً صرفاً، ثم انتحل طريقة التصوف مدة من الزمن، ثم ذهب إلى بلاد "القبلة" ودعا لنفسه، وادعى أنه المهدي المنتظر، وأنه بصدد الجهاد، فاستخف قلوب العوام واتبعوه، وصار ابن أبي محلي يكاذب رؤساء القبائل، وعظماء البلدان يأمرهم بالمعروف ويشتيع أنه الفاطمي المنتظر وأن من تبعه هو الفائز ومن تخلف عنه فهو موق. وربما كان يقول لأصحابه محرضاً لهم على نصرته: أنتم أفضل من الصحابة لأنكم قمتم بنصر الحق في زمن الباطل، وهم قاموا في زمن الحق، ونحو هذا من زخرف كلامه، وقد قتل أخيراً في معركة دارت بينه وبين جيش السلطان

المتمثلة في تأدية دور الفقهاء، وذلك بأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وأضاف إليها السلطة الزمنية عن طريق جمع الغنيمة وتعين القضاة والوزراء، وإعلان الجهاد والفتوحات، فهل ستفعل تلك الخطوة في إقامة نظام مركزي؟

لن يحتاج من يتولى الإجابة على مثل هذا السؤال كثير وقت ليرد بلا. لم يفلح الإمام بأفعاله تلك في إقامة نظام مركزي داخل البلاد، وذلك لأن مشروعه السياسي ظل محصوراً في إطار اجتماعي ضيق، تمثل في مجموعة (تشمشة^(٥٥)) وهذا ما صرح به الوفد المفاوض باسم الإمام ناصر الدين مع (المغافرة)، حين قال: أتركونا نحيا السنة ونقيم حدود الله ونخدم العلم، ونعبد الله، ونعمر لكم البلاد ونعدل فيها، ولا نتعرض لكم ولا (لأزناكتكم^(٥٦))، ولا لأموالكم، ولا لملككم بشيء، ولم يفعل شيئاً ينقم منا إلا أنا بايعنا إماماً يسوس لنا أمر ديننا ودياننا^(٥٧)، فمن الواضح إذاً ومن خلال هذه المفاوضات أن المشروع الإصلاحي الذي سيقوم الإمام بالمبايع بإقامته إنما يخص ناساً بعينهم، وهم مجموعة (تشمشة)، وذلك ما يتعارض بالطبع مع النظام المركزي الذي من المفترض أن يذعن له الجميع، فيأتمرون بأمره وينتهون بنهيه، وكما ظل مشروع الإمام ناصر الدين ابن مجتمع بعينه، فإنه أيضاً سيظل ابن منطقة جغرافية بعينها، ألا وهي منطقة "القبلة" وذلك ما سيحاول الإمام بالتأكيد تغطيته حين بادر لاحقاً إلى جعله أكثر شمولية، لدرجة دفعته إلى إعلان ما يشبه الخلافة الراشدة، وهي خطوة نرى فيها قفزة كبيرة للإمام ناصر الدين من مشروع (شمشوي) ضيق إلى خلافة راشدة كما نرى فيها محدداً آخر من محددات التحول السياسي الناجمة عن التجربة الإمامية ألا وهي حمل سمات الخلافة الراشدة.

٣/٣- سمات الخلافة الراشدة

كثيراً ما تدعي حركات الإصلاح السياسي سعيها لتحقيق غاية نبيلة ألا وهي: استعادة تجربة الدولة الإسلامية في عصورها الأولى، وهو أمر تبناه الإمام ناصر الدين، فكان جريئاً في طرحه حين أعلن عن تأسيس دولة على منوال الخلافة الراشدة، كافراً بالواقع السياسي القائم، ومشبهاً أتباعه بالصحابية في أفعالهم

كلية عن الظاهر، فكما وظف الباطن (الخوارق والغيبيات) لجمع الناس حوله فإنه سيعتمد على الظاهر (الكتاب والسنة)، وذلك للرد على خصومه من عليّة القوم وفقهائهم، جاعلاً منهما ملاذاً يحتمي به من هجمات منائيه وعامداً إلى تطبيق النص في ظاهره مبتعداً عن تكييفه مع أي واقع معين، مما يعني أنه في هذه المرحلة سيبتعد بنفسه عن فقه الضرورة وتقاليد الفقهاء التي درجوا عليها، وكأنه بذلك أراد الانقلاب على الموجود لكي يبرر وجوده، كما يبدو أن اعتماده على سلاح الظاهر قد فعل فعلته مع قاضي شنقيط (عبد الله أبو محمد)^(٥٨)، الذي شهد للإمام بالعلم والمعرفة، وذلك بعد جدال دار بينهما رجع القاضي أبو محمد بعده إلى تلامذته، ليقول لهم: وجدته والله بحراً يتموج في بدور العلم.^(٥٩)

وبجمعه أي الإمام ناصر الدين بين الظاهر والباطن يكون قد قدم نفسه بالمسألة الشرعية من جهة وبالهيئة الربانية من جهة ثانية، كما أنه سيسحب صلاحيات الفقهاء الروحية لكي يضمها لاحقاً إلى صلاحياته السياسية وذلك ما نرى فيه مظهراً أو محدداً آخر من محددات التحول السياسي الذي جاءت به الإمامية ألا وهو:

٢/٣- الجمع بين سلطتي السيف والقلم

وبعبارة ثانية بين السلطتين الروحية والزمنية، خاصة أنه قد سبقت منا الإشارة إلى أن الوضع السياسي في البلاد قبل التجربة الإمامية، قد تميز بظهور سلطة روحية للزوايا موازية لسلطة حسان السياسية، بمعنى أن الفئتين الأرستقراطيتين في المجتمع كانتا تقتسمان السلطة، مما حال دون إقامة نظام مركزي في المنطقة. وهو أمر سعى الإمام ناصر الدين إلى تجاوزه ووضع حد له، وذلك حين جمع السلطتين السياسية والروحية في شخصيته، وهو ما دلت عليه عبارات استخدمها (اليدالي) مثل: وهو يعظمهم "موعظة بليغة" وتلك مهمة الفقهاء، "استوزر أبهم بن أحمد"، "استقضى محمد بن حبيب"^(٥٤). هذا فضلاً عن إعلانه للجهاد والقيام بفتوحات عدة، وبالتالي يكون الإمام ناصر الدين وبواسطة تلك الإجراءات قد أخذ السلطة الروحية

بايعوا النبي (ﷺ) تحت الشجرة وقيل إنها سمرة، فقال حين بويع^(٦٣) وامتازوا اليوم أيها المجرمون^(٦٤)، وعلى الرغم من أن تلك البيعة يكتنفها الغموض نتيجة لعدم وجود نص صريح بها، إلا أنها على ما يبدو قد خولت للإمام ناصر الدين، ومنذ ذلك الوقت أن يتصرف كما يتصرف أولياء الأمور والخلفاء في تدبير شؤون دولهم، فعمد إلى تعيين الوزراء والقضاة، وفي ذلك يقول اليدالي "إن ناصر الدين لما ولي استوزر أبهم بن أحمد، وسماه القاضي عثمان، واستقضى محمد بن حبيب الله، والفاضل بن محمد، والفاضل بن محمد المختار الباركلي، والحبيب بن الحسين، وسموا محمد بن حبيب الله قاض المجلس، لأنه كان يقضي في مجلس الإمام ناصر الدين، وكان أحظى الناس عنده^(٦٥)."

فمن الواضح إذا من خلال هذه الإجراءات أن الإمام كان حريصاً أشد الحرص على إرساء قواعد دولة إسلامية قوية تعطي لكل ذي حق حقه، حيث أعطى الإمام أهمية خاصة للقضاة، وذلك من أجل إحياء السنة وإقامة الحدود، كما كانت في عهد الصحابة رضي الله عنهم^(٦٦)، ويرى ابن المقفع أن تنظيم القضاء يشكل جانباً مهماً من الجوانب التي تقوم عليها الدولة، ومن ثم فلا مناص من العمل على ضبطه، فالخليفة عليه واجب التمسك بالشرع والعدل وأن يؤسس قوانين تقوم ولأته بموجبها بتصرفات محققة للعدل والإنصاف بعيداً عن المواقف الشخصية والمزاجية حتى يشعر الجميع بالطمأنينة في ظل القانون والنظام^(٦٧). وهو أمر يبدو أن الإمام ناصر الدين قد استشعره حين عين القضاء، وخاصة القاضي عثمان الذي يقول فيه (اليدالي) "كان شديداً على العصاة، لين الجانب للضعفاء أبي النفس فريداً بفضلته على فضلاء معاصريه، من آيات الله في الشجاعة، شديد العارضة في الحق^(٦٨)، كما أن الإمام أيضاً عمداً إلى جباية الزكاة، وذلك لتحقيق هدفين رئيسيين: الأول هو توفير المال الضروري لإقامة مشروعه الإصلاحية، والثاني هو تأكيد سيادته على كل الذين يعيشون في كنف دولته، وفي هذا الإطار تقول الرواية الشفهية المتداولة، أن سيد الحسن ابن القاضي، وكان عاملاً لناصر الدين على الصدقات جاء بيه بن "آصور اصكاعي" وطلب منه إخراج زكاة إبل عنده^(٦٩)."

وتصرفاتهم، وذلك في مقولته الشهيرة "نحن من الصحابة يوم القيامة كشبه الغراب بالغراب"، متخذاً عدة إجراءات جعلت سمات الخلافة الراشدة تطفو على سطح مشروعه السياسي، إجراءات بدأها بما بدأ به النبي (ﷺ) دعوته ألا وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. واستمر على تلك الحالة ثلاثة سنوات وهو يعظ قومه "فتاب الناس وخشعوا، وأقبلوا على طاعة الله، والاشتغال بالآخرة عن الدنيا، حتى سمت العامة تلك السنين سني التوبة، وأحبه الناس حباً شديداً ولزموه، ويدع الرجل أهله وولده وماله للضياع للزومه، ولا يفارقه الناس إلا حين يقضي حاجته في الخلاء، وألزم النساء منازلهن وبيوتهن، فلا يرى لهن شخص ولا يسمع لهن صوت^(٥٨)."

ولعله بذلك استلهم من السيرة النبوية. فقد بقي النبي (ﷺ)، يدعو الناس بمكة، ويعبد الله سرا ثلاث سنوات حتى نزلت الآية "فاصدع بما تؤمر"^(٥٩) في السنة الرابعة^(٦٠)، وبأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر يكون الإمام ناصر الدين قد حقق نتيجة مهمة تمثلت في المؤاخاة بين الناس، يقول اليدالي: "وأذهب الله ببركته ما كانوا عليه من التحاسد والتباغض والتنافس"^(٦١)، وهو أمر كان من أولويات النبي (ﷺ)، حين وصل المدينة المنورة، لوضع أسس دولة الإسلام الوليدة، حيث آخى بين الأوس والخزرج، كما أنه أي الإمام ناصر الدين "قد تمكن من خلال إعادة بناء مفهوم التوبة من تأسيس قالب أيديولوجي مرن يلاءم طموحه السلطوي، وكذا الوضعية الذهنية لسكان يدفعهم العنف نحو التعلق أكثر بالسما، ذلك لأن التوبة في أصلها الديني، مطلب دائم لكل مسلم، غير أن وظيفتها السياسية ومحتواها الأيديولوجي قد تمت محورتها الظرفية هنا حول شخصية الولي الاستثنائية التي عبأت حوله القبائل وغيرت في نفس الوقت طبيعة الثوابت الأصلية لحلف (تشمشة)^(٦٢)". فكان لا بد إذا من خطوة ثالثة لكي يشعر الناس بأن دولة الخلافة قد أظلتهم وأصبحت واقعاً ملموساً وحلماً متحققاً، تمثلت هذه الخطوة في أخذ البيعة لنفسه يقول اليدالي: "ثم إن وجوه الطلبة وعرفائها، لما رأوا رغبة الناس في ناصر الدين واجتماعهم عليه، اجتمعوا على بيعته، فبايعوه تحت الشجرة السمرة، تأسيساً بالذين

وتجدر الإشارة إلى أن الإمام ناصر الدين لم يلق صعوبة كبيرة في السيطرة على أقاليم حوض النهر، بفعل عوامل كان أولها: أنه اعتمد على السكان المحليين، الذين سرعان ما تملك قلوبهم، وأصبح يضرب بهم الملوك التقليديين الواحد تلو الآخر، فكان يحرضهم على الثورة، فيفعلون، نظراً لأنهم عانوا من تسلط ملوكهم عليهم وظلمهم لهم لدرجة وصلت بهم إلى جعلهم جزءاً من التجارة المثلثة التي كانت قائمة بين أوروبا وأمريكا والسواحل الإفريقية، وهو أمر رفضه الإمام ناصر الدين عن طريق تحريمه لبيع الرقيق ومحاربته لتلك التجارة. وكان يقول: "إن الله لا يبيع للملوك أن ينهبوا أو يقتلوا، أو يستعبدوا شعوبهم، بل أمرهم برعايتهم، وحمايتهم من أعدائهم، وأن الشعوب لم تخلق للملوك، بل خلقت للملوك للشعوب"^(٧٦)، الأمر الذي جعل الكثير من الناس يرى فيه مخلصاً من الوضعية السيئة التي كان يعاني منها. كما أن وجود أرضية سياسية وأيديولوجية ملائمة كانت من أهم العوامل التي مكنت الإمام من سرعة بسط نفوذه كما يرى ولد السعد "فقد أوحى النصوص السابقة للقرن السابع عشر الميلادي بوجود إسلام بلاط في الممالك السودانية، ناب عنه في النصف الثاني من القرن نفسه انتشاراً أوسع للإسلام في صفوف السواد الأعظم من السكان.. وإن كان ذلك مشوباً بالكثير من الممارسات الخاطئة، والعادات الإفريقية القديمة"^(٧٧)، زد على ذلك أن البعد السيكلولوجي للأفارقة قد جعله بعض الغربيين السبب الأول في انتشار هذا النوع من الحركات، إذ يفسر "بول مارتي" السبب وراء التصوف في إفريقيا كون الإفريقي لا يستطيع أن يحيى في هذه الدنيا آملاً نيل الثواب في الآخرة، إلا إذا سار وراء رجل حلت عليه البركة الإلهية"^(٧٨)، ولذلك فإن المتتبع لحركة الإمام ناصر الدين يدرك بوضوح أهمية هذا البعد في انتشارها، وكيف ساهمت مكاشفات الرجل في التفاف الناس حوله، ومبايعتهم له، مما أدى إلى اتساع رقعة نفوذه فيما بعد دون عناء كبير، خاصة في منطقة حوض نهر السنغال التي استولت عليها الحركة الإمامية في أقل من خمس سنوات.

وبتلك الخطوة أي خطوة الفتح والجهاد يكون الإمام قد أضاف عدواً جديداً لمشروعه السياسي الذي صار

فالمتمعن إذا في كل هذه الإجراءات التي أقدم عليها الإمام ناصر الدين مدرك لا محالة أن مشروعه السياسي قد حمل بعض سمات الخلافة الراشدة. وهو أمر قال به (الخليل النحوي) حين سماه "بدولة التوبة الراشدة"^(٧٩)، دولة تم فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأقيمت الحدود، وجمعت الزكاة، وأخذت البيعة من رعيته، فشككت بذلك انقلاباً جذرياً على ما كان سائداً في المنطقة منذ انقراض عقد الدولة المرابطية، علماً بأن مؤسسها لم يقف عند هذا الحد، بل إنه سيتخذ إجراءً إضافياً نرى فيه ميسم فصل بين طرحه السياسي وما كان قبله، كما نرى فيه محدداً آخر من محددات التحول السياسي ألا وهو إعلان الجهاد.

٤/٣- إعلان الجهاد

لم يتردد الإمام ناصر الدين في إعلان الجهاد على الوثنيين جنوباً، حيث قام بفتوحات عديدة، شملت مناطق شاسعة من حوض النهر، وقد تمت عمليات التوسع تلك على حساب الممالك السودانية التي كانت تبسط سيطرتها على المنطقة، يقول اليدالي: "وفي أيام ناصر الدين كانت فتوحات: ففتحت فوتا.. وفتحت جلوف على يد الفاضل أبي يعدل.. وفتحت بلاد إيسينغان.. وفتحت شمامه."^(٨٠)

ومن الجدير بالذكر أن الإمام ناصر الدين لم يكن يبادر بفتح أي منطقة إلا حين يرسل رسلاً لمن يتولون أمرها من أجل دعوتهم إلى الإسلام، والتخلي عن عبادة الأوثان، وإقامة الصلاة، ومثال ذلك نراه، قد حصل مع (فوته)^(٨١) التي بدأت الخطوات الأولى لفتحها بإرسال الرسل إلى ملكها الذي رفض الاستجابة لهم وقام بطردهم وتوعدهم بالقتل في حالة العودة إليه وذلك بعد ما ترددوا عليه سبع مرات بغرض التسليم والالتزام بضوابط الشرع. فما كان من الإمام ناصر الدين إلا أن توجه إلى فوته في أواخر ١٦٧٣م وفتحها على يد النحوي أكد عبد الله أكد المختار^(٨٢) الذي استعمله عليها^(٨٣)، وقد اعتبر البعض أن من خصائص حركة الإمام ناصر الدين هو كونها قد حملت لواء الإسلام المجاهد لأول مرة في المنطقة منذ عهد المرابطين بعد قرون من الفراغ السياسي في الصحراء السنهاجية.^(٨٤)

فأعرض عنه لغناه^(٧٩)، فمثل هذا التقشف والإعراض عن الدنيا نجده عند ابن تومارت، حين وجه الدعوة إلى أتباعه كي يسلكوا مسلك التقشف، ويعرضوا عن الدنيا ولمذاتها ومما قال لهم "لا تبذروا ولا تسرفوا ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل"، كما قال "ولا تغتروا بالدنيا فإنها فانية، وكل من عليها فان.. واحذروا من مكرها وتقلب أحوالها لا تدوم على حالها، تكدر نعيمها وتقتص ملذاتها"^(٨٠)، كما أن الشورى ظلت قاسماً مشتركاً بين كل من المهدي بن تومارت والإمام ناصر الدين. فلئن كان الأخير لا يقطع أمراً دون مشورة العلماء، فإن الأول هو الآخر يعتني بأمر الشورى، وكانت له ثلاثة مجالس شورى، هي: مجلس العشرة، ومجلس الخمسين، ومجلس السبعين، إضافة إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجباية الزكاة كلها أمور اعتنى بها الرجلان.

إن الإمام ناصر الدين، ومن خلال اعتماده على المرجعيات الثلاثة السالفة الذكر قد تسبب بشكل أو بآخر في إيجاد تناقض بين في أسس مشروعه الإصلاحية، فهو من ناحية يدعي محاولة إقامة الدولة الراشدة، بينما يوغل في الغيبيات والخوارق، وتلك مسألة منعت الإجماع على مشروعه، وجعلت فقهاء الظاهر لا يكتفون فقط بعدم الوقوف في صفه، بل إنهم سيحرضون "لمغافرة" ضده، غير أننا نفسر فعلته تلك بتأثره بمحيط خارجي انتشرت فيه المهدوية بشكل واسع، هذا من ناحية، ولكي يجمع الناس حوله لإنفاذ مشروعه الإصلاحية المثير للجدل من ناحية ثانية.

لم يقتصر تأثير حركة الإمام ناصر الدين على المجال الموريتاني فحسب، وإنما سيتجاوزه إلى أقاليم حوض نهر السنغال التي تم إخضاعها بواسطة تأليب الرأي العام ضد ملوكها التقليديين، الأمر الذي سينتج عنه بعد ذلك قيام حركات إمامية متأثر من حركة ناصر الدين، مثل حركة التأسيس الإسلامي في "بندو"، وثورة الأئمة في "فوتاجالو" و"فوتاتورو".

إن محيط الإمام ناصر الدين القبلي (الشمشوي) قد دفعه إلى خوض نزال عسكري ساخن مع المجموعات (المغفرية) فيما عرف بحرب (شربيه) وهو نزال يبدو أنه لم يكن بين الزوايا وحسان بقدر ما كان أيضاً بين الزوايا أنفسهم، لأن (المغافرة) لم يتحركوا ضد حركة الإمام

مصدر إزعاج لثلاثة أطراف هي: "لمغافر"، و"الأوربيين" و"الملوك التقليديين"، فأصبحت هذه الجهات الثلاثة معنية بوضع حد له قبل أن يصل نقطة اللاعودة، وبالتالي تهيأت العوامل الكفيلة بنهاية أمر الولي ناصر الدين.

وقبل طي صفحة مشروع الإمام ناصر الدين، ودوره في التحول السياسي خلال القرن السابع عشر الميلادي، لا بأس إذا ذيلناه ببعض الاستنتاجات، وذلك على النحو التالي:

أنه على الرغم من قصر الفترة الزمنية التي شغلها مشروع الإمام ناصر الدين الإصلاحية، إلا أنه كان بمثابة محاولة جادة أحدثت تغييراً واضح المعالم في الوضع السياسي وذلك من حيث الاعتماد على مفاهيم سياسية جديدة لم تكن مطروحة من قبله.

يبدو من الواضح أن الإمام ناصر الدين قد استفاد في مشروعه الجديد من مرجعيات ثلاثة، تمثلت أولاً في دولة الخلافة الراشدة التي بدت بعض سماتها واضحة في طرح الإمام ناصر الدين مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضلاً عن المؤاخاة بين الناس وأخذ البيعة وجباية الزكاة، بينما تمثلت مرجعيته الثانية في الدولة المرابطية التي استلهم منها الاعتماد على تكتل قبلي سيكون فيما بعد تشكياً سياسياً أرقى من مستوى القبيلة الواحدة، وهو ما فعله أبو بكر بن عمر حين اعتمد على مجموعة من القبائل الصنهاجية لتحقيق الهدف ذاته، كما أن الجهاد والفتح ظل بمثابة القاسم المشترك بين الدولة المرابطية ودولة ناصر الدين. وأما المرجعية الثالثة فتمثلت في تجربة المهدي بن تومارت وذلك حين ركن الإمام ناصر الدين إلى الغيبيات والخوارق، كأسلوب سياسي يهدف إلى جمع الناس حول. أن شخصية الإمام ناصر الدين تشبه إلى حد بعيد شخصية (المهدي بن تومارت)، وذلك من خلال بعض التصرفات التي أقدم عليها في تعامله مع الناس، فهو كما يقول اليدالي: "كان لا يقضي أمراً دون مشورة العلماء وكان العلماء عنده بمكان يعظمهم ويؤثرهم، وكان ينزل الناس منازلهم، ويحب الفقراء والمساكين، ويعرض عن الأغنياء، وكانت تضره مصافحة العصاة وربما ورمته يده منها، وجاءه رجل من رؤساء الزوايا كثير البقر..

الإحالات المرجعية:

- (١) الشيخ (محمد اليدالي)، **أمر الولي ناصر الدين**، تحقيق محمد ولد باباه، بيت الحكمة، قرطاج، بدون تاريخ نشر، ص ١٣٤.
- (٢) دولة أقامتها قبائل صنهاجة خلال القرن الخامس الهجري، الحادي عشر ميلادي، وقد سيطرت على بلاد المغاربة والأندلس، وأجزاء من غرب إفريقيا، وكان لها دور محوري في نشر الإسلام في المنطقة.
- (٣) هو **أبو بكر بن عمر اللمتوني**، من أمراء الدولة المرابطية، توفي سنة ١٠٨٧ م.
- (٤) مناه (أحمد محفوظ)، **ميراث السبية، دراسة في تاريخ الثقافة السياسية في بلاد شنقيط موريتانيا**، بدون معلومات نشر، ص ٧٢-٧٣.
- (٥) مؤسس الدولة الموحدية، توفي سنة ١٠٥٢ هـ.
- (٦) عمر النجار (عبد المجيد)، **فقه الإصلاح بين التربية والسياسية (ابن العربي وابن تومارت نموذجا)**، بدون ناشر، ص ٧.
- (٧) ابن خلدون، **المقدمة**، مكتبة الصفا للنشر والتوزيع، الطبعة ١، ٢٠١٦، ص ١٨٥.
- (٨) **معجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٤، ص ٤٤٣.
- (٩) المطهري مصطفى، **الإمامة**، ترجمة علي كسار، مؤسسة البلاغ، ط٢، بيروت ١٩٩١، ص ٣٢.
- (١٠) الرازي زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، **مختار الصحاح**، تحقيق يوسف الشيخ، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت ١٩٩٠، ص ١١.
- (١١) **سورة الأنبياء**، الآية ٢٤.
- (١٢) **سورة القصص**، الآية ٤١.
- (١٣) الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة، ط٨، بيروت ٢٠٠٥، ص ٧٧.
- (١٤) ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب**، ج ١٢، دار صادر بيروت، بدون تاريخ نشر، ص ٢٤.
- (١٥) المارودي (أبو الحسن)، **الأحكام السلطانية**، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة، ط ١، الكويت، ١٩٨٩ م، ص ٣.
- (١٦) الحويني، أبو المعالي، **غياث الأمم في التياث الظلم**، ج ١، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، مصدر سابق، ص ١٥.
- (١٧) النسفي، عمر بن محمد، **العقائد النسفية**، شركة صحافة عثمانية، ١٣٢٦ هـ، ص ١٧٩.
- (١٨) مهران (محمد بيوم)، **الإمامة وأهل البيت**، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ط ٢، ١٩٩٥ م، ص ٧.
- (١٩) الشيخ محمد اليدالي، **أمر الولي ناصر الدين**، مصدر سابق، ص ١١٨.
- (٢٠) ولد الحسن (جمال)، **"حركة الإمام ناصر الدين ومنزلتها من تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا"**، حويلات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة انواكشوط، العدد الأول، ص ٩.
- (٢١) الشنقيطي (أحمد الأمين)، **الوسيط في تراجم أدباء شنقيط**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٩، ص ٤٦٩.
- (٢٢) الشيخ محمد اليدالي، **أمر الولي ناصر الدين**، مصدر سابق، ص ١٢٧.
- (٢٣) ولد سيد أحمد (محمد الأمين)، **السلطة والفقهاء في إمارة أترارزة**، مرجع سابق، ص ٨٤.

ناصر الدين إلا حين تلقوا الضوء الأخضر من قبل بعض الفقهاء، وبعد ذلك سارعوا إلى وأدها في (ترتلاس) بمساعدة من الأوربيين الداعمين بالسلاح وكذلك الملوك التقليديين الطامحين إلى استعادة ما خسروه نتيجة لمشروع الإمام ناصر الدين السياسي.

خاتمة

انطلاقاً مما تقدم يمكننا القول إن تجربة الإمام ناصر الدين الإصلاحية التي عرفتها البلاد خلال القرن السابع عشر، وعلى الرغم من كونها لم تفلح في توحيد البلاد تحت حكم مركزي جامع، إلا أنها مع ذلك كانت بمثابة حلقة مهمة في سلسلة الإصلاحات السياسية التي ما فتئت البلاد تعرفها بين الفينة والأخرى، وذلك قبل قيام الدولة الوطنية، حيث قامت التجربة الإصلاحية للإمام ناصر الدين على أسس ومرتكزات كان من أهمها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحث على العلم، فضلاً عن الدعوة إلى الاهتمام بالربية وإشاعة العدل بينها، كما تم الميل في هذه التجربة الإصلاحية إلى توظيف مفهوم الولاية والنزعة الكرامية، كأساليب سياسية سعى من خلالها الإمام ناصر الدين إلى مخاطبة العامة من أجل إقناعهم بمشروعه الإصلاحي الجديد.

(٥٢) هو القاضي عبد الله ابن محمد بن حبيب، قاضي شنتقيط وقاضي لبراكته، أول من قدم إلى القبلة من أيدوعلي، توفي عام ١١٠٣ هـ ١٦٩١م.

(٥٣) الشيخ (محمد اليدالي)، **أمر الولي ناصر الدين**، مصدر سابق، ص ١٢١.

(٥٤) الشيخ (محمد اليدالي)، **أمر الولي ناصر الدين**، مصدر سابق، ص ١٢٧-١٢٨-١٣٠.

(٥٥) حلف قبلي ضم مجموعة من قبائل الزوايا، التي كانت تهتم بالعلم، ومنهم أولاد ديمان، وبنو يعقوب وغيرهم.

(٥٦) نسبة إلى مجموعة آرتها، وكانت من الفئات التابعة في المجتمع الموريتاني التقليدي.

(٥٧) الشيخ (محمد اليدالي)، **أمر الولي ناصر الدين**، مصدر سابق، ص ١٤١.

(٥٨) الشيخ (محمد اليدالي)، **أمر الولي ناصر الدين**، مصدر سابق، ص ١٢٧.

(٥٩) **سورة الحجر**، الآية ٩٤.

(٦٠) النحوي الخليل، **بلاد شنتقيط المنارة والرباط**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ص ٣٠٤.

(٦١) الشيخ محمد اليدالي، **أمر الولي ناصر الدين**، مصدر سابق، ص ١٢٧.

(٦٢) مناه أحمد محفوظ، **ميراث السبية**، مرجع سابق، ص ٦٨.

(٦٣) الشيخ محمد اليدالي، **أمر الولي ناصر الدين**، مصدر سابق، ص ١٢٧.

(٦٤) **سورة يس**، الآية: ٣٦.

(٦٥) الشيخ محمد اليدالي، مصدر السابق، ص ١٢٨-١٢٩.

(٦٦) نفس المصدر، ص ١٣٤.

(٦٧) ولد شعيب إسماعيل، الخطاب السياسي لدى الحضرمي الآزوكي، دراسة تحليلية نقدية مقارنة لفكر أبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي، مطبعة سافور للمعلوماتية، ١٩٩٧، ص ٦١-٦٢.

(٦٨) الشيخ محمد اليدالي، **أمر الولي ناصر الدين**، مصدر سابق، هامش/ ص ١٢٨.

(٦٩) النحوي (الخليل)، **بلاد شنتقيط المنارة والرباط**، مرجع سابق، ص ٣٠٧.

(٧٠) مصطلح أطلقه الخليل النحوي على تجربة الإمام ناصر الدين، وذلك في كتابه بلاد شنتقيط المنارة والرباط ص ٣٠٣.

(٧١) الشيخ محمد اليدالي، **أمر الولي ناصر الدين**، مصدر سابق، ص ١٣٠-١٣١-١٣٢.

(٧٢) مملكة سودانية عرفتها منطقة جنوب البلاد.

(٧٣) هو النحوي أكد عبد الله بن أكد بن المختار، بايعته زوايا جبهة حرب شربة الشرقية، كان قائداً شجاعاً فتح فوته وقاد معارك أخرى.

(٧٤) ولد محنض (الحسين)، **تاريخ موريتانيا الحديث من دولة الإمام ناصر الدين إلى قدوم الاستعمار**، ط ١، دار الفكر، ٢٠١٠، ص ٢١.

(٧٥) ولد الحسن (جمال)، **حركة الإمام ناصر الدين ومنزلتها من تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا**، مرجع سابق، ص ١٠.

(٧٦) نفس المرجع، ص ١١.

(٧٧) ولد السعد (محمد المختار)، **حرب شربة أو أزمة القرن السابع عشر في الجنوب الغرب الموريتاني**، مرجع سابق، ص ١٢١.

(٧٨) قداح (نعيم)، **إفريقيا الغربية في ظل الإسلام**، ط ٢، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٥، ص ١١٨.

(٧٩) الشيخ (محمد اليدالي)، **أمر الولي ناصر الدين**، مصدر سابق، ص ١٣٤.

(٨٠) النجار (عمر عبد المجيد عمر)، **فقه الإصلاح بين التربية والسياسة**، مرجع سابق، ص ٦٤.

(٨١) هو الشيخ **محمد اليدالي الديماني** فقيه ومؤرخ موريتاني، له مؤلفات عدة منها كتابه "أمر الولي ناصر الدين".

(٨٢) الشيخ محمد اليدالي، **أمر الولي ناصر الدين**، مصدر سابق، ص ١١٨.

(٨٣) هي مجموعة قبائل وصلت إلى موريتانيا ضمن الهجرات الحسانية، ويرجع نسبها إلى جعفر بن أبي بن حسان.

(٨٤) الشيخ (محمد اليدالي)، **أمر الولي ناصر الدين**، مصدر سابق، ص ١٢٠.

(٨٥) النبهاني (يوسف بن إسماعيل)، **جامع كرامات الأولياء**، ج ١ المكتبة الشعبية، بيروت، ص ٣٣.

(٨٦) **سورة الأعراف**: الآية ١٩٦.

(٨٧) **سورة القدر**: الآية ٣.

(٨٨) الشيخ (محمد اليدالي)، **أمر الولي ناصر الدين**، مصدر سابق، ص ١١٩.

(٨٩) نفس المصدر السابق، ص ١٢١.

(٩٠) على زيعور، **الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم (القطاع اللاوعي في الذات العربية)**، ط ١، دار الطليعة للطباعة، بيروت، ١٩٧٧، ص ١٧.

(٩١) رجل من إدايه من قبيلة أولاد إبييري معاصر للإمام ناصر الدين.

(٩٢) الشيخ محمد اليدالي، **أمر الولي ناصر الدين**، مصدر سابق، ص ١٣٨.

(٩٣) من انتاب البيط المنتمين نسباً إلى أولاد الناصر، كان من العلماء العاملين المتبعين للسنة، من أهل القرن الحادي عشر.

(٩٤) هو محمد الكريم بن الفال بن الكوري، معاصر لابن رازكة، وكان عزيزاً في قومه، عالماً يؤم الصلاة بالزوايا في اجتماعاتها العامة.

(٩٥) هو محمود بن عجل بن دامن، أحد قادة جيوش لمغافرة في حرب شربة، اشتهر بتحمسه واندفاعه في قمع الزوايا ومقاتلتهم.

(٩٦) منطقة تقع جنوب غرب البلاد، قتل فيها الإمام ناصر الدين.

(٩٧) المعزوز بن اتشفغ الأمين بن سيدي الفال، وهو معاصر لناصر الدين، قاد المعارك وأبلى بلاء حسناً فيها.

(٩٨) الفقيه محمد بن الفقيه المختار، محمد بن أشفغ المختار من ادودي، ووقعت حول موضوع توبته خوارق يطول الحديث في استطرادها.

(٩٩) هو باب أحمد بن سيدي بن بوبل بن محنض، من بطن أهل عبد الله بن محنض بن ديمان، مات بعد نهاية شربة بقليل.

(١٠٠) انظر: الشيخ محمد اليدالي، **أمر الولي ناصر الدين**، مصدر سابق، ص ١٤١-١٤٢-١٤٣-١٤٤.

(١٠١) منهم على سبيل المثال محمد المختار بن الأعمش العلوي، ومحمد بن أبي بكر بت هاشم الغلاوي، والشيخ عبد الله الحسني.

(١٠٢) النبهاني (يوسف ابن إسماعيل)، **جامع كرامات الأولياء**، ج ١، المكتبة الشعبية، بيروت، بدون تاريخ نشر، ص ٣٢.

(١٠٣) لخضر بولطيف، نقلاً عن ابن خلدون، **المهدوية في الغرب الإسلامي، بين الرمز الديني والتوظيف السياسي**، ط ٢، دار الغرب الإسلامي، الرباط، ١٩٨٣، ص ١.

(١٠٤) على زيعور، **الكرامة الصوفية الأسطورة والحلم (القطاع اللاوعي في الذات العربية)**، دار الطليعة للطباعة، ط ١، بيروت، ١٩٧٧، ص ١١٨.

(١٠٥) الناصري، أبو العباس، **الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى**، ط ١، دار الكتاب للطباعة، الدار البيضاء، بدون سنة نشر ص ٢٦-٣٤.

(١٠٦) هو أحمد بن عبد الله السجلماسي المغربي المتوفى ١٠٢٢ هـ.

(١٠٧) الشيخ (محمد اليدالي)، **أمر الولي ناصر الدين**، مصدر سابق، ص ١٢٧.

(١٠٨) ذو القفار (علي ذو القفار)، **التوظيف السياسي لعقيدة المهدي وخطره على الأمن العراقي**، مركز بانقيا للأبحاث والدراسات، ط ١، ص ١٣٠، ص ١٢١.

أسماء أماكن منطقة باني في كتاب "التعرف على المغرب" لشارل دوفوكو (١٨٨٣ – ١٨٨٤) محاولة تنميط

د. عمر أوبلا

دكتوراه في اللسانيات

أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة ابن زهر أكادير – المملكة المغربية



ملخص

يتناول المقال الذي عنوانته بأسماء أماكن منطقة باني في كتاب التعرف على المغرب لشارل دوفوكو: محاولة تنميط، جانباً مهماً من جوانب الرحلة التي قام بها الرحالة الفرنسي للمغرب خلال سنتي ١٨٨٣ و ١٨٨٤، حيث جاب من خلالها مجموعة من المناطق، التي كانت إلى حدود نهاية القرن التاسع عشر مناطق مجهولة لدى الأوروبيين، بل ولدى مغاربة الشمال والوسط. ومن هذه المناطق منطقة باني، التي سألحوا مقاربتها والتعريف بها من خلال أسماء الأماكن التي تطرق إليها الكاتب في تلك الفترة وخطها في رحلته "التعرف على المغرب"، إذ سألحوا على ذكر نماذج من هذه الأسماء وتصحيحها (تنميطها)، من أجل العمل على اقتراحها لإعادة استعمالها، معتمدين في ذلك على مجموعة من المصادر التي تهتم بهذا المجال الذي يعنى بدراسة أسماء الأماكن، ومنها على الخصوص المعاجن اللغوية الأمازيغية والكتب والمؤلفات الخاصة بالطوبونيميا المغربية، وكذلك الرواية الشفوية والمعاينة المباشرة، من أجل إعطاء سمات هذه المنطقة من خلال أماكنيتها والتعريف بها، ومنها أيضاً الغوص في هذا الجانب العلمي الذي يتضمن إجابات عن إشكالات تاريخية جغرافية واثريولوجية خاصة بمنطقة الدراسة، ألا وهي منطقة باني.

كلمات مفتاحية:

الطوبونيميا؛ باني؛ التنميط؛ التعرف على المغرب؛ تاريخ القبائل

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٣ أكتوبر ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٠٧ نوفمبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.424330.1289

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عمر أوبلا، "أسماء أماكن منطقة باني في كتاب "التعرف على المغرب" لشارل دوفوكو (١٨٨٣ – ١٨٨٤): محاولة تنميط". - دورية كان التاريخية. - السنة التاسعة عشرة - العدد السادس والسبعون، فبراير ٢٠٢٦، ص ٨١ – ١٠٤.

X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodicalCorresponding author: massin05@yahoo.frEditor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.comEgyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان ٤.٠ تحت شروط الترخيص المشاع بلاتسبغ (CC BY) (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

يُعدُّ كتاب التعرف على المغرب من أبرز المصادر الأجنبية التي وثّقت مرحلة مهمة من تاريخ المغرب الحديث، حيث سعى من خلاله الرحالة الفرنسي شارل دوفوكو إلى تقديم وصف دقيق للمناطق التي زارها خلال رحلته الاستكشافية ما بين سنتي ١٨٨٣ و١٨٨٤، انطلاقاً من شمال المغرب ومروراً بوسطه وصولاً إلى جنوبه. وتكتسي منطقة باني، ولا سيما منطقة تيسينت، أهمية خاصة ضمن هذا السفر، إذ أقام بها المؤلف لأزيد من ستة أشهر قبل أن يتابع رحلته نحو المنطقة الشرقية، ومنها إلى الجزائر.

وتهدف هذه الدراسة إلى تحليل الأعلام المكانية التي وردت في هذا المؤلف خلال المرور بمنطقة تيسينت ونواحيها، بما في ذلك مناطق طاطا وأقا، التي تُعدّ من أقدم وأهم المواطن البشرية التي استقرت بمحاذاة جبل باني، وهي اليوم من أبرز الجماعات الترابية التابعة لإقليم طاطا وفق التقسيم الإداري المعتمد حالياً. وبما أن الرحالة أقام في هذه المنطقة لفترة طويلة نسبياً، فقد رصد عدداً مهماً من الأسماء الجغرافية التي تحمل دلالات تاريخية وثقافية غنية، تعكس تنوع البنيات الإثنية والثقافية التي عرفتها المنطقة في تلك المرحلة.

وتنقسم هذه الدراسة إلى ثلاث مراحل أساسية: أولاً، جرد وتصنيف الأعلام المكانية الواردة في الجزء المتعلق بمنطقة باني من كتاب التعرف على المغرب؛ ثانياً، تمييز وتحليل هذه الأسماء من خلال دراسة أصولها اللغوية والدلالية، التاريخية والثقافية والجغرافية، مع اعتماد القواعد الإملائية والمعايير المعتمدة من طرف المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، والتي تحظى باعتراف المؤسسات الحكومية والدولية المختصة في مجال تمييز الأسماء الجغرافية؛ وأخيراً، الوقوف عند الخصائص الأركيولوجية والتاريخية التي تميز منطقة تيسينت ومجال باني بوجه عام، خصوصاً المناطق الواحية، بوصفها خزاناً تراثياً ذا أهمية وطنية. وسبق هذه المعالجة التحليلية تقديم نبذة موجزة عن شخصية الرحالة شارل دوفوكو وإسهاماته العلمية، بالإضافة إلى تعريف عام بمنطقة باني، والتركيز على تيسينت

باعتبارها مركزاً بارزاً في جغرافيا الرحلة، مع التوقف عند بعض الأسماء المكانية ذات الدلالة الرمزية أو التاريخية في المجال، مثل: باني، تيسينت، طاطا.

أولاً: التعريف بالكتاب وبمؤلفه الرحالة شارل دوفوكو

١/١- مَنْ هُوَ شارل دوفوكو؟

ولد شارل دوفوكو بمدينة ستراسبورغ الفرنسية بتاريخ ١٥ شتبر ١٨٥٨، عاش يتيماً بمعية أخته تحت حضانه جده بعد وفاته والديه منذ سنة ١٨٦٤. عُرف دوفوكو منذ صغره بذكائه، ونباهته وحبّه للقراءة والمطالعة. وفي العشرين من عمره كان قد أنهى دراسته في المدرسة العسكرية، وتخرج ضابطاً، وفي نفس السنة توفي جده وترك له إرثاً هاماً. وفي سنة ١٨٨٠ تم تعيينه في مدينة الجزائر، وهذا الأمر راقه كثيراً لحبه الشديد لهذه المدينة ولساكنتها باعتبارها مقاطعة فرنسية آنذاك. لكن سرعان ما تم فصله من المهمة واسناده مهمة أخرى أكثر تشويقاً ضمن فيلق عسكري إلى تونس، ليعود أدراجه إلى فرنسا بعد ذلك بداية سنة ١٨٨٢ بعد نهاية المهمة. وهو ما مهد بأن يقدم استقالته من الجيش بصفة نهائية. وهذا القرار كان مفصلياً في حياة دوفوكو، حيث قرر الاستقرار بالجزائر للتمهيد لرحلاته، ومنها رحلته المشهور إلى المغرب التي دامت زهاء ١١ شهراً (منها ٦ أشهر كاملة بين تيسينت وطاطا وموكادور...). ليعود من جديد إلى باريس، بعد نهاية رحلته إلى المغرب، في سنة ١٨٨٦، ليتقرب أكثر من عائلته وأصدقائه، وهو ما دفعه إلى اتباع المسيح والانضمام إلى أخوية الرهبان اليسوعيين الكاثوليك سنة ١٨٩٠، وظل ملتزماً بتعاليم الديانة المسيحية هناك إلى أن تم إرساله إلى مدينة الناصرة بفلسطين، التي استقر بها إلى سنة ١٩٠٠. ليعود من جديد إلى فرنسا. وفي سنة ١٩٠١، بعد أن تم منحه صفة سفير لله، وصل شارل دوفوكو إلى منطقة بني عباس بالجزائر، ليستقر هناك لمدة ثلاث سنوات معتكفاً على العبادة في كنيسة مخصصة لذات الغرض، إلى غاية يناير ١٩٠٣ حيث انتقل للعيش في قلب الصحراء لدى الطوارق،^(١) وبالضبط منطقة تامغنست. واستقر هناك في حصن صغير إلى حين

السيبة. كما تتجلى أهميتها في الكم الكبير من المعلومات التي تضمنتها عن بلاد المغرب خاصة القرى والبلدات التي لم تكن معروفة^(٣)، مثل منطقة تيسينت ودواوير طاطا وإسافن إلى غيرها من المناطق الواقعة في المسار الذي سلكه شارل دوفوكو في رحلته، متذكراً في زي يهودي، مرفوقاً بالربي اليهودي مردوخاي أبي سرور ذو الأصول الطاطاوية (من قرية تين تازارت).

وقبل الشروع في رحلته فقد اختار الرحالة دوفوكو مساره بدقة وعناية تامة، مستهدفاً مناطق لم تكتشف بعد، ولها أهمية كبيرة سواء من حيث أشكالها التضاريسية أو من حيث ساكنتها وعاداتها الثقافية^(٤). بالإضافة إلى اختيار المسار فقد اختار بين أن يتخفى في جبة مسلم أو جبة يهودي، مفضلاً التخفي كيهودي يرافقه ربي يهودي يعرف الميدان بدقة. وذلك من أجل تحقيق الأهداف المسطرة لرحلته مسبقاً، لكون النصراري مستهدفين بشكل كبير خصوصاً في المجال المسمى بلا السيبة.

وإذا ما أرادنا الحديث عن مضمون الكتاب، فبعد مقدمة استعراض التقرير الذي أنجزته جمعية الجغرافيين بباريس حول رحلة شارل دوفوكو، وبعد التقدير المستفيض للمؤلف، قسم الكاتب كتابه "التعرف على المغرب" إلى جزأين، الجزء الأول خصص للرحلة من طنجة إلى لالا مغنية بكل تفاصيلها، وانقسم بدوره إلى عشرة فصول:

أما الجزء الثاني فقد استعرض فيه معلومات دقيقة عن الأحواض المائية (السهول) التي مر منها، بدء بحوض واد أم الربيع، ثم حوض وادي درعة، مروراً بحوض واد سوس، إلى المنطقة الساحلية، ثم حوض واد زيز بالجنوب الشرقي، وأخيراً حوض واد ملوية الطي أنهى منه رحلته إلى المغرب.

وبالإضافة إلى هذين الجزأين الرئيسيين في الكتاب، فقد كانت هناك مجموعة من الملاحق بعد نهاية الجزء الثاني تحدث في أولها عن الحضور اليهودي بالمغرب وكل ما يتعلق بهذه الأقلية التي كانت لها مكانة اعتبارية في المجتمع المغربي خلال تلك الفترة. بعد ذلك اتبعه بملاحق تتعلق بمجموعة من المعطيات الجغرافية واللسانية المتعلقة بالأماكن التي زارها. ومنها ملاحظات

اغتياله من قبل مجموعة مسلحة بقيادة إلمدني أغ سوبا، الذي كان ينوي اختطافه لفائدة السنوسيين بليبيا^(٥). ومن الناحية العلمية، فقد كانت للثلاثة عشر سنة التي قضاها بين الطوارق في الصحراء الأثر الكبير في تأليفه العديد من المنجزات العلمية المتعلقة خصوصاً بالثقافة واللغة الطارقية، إذ يعتبر المعجم الفرنسي - الطارقي (لهجة الهكار) من أبرز هذه المؤلفات، كما يعتبر من أهم الإنجازات في مجال الصناعة المعجمية الأمازيغية. أما كتاب رحلة التعرف على المغرب فيمكن اعتباره من أهم ما أنجزه شارل دوفوكو، حيث أسهم من خلال هذه الرحلة في استكشاف جوانب مهمة من تاريخ وثقافة القبائل المغربية خلال نهاية القرن التاسع عشر (١٨٨٣-١٨٨٤)، خصوصاً في المناطق الواقعة جنوب الأطلس الصغير (أو ما يصطلح عليه بلاد السيبة). تمت كتابته سنة ١٨٨٥ ونشر بباريس عام ١٨٨٨. وتمت ترجمته سنة ١٩٩٩ من طرف الأستاذ المختار بلعربي.

٢/١- كتاب التعرف على المغرب

يعتبر كتاب التعرف المغرب من أبرز مؤلفات شارل دوفوكو، وهو من منشورات «la librairie coloniale» بباريس سنة ١٨٨٨. حيث يستعرض من خلاله الكاتب أطوار الرحلة التي قام بها إلى المغرب (من شماله إلى جنوبه الشرقي) خلال الفترة من ٢٠ يونيو ١٨٨٣ إلى ٢٣ ماي سنة ١٨٨٤، تاريخ دخوله مدينة لالا مغنية في الأراضي الجزائرية ليستقر بها إلى حين وفاته سنة ١٩١٦. وزاوجت هذه الرحلة بين هدفين أساسيين أولهما علمي محض من خلال الاستكشاف والبحث عم ما هو جديد، أما الثاني فهو استعماري محض من خلال التمهيد لتوسيع المستعمرات الفرنسية.

وقد حاول الكاتب من خلال رحلته تسليط الضوء على منطقة لم تكن معروفة من لدن الدول الاستعمارية آنذاك، إذ أن المغرب في تلك الفترة - على عكس جارتها الجزائر وأغلب الدول الأفريقية - لم تكن مستعمرة. كما أن الدارسين في مجال التاريخ اعتبروا هذه الرحلة مصدراً مهماً للتأريخ للعديد من المناطق التي كانت لفترات تاريخية مهمة مغيبة عن التاريخ الرسمي للدول المتعاقبة بحكم موقعها فيما كان يصطلح عليه بلا

الترايبية التالية: جماعة تيسينت، جماعة أقايغان، جماعة أكينان، جماعة بن يعقوب، جماعة طاطا، جماعة أديس، جماعة أم الكردان، جماعة تاكموت، جماعة تيزغت، جماعة إسافن، جماعة أقا، جماعة أيت وابلي، جماعة سيدي عبد الله بن مبارك، جماعة توزونين، جماعة فم الحصن وأخيراً جماعة تامانارت. حيث نجد في رحلة التعرف على المغرب أن كل الأسماء التي قمنا بدراستها واستخراجها في الفقرات الخاصة بإقليم طاطا تمثل هذه الجماعات الستة عشر المذكورة.

٢/٢- دلالة اسم المكان

باني: أطلق هذا الاسم على أهم وأكبر سلسلة جبلية جنوب المغرب، التي تعتبر الفاصل بين سلسلة جبال الأطلس (الأطلس الصغير) والصحراء المغربية، إذ أن هذه السلسلة تعتبر حاجزا طبيعيا لتمدد وزحف الكتبان الرملية نحو الشمال. ومن أهم مميزات هذه السلسلة الجبلية أنها تخترقها مجموعة من الخنادق أو الممرات الطبيعية عبارة عن أودية، أغلبها تكون دائمة الجريان بمياهها المالحة، ويطلق عليها محليا إما إمي (بالعربية فم) ومن أشهرها: فم زكيد أو إمي زكيز شرقاً، وفم الحصن غرباً أو إمي ن وكادير. أما الاسم الثاني من هذه الخنادق فهو أقا، ومنها أقا ن ايت سيدي بتيسينت، وأقا ن إزم، وأقا (البلدة المشهورة جنوب غرب طاطا) ... كما تطلق على بعض هذه الخنادق اسم عربي وهو لخنك، بحكم وقوعها في نفوذ القبائل العربية التي كانت تستوطن هذه المنطقة، مثل خنك الطرفة، خنك بنت نّاس. ومن أهم ما يميز سلسلة جبل باني عن باقي الجبال المحيطة بها هو لون حجارتها المائلة إلى السواد، وبسفوحها الشديدة الانحدار، وقممها الجبلية المسننة التي تبلغ في علوها كحد أقصى ٣٠٠ متر. كما تشتهر عالميا بمواقع النقوش الصخرية التي تنتشر في سفوحها الجنوبية والشمالية، ما يوحي إلى أن الإنسان استوطن هذه المنطقة منذ حقب تاريخية غابرة.

أما عن تسمية الجبل بهذا الاسم، فقد حاولنا جاهدين من خلال المصادر والمراجع التي تطرقت للمنطقة بصفة عامة ولجبل باني بصفة خاصة البحث عن الدلالة الحقيقية لكلمة "باني"، فتوصلنا إلى

فلكية التي قام بها في المغرب على طول الرحلة؛ ثم ملاحظات جوية متعلقة بالطقس بالمغرب خصوصاً في المناطق المزارة؛ لينهي كتابه بفهرس لكل الأسماء الجغرافية التي تضمنها الكتاب.

وفيما يخص المقال الذي نحن بصدد كتابته فإن الجزء الأهم الذي اعتمدنا عليه هو المخصص لإقامته في الصحراء وبالضبط بمنطقة تيسينت، التي امتدت على مرحلتين أساسيتين: المرحلة الأولى منذ وصوله إلى تيسينت إلى مغادرته في اتجاه موكادور، ثم المرحلة الثانية بعد عودته إلى تيسينت من موكادور إلى رحلته في اتجاه دادس عبر تازناخت، حيث دام مقامه في تيسينت أزيد من ثلاثة أشهر في ضيافة الحاج بورحيم بن بورزاق بدوار أكادير الكبير^(٩)، الذي أواه ورافقه في رحلته إلى موكادور، واعتبره شارك دوفوكو من أبرز الشخصيات التي التقاها في رحلة التعرف على المغرب.

ثانياً: المجال المدروس من الرحلة (التحديد ودلالة الاسم)

١/٢- التحديد الجغرافي والإداري

حينما نتحدث عن منطقة باني فإن الاسم يحيل في بداية الأمر على سلسلة جبلية تتميز بشكلها الجغرافي الممتد على طول أزيد من ٥٠٠ كلم، حيث تمتد من الشمال الشرقي لإقليم زاكورة إلى الجنوب الغربي لإقليم طاطا، وتتخللها مجموعة من الخنادق، التي سنتحدث عنها لاحقاً في الفقرة الخاصة بدلالة اسم المكان (باني). وعلى الرغم من هذا الامتداد الشاسع لهذا الجبل الموازي لجبال الأطلس في السفوح الجنوبية والجنوبية الشرقية، إلا أن دراستنا ستقتصر فقط على الجزء الواقع في حدود إقليم طاطا، وبالضبط من منطقة تيسينت شرقاً إلى منطقة إمي ن وكادير (فم الحصن) غرباً، وقبائل إسافن وتاكموت... شمالاً، وسهول لمعدر بوادي درعة جنوباً. بحكم أن هذه المناطق هي التي قضى فيها الرحالة شارل دوفوكو مدة تزيد عن الستة أشهر قبل قادمنا من تازناخت في أول الأمر، وذاهبا إلى منطقة دادس في رحلة العودة.

وإذا ما أردنا أن نقوم بتحديد إداري، وفق الحدود المعمول بها حالياً، فإن منطقة بحثنا ستشمل الجماعات

الكثير يرون أن الجماعة بعيدة كل البعد عن منطقة إيسافن، إلا أن الجزء الأكبر من هذه الجماعة (حوالي الثلث من ساكنتها وثلثي مساحتها)، والذي يحده وادي طاطا إلى جهة اليمين وهذه المنطقة تدعى الجماعة السلالية لأفرا (دواري أكادير الهناء وأكجكال)، تعتبر جزءاً لا يتجزأ من فخذة "تاسوسخت"، التي تعتبر بدورها من أكبر الفخدرات بقبيلة إيسافن بحكم امتدادها على أربع جماعات ترابية بإقليم طاطا، بحكم أن كل الأراضي المتواجدة يمين وادي طاطا تنتمي قبلياً لهذه الفخذة.^(٨)

وحول أصل تسمية طاطا، فقد أشرت أغلب المصادر التي تحدثت عنها إلى أنها استمدت اسمها من اسم المنطقة التي كانت تسمى فيما مضى "ولت" والتي يمر عبرها وادي يسمى "أسيف ن ولت"، والتي تمتد من أفرا شمالاً إلى تبيكّان جنوباً (تضم ١٥ دواراً)، ووردت في شأن مجموعة من الفرضيات، أهمها:

- الفرضية الأولى تقول أن المنطقة كانت معروفة تاريخياً بـ "أسيف ن ولت"، وقيل إنها تعني "وادي النوبة"، ويطلق على النوبة اسم "تاوالا" عند أهل المنطقة، وسمي هذا الوادي كذلك إشارة إلى المناوبة التي يقوم بها الناس سواء فيما يتعلق بالزراعة في جنبات الوادي، أو المناوبة بين السهول المحيطة به وسهول المناطق التي وفد منها السكان كإيسافن... ولما بدأ أهل المنطقة يوثقون للمعاملات المدنية والتجارية باللغة العربية كتبت كلمة "ولت" الأمازيغية بلفظ "ولتة" على غرار قولهم في "إرسموكن" "رسموكة".... ومع مرور الأيام حذف الحرفان الأولان في "ولتة" فصارت "تاتا" فتم تفخيمها لتصبح "طاطا". غير أن الواو واللام المزعوم سقطوا يشكّلان جذر الكلمة والجذر يصعب إسقاطه، ومن جهة أخرى فالتاء المضافة إلى كلمة "ولت" تكتب ولا تتطق.

- هناك مَنْ يعزي هذه الكلمة إلى فعل أمازيغي وهو "تاتاتا" المستعمل عند أهل المنطقة في صيغة الأمر بمعنى "تريث"، أو إلى فعل آخر وهو "نطاطا" بمعنى "استراح".

معطيات ومعلومات غير كافية وغير شافية، ما يؤكد أن هذا الاسم هو اسم قديم تم تداوله منذ فترات تاريخية غير معروفة لدى الباحثين في هذا المجال. كما لا يمكن الجزم أو نفي أن هذه الكلمة أمازيغية أو عربية، لكون المنطقة كانت منذ عدة قرون، وما زالت، مستقرّاً للعديد من القبائل العربية، ومن أبرزها قبيلة دوبلال. ومن الدلالات المتداولة لدى أغلب الدارسين لمنطقة طاطا، أن كلمة "باني" تحيل على الجبل، مستدلّين في ذلك على اسم بني ملال (المدينة) التي تحيل أو تترجم بالجبل الأبيض. وقد جاء في موسوعة "معلمة المغرب" أن تسمية الجبل باسم "باني" يرجع إلى اسم قائد إحدى القبائل المسماة "المغرطين". وهذا القائد يدعى "باني"، استقر بجيوشه تحت أقدام هذا الجبل لكي يغزو قبيلة أخرى. وبعد أن تم غزوها وبطش بها بطشا كبيراً، أخذت تدعى هذا الجبل "باني"^(٩). أما من الناحية اللسانية فالجذر الذي يحتمل أن يشتق منه اسم "باني" فهو يحيل إلى كلمة عربية تدل على البناء، وهو "بنو"، وهو حسب معجم طايضي: بنى بيتاً أو بنى خيمة، بُنِيَ وهو كل بناء سواء كان منزلاً، أو إعداد خيمة^(١٠). والشكل الجغرافي للجبل يمكن أن يحيل على هذه الدلالة، بحكم أن الجبل عبارة عن جدار يفصل بين جبال الأطلس شمالاً والصحراء المغربية جنوباً.

طاطا: أطلق هذا الاسم في بداية الأمر، قبل تأسيس إقليم طاطا، على المنطقة الواقعة بين دواري أكادير ن لهنا شمالاً، ودوار تبيكّان جنوباً. ليتعداه منذ سنة ١٩٧٧ إلى كل المناطق الواقعة في النفوذ الإداري والترابي للإقليم الذي يضم ٢٠ جماعة ترابية، منها أربع جماعات حضرية. غير أنه، وفي ذات الآن، يطلق على الجماعة التي تشكل مقر عمالة الإقليم ومركزه الحضاري. وتعتبر جماعة طاطا من أصغر الجماعات العشرين بإقليم طاطا، حيث تبلغ مساحتها ٥٠م^(١١)، أنشئت سنة ١٩٥٩م، أي قبل تأسيس عمالة طاطا سنة بنحو ١٨ سنة. وبلغ عدد الكوامين بالجماعة برسم إحصاء سنة ٢٠١٤ ما مجموعه ٣٧٢٣ كانونا، بينما بلغ عدد السكان ما مجموعه ١٨٦١١ نسمة، وهي بذلك من أكبر الجماعات في الإقليم من حيث عدد السكان. ويحد الجماعة شمالاً وجنوباً وغرباً وشرقاً جماعة تيكزميرت. ورغم أن

جنوباً، أما أيت ووازيكيت فإنهم بعيدون عنها، إذا كان فعلاً كاريخال يتحدث عن طاطا الحالية^(١١).

تيسينيت: كان اسم تيسينيت يطلق قبل تأسيس جماعة تيسينيت سنة ١٩٦١، على اسم الواحة الواقعة في أكبر خانق من الخوانق التي تتخلل جبل باني، المشهورة بأقا ن أيت سيدي، تبعد بحوالي ٧٠ كلم عن مدينة طاطا. وتعتبر تاريخياً من أكبر واحات جنوب المغرب، ويمر عبرها مجرى مائي يسمى واد تيسينيت، الذي يُعدّ من أكبر وأهم المجاري المائية التي تقطع سلسلة جبال باني. وكانت تيسينيت تضم فيما مضى خمس دواوير وهي: أكادير، أيت ويران، تازنوت، الزاوية، وبوموسي^(١٢)، ويعتبر دوار أكادير من أهمها من حيث عدد السكان ومن حيث عراقتة وراثته التاريخي.

وبعد تأسيس جماعة تيسينيت، فقد أصبح الاسم يطلق على الجماعة التي تنتمي إدارياً إلى قيادة تيسينيت، ودائرة فم زكيد، بإقليم طاطا بجهة سوس ماسة. وتقع جماعة تيسينيت في الجهة الجنوبية الشرقية لإقليم طاطا، يحدها شرقاً جماعة ألوكوم وجماعة فم زكيد، وغرباً جماعتي أم الكردان وإقايغان، وشمالاً جماعتي أكينان وتليت، وجنوباً جماعة ألوكوم والحدود الجزائرية المغربية. وتضم حسب مونتوغرافية الجماعة ما مجموعه ١٥ دوار أو تجمعاً سكنياً، من أبرزها دوار مغميمية والقصبية. مناخ الجماعة قاري صحراوي شديد الحرارة صيفاً، وشديد البرودة شتاءً، ضعيف التساقطات المطرية حيث لا يتعدى معدلها ٥٠ إلى ١٥٠ ملم إلا أنها عرفت في السنوات الأخيرة جفافاً مستمراً أثر على الساكنة مما أدى إلى هجرة كبيرة خاصة لدى الرحل ومربي الماشية^(١٣).

وفيما يخص سبب تسمية المنطقة باسم "تيسينيت"، فيعود إلى الكلمة الأمازيغية "تيسنت" التي تعني الملح لكون الجماعة يخترقها وادي يدعى "العتيق" أو وادي تيسينيت معروف بملوحة مياهه، كما توجد بعض المناطق بالجماعة معروفة باستخراج مادة الملح تسوق بمركز الجماعة أسبوعياً قديماً وحديثاً. وبالإضافة إلى ما سبق ذكره فإن التربة الموجودة بأغلب مناطق الجماعة تتميز بالملوحة، وقد اجمعت الكتابات التي تناولت هذا الشأن على هذا الاستنتاج. ويعتبر كتاب "التعرف على

• كما أن هناك من يرجع أصل التسمية إلى كلمة «تاضا» الدالة في معجم شفيق على "الحلف"^(٩)، إذ قلبت التاء والضاد طاءً، فأصبحت طاطا، ويمكن اعتبار هذه الفرضية الأقرب إلى الصواب، حيث إن المنطقة مشهورة تاريخياً بالحياد بين الحلفين المتحاربين: "تاهكّانت" و"تاكيزولت" ويعتبر وادي طاطا (أسيف ن ولت) الفاصل بينها، أو ربما تكون المنطقة هي المركز الذي يم فيه عقد المعاهدات والتحالفات بين القبائل؛ وفي هذا السياق فقد وقفنا على قعل يستعمل في الجنوب الشرقي وهو نطاطا أي أننا نشترك في النسب أو في القرابة، ومن غير المستبعد أن يكون أصله من فعل تَضَّ الدال على الرضاعة وتَضَّ أي نشترك في الرضاعة...

• كما أن هناك وثيقة عمرها ٨ قرون تم عرضها بمعرض طاطا سنة ١٩٨٢م، وهي في حوزة زاوية جبل مواس، ترسم الحدود الفاصلة بين الزاوية وجيرانها، حيث جاء في مضمونها أن الزاوية تحدها من جهة الغرب منطقة تسمى "تتغ"، وهنا لا يستبعد أن يكون حرف العين قد استبدل بحرف الألف بعد تفخيم حرف التاء^(١٠).

ورغم كل ما قيل عن اسم "طاطا" وقبلها "ولت"، يبقى سؤال تحول الاسم من "ولت" إلى "طاطا" هو المحير الذي يبحث عن أجوبة، هل الاسم فعلاً تحول بفعل التطور الذي لحق الكلمة الأولى أم أن الاسم استبدل ولا علاقة بين الاسمين طاطا وولت؟

أما أول الإشارات التاريخية لاسم طاطا فتعود إلى القرن السادس عشر وبما أورده الرحالة مارمول كاربخال في كتابه أفريقيّا، حيث اعتبرها، أي طاطا، أهم حاضرة في الإقليم - التابع لنوميديا - ويحمل في نفس الوقت اسم طاطا وأن مساحته تعادل إقليم درعة ويتاخم كلا من ليبيا وتافيلالت، وتقع طاطا وسط النخيل محاطة بقبائل سكتانة وأيت ووازيكيت، وأن أهلها يدينون بالولاء لسلطان مراکش. غير أن هذه المعلومة قام مترجمو الكتاب بتصحيحها في الهامش، إذ اعتبروا طاطا تقع بالسوس الأقصى تحيط بها قبائل الفايجة وإندوزال وسكتانة شمالاً، وإداوبلال وأيت أو مريبط

رت.	الحقل العام	العدد	الحقل الخاص	عدد الأسماء
٠٣	حقل السكن والأبنية	١٨٥	المياه	
			مصادر المياه	٠٦
			الدول	٠٢
			المدن	١٧
			الدواوير والأحياء	١٥٦
			الخرائب والآثار	٠٨
٠٤	حقل التنظيمات القبلية والأحلاف	٨٥	المنازل	٠٢
			الأحلاف	٠٢
			الفرق والقبائل	٨٣
٠٥	حقل الدين والمعتقدات	٢٠	المزارات	١٢
			القباب	٠٤
			الزوايا	٠٤
٠٦	حقل الأنشطة الاقتصادية	٢٦	الأسواق	١٨
			الواحات	٠٦
			الغابات	٠٢

إن ما يمكن ملاحظته من خلال الجدول أعلاه هو أن حقل الدواوير والأحياء هو أكثر الحقول وروداً في كتاب التعرف على المغرب بصفة عامة، وفي الفصول الخاصة بمنطقة باني بصفة خاصة. ولهذا الأمر ما يبرره، إذ أن الرحالة دوفوكو كان يتنقل من منطقة إلى أخرى، وهو ما حتم عليه ذكر الدواوير والبلدات وكذلك المدن التي يمر منها مع إرفاقها في أغلب الأحيان برسومات توضح ملامح تلك المناطق المزورة.

أما الحقل الذي يأتي في الدرجة الثانية فهو حقل المجاري المائية، وقد أفرد الكاتب لهذا الحقل ملحقا خاصا في نهاية الكتاب ذكر فيه كل المجاري المائية (وديان وأنهار وجدول)، سواء كانت رئيسية أو ثانوية، مع ذكر فروعها ومنابعها أو مكان نشأتها، وهو ما يبرز دقة

المغرب" الذي نحن بصدد من أهم المصادر التي تناولت بالدرس والتحليل منطقة تيسينت خلال نهاية القرن التاسع عشر. كما تعتبر الدراسة التي قام بها جمال بلخضر وأساتذة آخرون سنة ١٩٩٢ أيضاً من أبرز المونوغرافيات التي أنجزت حول تيسينت.

ثالثاً: أسماء الأماكن في الرحلة المتعلقة بمجال باني (جرد، دراسة وتنميط)

١/٣- نظرة عامة على أسماء أماكن باني من خلال الرحلة

يعتبر حضور اسم المكان في رحلة شارل دوفوكو للتعرف على المغرب، بصفة عامة، بارزاً ومتنوعاً بتنوع المدن والقبائل التي مر منها. أما فيما يخص منطقة دراستنا فقد وقفنا على ما يربو من ٥٣٠ اسم مكان، منقسمة إلى حقول ومجالات متعددة. وهذا الأمر ليس بغريب نظراً لكون الكتاب يوثق لرحلة تم من خلالها استكشاف مناطق لم يكن للباحثين أو الكشافات الأوروبيين معلومات كثيرة عنها، لكون المغرب منذ بداية التاريخ كان دائماً مستعصياً على الأمم والحضارات التي كانت تستعمر شمال أفريقيا.

وقد حاولنا من خلال جرد وتصنيف كل الأعلام المكانية التي وردت في الفصول الثلاثة المدروسة، ترتيب هذه الأعلام وفق الحقول الدلالية التي تنتمي إليها، من خلال إدراجها ضمن الحقل الخاص للاسم المعني ثم الحقل العام. لنصل في النهاية إلى ما يلي:

رت.	الحقل العام	العدد	الحقل الخاص	عدد الأسماء
٠١	حقل التضاريس	٩١	القمم والمرتفعات	٢٤
			السهول والمنبسطات	٣٧
			الفجاج والممرات	٣٠
٠٢	حقل المياه	١٠٤	مجري المياه	٩٥
			مجامع	٠٣

الخفية والمعلنة فيما بعد، إذ برزت إشكالية الدخول إلى المغرب في هيئة نصراني لدى شارل دوفوكو منذ أن قرر أن يخوض هذه التجربة، وهو ما جعله في الأخير يقرر الدخول في هيئة يهودي لما كان لهذه الديانة ومعتقداتها من مكانة في المجتمعات المسلمة بالمغرب، وحضورها جنباً إلى جنب في معظم القبائل والمدن. كما أن ذكر أسماء الزوايا والمزارات وكذلك القباب كان الهدف منه معرفة مدى تعلق المغاربة المسلمين بهذه المعالم خلال تلك الفترة التاريخية، وما يمكن أن تشكله من خطر إذا ما تم المساس بها لما لها من أهمية في حياتهم، وقد برزت خلال الجزء المدروس في الرحلة زاوية مغبيميما كرمز من الرموز الدينية بالمنطقة التي يمكن أن يلتقي فيه الصديق والعدو دون أن يؤدي أحدهما الآخر. أما الحقل الثاني فهو حقل الأسواق التي تشكل إلى جانب المرفق الديني أساس الحياة الاجتماعية للمغاربة، حيث تعتبر، ليس فقط مكاناً للقيام بالمعاملات التجارية، بل مكانا للتزاور وصلة الرحم، ومكانا لتبادل الأخبار وتناقها، فذكر ما مجموعه ١٨ سوقاً أسبوعياً كانت تتعقد في المسار الذي قطعه الرحالة فيما بين تيسينت وطاطا وأقا إلى إيسافن في اتجاه سوس.

يمكن القول من خلال معطيات الجدول أعلاه، إلى أن اسم المكان له دلالة خاصة، فهو لا يقوم بالتعريف بالمكان فحسب، بل يمكن أن يبرز كل الدلالات الثقافية والاجتماعية والتاريخية وكذلك الجغرافية المرتبطة به، وهو ما يمكن يساعد في معرفة خصوصياته ومقوماته من مختلف المناحي، وبالتالي المرور عبره واختراقه دون عناء، كما يمكن استغلال هذا الاسم للتعريف بهذا المكان.

٢/٣- جرد لأهم أسماء الأماكن المذكورة ودراساتها

نظراً للكثرة الهائلة من أسماء الأماكن المذكورة في الجزء الخاص بدراستنا، فإننا سنكتفي بدراسة عينة من هذه الأسماء وإبداء بعض الملاحظات حولها، حيث سنقوم بدراسة مجموعة من الأعلام المكانية المنتمة لحقول دلالية مختلفة، وهي الحقول التي سبق أن اعتبرناها في فقرة سابقة من الحقول الأكثر تردداً في الجزء المدروس.

الملاحظة لدى هذا المستكشف، لأنه كانت هناك أهداف أكثر من زيارة هذه التخوم واستكشافها، وهذا الأمر جعلنا نطرح السؤال حول الهدف من وصف هذه المجاري المائية وصفاً دقيقاً سواء من حيث طولها وعرضها وأنواع النباتات التي تنمو فيها، وكذلك حجم المياه وعمقها إن كانت وديانا دائمة الجريان، بل إن من هذه الوديان من خاطر فيها دوفوكو بنفسه من أجل المرور منها، مثل ما وقع معه في عالية وادي سوس في السفوح الشمالية للأطلس الصغير.

ويأتي حقل الفرق والقبائل في الدرجة الثالثة من حيث الورد في الجزء المدروس، إذ أن القبيلة كانت تشكل بنية اجتماعية قوية وحاضرة في تاريخ المغرب، وخصوصاً في المناطق الجنوبية والصحراوية. فالقبيلة يمكن أن تضم مجموعة من الفرق أو ما يطلق عليه أحياناً الفخذات، كما يمكن للقبيلة أن تضم فقط مجموعة من الدواوير. وهناك أيضاً قبائل معروفة بترحالها، وبالتالي تقاس قوتها بعدد الخيام وعدد المحاربين كما هو الشأن لقبيلة دوبرال، التي أفرد لها شارل دوفوكو في رحلته فقرة خاصة للتعريف بها وبفخذاتها والعائلات المشكلة لها، وكل العائلات التي تضمها كل فرقة.

أما حقل التضاريس، خصوصاً حقل القمم والمرتفعات وحقل الممرات والسهول والمنخفضات، فيأتي في المرتبة الرابعة من حيث الأهمية في الرحلة، حيث حاول الكاتب ذكر كل السلاسل والجبال والفجاج والممرات والسهول التي مر منها أو معروفة في المناطق التي زارها، ومن أهم هذه التضاريس نجد جبل باني وخوانقه المتعددة كخنك الطرفة وفم زكيض، وإمي ن وكادير... بالإضافة إلى حوض وادي درعة بسهوله الخصبة المسماة محلياً لَمَاعْدَر، ومنبسطاته الشاسعة التي يطلق عليها محلياً رَكَّ أو لَخْلا أو لَفَايْجا.

ومن حيث الأهمية أيضاً فالجدول تضمن حقلين آخرين اعتبرناهم مهمة جداً لما لهما من أهمية في إبراز الحياة الاجتماعية لقبائل طاطا أو باني خلال تلك الفترة التاريخية التي تمت خلالها الرحلة. أما الحقل الأول فهو حقل الحياة الدينية التي كانت لها أهمية قصوى لدى المؤلف منذ بداية الرحلة إلى أن تم تحقيق أهدافها

الهرمي الشكل^(١٥). ومما جاء في دلالتها أيضاً أنها تطلق على المرتفعات المتوسطة المنعزلة التي تكون في شكل تلال ومتون مستديرة خالية من القمم الحادة، وقيمها تكون أميل إلى الاحدياب^(١٦). أما في علم التضاريس فالتل أو التلة أو الرابية شكل تضاريسي مرتفع منفرد ومرتفع قليلاً (من ١٠٠ إلى ٣٠٠ متر)، تمتاز سفوحه عامة بمنحدرات، ولا يدخل ارتفاع التل في الحساب لأن هناك هضاباً قد ترتفع أكثر من التلال، ولا يمكن تصنيفها مع الجبال رغم ارتفاعها^(١٧). وهذا الشكل التضاريسي كثير الانتشار في جبال الأطلس الصغير والدليل على ذلك كثرة الأعلام (مراكز سكنية، أشكال تضاريسية، المسالك والفجاج...) التي اتخذت هذا الاسم ومنها مثلاً: كدية مغبيمما.

بو موسي: هو اسم دوار من دواوير جماعة تيسينت. يقع في الجنوب الشرقي لواحة تيسينت. والاسم بدوره مركب من: بو ويعني صاحب أو ذو، ويدل على الملكية. موسي وهو ترخيم لاسم موسى وربما يكون أصله موشي وهو الاسم الذين يطلقه اليهود على موسى، وقد وقفنا على الاسم نفسه في حقل من حقول واحد أفرا بطاطا وهو إكر موسي، أي حقل موسي أو موشي أو موسى، وهو حقل شخص يهودي يدعى موشي. وأصل تسمية هذا الاسم هو نسبته إلى شخص اسمه موسى أو موشي.

جبل تايمزور: يعتبر من أهم وأكبر القمم الجبلية بسلسلة جبل باني، وينتصب فوق واحة تيسينت من الناحية الغربية، وقد ذكرت هذه القمة مراراً وتكراراً في رحلة التعرف على المغرب. ويعتبر ذكر هذه القمم أو الجبال التي تقع كلها في جبل باني، على أن هذا الجبل هو فعلاً سلسلة جبلية ممتدة وتتضمن العديد من القمم المرتفعة والبارزة.

العلم مركب من كلمتين: جَبْل وهو الجبل، إذ أن شارل دوفوكو اعتمد على مجموعة من المصطلحات أثناء ذكر أسماء الجبل وهي: جَبْل، أدْرار، بالإضافة إلى ذكر مجموعة من الجبال مجردة من الموصوف والاكتفاء فقط بالوصف مثل: باني، كْلُوب، أطْلَس. تايْمَزُور: تنطق هكذا كما كتبها الكاتب «taïmzour»، وحينما ندقق في الاسم ونحاول فهم معناه فهذا يحيلنا إلى معنيين: الأول يذهب إلى أن الاسم مركب مزجي من: تاماً وتعني قرب،

وقبل دراسة الأسماء المقترحة، وعددها ٢٤ علماً مكانياً، نشير إلى أن هذه الحقول الدلالية الستة (الأكثر انتشاراً في المتن المدروس) تنتمي بدورها لمجالين كبيرين أو جانبين بارزين، وهما الجانب البشري والجانب الطبيعي، وعليه فإن هذه الحقول تم تقسيمها كالتالي:

حقول الجانب الطبيعي	حقول الجانب البشري
التضاريس	القبائل
	الدواوير والأحياء
مجري المياه	الدين والمعتقدات
	الأسواق

(٢/٣) ١- حقول الجانب الطبيعي

(١/٢/٣) ١- التضاريس:

يعتبر حقل التضاريس من أبرز حقول الجانب الطبيعي، إذ تكمن أهميته في كون التضاريس من تشكيلات المجال الجغرافي الذي يتفاعل مع الإنسان بشكل يومي خصوصاً في المجتمعات القروية التي لا يمكن لها أن تسفني عنها، وهو ما يجعل هذه المجتمعات تطلق عليها أسامي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بخصوصيات محيطها أو بمميزات معيشها اليومي. ونظراً لأهمية هذا الحقل في مجال الطوبونيميا فإننا سنتطرق إلى كل مكوناته التي برزت لنا في الجزء المدروس من رحلة التعرف على المغرب. ومن أهم الأسماء التي وقفنا عليها نجد:

حقل القمم والمرتفعات:

كدية بوموسي: هي كدية، حسب رواية الكاتب، توجد في واحة تيسينت في الطريق ما بين تيسينت ومغبيمما، وانطلاقاً من اسمها فهي تقع قرب دوار بوموسي. وهي جزء من جبل باني وتنتصب فوق وادي تيسينت.

هذا العلم مركب من اسمين:

كدية: اسم عربي يعني أيضاً التلة، يطلق عليه في أمازيغية المنطقة تاوْرِيْرْت، هي عبارة عن شكل تضاريسي ممتدة نوعاً ما وقليلة الارتفاع، تنتصب في منطقة منبسطة أو وسط منخفض أرضي، قمته ممتدة نوعاً ما بالمقارنة مع قمة التل، المخروطية. كما أنها عبارة عن مرتفع منعزل وسهل الولوج^(١٤). كما تدل على الجبيل

على لمعادير، وهو مصطلح عربي مشتق من مادة عدر الدالة على كثرة المياه. أما معناها اللغوي فيدل على مكان كثرة الماء، أي المكان الذي يغمر بالمياه نتيجة كثرة المطر وفيضانات السيول والأودية، وقد عرفه بعض الباحثين بكونه مكان اتساع سرير النهر حيث يترسب الطمي الغريني الدقيق، فتصبح صالحة للزراعة البورية^(١٨). وهذا الأمر ينطبق كما قلنا سلفاً على المنخفضات المحادية لوادي درعة. ولكون هذه السهول الخصبة معدة للزراعة البورية، مرة إلى مرتين في السنة (حسب وضعية الوادي)، فقد تم تقسيمها على القبائل والفرق التي تستغلها ومن هذا الأسماء التي وردت في المتن نجد: معدر آقا، ماعدّر إشت، ماعدّر إمي ن وكادير... ولعل المرادف الأمازيغي لهذه اللفظة هو تامسولت جمعها تيمسال.

لوطا أو لوزا: حسب الاستعمال المحلي، وتدل على الأراضي المنبسطة في السهل، واصلها عربي من مادة وطئ، فأصبحت تنطق أحياناً بالطاء وأحياناً أخرى بالضاد^(١٩). وقد وقفنا على اسم واحد تضمن هذه المادة وهو: أوطا بودير.

لّخلا: وهو الخلاء باللغة العربية، وهو المكان الذي لا بنيان فيه. ويدخل إليه الإنسان لقضاء حاجته، كما جاء في دعاء دخول الخلاء (اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث). ويمكن أن نضيف أن هذا المكان يكون قاحلاً غير ذي زرع. وقد ورد في متن الرحلة المدروس اسمين يتضمنان هذه اللفظة وهما: خلا عدنان أو خلا أدنون (أرجح أن تكون هذه الأخيرة هي الصائب)، لأننا وقفنا على كلمة قريبة منها وهي أدندون وتقال للأرض غير المحروثة^(٢٠)، وسمي بها المنبسط الواقع بين منطقة إمي ن تاتلت وآقا يغان. أما الاسم الثاني فهو: خلا تاسريرت، وسمي بها المنبسط الجبلي الذي يفصل بين منطقة أكينان وقبيلة أونزيين، إذا أن مصطلح تاسريرت بدوره يدل على المنبسط المتوحد الخالي من أي غطاء نباتي^(٢١)، وهو نفس المهني الذي يحيل عليه الخلاء، إذ يمكن القول هنا أنه تخصيص الاسم الأول بنفس خصوصيات المركب الثاني.

رك: يطلق على الأرض الفسيحة المنبسطة المكسوة بالحصى والحجارة الصغيرة الناتجة عن تفتت الصخور،

وأزور وهو السطح، أما الثاني فيذهب إلى أن الاسم مركب إضافي أيضاً من: تين (التي تحولت بفعل التطور إلى تايين فأصبحت تطلق تاييم) وتعني ذات أو صاحبة؛ وأزور. ولكن المعنى الأقرب حسب نظرنا هو المعنى الأول، لسببين، الأول لأن هذه القمة شاهقة وبارزة فتتعت على أنها قريبة من السطح الذي يدل على أعلى مكان في المنزل، أما السبب الثاني أن تحول المركب تماماً نّ وزور إلى تايمزور (ربما تكون طريقة نقلها فيها خطأ) أقرب من تحول تينّ وزور إلى تايمزور.

إخف ن وّزلاك: هو اسم يطلق على السفح الغربي للجبل الذي بني عليه دوار تينّ تازارت القديم، حيث يضم العديد من المنازل التي كان يسكنها سكان القرية قبل النزول والبناء في المنبسط الواقع في أسفل الجبل، ويوجد في سفحه الجنوبي أكبر وأشهر ملاح يهودي بمنطقة طاطا. وهذا الاسم مركب من كلمتين: إخف: ويعني الرأس أو رأس الشيء مثل إخف ن إغير (دوار يوجد أسفل جبل) ...؛ أزلاك: ويعني في معجم المنطقة الثعبان، ولتسمية هذا الجبل بأزلاك ما يبرره، إذا أن شكله الطوبوغرافي يوحي إلى أنه عبّرة عن ثعبان ممد في هذا المنبسط الواقع جنوب جبل باني في منطقة خنك أديس.

حقل السهول والمنبسطات:

كثيرة هي الأسماء التي أطلقها الإنسان بالمنطقة على هذا الشكل التضاريسي الذي يتميز بانبساطه، فيكون أحياناً خصبا معدا للفلاحة والزراعة بمختلف أنواعها إذا ما توفرت لها الشروط لذلك (تساقيات مطرية، منابع وعيون للسقي والري...) فتسمى سهولا، أو يكون قاحلا جافا تنمو به أنواع مختلفة من النباتات في المواسم المطيرة، أو تتطاير فيه أنواع التربات في مواسم الجفاف، كما يمكن أن يدخل ضمن نفس الخانة تلك المنبسطات الرملية المترامية الأطراف جنوب جبل باني فيما يسمى لّحمادا. ومن أبرز الأسماء التي وقفنا عليها في المتن المدروس نجد ما يلي:

لماعدّر: وهو مصطلح كثير الانتشار في جنوب جبل باني، وبالضبط بمحاذاة وادي درعة، حيث يطلق على السهول المحادية لضفتي وادي درعة. وتجمع هذه الكلمة

الخوانق والمنافذ والممرات الضيقة في التضاريس الجبلية ومخارج الأودية^(٢٦). وقد أورد الكاتب في منطقة باني سبع منافذ تضمنت هذه المادة ومنها: فَمْ زَكِيضٌ، فَمْ أَقَا، فَمْ تَيْسِيْنَتْ.

تيزي: تطلق على الممر بين قمتين جبليتين، يصعب ارتقاؤها لانحدارها الحاد، كانت تتخذ ممرات جبلية لمرور القوافل والحيوانات وقطعان الماشية، ويرادفها في اللغة العربية مصطلح الفَجِّ. وما يميز هذه الاسم هو أن معظم الأسماء التي تضمنتها (سبعة من أصل ثمانية) لا تنتمي إلى جبل باني نظراً لكون هذا الأخير يتميز بقمم قليلة الارتفاع بالمقارنة مع الجبال الواقعة في شمال منطقة طاطا، أما الاسم الوحيد الذي تضمن هذه المادة في جبل باني فهو: تيزي ن وَقَّا.

(١/٢/٣) ٢-المياه:

في حقل المياه سنكتفي فقط بالحقل المخصص لمجري المياه لكونه الحقل الأكثر وروداً في المتن المدروس، حيث ترددت مجاري المياه بأنواعها المختلفة (وديان، جداول، شعاب...) ٩٥ مرة. ولهذا الأمر ما يبرره، كون المنطقة من السفوح الجنوبية لسلسلة جبال الأطلس الصغير، ومنها تمر كل الوديان التي تصب في وادي درعة جنوباً، مروراً عبر المنافذ والممرات التي تخترق سلسلة جبل باني.

ومن خلال ملاحظتنا لكل هذه المجاري التي جاء بها الكتاب في الجزء المخصص لدراستنا يتبين أن اسم هذه المجاري جلها مركبة من مركبين أولهما يأتي للدلالة على الاسم العام للمجرى، وهما اللفظتين: العربية واد (ذكرت ٨٨ مرة) والأمازيغية أسيف (ذكرت ٤ مرات). فيما المركب الثاني يأتي للتخصيص. ونظراً لكون هذا المجاري كثيرة جداً فإننا سنكتفي في هذه الدراسة على ثلاث مجاري مائية اعتبرناها من أهمها وأكبرها. وهي كالتالي:

وادي درعة: وقد جاء في ثلاث صيغ كتابية تدل على نفس المكان أي نفس الوادي وهذه الصيغ هي: «OUÂDI» و «OUAD DRA» و «DRA». ويعتبر وادي درعة من أطول وأضخم الأودية بالمغرب وهو الذي يمتد من الجنوب الشرقي إلى المحيط الأطلسي شمال

ويكثر هذا النوع من التضاريس في المناطق الصحراوية، ويسمى فيها بالرق أو الحمادة^(٢٣). وقد وردت هذه المادة مخصصة في ثلاث أسماء وهي: ركّ بوعجاج، ركّ راوي، ركّ إكّي ن إمعراضن. واسم مفرد وهو: ركّ، وقد أطلقه السكان المحليون حسب الكاتب على كل الأراضي المنبسطة الواقعة جنوب جبل باني.

أزاغار: يطلق على السهل الواقع عند سفح الجبل، ومن مرادفاته أسكار وأبادا^(٢٣). وقد وقفنا في الجزء المدروس على اسم واحد يتضمن هذه المادة وهو: أزاغار ن إمي ن تاتلت، وقد سمي به المنبسط الذي يقع قبالة دوار إمي ن تاتلت وهو الذي بنيت عليه حالياً المباني الجديدة للدوار التي تتضمن من بينها المرافق الإدارية والتعليمية لجماعة بن يعقوب.

حقل الممرات والفجاج:

إن الزائر أو مستكشف منطقة باني ونواحيها لا بد له من يخترق هذه السلسلة من الجنوب إلى الشمال أو من الشمال إلى الجنوب عبر مجموعة من الممرات الطبيعية، تطلق عليها مجموعة من الأسماء، ويتم تخصيصها ووصفها بمميزات ذلك الممر أو الفج. ومن أهم مميزات وفرة المياه المالحة أحياناً والعذبة أحياناً أخرى، ومن أشهر هذه الأسماء نجد:

لخنك: أصله من اللفظة العربية الخانق، وهو عبارة عن ممر طبيعي بين جبلين، يمتد على مسافة مهمة، ويمر عبره وادي أو نهر دائم الجريان. والمعروف عن خوانق جبل باني أنها غزيرة المياه سواء كانت مالحة أو عذبة، ينتج عنها أحياناً أودية دائمة الجريان أو سواقي لري الواحات والبساتين. ونظراً لكثرة هذه المنافذ الطبيعية عبر سلسلة جبل باني فقد وقفنا على تسع أماكن ظهرت فيها هذه المادة ومن أهمها: خنك طُرفا، خنك تيسينت، خنك أقا ن إزم...

فَمْ: كلمة عربية تدل على الفم، يقابلها في الأمازيغية إمي، وهي عبارة عن ممرات أو منافذ طبيعية غالباً ما تكون ضيقة. ويطلق على منفذ الوادي من منطقة جبلية إلى منطقة سهلية، وغالباً ما يكون هذا الفضاء عبارة عن فتحة عمودية في سلسلة جبلية^(٢٤). وقد يرادفه أحياناً الفج، كما تدل على المضيق بين الهضاب^(٢٥)، وكذا

مائي يمكن ادراجها ضمن حقل المياه). وهذا ما يجعل الجانبين متداخلين ومتكاملين أحياناً. على الرغم من كثرة أسماء الجانب البشري التي وردت في الجزء المدروس من رحلة التعرف على المغرب إلا أننا سنكتفي فقط بدراسة أربعة حقول دلالية خاصة، وسنكتفي بدراسة اسم أو اسمين من كل حقل. وهي كالتالي:

١- القبائل والأحلاف: (٢/٢/٣)

قبيلة إد و بلال:

وتتعلق لدى الساكنة دوبلال، وجاءت في المتن في مجموعة من الصيغ («IDA OU BLAL»، «DAOUBLAL»، «DOUI BLAL»). وهي قبيلة عربية كانت تتجمع درعة السفلى ووادي نون خلال القرن الثامن عشر تحت قيادة القائد أجانا الدوبلالي، لتزح شمالاً في اتجاه درعة الوسطى لتتبسط سيطرتها على المنطقة الواقعة ما بين طاطا غرباً وزاوية مغييمية شرقاً جنوب أكادير ن تيسين. وتتقسم القبيلة إلى مجموعتين كبيرتين (أسرتين) وهما ماكارز وحيان. وكانت هذه القبيلة خلال نهاية القرن التاسع تقيم بواحات طاطا وتيسين وتورسولت وم لكردان، وفي نفس الوقت تمارس الترحال وتراقب القوافل الصحراوية من درعة نحو تيندوف وتيمبوكتو وتاودني، وشمالاً في اتجاه سوس وموكادور ومراكش. وقد أشار الرحالة شارل دوفوكو في هذا الجزء المدروس بالذات إلى أن هذه القبيلة كانت من أقوى وأعنى القبائل بالصحراء في تلك الفترة، حيث كانوا يقومون بحماية القوافل والقبائل المستقرة على السفوح الشمالية والجنوبية لجبل باني، كما كانوا يذهبون قوافل القبائل العربية والأمازيغية التي لا تدخل ضمن دائرة حمايتهم. إذا كانوا يتنقلوا في مجموعات تضم أزيد من ٦٠ نفر^(٢٧). كما شاركت القبيلة في مواجهة الاستعمار الفرنسي منذ الثلاثينيات من القرن العشرين، إلى أن نال المغرب استقلاله حيث أعطيت القبيلة القيادة في شخص الشيخ محمد بونعيلات (دوار توك ريج)، فأصبح القبيلة متمركزة في دواوير جنوب طاطا وواحة تيسين، وبعض المدن في الصحراء المغربية.

مدينة طانطان. وينقسم الوادي جغرافياً إلى ثلاث أقسام: درعة العليا، درعة الوسطى، ثم درعة السفلى، وهذه الأخيرة هي التي تضمها المناطق التي تنتمي إليها المنطقة التي نحن بصدد دراستها، حيث توجد في ضفتيه العديد من المناطق الخصبة التي تسمى لماعدّر يستغلها أهالي طاطا للزراعة البورية خلال السنوات المطيرة.

واد أقا: ويسمى في عاليته واد إسافن، ينشأ في جبال الأطلس الصغير وبالضبط في المناطق الواقعة بين إد و زكري وإد و كنسوس، ويمر عبر فرقة إد و مارتيني، وإد و تينست، ثم تاسوسخت، وأيت واكرو إلى تيزغت، ثم منطقة إماون إلى أن يقطع جبل باني في واحة أقا، ومن هنا يأخذ اسم واد أقا إلى أن يصب في وادي درعة قرب مزارعة سيدي عمارة وفي ماعدّر أقا.

واد طاطا: ورد بالصيغة التالية: «OUAD TATTA»، ويعتبر هذا الوادي من أهم المجاري المائية بإقليم طاطا أو بمنطقة جنوب الأطلس الصغير بصفة عامة، وينشأ في السفوح الجنوبية لجبل أكليم (جنوب قبيلة إد و كنسوس)، ليمر عبر قبيلة تاكموث، مروراً بممر إمي ن واقا، إلى أن يصل إلى شمال منطقة أفرا فيتخذ اسم واد طاطا حيث يمر عبر العديد من الدواوير المشكلة لبواحات طاطا، قبل أن يدخل في منبسط رك بوعجاج (جنوب دوار تيبگان) إلى أن يصب في وادي درعة في ماعدّر طاطا بمنطقة رك سوير.

٢- الجانب البشري (٢/٣)

تعتبر علاقة الجانب البشري بالجانب علاقة تكامل خصوصاً في مجال أسماء الأماكن، إذ يمكن أن يستمد الإنسان تسمية الطبيعة المحيطة به من حياته اليومية أو من أعضاء جسمه (إغير، إخف، إمي...)، كما يمكن أن يطلق أسماء على كافة المظاهر البشرية انطلاقاً من الطبيعية (إغزرا، أنامر، أمالو...).

وحينما نتحدث عن الجانب البشري فهذا يعني كل ما كان للإنسان تدخل في صناعته أو إنجازاته وإعداداته، فمثلاً هناك أماكن تصنف ضمن الجانب البشري، ولكن أصل حقلها الدلالي ينتمي إلى الجانب الطبيعي (مجري المياه مثلاً: تاركاً فهي من صنع البشر، ولكن هي مجرى

إد ومارتيني، إد و تينست، أيت وارحو، تاسوسخت، أيت واكرو، أيت فييد، أيت هارون، أيت تيزغت، ودوودرار. ولها حدود مع العديد من القبائل كقبيلة إد وكنسوس شمالا، وقبيلة إد و زكري في الشمال الغربي، وقبيلة أيت عبد الله في الغرب، وقبيلة أقا في الجنوب.

وقد أورد الكاتب اسم القبيلة في صيغتين: «Aït ISAFFEN» و «ISAFFEN». كما تطرق في وصفه للقبيلة إلى مجموعة من الفرق المشكلة للقبيلة ومنها: «Aït OUAGROU»، «Aït TIZERT»، «Aït TASOUSEKHT»، ثم «IDA OU TINTS». والاسم مركب من كلمتين: أيت وتعني أهل، وإسافن: وهي الوديان، وهي كلمة تفرد على أسيف وتعني الواد، ومؤنثه تاسيفت وتدل على الوادي الصغير وهناك من يقول أيضاً "تالتسيفت" للدلالة على وادي صغير في طور النشأة (كان يسمى وادي طاطا أو أسيف ن ولت بهذا الاسم فيما مضى، قبل أن يحضر الماء مجراه الحالي). وقد سميت إسافن (تترجم بالوديان) بهذا الاسم نظرا لكثرة الوديان التي تمر عبر القبيلة، والتي تصب كلها في وادي إسافن أو أسيف أمغار أو أسيف مقورن (ويسمى أيضاً أسيف ن وقا لدى البعض لكونه هو الذي يمر بمنطقة أقا جنوب طاطا)، ويُعد من أكبر الوديان بإقليم طاطا أو بمنطقة الأطلس الصغير الجنوبي الأوسط وهو من الروافد الكبرى لوادي درعة.

٢-٢/٣) الدواوير والأحياء:

أكاديرن تيسينت:

يُعد دوار أكادير أكبر دواوير جماعة تيسينت القروية، حيث بلغت ساكنه خلال إحصاء سنة ٢٠١٤ ما مجموعه ٢٣٢ كانونا (أي أسرة)، ما يعني أن هناك تراجعاً كبيراً فيما بين سنتي ١٨٨٣ (تاريخ زيارة شارل دوفوكو) وسنة ٢٠١٤، حيث كان عدد الأسر ما يقارب ٥٠٠ أسرة في سنة ١٨٨٣^(٢٠). كما يعتبر من أعرق التجمعات السكانية الواقعة بممر فم تيسينت (كما سماه شارل دوفوكو)، إذا كان الدوار مركزاً تجارياً مهماً تأتي إليها مختلف القبائل من الشمال إلى الجنوب قصد القيام بالمبادلات التجارية، وتقضي أخبار القبائل والأمصار. كما كان مستقر الرحالة شارل دوفوكو حين قام بزيارته للمنطقة، حيث

إذا ما تمعنا في اسم القبيلة فسنجد أنه مركب من: إد وهي أداة جمع في اللغة الأمازيغية كقولنا إد بومحمد، إد براهيم... ثم و: أداة للنسبة يعني ابن وجمعه أيت، يؤنث على وُلّت جمعها إست، وغالباً ما تتم النسبة به إلى الأب، وهناك بعض المناطق التي تتم النسبة به إلى الأم^(٢٨). وأخيراً بلال: وهو اسم يشخص يرجح أن يكون الجد الأكبر الذي نسبت له هذه القبيلة. ومع الاستعمال أصبح اسم القبيلة ينطق دويلال النسبة منه الدويلالي.

أيت إسافن:

ويعني بها الكاتب قبيلة إسافن، التي تعد من أغنى القبائل في منطقة الأطلس الصغير الأوسط الجنوبي، سواء من حيث مواردها الطبيعية، أو ارثها الثقافي أو تاريخها العريق، فعلى الرغم من ندرة المصادر والوثائق التي تتحدث عن المنطقة، إلا أن كل المقومات التي تمتاز بها جعلتها من بين أشهر القبائل في منطقة سوس، كما أنها تُعد من القبائل الأكثر تأثيراً في تاريخ المنطقة بحكم موقعها الجغرافي الذي يربط بين المناطق الصحراوية والمناطق الجبلية، هذا بالإضافة إلى المساحة الجغرافية التي تحتلها بالمقارنة مع مجموعة من القبائل المجاورة.

وقد أورد الأستاذ عمر أفا في مؤلفه حول مسألة النقود في تاريخ المغرب خريطة لقبائل سوس بعد استقرارها في نهاية القرن التاسع عشر^(٢٩)، والتي تضمنت الحدود القبلية في المنطقة، غير أن المستجد فيها هو استقلال أهل دوودرار عن قبيلة إسافن، والحق أن هناك إجماع كلي لدى أهل المنطقة بأن أهل دوودرار كانوا فيما مضى جزءاً من فرقة تيزغت بقبيلة إسافن، أما الملاحظة الأخرى فهي استثناء جزء كبير من قبيلة طاطا أو قصور طاطا كما سماها المؤلف، التي اعتبرت تاريخياً تابعة لفرقة تاسوسخت من قبيلة إسافن، كما أن منطقة إبركاك أو إبركاكن (كما ترد في الوثائق والمصادر التاريخية) لا تنتمي تاريخياً لقبيلة إسافن، لأنها عبارة عن قبيلة مستقلة ولا تجمعها مع إسافن إلا المصالح والحدود الإدارية في إطار الجماعة القروية لإسافن أو قيادة إسافن، على الرغم من أن أغلب الروايات الشفوية التي استقيناها تؤكد على أن إبركاكن فرقة من فرق إسافن. وتضم قبيلة إسافن تسع فرق أو فخذات، وهي:

(حين) ذو بنايات صغيرة، أغلبها لا تتوفر إلا على الطابق الأرضي فقط، ومنها منازل مخربة، وهذا ما يدل على الفقر الذي تعيشه ساكنة الدوار. بها خليط من الساكنة (البيض والسود)، مياه عيونها شحيحة وبها آبار عديدة وخطارة كبيرة ومهمة في الحي الغربي^(٢٤). وحالياً فدوار أفا إكيرن يُعدّ ثاني أكبر التجمعات السكانية بجماعة أقايفان، بساكنة تعدادها ٩٥٧ نسمة، لما مجموعه ٢٠٠ كانون يقطنون ١٥٠ منزلاً.

اسم العلم مركب من كلمتين: أفا وتعني الخانق، ويجمع على أقيون أي الخوانق، وهو مصطلح جغرافي كثير التداول خصوصاً في المناطق الجنوبية وهي خوانق مرتبطة بتعمق الأودية في صخور صلبة^(٢٥). كما تستعمل لفظة أفا للدلالة على الممر بين جبلين أو على أي معبر فيصبح بذلك مرادفاً للفظـة "تيزي"^(٢٦). إكيرن وهي الصفة المشبهة من فعل إكير الذي يعني نما. والاسم ككل يعني الخانق الذي نما، ربما بفعل عوامل طبيعية غالباً.

٣-٢/٢/٣-الدين والمعتقدات:

زاوية سيدي عبد الله و محند:

تعدّ من الزوايا المشهورة في إقليم طاطا بصفة عامة، وبمنطقة تيسينت بصفة خاصة، وتوجد بدوار الزاوية، حيث يقع ضريح هذا الولي الصالح إلى جانب ضريح ابنه سيدي محمد و بوبكر. ويقام في هذا الدوار موسم سنوي في الأسبوع الثاني من ربيع الأول (يصادف ذكرى المولد النبوي الشريف)، يجتمع فيه كل ساكنة تيسينت، كما يزوره أهل مغبيمما، الذين يقدرونه لكونه جد مرابطي هذه البلدة.

الاسم مركب من: زاويت وتعني بالعربية الزاوية، وهو مكان معدّ للعبادة وإيواء المريدين وأبناء السبيل وإطعامهم، فهي شبه مسجد خاص، وعرفت دائرة المعارف الإسلامية الزاوية المغربية بأنها مدرسة دينية ودار مجانية للضيافة... تشبه الدير في العصور الوسطى. ولم تظهر الزاوية في المغرب إلا بعد القرن الخامس الهجري (١١م)، حلت محل الرباط وسميت في البداية دار الكرامة كما سميت دار الضيوف^(٢٧). سيدي: اسم تبجيل. عبد الله بن محند: ولي صالح دفن منطقة الزاوية بتيسينت، وهو جد مرابطي دوار مغبيمما.

استقر لدى الشيخ بورحيم، الذي استقبله وأواه إلى أن غادر الواحة في مارس ١٨٨٤.

وقد جاء اسم الدوار في صيغتين في متن الرحلة وهما: «AGADIR» و «AGADIR TISINT»، ويدلان على نفس المكان. ولفظة أكادير هي لفظة كثيرة الانتشار في منطقة سوس وفي السفوح الجنوبية للأطلس الصغير. يؤنث على تاكاديرت ويجمع على إكودار، وله عدة دلالات، منها الحصن والمخزن الجماعي والقرية والمنزل المحصن والقصبة، كما تدل عموماً على أي جدار كيفما كان حجمه ومادة بنائه ووظيفته^(٢٨). وتدل كلمة أكادير في قرى الأطلس الصغير على البناية المنيعة والمحصنة التي تقام فوق مناطق مشرفة وذلك راجع لعوامل تاريخية تستوجب الحراسة والمراقبة، تحيط بجوانبها الأربعة أبراج عمودية، يتكون من طابق أو طابقين ويخصص للدّخار. ولكل قبيلة حصن خاص بها، فيه تتجمع نفائسها وإمكاناتها كالعقود التجارية والعقارية والحلي والمحاصيل الزراعية، وبداخله غرف تتوزع على أسر القبيلة^(٢٩) ومن مرادفاته الصوتية (أي أداء الكلمة في بعض اللهجات بشمال أفريقيا) أكادير وأجادير وأفادير^(٣٠).

غير أن المميز في بناية أكادير في المناطق الواحية هو أن هذه البناية لا تخصص للدخار والمراقبة واللجوء فقط، بل هو عبارة عن بناية تخصص للسكن، حيث يسكن داخلها سكان القرية أو الدوار وتخصص لها مجموعة من الأبواب تغلق مساءً وتفتح صباحاً، وتوجد بداخلها كافة المرافق الموازية للحياة الاجتماعية والدينية للساكنة كالمسجد، والمسرح، والسوق... إذ نجد نفس الخصائص في الحصنين أو الدواوين المذكورين في المتن وهما: أكاديرن تيسينت وأكاديرن لّهنا.

أفا إكيرن:

دوار تابع إدارياً لجماعة أفا يغان القروية، يقع في الطريق الرابطة بين تيسينت شرقاً وطاطا غرباً. وهو من التجمعات السكنية التي عرفت تطوراً ملحوظاً فيما بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. إذ كان في نهاية القرن التاسع عشر، حسب شارل دوفوكو، أن دوار أفا إكيرن كان عبارة عن قصرين صغيرين

سيدي محمد ن أيت حساين:

ذكر هذا الاسم في إشارة إلى مزارعة وضريح سيدي محمد ن أيت حساين بدوار أكادير ن لُها بطاطا، وهو جد عائلة أيت حساين المعروفة بمكانتها العلمية في المنطقة، كما تعرف العائلة بزوايتها الدينية.

العلم مركب من: سيدي، وهي أداة تبجيل واحترام؛ محمد ن أيت حساين، هو من أشهر علماء زاوية أيت حساين، وهو محمد بن أحمد، وكان من أكابر أولياء الله الصالحين خاتمة الصوفيين المحققين في جزولة، وآخر من أحي به الله مجالس الذكر في البلاد السوسية، كان في ابتداء أمره يحب الخلوات والاعتكاف في المساجد لقراءة القرآن والصلاة والتباعد عن الخلق. كان يتعاهد ضيعته لكسب الحلال ويفوضها للخمسين.

وقد كثرت كراماته وانتشرت بركاته، وما وصلنا من عنه أن أهل بيته لا تفوتهم صلاة مع الإمام، الرجال في المسجد والنساء في المسمع في قعر بيوتهن. كما كان رضي الله عنه يكتب إلى القبائل البعيدة والقريبة وكانوا ينفذون ما أمرهم، وإلا فإنه تصيبهم بلية، ومنها أن جيرانه في وولت (طاطا الحالية)، وتاكموت والويدان (إسافن) وأقا كانوا أهل فتن قرنا بعد قرن لا تخمد نار فتنتهم، حتى أظهره الله فأخمدها شيئا فشيئا حتى لا أثر لها وصاروا ببركته إخوانا يتشاورون على أمرهم^(٣٨).

ومن أشياخه سيدي يوسف بن محمد الناصري، أخذ عنه في حياته ثم لزم زيارته بعد مماته زيارة أسلافه أشياخ تامكروت. وهو من أساتذة الشيخ أبي العباس التيمكيدشتي، فقد أقام الشيخ في الزاوية والمدرسة الهنائية مجدا في إقامة الدين وحياء السنة وظهرت ولايته وصلاحه واصلاحه عند الخاصة والعامة فيأتيه الناس من كل ناحية ويعينونه على ما هو بصده من اطعام الأضياف والقيام باليتامى والأيامى. وروي أن السلطان الشريف مولاي عبد الرحمان قد زاره في بيته واصطحبه معه إلى المسجد ولم يعرفه الناس حتى ذهب، وأخبرهم سيدي محمد بأن من صلوا به قبل ثلاثة أيام هو امام المسلمين ففرحوا بذلك غاية الفرح. توفي رحمه الله في الجمعة الثاني عشر من ربيع الثاني عام ١٢٥١

هـ. ورثاه الفقيه سيدي الحسن بن الطيفور بأبيات قائلاً^(٣٩):

سلام على القبر الذي ضم أعظما
تجول المعالي حوله وتسلم
سلام عليك كلما ذر شارق
فلم يبق جزء من دجا الليل مظلما

كتب عنه العديد من الفقهاء والشيوخ الذين تتلمذوا على يديه، ومنهم الفقيه سيدي الحسن بن الطيفور الساموكني، العالم أبو زيد التاغاغرتي. ومن أشياخه سيدي يوسف بن محمد الناصري أخذ عنه في حياته ثم لزم زيارته بعد وفاته وزيارة أسلافه أشياخ تامكروت.

٢/٢/٣ (٤)-الأسواق

خميس إديس:

يُعدّ من أبرز الأسواق بطاطا، إذ يعتبر من الأسواق التي ذكرها الرحالة شارل دوفوكو التي مازالت تتعقد إلى يومنا هذا، حيث جاءت في المتن بالصيغة التالية: «KHEMIS ADIS». وينعقد هذا السوق كل يوم خميس بدوار أديس في الخانق الذي يسمى خنك أديس، في المنبسط الواقع بين شرق وادي طاطا وغرب وادي أديس (يسمى أيضاً واد تيغمرت أو واد بويهرورن، ثم واد توكّ الريج). وقد كان إلى جانب ثلاثاء أفرا (سوق لم يعدّ ينعقد منذ عقود خلت) من أهم الأسواق الأسبوعية في طاطا خلال نهاية القرن التاسع عشر، إذ كانت العديد من السلع تباع هناك كالتمور، الخضراوات المحلية، الصوف، الحبوب... وقد لعب دوراً مهماً في تلك الفترة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية، إذ لم يكن فضاء للتبادل التجاري فحسب، بل كان يعتبر فضاء للتواصل الاجتماعي وتبادل المعلومات بين مختلف المناطق الواقعة شمال وجنوب جبل باني، كما كان صلة وصل بين المنطقة وبين القوافل القادمة من تيندوف جنوباً ومراكش وموكادور شمالاً. وحالياً فالسوق يعتبر متنفساً تجارياً لأهالي طاطا الجنوبية، حيث يمكنهم شراء حاجياتهم من الخضار والفواكه، والتمور في موسم التمر، بالإضافة إلى المواد الغذائية وبعض المواشي.

بأنه اسم أقرته سلطة مختصة بالأسماء باعتباره الاسم المفضل من بين عدة أسماء مرادفة (أسماء مغايرة) لمعلم معين، بيد أن المعلم الواحد قد يكون له أكثر من اسم موحد^(٤٠).

ولما لهذه العملية من أهمية في تصحيح الكتابات الخاطئة واستقرار كتابة الأسماء الجغرافية في اسم واحد لمكان واحد، فقد حاولنا البدء من أسماء بعض الدواوير والأحياء وبعض الياغطات، إلى أن جاء الدور على المصادر التاريخية القديمة، حيث تعد هذه الدراسة من المحاولات الأولى لتميط أسماء المكان في منطقة معينة، لمعرفة التطور الحاصل في اسم المكان سواء من حيث النطق أو من حيث الكتابة؛ لأن الأخطاء التي اعترتها ليست بغريبة لكون الذين نقلوها ليسوا، أولاً، من أبناء المنطقة وبالتالي فهم لا يتقنون لغة أهل البلد (شارل دوفوكو نموذجاً)، كما أن نقل اسم المكان لا يهم بقدر ما يهم موقع المكان وما يتوفر عليه من مؤهلات وخصوصيات جغرافية. ونظراً لكون عملية التتميط تستدعي مجموعة من الضوابط سواء فيما يتعلق باختيار الرمز الذي سيتم به نقل الاسم أو من خلال اختيار المصطلح المناسب، فإننا سنعتمد خلال هذه الدراسة في كلتا العمليتين على مقترحات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، باعتباره المؤسسة التي عهد إليها منذ سنة ٢٠٠١ بالعمل على تهيئة اللغة الأمازيغية وإعطاء مقترحات بشأن ترسيمها وإدراجها في الحياة العامة، بما في ذلك التعليم والإعلام، وإنجاز الدلائل، وترجمة الكلمات، والأسماء.

ورغم أن المتن لا يحتوي على أسماء أماكن أمازيغية فقط، إلا أنه لوحظ أن أغلبها فيه بنية اللغة الأمازيغية على الرغم من كونها أسماء عربية. وعليه فإننا سنكتفي في هذه الدراسة بإعطاء الاسم الموحد والمنمط للأعلام المكانية التي تأكدنا وتحققنا من أسمائها في حدود ثلاث حقول رأينا أنها ذات أهمية كبيرة سواء من حيث عددها أو من حيث غناها في مكوناتها، والتي يمكن الانطلاق منها لتحديد خصوصيات ومميزات المنطقة، وهي كالتالي:

العلم مركب من كلمتين: خميس ويعني يوم الخميس، وهو يوم انعقاد السوق؛ ثم أديس، وهو دوار أديس الذي يعتبر أكبر دوار من دواوير جماعة أديس، حيث بلغ عدد كواينه خلال إحصاء سنة ٢٠١٤ ما مجموعه ١٦٦ لسائكة تعدادها ١٢٩٨ نسمة. ويضم ثلاث دواوير وهي: أيت واحمان، تامسولت، أيت ورخان. وكلمة أديس تعني البطن في اللغة الأمازيغية. وقد أطلق الاسم على الدوار لكون يقع في وسط المنطقة المسماة تاريخياً أسيف ن ولت (طاطا حالياً)، ولهذا كانوا يسمونه أديس أي باعتباره بطن ووسط هذه المنطقة.

٣/٣- نماذج في تميط أسماء المكان

وإمكانية إعادة استعمالها

تعدّ عملية تميط أسماء الأماكن من أهم المراحل التي يصل إليه اسم المكان قبل إعادة استخدامه واستعماله ونشر، حيث تقوم هيئة مختصة أو مختبر معين بتصحيح وتحقيق الاسم من أجل إعادته إلى معناه الحقيقي. وتتطلب هذه العملية تحري الدقة والأمانة، متسلحين بما لهذه المنطقة من خصوصيات وما تخزنه لغة المكان من إمكانات تساهم في تلافي وإبعاد كل الانحرافات والمغالطات التي اعترت الاسم، سواء من ناحية النطق أو الكتابة أو حتى المعنى.

والتميط في اللغة هو جعل الشيء على نفس النوع أو نفس الطريق أو نفس الأسلوب، وهو بهذا المعنى يقترب أو يرادف من معنى التوحيد المستعمل أيضاً من طرف الباحثين في مجال الأعلام المكانية للدلالة على الاقتصاد على نموذج واحد أو نوع واحد أو صنف واحد، وبهذا يتم تجاوز اللبس التي يمكن أن يشكله استعمال اللفظتين للدلالة على الكلمة الفرنسية «normalisation» أو الإنجليزية «standardization».

أما فريق الخبراء المعني بالأسماء الجغرافية التابع للأمم المتحدة فقد عرف توحيد الأسماء الجغرافية على أنه: أولاً، قيام سلطة مختصة بوضع مجموعة محددة من المعايير أو القواعد للصياغة الموحدة للأسماء الطبغرافية. وثانياً، صياغة إحدى المفردات مثل الاسم الطبوغرافي وفقاً لتلك القواعد. ويُعرف الاسم الموحد

١- (٣/٣) أسماء القبائل والأحلاف

تتميطه بالحرف الأمازيغي	تتميطه بالحرف العربي	تتميطه بالحرف اللاتيني	اسم المكان كما ورد في المتن
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	إكيزولن	IGIZULN	GEZOULA
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	إسكتان	ISGTANN	SEKETÂNA
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	إخولان	IXULLAN	IKHOULLAN
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	أيت واكرو	AYT WAGRU	AÏT OUAGROU
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	تيزغت	TIZXT	TIZERT
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	أيت تيزغت	AIT TIZXT	AÏT TIZERT
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	إد و تينست	ID U TINST	IDA OU TINTS
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	إد و ساملال	ID U SAMLAL	IDA OU SEMLAL
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	إد و بلال	ID U BLAL	IDA OU BLAL
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	إد و بلال	DD U BLAL	DOUI BLAL
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	إد و بلال	DD U BLAL	DAOUBLAL
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	ولاد جلال	ULAD JLLAL	AÏT JELLAL
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	ولاد جلال	WLAD JLLAL	OULAD JELLAL
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	أيت و مريبط	AYT UMRIȚ	AÏT MRIBET
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	إسافن	ISAFFN	ISAFFEN
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	إسافن	AYT ISAFFN	AÏT ISAFFEN
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	إلألن	ILALN	ILALEN
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	إبركاك	IBRKAK	IBERQAQEN
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	تاسوسخت	TASUSXT	AÏT TASOUSEKHT
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	إد و سكا	ID U SKA	IDA OU SKA
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	إنداوزال	INDAWZAL	INDAOUZAL
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	إماديدن	IMADIDN	IMADIDEN
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	إماديدن	IMADIDN	MADIDA
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	إد و كنسوس	ID U KNSUS	IDA OU KENSUS
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	تاكموت	TAGMUT	TAGMOUT
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	تاكموت	TGMUT	AÏT TAGMOUT
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	أيت زوليط	AYT ZULID	AÏT ZOULI
ⵍⵣⵣⵉⵝⵉⵎⵉ	إد و زكري	ID U ZKRI	IDA OU ZKRI

٢-المراكز السكنية (٣/٣)

اسم المكان كما ورد في المتن	تتميطه بالحرف اللاتيني	تتميطه بالحرف العربي	تتميطه بالحرف الأمازيغي
TISINT	TISSINT	تيسينْت	+ⵝⵓⵙⵉⵏⵜ
AQQA OU CHAÏB	AQQA	أَقَّا	ⵓⵛⵉⵔⵉⵔⵉ
TIZOUNIN	TUZUNIN	توزونين	+ⵝⵓⵙⵉⵏⵜ
AÏT ḤASEÏN	AGADIR N LHNA	أكاديرن لَهْنا	ⵓⵛⵉⵔⵉⵔⵉ ⵏ ⵏⵉⵏⵉⵏⵉ
AFRA FOUQANIA			
AGADIR AFRA			
ZGID	ZGID	زكيض	ⵛⵉⵔⵉⵔⵉ
AQQA İREN	AQQA İXAN	أَقَّا إغان	ⵓⵛⵉⵔⵉⵔⵉ ⵏ ⵏⵉⵏⵉⵏⵉ
AFRA	AFRA	أفرا	ⵓⵛⵉⵔⵉⵔⵉ
IMI OUGADIR	IMI N UGADIR	إمي ن وُكادير	ⵓⵛⵉⵔⵉⵔⵉ ⵏ ⵏⵉⵏⵉⵏⵉ
AQQA OU CHAÏB	AQQA	أَقَّا	ⵓⵛⵉⵔⵉⵔⵉ
TALDNUNT	TALDNUNT	تالْدْنُونْت	+ⵝⵓⵙⵉⵏⵜ
TAMANART	TAMANART	تامانارت	+ⵝⵓⵙⵉⵏⵜ
AGLAGAL	AGLAGAL	أَكْلاكال	ⵓⵛⵉⵔⵉⵔⵉ
TAMMAST	TAMMACT	تاماشْت	+ⵝⵓⵙⵉⵏⵜ
MELLAḤ	LMLLAḤ	لَمْلَاح	ⵓⵛⵉⵔⵉⵔⵉ
AGADIR	AGADIR N TISSINT	أكاديرن تيسينْت	ⵓⵛⵉⵔⵉⵔⵉ ⵏ ⵏⵉⵏⵉⵏⵉ
AIT OU IRAN	AYT WIRAN	أَيْت ويران	ⵓⵛⵉⵔⵉⵔⵉ ⵏ ⵏⵉⵏⵉⵏⵉ
BOU MOUSI	BU MUSI	بو موسي	ⵓⵛⵉⵔⵉⵔⵉ
TRIT	TXIT	تَغَيْت	+ⵝⵓⵙⵉⵏⵜ
QAÇBA EL DJOUA	LQŞBT N JJUE	لقصْبْت ن جَوْع	ⵓⵛⵉⵔⵉⵔⵉ ⵏ ⵏⵉⵏⵉⵏⵉ
ADIS	ADIS	أديس	ⵓⵛⵉⵔⵉⵔⵉ
MRIMIMA	MXMIMA	مغايِميما	ⵓⵛⵉⵔⵉⵔⵉ
IMI N TELS	IMI N TATLT	إمي ن تاتْلْت	ⵓⵛⵉⵔⵉⵔⵉ ⵏ ⵏⵉⵏⵉⵏⵉ
TIZGI EL ḤARAṬIN	TIZGI İRIXN	تيزكي إِرْغَن	+ⵝⵓⵙⵉⵏⵜ
TIZGI İRIEN			
İCHT	İCT	إشت	ⵓⵛⵉⵔⵉⵔⵉ
AQQA AÏT SIDI	AQQA N AYT SIDI	أَقَّا نْ أَيْت سيدي	ⵓⵛⵉⵔⵉⵔⵉ ⵏ ⵏⵉⵏⵉⵏⵉ
AQQA İGIREN	AQQA İGIRN	أَقَّا إِكِيرْن	ⵓⵛⵉⵔⵉⵔⵉ ⵏ ⵏⵉⵏⵉⵏⵉ
TİSKMOUDIN	TİZKMUḌIN	تيزكموضين	+ⵝⵓⵙⵉⵏⵜ
IDA OULSTAN	ID U LŞṬAN	إد وُ لْسْطَان	ⵓⵛⵉⵔⵉⵔⵉ ⵏ ⵏⵉⵏⵉⵏⵉ

اسم المكان كما ورد في المتن	تميطه بالحرف اللاتيني	تميطه بالحرف العربي	تميطه بالحرف الأمازيغي
SERRINA	IŞR̥XINN	إصرغين	ⵛⵔⵓⵕⵉⵏⵏ
TINTAZART	TINTAZART	تين تازارت	ⵜⵉⵏ ⵜⴰⵣⴰⵔⵜ
TOUG ER RIḤ	TUGG RRIḤ	توك ريح	ⵜⴰⵔⵔ ⵔⵔⵉḤ
ISBABATEN	ANYR̥IF	أنغريف	ⵏⵉⵔⵓⵔⵉⵕ
AQQA IZENQAD	AQQA N IZNK ^(w) AD	أقا ن إزنكاض	ⵏⵣⵣⵓ ⵏ ⵉⵣⵏⵕⵉⵏⵏⵓⵔⵉ
TIGISELT	TIGISLT	تيكيسلت	ⵜⵉⵕⵉⵙⵉⵔⵜ
TIITI	TIYTI	تييتي	ⵜⵉⵔⵜⵉⵔⵜ
AÏT OU ḤMAN	AYT WAḤMAN	أيت واحمان	ⵏⵉⵔⵓ ⵏ ⵏⵉⵕⵉⵏⵏⵓⵔⵉ
DJEBAÏR	JJBAYR	جباير	ⵉⵉⵔⵓⵔⵉⵔⵓ
EL QEBBABA	LQBBABA	لقبابا	ⵏⵣⵣⵓⵔⵓⵔⵓⵔⵓ
TAGADIRT	TAGADIRT N UQQA	تاكاديرت ن وقا	ⵜⴰⵕⴰⵔⵉⵔⵜ ⵏ ⵓⵕⵕⴰ ⵏ ⵣⵣⵓ
TAOURIRT	TAWRIRT	تاويرت ن وقا	ⵜⴰⵔⵓⵔⵉⵔⵜ ⵏ ⵓⵕⵕⴰ ⵏ ⵣⵣⵓ
ERḤAL	IRḤḤALN	إرحالن	ⵉⵔⵕⵕⵏⵏⵏⵏ
AGADIR OUZROU	AGADIR N UZṚU	أكادير ن وزرو	ⵏⵕⴰⵔⵉⵔⵓ ⵏ ⵓⵣⵣⵓ ⵏ ⵣⵣⵓ
AÏT ANTER	AYT ENTR	أيت عنطر	ⵏⵉⵔⵓ ⵏ ⵏⵉⵕⵉⵏⵏⵓⵔⵉ
OUMM EL ALEG	MM LELG	م لعلك	ⵏⵏⵏⵏ ⵏ ⵏⵉⵕⵉⵏⵏⵓⵔⵉ
TADAKOUCT	TADAKUST	تاداكوست	ⵜⴰⵔⴰⵕⵓⵔⵜ
TARLA	TAXLA	تاغلا	ⵜⴰⵕⵕⵏⵏⵏ
TIZGI	TIZGI N ID U BALUL	تيزكي ن إد و بالول	ⵜⵉⵣⵕⵉ ⵏ ⵉⵔⵓ ⵏ ⵏⵉⵕⵉⵏⵏⵓⵔⵉ
TIZGI IDA OU BALOUL			
IMIṬEQ	IMITK	إميتك	ⵉⵎⵉⵔⵉⵕ
TOUG EL KHIR	TABLXIRT	تابلخيرت	ⵜⴰⵔⵓⵔⵉⵔⵓ ⵏ ⵏⵉⵕⵉⵏⵏⵓⵔⵉ
TIDGAR	TITGAR	إمي ن تيتكار	ⵉⵎⵉ ⵏ ⵜⵉⵔⵕⴰⵔⵓ ⵏ ⵏⵉⵕⵉⵏⵏⵓⵔⵉ
ILIR	ILIX	إليغ	ⵉⵏⵉⵕⵉⵏⵏⵓⵔⵉ
TISENNA S AMIN	TISNASAMIN	تيسناسامين	ⵜⵉⵙⵏⵏⵓⵔⵓ ⵏ ⵏⵉⵕⵉⵏⵏⵓⵔⵉ
TISENNASAMIN			
TABIA AQQA İREN	TABIA	تابيا ن واقا إغان	ⵜⴰⵔⴰⵕⵓⵔⵓ ⵏ ⵏⵉⵕⵉⵏⵏⵓⵔⵉ ⵏ ⵉⵕⵉⵏⵏⵓⵔⵉ

٣- مجاري المياه (٣/٣)

اسم المكان كما ورد في المتن	تمثيله بالحرف اللاتيني	تمثيله بالحرف العربي	تمثيله بالحرف الأمازيغي
OUAD DRA	WAD DRA	واد دَرا	ⵡⵓⵏ ⵏ ⵔⵓ
DRA			
OUÂDI DHERA'A			
OUAD DJEBAÏR	WAD JBAYR	واد جَبَاير	ⵡⵓⵏ ⵓⵢⵓⵔⵓⵢⵔ
ASIF OUDAD	ASIF N UḌAḌ	أسيف ن وَضاضْ	ⵓⵔⵣⵓⵢⵔ ⵏ ⵓⵣⵓⵢⵔ
IGNAN N IKIS	IG ^(W) NAN N IKIS	إِغْنَانْ ن إِكيسْ	ⵓⵢⵓⵔⵓⵢⵔ ⵏ ⵓⵢⵓⵔⵓⵢⵔ
OUAD ADERS	WAD ADXS	وادْ أَدخسْ	ⵡⵓⵏ ⵓⵏⵔⵓⵣⵓⵣ
OUAD AGINAN	WAD AGINAN	وادْ أَكِينَانْ	ⵡⵓⵏ ⵓⵏⵔⵓⵣⵓⵣ
OUAD AGMOUR	WAD AGMUR	وادْ أَكْمُورْ	ⵡⵓⵏ ⵓⵏⵔⵓⵣⵓⵣ
OUAD AGNI	WAD AG ^(W) NI	وادْ أَكْنِي	ⵡⵓⵏ ⵓⵏⵔⵓⵣⵓⵣ
OUAD AÏN ES SEKA	WAD EIN SSKKA	وادْ عَيْن سَكَا	ⵡⵓⵏ ⵓⵏⵔⵓⵣⵓⵣ
OUAD AQQA	WAD AQQA	وادْ أَقَّا	ⵡⵓⵏ ⵓⵏⵔⵓⵣⵓⵣ
OUAD AQQA IGIREN	WAD AQQA IGIRN	وادْ أَقَّا إِكِيرْن	ⵡⵓⵏ ⵓⵏⵔⵓⵣⵓⵣ
OUAD AQQA İREN	WAD AQQA İXAN	وادْ أَقَّا إِغَانْ	ⵡⵓⵏ ⵓⵏⵔⵓⵣⵓⵣ
OUAD ASENGAR	WAD ISNGAR	وادْ إِسْنَكَارْن	ⵡⵓⵏ ⵓⵏⵔⵓⵣⵓⵣ
OUAD ASGIG	WAD ASGIG	وادْ أَسْكِيكْ	ⵡⵓⵏ ⵓⵏⵔⵓⵣⵓⵣ
OUAD ASMERDAN	WAD AMSMRDAN	وادْ أَمْسَمِرْدَانْ	ⵡⵓⵏ ⵓⵏⵔⵓⵣⵓⵣ
OUAD AZERFTIN	WAD AZRFTIN	وادْ أَزْرَفْتِينْ	ⵡⵓⵏ ⵓⵏⵔⵓⵣⵓⵣ
OUAD BENT EN NAS	WAD BNT NNAS	وادْ بَنْت نَّاسْ	ⵡⵓⵏ ⵓⵏⵔⵓⵣⵓⵣ
OUAD BOU CHAKED	WAD BU CAQD	وادْ بُو شَاقْدْ	ⵡⵓⵏ ⵓⵏⵔⵓⵣⵓⵣ
OUAD BOU HERHOUR	WAD BU UHRHUR	وادْ بُووْهَرْهَوْرْ	ⵡⵓⵏ ⵓⵏⵔⵓⵣⵓⵣ
OUAD DEFALIA	WAD DDFAYLA	وادْ دَفَايْلا	ⵡⵓⵏ ⵓⵏⵔⵓⵣⵓⵣ
OUAD DJEDARI	WAD JJDARI	وادْ جَدَارِي	ⵡⵓⵏ ⵓⵏⵔⵓⵣⵓⵣ
OUAD EL BOUIR	WAD LBWIR	وادْ لَبُوَيْرْ	ⵡⵓⵏ ⵓⵏⵔⵓⵣⵓⵣ
OUAD EL QSIB	WAD LQŞIB	وادْ لَقْصِيبْ	ⵡⵓⵏ ⵓⵏⵔⵓⵣⵓⵣ
OUAD FOUM MESKOUA	WAD FMM MSKAW	وادْ فَمَّ مَسْكَوْ	ⵡⵓⵏ ⵓⵏⵔⵓⵣⵓⵣ
OUAD HNINA	WAD ḤNINA	وادْ حَنْيْنَا	ⵡⵓⵏ ⵓⵏⵔⵓⵣⵓⵣ
OUAD IBERQAQEN	WAD IBRKAK	وادْ إِبْرَكَكْ	ⵡⵓⵏ ⵓⵏⵔⵓⵣⵓⵣ
OUAD ICT	WAD ICT	وادْ إِشْتْ	ⵡⵓⵏ ⵓⵏⵔⵓⵣⵓⵣ
OUAD IJJA	WAD IJJA	وادْ إِجَّا	ⵡⵓⵏ ⵓⵏⵔⵓⵣⵓⵣ

اسم المكان كما ورد في المتن	تمميطة بالحرف اللاتيني	تمميطة بالحرف العربي	تمميطة بالحرف الأمازيغي
OUAD IKIS	WAD IKIS	وَادْ إِكَيْسْ	ⵍⵓⵏ ⵛⵉⵙⵓⵔ
OUAD ILIR	WAD ILIX	وَادْ إِلِيْغْ	ⵍⵓⵏ ⵛⵉⵙⵓⵔ
OUAD IMI N OU AQQA	WAD IMI N WAQQA	وَادْ إِمِي ن وَاقَّا	ⵍⵓⵏ ⵛⵉⵙⵓⵔ ⵉ ⵍⵓⵏ ⵛⵉⵙⵓⵔ
OUAD IMI OUGADIR	WAD IMI N UGADIR	وَادْ إِمِي ن وَكَادِيرْ	ⵍⵓⵏ ⵛⵉⵙⵓⵔ ⵉ ⵛⵓⵏ ⵛⵉⵙⵓⵔ
OUAD IMIṬEQ	WAD IMITK	وَادْ إِمِيْتَكْ	ⵍⵓⵏ ⵛⵉⵙⵓⵔ ⵉ ⵛⵓⵏ ⵛⵉⵙⵓⵔ
OUAD IZOURZEN	WAD IZURZN	وَادْ إِزُورْزَنْ	ⵍⵓⵏ ⵛⵉⵙⵓⵔ ⵉ ⵛⵓⵏ ⵛⵉⵙⵓⵔ
OUAD KEBBABA	WAD LQBBABA	وَادْ لُقْبَابَا	ⵍⵓⵏ ⵛⵉⵙⵓⵔ ⵉ ⵛⵓⵏ ⵛⵉⵙⵓⵔ
OUAD KHENG ZRORHA	WAD XNG ZZUHRA	وَادْ خَنْكْ زَوْهْرَا	ⵍⵓⵏ ⵛⵉⵙⵓⵔ ⵉ ⵛⵓⵏ ⵛⵉⵙⵓⵔ
OUAD KHOUEÏA	WAD LXWIYA	وَادْ لُخْوِيَا	ⵍⵓⵏ ⵛⵉⵙⵓⵔ ⵉ ⵛⵓⵏ ⵛⵉⵙⵓⵔ
OUAD MESKAOU	WAD MSKAW	وَادْ مَسْكَوْ	ⵍⵓⵏ ⵛⵉⵙⵓⵔ ⵉ ⵛⵓⵏ ⵛⵉⵙⵓⵔ
OUAD MEZARREB	WAD LMZARB	وَادْ لَمَزَارْبْ	ⵍⵓⵏ ⵛⵉⵙⵓⵔ ⵉ ⵛⵓⵏ ⵛⵉⵙⵓⵔ
OUAD QAÇBA EL DJOUA	WAD N LQŠBT N JJUE	وَادْ قَصْبَتْ جَوْعْ	ⵍⵓⵏ ⵛⵉⵙⵓⵔ ⵉ ⵛⵓⵏ ⵛⵉⵙⵓⵔ
OUAD SIDI MOHAMMED OU IAQOB	WAD SIDI MUHAMMAD U YAEQUB	وَادْ بِن يَاعْقُوبْ	ⵍⵓⵏ ⵛⵉⵙⵓⵔ ⵉ ⵛⵓⵏ ⵛⵉⵙⵓⵔ

مجموعة من الاستنتاجات والملاحظات التي أوردناها كما يلي:

١- ملاحظات في الجانب اللغوي (٤/٣)

أول ملاحظة يمكن رصدها هو أن كل الأسماء كتبت بالحرف اللاتيني، غير أن الملاحظ في هذا الجانب أن الكاتب اعتمد في كتابة الحروف غير المدرجة في ألفبائية اللغة الفرنسية بإضافة زوائد مثل النقطة... إلى الحروف الأصلية، والجدول أسفله يبين الحروف بمختلفة الطرق التي تم التطرق إليها في هذه الدراسة:

الكتابة بالحرف العربي	ح	غ	ژ	ش	ع	ي	ا	ص	ط	ض	ج	و
الكتابة المعتدة من طرف دوفوكو	H	R	Z	CH	Â	Ï	Â	Ş	Ṭ	Ḍ	DJ	OU
كتابة التمييط بالحرف اللاتيني	H	Y	Z	C	E	Y	A	Ş	Ṭ	Ḍ	J	W
كتابة التمييط بحرف تيفيناغ	ⵛ	ⵙ	ⵝ	ⵉ	ⵏ	ⵢ	ⵏ	ⵙ	ⵟ	ⵟ	I	ⵍ

٤/٣- ملاحظات وخلاصات حول الأسماء

المذكورة والمدروسة

بعد معاينة وجرد وتصنيف كل الأعلام المكانية التي جاء بها الفصول ٥ و ٦ و ٧ من كتاب التعرف على المغرب للرحالة شارل دوفوكو، وبعد تمييط أغلب هذه الأسماء وتصحيحها حسب ما هو متداول حالياً، وحسب قواعد اللغة الأمازيغية والعربية المحليتين، فقد خلصنا إلى

بما فيها الغطاء النباتي المنتشر، وكمية المياه المتدفقة (إن كانت دائمة الجريان). كما كان يصف منابع هذ الوديان، إذ ركز بالخصوص على السلسلتين الجبليتين المهمتين سلسلة جبال الأطلس الصغير، وسلسلة جبل باني التي تعتبر الحاجز الجنوبي بين الأطلس الصغير والصحراء.

• ركز شارل دوفوكو على خمس أسماء جغرافية، أو يمكن القول نطاقات جغرافية، مهمة خلال الفصول الثلاثة المدروسة وهي: الأطلس الصغير، درعة، باني، طاطا، تيسينت. ولا غرابة في ذلك لكون كل منها يضم الآخر (وهذا ما يؤكد التقسيم الإداري والجغرافي الحالي)، فتيسينت جزء من طاطا، وطاطا جزء من باني، وباني هو الحاجز الجغرافي بين الأطلس الصغير ومنبسط وادي درعة المتاخم للحدود المغربية الجزائرية.

٣-٤) ملاحظات في الجانب الثقافي

والتاريخي

بمقارنة أسماء بعض الدواوير، خصوصاً، بين سنة ١٨٨٤ واليوم، نجد أن هناك تغير في اسم العلم، مثلاً: دوار تابلخيرت (دوار بجماعة إسافن) سماه دوفوكو في كتابه: توكّ لخير، وإذا عدنا إلى معنى الاسمين فهما يتقاطعان في المعنى ذاته، فتوكّ لخير بمعنى تطل على الخير، أما تابلخيرت فهو مؤنث بلخير يعني صاحب أو صاحبة الخير. أما المثال الثاني فهو اسم توكّ الريح، التي قال عنها أن أصلها كان هو إزباباتن...

• في كل الدواوير والأحياء التي زارها الكاتب كان يذكر اسم المزارعة المشهورة في المنطقة، وإن وجدت القباب فهو يذكرها، وهذا يدل على أن اهتمام المستكشف لم يكن في الجانب الجغرافي فقط، بل أيضاً اهتم بالجانب العقدي، حيث كان يتحدث بشكل مستفيض عن طريقة التدين لدى القبائل والفرق؛

• لوحظ الوصف الدقيق لنمط البناء في القرى والمدن، وكذلك عناصر السكان؛

• أسماء القبائل المذكورة في الرحلة غالباً ما تنسب إلى شخص معين، يقال إنه جد هذه القبيلة، مثال: إد و بلال (تنسب إلى بلال)، ولادّ جلال (تنسب إلى

• اسقاط حرف الإضافة "ن" في الأسماء المركبة، خصوصاً منها الأمازيغية، وكمثال على ذلك: ASIF UDAD والأصل فيها ASIF N UDAD، وأيضاً IMI OUGADIR والأصل IMI N OUGADIR... وهذا ما جعل ظاهرة الإلحاق التي تأتي في الاسم المركب أو في سياق التركيب تؤدي إلى تحريف في العديد من أسماء الأعلام، فعوض أن يتم تقييد اسم ASIF N UDAD بالكتابة الصحيحة تم ترسيمه بعد ذلك في الخرائط والإشارات الطرقية بـ ASIF UDAD.

• لاحظنا أثناء تركيب الأسماء أن هناك أنواع من الأسماء المركبة، وهذه ظاهرة تشمل كافة أسماء المكان المركبة، ومنها: التركيب الإضافي، مثل: AGADIR IXIR وكان بالأحرى أن تكتب AGADIR IXIR، التركيب الوصفي، مثل: TIIGAN QDIM، وكتابتها بعد التتميط TIYGGAN LQDIM؛ التركيب المزجي، مثلاً: MERDER والأصل فيها MM LXDİR؛ التركيب الاسنادي، مثلاً: TOUF EL AZZ، وقد كتبناها منمطة TUF LEZZ...

• أثناء جرد أسماء أماكن المنطقة لاحظنا أن هذه الأسماء إما تكون أمازيغية محضة، مثل: IMAOUN (IMAWN)، (BUWDI)BOU OUDI... أو عربية محضة، مثل: AREG ER RAOUI (RGG RRAWI)، MADER (LMAEDDR)... أو يتم فيها المزاجية بين اللغتين، مثل: FOUQ AQQA (FOUM AQQA)، KHENG ADIS (XNG ADIS).

٢-٤) ملاحظات في الجانب الجغرافي

• الرحالة ذكر بشكل كبير أسماء المجاري المائية، بحيث كلما ذكر مجرى مائياً إلا ويذكر كل فروعه وفروع فروعه، وربما الأمر يعود إلى طبيعة عمله، أو طبيعة المهمة التي أنيطت له في استكشاف المغرب. إذ أنه في حوض واد درعة ذكر ١٢ وادياً من فروع الجهة اليمنى الشمالية، ومنها: واد زكيض، واد تيسينت، واد طاطا، واد أقا، واد تامانارت... ووادي واحد في الجهة اليسرى الجنوبية وهو واد تانكارفا.

• أثناء حديثه ووصفه لوديان حوض وادي درعة، لا ينفك الكاتب على وصف كل ما تحتويه هذه الأودية

خاتمة

حاولنا من خلال هذا المقال رصد جانب هام وغير مسبوق من رحلة التعرف على المغرب لشارل دوفوكو، ألا وهو أسماء الأماكن، جرداً، وتصنيفاً، ودراسة، وتتميطاً. فكان التعريف بالكتاب وكتابه أولاً قبل المرور إلى دراسة مجال الدراسة، التي انقسمت على ثلاث مجالات أساسية وهي: باني وطاطا وتيسين، بحكم أن هذه المجالات الجغرافية أفرد لها الكاتب ثلاث فصول كبيرة، ونالت الحظ الأوفر من رحلته دامت زهاء ستة أشهر.

أما الهدف الأسمى من هذه الدراسة، وهو تحقيق أسماء الأماكن وتتميطها وإبداء ملاحظات حولها، فقد أفردنا له الشق الأوفر. فكانت الفقرة الأولى من الفصل الثالث مخصصة لدراسة عينة من هذه الأعلام المكانية مع ذكر الاسم الموحد الذي اقترحه لتتميط؛ بينما خصصت الفقرة الثانية لأمثلة من الأسماء المنمطة بالكتابات الثلاث: أمازيغية، عربية وفرنسية. فيما كانت الفقرة الأخيرة خاصة ببعض الملاحظات حول الأسماء المذكورة في المتن المدروس.

لكن السؤال المطروح بعد هذه الدراسة وغيرها من الدراسة السابقة حول أسماء المكان، هو كيف يمكن استغلالها في تصحيح التحريف الذي طال وما زال يطال أسماء الأماكن، سواء تعلق الأمر بالمجالات السكنية أو التشكيلات التضاريسية أو المجاري المائية... وهل يمكن إعادة النظر في الخرائط والدلائل الجغرافية بوضع الأسماء الصحيحة والمتعارف عليها من طرف المختصين في مجال الطوبونيميا. وعليه فقد آن الأوان بخلق هيئة وطنية تعنى بدراسة وتتميط أسماء الأماكن من أجل المحافظة على هذا الموروث اللامادي من الاندثار والتحريف.

جلال)، ولّاد إحيا (تسبب إلى إحيا)، إد و زكري (تسبب إلى زكريا) ...

- هناك العديد من الدواوير ذكرت في المتن لأنها كانت مؤهولة بالسكان، أما الآن فهي أصبحت مخربة، وهذا الأمر كان محتملاً، لأن الكاتب ذكر في تلك المرحلة أنه سنويا يتم تسجيل غزوات القبائل المنتجعة مثل إد وبلال ولبرابّر...، أو صراعات بين الدواوير والفرق والقبائل، وما يصاحب ذلك من تخريب وإحراق للواحات والمحاصل، ومن بين هذه الدواوير نذكر: إغير ن تالدنوئت (المذكور في الرحلة باسم: راس إغير)؛ إزغرآن بجماعة م الكردان؛ أكادير ن واقا إغان.

الإحالات المرجعية:

(21) DE FOUCAULD, Charles. Dictionnaire Touareg-français : dialecte de l'ahaggar. Tome 4. Imprimerie nationale de France, 1951-1952. P : 1857

(٢٢) الهاشمي أحمد، م.ن، ج٢، ص: ٣٥٢

(٢٣) شفيق محمد، م.س، الجزء الأول، ص: ٦٠٢

(24) RAMOU, Hassan. Op. cit 2011. P : 74

(٢٥) محمد شفيق، م.س، ج١، ص: ٧٢٦

(٢٦) أحمد الهاشمي، م.س، ج٢، ص: ٤٢٠

(٢٧) حجي محمد وآخرون، **معلمة المغرب**، من إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الأمان، ج ٢٦ م ٣ (خاص بالصحراء)، الرباط، ٢٠١٤. ص: ٢٢

(٢٨) حمام محمد وآخرون، **المصطلحات الأمازيغية في تاريخ المغرب وحضارته**، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الجزء الأول، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠٠٤. ص: ١٥

(٢٩) أفا عمر، **مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر (سوس ١٨٢٢-١٩٠٦)**، منشورا كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، ١٩٨٨، ص: ٧٢-٧٣

(30) DE FOUCAULD, Charles. 1888. Op. cit. P : ١٢١

(٣١) صدقي علي أزيكو، م.س، ص: ١٠٣

(٣٢) أزاغار الحسين، ١٩٩١، **دراسة جغرافية لأماكنية الأطلس الصغير الأوسط، أماكنية طاطا وتكموت**، بحث لنيل شهادة الإجازة في الجغرافية، تحت إشراف الأستاذ: المصطفى أيت تيري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، ص: ٥٧

(٣٣) حبيب حاج محمد، **أسماء الأماكن الأمازيغية في منطقة تلمسان: دراسة واقعية**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في علم اللغات، تحت إشراف الدكتور محمد زريوح، جامعة تلمسان، تلمسان، موسم ٢٠١٢/٢٠١٣، ص: ٥٣

(34) DE FOUCAULD, Charles. 1888. Op. cit. P : 141

(٣٥) أزاغار الحسين، ١٩٩١، م.س، ص: ٣١

(٣٦) حجي محمد وآخرون، م.س، ١٩٨٩، الجزء ٢، مادة "أفا"، ص: ٥٧٨

(٣٧) محمد حجي وآخرون، م.س، ج١، ص: ٤٦٠٢

(٣٨) محمد المختار السوسي، **المعسول**، ج ٥، مطبعة الجامعة، الدار البيضاء، ١٩٦٠، ص: ٢٠٧

(٣٩) محمد المختار السوسي، م.س، ص: ٢٠٨-٢٠٩

(٤٠) منظمة الأمم المتحدة: فريق الخبراء المعني بالأسماء الجغرافية، **دليل توحيد الأسماء الجغرافية على الصعيد الوطني**، نيويورك، ٢٠٠٧، ص: ٧-٨

(١) <https://www.charlesdefoucauld.org>: السيرة الذاتية

(٢) <https://www.islamist-movements.com>: "دو فوكو"، راهب

فرنسي عاش وقتل في صحراء الجزائر (الجمعة ١. دجنبر ٢٠٢٣)

(٣) البنوحى البشير، **رحلة شارل دوفوكو (١٨٨٣-١٨٨٤) الأهداف والمسار**، ضمن المجلة العربية للنشر العلمي، العدد ٢٩، مارس ٢٠٢١، ص: ٦٨٤

(4) DE FOUCAULD, Charles. Reconnaissance au Maroc (1883-1884). Librairie coloniale. Paris, 1888. P : 13

(٥) أبرزاق البشير، **"واحة تيسينت من خلال رحلة التعرف على المغرب لشارل دوفوكو"**، ضمن مجلة أسينك، العدد ١٢، ١٧، ٢٠١٢، ص: ١٢

(٦) حجي محمد وآخرون، **معلمة المغرب**، من إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، ج٣، المغرب، ١٩٨٩. ص: ١٠١٦

(7) TAIFI, Miloud. Le dictionnaire tamazight-français (parler du maroc central). l'Harmattan-Awal. Vol01, Paris, 1991. P : 20

(٨) الجماعة الترابية طاطا، **مونوغرافية جماعة طاطا**، ١٧، ٢٠٠٥. ص: ١٠٠

(٩) شفيق محمد، **المعجم العربي الأمازيغي**، الجزء الأول، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ٢٠٠١، ص: ٢٨٥

(١٠) أيت تاعرايت محمد، **التشكيلات القبلية والبنيات الاقتصادية والاجتماعية بطاطا وأثر التدخل الفرنسي عليها ووجود الفعل المحلية ١٨٨٣-١٩٥٦**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ٢٠١٨، ص: ٣٧

(١١) مارمول كريخال، **أفريقيا**، ترجمة: محمد حجي وآخرون، دار النشر المعرفة، الجزء ٣، الرباط، ١٩٩٨، ص: ١٥٧

(12) DE FOUCAULD, Charles. Op. cit. 1888. P : 121

(١٣) الجماعة القروية تيسينت، **مونوغرافية الجماعة**، سنة ١٦، ٢٠٠٨. ص: ١٠٠

(14) Hassan Ramou, Les termes géographiques relatif à l'eau : cas du territoire des Ait Ba-Amrane d'Essaouira. In les termes géographiques amazighes. Partie 3. IRCAM. Imprimerie El Maarif Al Jadida. Rabat, p : 68

(١٥) شفيق محمد، م.س، ج١، ص: ٤٩

(١٦) الهاشمي أحمد، م.س، ج٢، ص: ٣١٦

(١٧) بيار جورج، **معجم المصطلحات الجغرافية**، ترجمة محمد الطفيلي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، فرنسا، ٢٠٠٦، ص: ٢٢

(١٨) أحمد الهاشمي، **الأماكنية المغربية نموذج المشهد الطبيعي والبشري في أماكنية سوس**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في اللسانيات، جامعة ابن زهر، تحت إشراف الدكتور: أحمد صابر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، ٢٠٠١-٢٠٠٢، القسم الثاني، ص: ٣٥٠

(١٩) الهاشمي أحمد، م.س، ج٢، ص: ٣٤٧

(٢٠) اعمر مفتاح وآخرون، **المعجم العام للغة الأمازيغية**، م.س، رقم ٧٦٧، ص: ٤٩

العلاقات المغربية – الفرنسية

من الاستعمار المباشر إلى الاستعمار الناعم

د. يوسف كريم

دكتوراه في التاريخ الراهن

دكتوراه في العلوم السياسية

المملكة المغربية



مُلخَص

تتناول هذه الدراسة اشكالية العلاقات المغربية الفرنسية منذ بداية الاحتلال إلى تاريخ الزمن الراهن، وذلك من خلال جعل مفهوم الاستمرارية بين الحقبة الاستعمارية وحاضر المغرب مفهوماً مركزياً وأداة أولية في أي مقارنة تروم تحليل مكونات المرحلة الاستعمارية وعمق تأثيرها في المرحلة اللاحقة. كانت فرنسا واحدة من القوى الاستعمارية الرئيسة التي سيطرت على المغرب في القرن التاسع عشر، وكان من المفترض أن تنتهي حقبتها الاستعمارية في المغرب مع إعلان الاستقلال سنة ١٩٥٦، لكن الاستعمار الفرنسي الذي خرج من الباب سيعود من النافذة عن طريق حوامل أخرى بأشكال جديدة وصيغ ناعمة، وبأبعاد وخلفيات ثابتة تكرر لمواصلة الاستعمار على النحو الذي تصب نتائجه في تنمية نفوذ فرنسا الثقافي والاقتصادي. تهدف هذه الدراسة إلى تشريح طبيعة العلاقات بين المغرب وفرنسا، ورصد حدود تأثير الارث الكولونيالي والمرحلة الاستعمارية ودرجة استمرارهما في أحشاء الدولة المغربية الحديثة بعد الاستقلال، ومن ثم فهم التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في النظام المؤطر لهذه العلاقة. وانطلاقاً من منهج دراسة الحالة، تستخدم الدراسة التحليل التاريخي لفهم الجذور التاريخية لموضوع البحث وتتبع تداعياته وتمفصلاته في مرحلة ما بعد الاستعمار وامتداداته في التاريخ الراهن. توصلت الدراسة إلى أنه منذ الاستقلال، تبنى المغرب النموذج الفرنسي في السياسة والاقتصاد والثقافة، مما شكل نخبة مغربية متأثرة بالثقافة الفرنسية. ورغم تأثير الاستعمار على العلاقات المغربية الفرنسية، إلا أن هذه العلاقات اليوم تتسم بالتعاون الوثيق. ولذلك، تقتضي التغيرات الدولية والإقليمية ضرورة إعادة بناء العلاقات على أسس من الندية والاحترام المتبادل.

كلمات مفتاحية:

المغرب؛ فرنسا؛ المرحلة الاستعمارية؛ الزمن الراهن؛ الاستقلال المصادح

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٢ أكتوبر ٢٠٢٥

تاريخ قبول النشر: ٠٥ نوفمبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.429202.1288

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

يوسف كريم، "العلاقات المغربية – الفرنسية من الاستعمار المباشر إلى الاستعمار الناعم". - دورية كان التاريخية. - السنة التاسعة عشرة - العدد السادس والسبعون؛ فبراير ٢٠٢٦. ص ١٠٥ - ١١٤.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: youssefk8@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

لم تعدّ عملية الكتابة التاريخية تقتصر على قضايا الماضي، بل إن "التاريخ يكتب من الحاضر وبضمير خاص"^(١). ضمن هذه المقولة التي نسجها المؤرخ الفرنسي إيمانويل لوروا لادوري (Le Roy Ladurie) على منوال سلفه في مدرسة الحوليات، مارك بلوك (MARC Bloch)، نحاول مقارنة اشكالية العلاقات المغربية الفرنسية من الاحتلال إلى الزمن الراهن، وذلك من خلال جعل الاستمرارية بين الحقبة الاستعمارية وحاضر المغرب مفهوما مركزيا وأداة أولية في أي مقارنة تروم تحليل مكونات المرحلة الاستعمارية وعمق تأثيرها في المرحلة اللاحقة.

تطلق هذه الدراسة من فكرة مركزية مفادها أن "الدولة الوطنية" التي نشأت في المغرب بعد الاستقلال لم تستطع أن توجد لها خطأ مستقلاً عن إرادة "المستعمر" السابق، وأن المغرب مازال يعيش تحت الوصاية الكولونيالية، وأن النخب الحاكمة على امتداد ستة عقود مازالت عاجزة عن نزع روح المرحلة الاستعمارية. فكيف يمكن قراءة علاقة المغرب بمستعمرته السابقة فرنسا؟ هل واكب الاستقلال السياسي استقلال اقتصادي أو ثقافي؟ هل لازال المغرب يتلقى الأوامر من فرنسا؟ وهل لازالت فرنسا قادرة على توجيه السياسات العمومية المغربية لخدمة مصالحها؟ هل نعيب عودة الاستعمار أم البنية الحاضنة للاستعمار؟ تهدف هذه الدراسة إلى تشريح طبيعة العلاقات بين المغرب وفرنسا، ورصد حدود تأثير الإرث الكولونيالي والمرحلة الاستعمارية ودرجة استمرارهما في أحشاء الدولة المغربية الحديثة بعد الاستقلال، ومن ثم فهم التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في النظام المؤطر لهذه العلاقة. وانطلاقاً من منهج دراسة الحالة، تستخدم الدراسة التحليل التاريخي لفهم الجذور التاريخية لموضوع البحث وتتبع تداعياته وتمفصلاته في مرحلة ما بعد الاستعمار وامتداداته في التاريخ الراهن.

لهذه الغاية، اعتمدت الدراسة في استيفاء مصادرها ومراجعتها على ثلاثة أنماط من الكتابة، يهم النمط الأول

الكتابات المدرجة ضمن ما يسمى "السوسيولوجيا الاستعمارية" التي شكلت زاداً مرجعياً لا غنى عنه لفهم البنى الاقتصادية والاجتماعية للمغرب قبل الاستعمار وخلالها، وأنتجت صورة أحادية الجانب حول المغرب محملة بأحكام القيمة والإيديولوجيا الاستعمارية. أما النمط الثاني فيخص كتابات النخبة الوطنية، التي تولت الرد على الأطروحات الكولونيالية والدفاع عن الهوية الوطنية من حيث المضمون، وسعت إلى تقديم صورة مغايرة لما روجته الكتابات الاستعمارية عن الظواهر الماكرو اجتماعية لبلاد المغرب، ونشير هنا إلى كتابات عبد الله العروي وجرمان عياش، التي تميزت بدفاعها المستميت عن تحرير تاريخ المغرب من أحوال النظرة الاستعمارية، في حين يرتبط النمط الثالث بالأدبيات الحديثة والراهنة التي صاحبت تطور الدولة المستقلة، وعبرت عن نفسها كشكل من أشكال الرغبة في تجديد الكتابة التاريخية.

تسعى هذه الدراسة، عبر أربع مباحث أساسية، إلى تحليل السياق التاريخي وسبر تلك الظرفية المعقدة التي أدت إلى فرض وضع قانوني متعدد الأنماط على التراب المغربي وبالتالي على كل من الدولة والمجتمع المعنيين (أولاً)، وهو وضع اختير له بلباقة أن ينعت بوضع الحماية (ثانياً)، وتسعى هذه الدراسة إلى تحليل تداعيات هذا الوضع (الاستعمار الفرنسي) واستمراريته في الزمن الراهن سياسياً وثقافياً واقتصادياً. فعلى المستوى الثقافي، استمرت إيديولوجية فرنسا بغطاء ثقافي ولغوي، وحملت مسمى "الفرانكفونية" كبديل للاستعمار العسكري (ثالثاً)، وعلى المستوى الاقتصادي، استمرت الوصاية الاقتصادية والمالية الفرنسية، رغم سياسة تنويع الشركاء، واستمر معها التأثير في العلاقات السياسية بين البلدين (رابعاً).

أولاً: الاحتلال الفرنسي للمغرب

دأب أغلب الناس على الحديث عن استقلال المغرب أكثر من استعمارهم، وعن طريقة نيله الاستقلال من المحتل الفرنسي أكثر من التساؤل عن العوامل الرئيسة التي أفضت إلى استعمار هذا البلد. وإذا كان الجواب عن المسار الذي سلكه المغاربة لنيل استقلالهم العسكري

مستتق الاقتراض. ذلك ما أكده بيير كيلين (Pierre Guillen) من خلال دراساته^(٥)، حين كشف عن النوايا الحقيقية الفرنسية الساعية إلى إسقاط المخزن العزيمي في أزمة مالية، حيث حالت العرقلة الفرنسية من سنة ١٩٠١ إلى سنة ١٩٠٣ دون جباية ضريبة الترتيب من الأجانب والمحامين، علماً بأن ذلك كان من شأنه أن يوفر في الحين بعض المداخيل للمخزن بعد أن توقف عن جبايتها من القبائل، فكانت سنتان من تعطيل أداء الضرائب كافية لإسقاط المخزن في الفخ الفرنسي، فخ القروض أولاً ثم فخ الحماية فيما بعد^(٦). ثم جاءت بيعه مولاي عبد الحفيظ الاستثنائية لتؤشر على أن المملكة الشريفة في طريقها نحو التعجيل بالاستغاثة بقوة خارجية "تحمي البلد من وضعية الانهيار"^(٧). إذ تشير العديد من الوقائع أن عبد الحفيظ ساهم إلى حد كبير في الوضع الذي آلت إليه الأوضاع في المغرب سواء قبل توقيع المعاهدة أو بعده^(٨). وبحسب الحجوي، فإن مولاي عبد الحفيظ أظهر من "الجور والاختلال والخور ما هو أفج وأشنع فندم الشعب على تقريطه في أخيه.."، وأنه "من شدة حنق الشعب عليه وعلى دائرته أنهم صاروا يتمنون احتلال فرنسا الذي لأجل مواجهتها ثاروا على مولاي عبد العزيز وانتشرت في البلاد دعاية لفائدة الاحتلال ووجدت قلوباً قابلة لذلك حيث أدماها الظلم واختلال الأمن"^(٩).

ويعتبر عبد الله العروي أن الاستعمار الفرنسي للمغرب سنة ١٩١٢ لم يكن سوى النتيجة الحتمية لمسلسل كان يستهدف احتلال هذا البلد واستعمارها، إذ يميز العروي بين ثلاثة مراحل في مسلسل التغلغل الأوروبي في المغرب، وكل مرحلة كانت تستخدم واحدة من وسائل الضغط الثلاث. فقد تم استعمال القوة لتدمير الدولة المغربية، أو على الأقل تهئية أسباب اندحارها تحت أبسط تهديد وهو ما حصل مع هزيمة إيسلي أمام فرنسا سنة ١٨٤٤، وهزيمة تطوان أمام إسبانيا سنة ١٨٦٠-١٨٥٩^(١٠). كما تم توظيف التجارة الأوروبية وتأثيرها المدمر في المجتمع المغربي، وهي النتيجة المحققة سنة ١٨٨١ في مؤتمر مدريد الذي عمم حق الحماية من دون أن يلغي التجاوزات التي اصطحبت ما سمي نظام الإصلاحات الذي لم يكن له من هدف

عن فرنسا قد أضحي معروفاً لدى العديد من المغاربة، إلا أن الجواب عن سؤال "كيف احتل المغرب" يبقى شبه مجهول لغير المهتمين بالتاريخ المعاصر للمغرب.

بدأت الضغوط الامبريالية على المغرب طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فقد ورث الحسن الأول (١٨٧٣-١٨٩٤) مغرباً مثقلاً بالمشاكل السياسية والاقتصادية المترتبة عن الهزائم المتكررة أمام فرنسا وإسبانيا على الخصوص، وإكراهات سياسة التبادل الحر التي فرضتها بريطانيا في اتفاقية ١٨٥٦، وتداعيات ضريبة الترتيب التي ألّبت الرعايا المغاربة والمحامين والمقيمين الأجانب على المخزن.. وكلها عوامل كانت تؤشر على أن مصير المغرب لن يختلف، إن أجلاً أو عاجلاً، عن مصير الجزائر وتونس، وإن كان الاختلاف في شكل هذا الاحتلال.

١/١- السياق التاريخي للاحتلال

بلغ التنافس الدولي ذروته لاحتلال المغرب والسيطرة عليه مطلع القرن العشرين بعد أن اتسم نظام الحكم في المغرب بالضعف، واتسمت الحياة الاقتصادية بالركود والبطالة بسبب العزلة التي اختطها نظام الحكم لنفسه وفرضت عليه^(١٢). ومع وفاة الحسن الأول يوم ٧ يونيو ١٨٩٤، "السلطان الذي كان عرشه فوق فرسه"، سقط العرش، شيئاً فشيئاً، من فوق صهوة الفرس، لتهرول إليه ألمانيا وبريطانيا وإيطاليا، قبل أن تتلقفه أيادي الفرنسيين والإسبان بعد توقيعها مجموعة من الاتفاقيات والتسويات الاستعمارية^(١٣)، ويبدأ التخطيط للسيطرة على المغرب في عهد السلطان مولاي عبد العزيز (١٨٩٤-١٩٠٤)، الذي اتسم عهده بالتمردات والثورات، أشهرها تمرد الجيلالي الزرهوني "بوحماره" وثورتا الشريف الريسوني في الشمال، وماء العينين في الجنوب. وبدأ تربص فرنسا بمولاي عبد العزيز بعد وفاة الصدر الأعظم (بأحماد) سنة ١٩٠٠، بدفعه إلى تغيير النظام المالي للدولة واعتماد ضريبة "الترتيب"^(١٤)، التي فشل الحسن الأول في تطبيقها، وهي الضريبة التي اعتبرت بمثابة قميص عثمان الذي حمله خصوم السلطان للإطاحة به والتخلص منه، وحملته فرنسا التي كانت تتطلع إلى تجفيف موارد خزينة المغرب لجره إلى

تعدد أشكال التكييفات القانونية، فإنها تظل في الأخير تسميات وتوصيفات للدلالة على مدلول واحد هو الاستعمار، الذي يبقى هدفه، كيفما كان القناع الذي يحتجب به للتسرب إلى هذا البلد أو ذاك، هو "استغلال الشعوب، والسطو على خيراتها، والنيل من مقوماتها الفكرية والثقافية، والسعي إلى فرض نموذج الحضاري"^(١٥).

بتوقيع معاهدة فاس سنة ١٩١٢، أصبح المغرب عملياً تحت "الحماية" الفرنسية، وهي منهجية استعمارية بدأت معالمها في تونكان ومدغشقر، ونضجت في الجزائر وطبقت في المغرب قائمة على الإلحاق والإشراك. ارتبط فرض "النظام الجديد" بمسار الجنرال ليوطي (Lyautey)، بعد أن أمسك بزمام الإقامة العامة، وأصبح الشخصية المحورية الأساس في الإيالة السلطانية، بين سنتي ١٩١٢ و ١٩٢٥^(١٦). فقد كانت الحماية عند "ليوطي"، شكلاً من أشكال التدخل "يحتفظ فيها البلد بمؤسساته وحكومته وإدارته بنفسه مع أجهزته الخاصة تحت إشراف بسيط لدولة أوروبية محل محله في التمثيل الخارجي وتتولى بصورة عامة إدارة جيشه وماليته وترعاه فيما يخص نموه الاقتصادي"^(١٧)، وفي ذلك يقول المارشال ليوطي: "نمارس الحماية لا الإدارة المباشرة، ينبغي ألا نطمس الأطر التقليدية، بل نستعملها، وألا نقاوم أعضاء المخزن، بل نسخرهم في إدارة البلاد، بحيث لا يتعدى عملنا المراقبة والارشاد"^(١٨). فما الذي دفع منظري الاستعمار الفرنسي إلى تبني قاعدة الحماية وتفضيلها على كل أشكال التدخلات الأخرى التي يجيزها القانون الدولي؟

يعتبر "جورج سبيلمان" (Georges Spillmann)، الذي ارتبط اسمه بنظام الحماية مدة خمس وثلاثين سنة (١٩٢٠-١٩٥٥)، أن مفهوم الحماية اكتشفه ليوطي أثناء تواجده بالجزائر كضابط شاب ضمن الفيلق الثاني بين سنة ١٨٨٠ و ١٨٨٢، بعد أن وضع الأصبع على هفوات الاستعمار ونواقصه في هذا البلد، فاعتبر تجربة الجزائر تجربة لا يجب النسخ على منوالها، وأن الحماية هي الدرع الواقعي مما جرى في الجزائر من التجاوز^(١٩)، وهذا ما كتب بصده جورج هاردي قائلاً: "كان الاستعمار في الجزائر بالنسبة إليه (ليوطي) نموذج

آخر سوى" نزع الغطاء الاسلامي عن المخزن"، ومن ثم فتح هوة بينه وبين الشعب، وهو الهدف الذي تحقق عملياً سنة ١٩٠٥ ولم يؤجل إلى سنة ١٩١٢ إلا بسبب صراع الدول الأوروبية حول مصالحها"^(٢١).

هكذا نخلص إلى أن تحليل التاريخ المغربي في السنوات الأولى من القرن العشرين يبين بأن إقرار الحماية الفرنسية كان بالتأكد نتيجة لازدواجية جهود الرأسمالية والسياسة، وجهود الدبلوماسية والمالية، فضلاً عن تفاوت القوة التفاوضية للطرفين، بتوجه فرنسي كان يرى أن المسألة المالية هي محور المفاوضات بين الجانبين وجوهر المشكل، سعياً منه إلى إغراق المغرب في وحل الاقتراض، وبالتالي تكبيله وفرض المراقبة الفرنسية عليه^(٢٢)، مقابل توجه مغربي يعتبر مسألة الاحتلال هي مكمن الداء في العلاقات المغربية الفرنسية وبالتالي يجب حلها ليبنى على الشيء مقتضاه. لكن انتصرت إرادة الطرف الأقوى، وهو ما يفسر ترتيبات الحكومة الفرنسية بشأن الوضع في المغرب، والتي اختزلها جون كلود آلان (Jean Claude Allain) بالقول: إن الغزو الفرنسي للمغرب مر عبر ثلاثة مراحل: في ظل المخزن، مع المخزن وباسم المخزن. ففي المرحلة الأولى خلقت فرنسا جناحاً مالياً لها داخل المخزن سهل مهمتها وضيق على منافسيها وأتباعهم داخل الجهاز المخزني، في وقت عملت فيه على توريث المخزن في سياسة الاقتراض ثم اقترحت حزمة مشاريع إصلاحية باسم المخزن شكلت مقدمة لفرض الحماية الفرنسية على المغرب^(٢٣).

٢/١- احتلال في ثوب الحماية

يجب بداية التمييز بين أنواع وأشكال الاحتلال، فحسب الفقه القانوني، يمكن أن تكون سلطات الدولة خارج ترابها الوطني، تحت المراقبة كما هو الحال بالنسبة للصاية أو الانتداب (Mandat)، ويمكن أن تكون جماعية كما هو الحال بالنسبة للكوندومينيوم (Condominium) والحكم المشترك، ويمكن أن تكون سلطات شاملة وأحادية عندما يتعلق الأمر بالتنازل الترابي دون انتقال السيادة، وإما أن تكون احتلالاً عسكرياً أو اتفاقاً دولياً أو نظام حماية^(٢٤). ورغم

الفرنسية" أهم السلطات الحقيقية (إلى جانب الإسبان في الشمال والجنوب الصحراوي)، بينما استمرت السيادة الشكلية للدولة المخزنية وظلت بنيتها المؤسساتية ضعيفة، مما مهد لميلاد الدولة التراسيبية (Etat Sédimental) كنظام يهدف إلى تغطية المغرب المنهار سياسياً والمقسم إدارياً، إذ تم إدماج البنية الضعيفة (سلطة السلطان) في البنية القوية (سلطة الحماية) دون إلغاء.^(٢٥)

ثانياً: من الاحتلال إلى التبعية

مهما كانت طبيعة التبريرات المقدمة من طرف السلطات الكولونيالية لتبرير نظام الحماية كشكل من أشكال الاحتلال، فإن المؤكد أن عملية الاحتلال هذه لم تكن نزهة بالنسبة للغزاة، ذلك أن المغاربة سيطورون أشكالاً وصيغاً من المقاومة، اتخذت في البداية طابعاً قُبلياً مفككاً، وتطورت خلال الثلاثينيات والأربعينيات إلى حركة سياسية وطنية حضرية، لتنتهي بمزاوجة النشاط السياسي والعمل المسلح قبل أن تخلص إلى استقلال البلاد سنة ١٩٥٦ بعد ثلاثة وأربعين عاماً من الاحتلال. لكن المؤكد أيضاً أن النفحة الاستعمارية التي بدأها المارشال ليوطي (Lyautey)، وسار عليها كل المقيمين الفرنسيين في المغرب في إدارتهم، بدءاً من ثيودور ستيغ (Théodore Steeg) الذي خلف ليوطي في أكتوبر ١٩٢٥، إلى آخر مقيم عام فرنسي في المغرب (André-Louis du Bois)، ستستمر حتى بعد استقلال المغرب على مستوى الأبنية السياسية والاقتصادية والثقافية، والتي شكلت امتداداً للتوجهات المعتمدة سابقاً من قبل السياسة الكولونيالية.

١/٢- استمرار الاستعمار الثقافي واللغوي

لم يعتمد الاستعمار الفرنسي فقط على القوة المادية والعسكرية لفرض سيطرته على الإنسان والمجال، بل توسل أيضاً بالسلطة الرمزية لممارسة تأثيره في أفراد المجتمع المغربي وجماعاته، ولم تكف فرنسا من مستعمراتها بما يطلبه منها سائر ملل الاستعمار من نهب الثروات والسيطرة على الأسواق، بل سعت أيضاً إلى إنجاز "جراحة ثقافية ولغوية" تستتبع المستعمر للمستعمر^(٢٦). فقد تميزت السياسة الثقافية الفرنسية

المقاربة غير الناجحة والتعاون الخالي من روح الجوار، إذ طبعته الضبابية على مستوى المبادئ^(٢٧).

اختارت فرنسا إذن نظام الحماية لأنه كان أنسب من التجربة الجزائرية، وصاغت مشروعا يقدم السيطرة الاستعمارية على المغرب باعتبارها مجرد مساعدة للدولة المستعمرة على إصلاح أعطابها، وأطلقت على عملياتها العسكرية في البند الثاني من عقد الحماية كلمة "التهدئة"، كمشروع أراده ليوطي أن يكون عملاً مغريباً أكثر منه فرنسياً^(٢٨)، ما يؤشر على أن سلطات الحماية استغلت البنيات القائمة ومنحتها روحاً جديدة من أجل اختراق المجال والمجتمع وإحداث التغيير الذي يخدم عملية توظيف إمكانات المغرب لخدمة الحاجات الفرنسية^(٢٩)، إذ من شأن تلك البنيات أن تساعد على تطويع البلاد "بتكلفة أقل ونجاح أكبر مما لو اجتمعت فيالقنا العسكرية كلها على ذلك"، ولا جدال في من تكون بيده السلطة، فإن فرنسا هي "الماسكة بالزمام، والنهوض بتلك القوة الاجتماعية الكبرى كله من مصلحة فرنسا، وذلك لب فلسفة الحماية"^(٣٠)، بحيث تبدو (أي الحماية) من هذا المنظور-الذي ينسجم مع خطاب ليوطي ومبادئه، وما روجته الدعاية الاستعمارية آنذاك- عملاً إنسانياً ومشروعاً إصلاحياً قائماً على التعاون المتبادل بين المغاربة والفرنسيين، والانسجام التام الناتج عن الرغبة المشتركة في تحقيق مصلحة الدولة والمجتمع. ومع أن العلاقة بين المخزن والإقامة كانت تتدرج حتماً في سياق استعماري، برز فيه كبار الضباط والموظفين الفرنسيين، باعتبارهم الأسياد وأصحاب القرار في العهد الجديد، إلا أن الأدبيات الاستعمارية حرصت على التأكيد باستمرار على العلاقة المتينة وروح التوافق والانسجام بين المخزن والحماية، وبين المارشال والسلطان، في إطار ما اصطلح عليه "سياسة المراعاة" (Politique des égards) التي مكنت ليوطي من اجتذاب أعيان المخزن إلى دائرة النفوذ الاستعماري^(٣١)، وذلك على عكس الكتابات الوطنية التي كانت تنظر للمخزن كأداة طيبة في أيادي النخبة الاستعمارية، وجهازاً صورياً عديم الدور والمبادرة، فنشأت ازدواجية جديدة بين الدولة السلطانية والدولة الاستعمارية، تولت فيها "سلطات الإقامة العامة

لكي تحتل وتكتسح مراكز السلطة. وكان من تداعيات السياسة الاستعمارية، وطبيعة النخب البرجوازية الجديدة التي أفرزتها، أن اللغة الفرنسية أصبحت تحتل مرتبة متميزة في المغرب، وعملة الولوج للمناصب المؤثرة^(٢٩)، بدليل أن لسان فرنسا مازال حتى الآن لسان الإدارة في عموم مناطق المغرب، ولسان التعليم فيه من التعليم الأساسي وحتى أسلاك التعليم العالي والبحث العلمي، وتستعمل كلغة التدريس الأكثر استعمالاً وتداولاً في المدارس والمعاهد العليا في الطب والهندسة، ومازال الرأسمال الأمثل لتنمية الموقع الاجتماعي^(٣٠)، حيث يستمر اللسان الفرنسي مهيمناً على الوظائف العليا ومراكز اتخاذ القرار وصنع السياسات، بما في ذلك قطاعات الإدارة العمومية والاقتصاد والإعلام والجيش، في مقابل تهميش اللغتين العربية والأمازيغية. فلغة القرار السياسي والسيادي هي الفرنسية، وبذلك تتعدى الطبقة "الفرنسية" كونها مجرد طبقة مثقفة، إلى طبقة مهيمنة أيضاً، حيث مازال فرنسا تعمل على الحفاظ على هيمنة النخب الناطقة بالفرنسية على مراكز القرار، انطلاقاً من قاعدة أن خير وأفضل من يحافظ على مصالح فرنسا في المغرب، هم المغاربة الناطقون بالفرنسية والمؤمنون بما يسمى قيم الحضارة الفرنسية، وعلى رأسها العلمانية^(٣١).

بعد ما يزيد على نصف قرن على رحيل فرنسا، مازالت البنية الثقافية-اللغوية تشغل بطاقاتها القصوى، هي ما سيُعهد لها أن تفكر في قضايا التربية، بل حتى في الدين، وتصوغ تصور التنمية. ويحكي المؤرخ المغربي حسن أوريد أن هدية انتخاب جاك شيراك في ماي ١٩٩٥، وزيارته للمغرب في يوليو، كأول بلد يزوره بصفته رئيساً لفرنسا، هي "إعادة النظر في منظومتها التربوية التي يشرف عليها خبراء فرنسيون بغطاء مغربي"^(٣٢).

وعلى الرغم من كون مقتضيات الدستور المغربي الجديد لسنة ٢٠١١ كرست واقع التعدد اللغوي بالبلاد، وأقرت بتدريس اللغة الأمازيغية إلى جانب اللغة العربية، فإن تداعيات المرحلة الاستعمارية لازالت تلقي بظلالها على الواقع اللغوي بالمغرب في الوقت الراهن، ومازالت اللغة الفرنسية تحتفظ بمكانة متميزة في التعليم

في المغرب، ومنذ وقت مبكر، بالرغبة في فرض لغتها وثقافتها، وشكلت التبعية الثقافية نموذجاً لحجم الشقوق التي خلفتها المرحلة الاستعمارية، وحتى حين غادرت الإدارة الاستعمارية الفرنسية المغرب، تركت وراءها بنية تحتية ثقافية ولغوية (فرنسية) قوية قابلة للاستثمار على امتداد عقود.

لقد كانت السياسة الاستعمارية في التعليم تكمن في تكوين ناشئة مشبعة بالثقافة والمعرفة ذواتي الأفق الاستعماري، وقوامها التسلط الرمزي عن طريق اللغة والتاريخ الفرنسيين والحضارة الغربية لتظل مرتبطة بثقافة المستعمر^(٣٣). ويعتبر الجنرال ليوطي، هو واضع أسس السياسة الفرنكوفونية بالمغرب، انطلاقاً من موقعه مقيماً عاماً للاستعمار الفرنسي. فقد جاء في دورية تاريخية كان قد أصدرها بتاريخ ١٦ يونيو ١٩٢١ حول لغة التعليم بالمغرب قوله بالحرف الواحد: "من الناحية اللغوية، علينا أن نعمل مباشرة على الانتقال من البربرية إلى الفرنسية.. فليس علينا أن نُعلّم العربية للسكان الذين امتنعوا دائماً عن تعلمها. إن العربية عامل من عوامل نشر الإسلام، لأن هذه اللغة يتم تعلمها بواسطة القرآن، بينما تقتضي مصلحتنا أن نطور البربر خارج نطاق الإسلام". ولعل فرنسا بنهجها خيار الاستعمار الثقافي كانت أكثر ذكاء من سائر الدول الاستعمارية التي شغلته شهية النهب الاقتصادي للخيرات عن السعي إلى إحراز أهداف أخرى بعيدة المدى. وفي هذا الصدد يقول المؤرخ عبد الهادي التازي، إن "الفرنسية دخلت إلينا في المغرب عن طريق مستعمر ذكي جداً، عرف كيف يغرس لغته داخل البيوت، وهو ليس مثل الاستعمار الإنجليزي الذي كان يكتفي بالوقوف عند البوابات بالخارج ليحصل على الإيرادات والجمارك والبترول"^(٣٤).

فرضت فرنسا على المغرب نظاماً تعليمياً يجعل من اللغة الفرنسية نموذجاً لسانياً متكاملًا من شأنه أن يساعد المغرب الجديد، في نظرها، على بناء نفسه. لكن بعد هذه المرحلة، انهارت النخب التقليدية سياسياً واقتصادياً، وفسحت المجال لتشكل لوبي فرنكفوني أضحى يمتلك نفوذاً على قطاعات واسعة في المغرب، نشأت في إطار المدارس والمعاهد والجامعات الفرنسية

ريعي تبقي حاجيات الصناعات الفرنسية من المواد الأولية. فالمقيم العام الفرنسي ليوطي ركز اهتمامه في المغرب على توسيع الوعاء العقاري العمومي، وإضفاء الشرعية على ملكية الأراضي، ولاسيما تلك التي تهافت عليها الأوروبيون عندما كان الملاك المغاربة يفرون خائفين من عنف المستعمر وبطش آلتته الحربية^(٣٤). وإذا كان هذا التدبير الذي نهجه المارشال ليوطي جاء ليصحح ويستفيد من تجربة الإدارة الفرنسية الفاشلة في الجزائر خلال السنوات الأولى من الاستعمار لما لم تجد ما تستولي عليه كملكية عمومية، فإن الواضح أيضاً أن المارشال ليوطي كان يرغب في أن يتسم الاقتصاد المغربي بالتبعية لفرنسا.

ظل الاقتصاد المغربي خلال العقدين الأولين للحماية موجهاً إلى تزويد الميترربول بالمواد الأولية أكثر مما كان يعتني بتطوير صناعة استهلاكية تلبى احتياجات الساكنة المحلية. ومن جهة أخرى لم تعمل الإدارة والمقاولات الاستعمارية على تيسير الفرص أمام استثمارات البرجوازية المحلية. والحاصل أن هذا الواقع لم يفض إلى بناء اقتصاد رأسمالي حقيقي ولا إلى القضاء على الأنماط التقليدية التي طبعت الاقتصاد المغربي لما قبل الحماية على مستوى الإنتاج والتبادل^(٣٥). وهكذا، كان الاقتصاد المغربي في نهاية عهد الحماية يقدم صورة اقتصاد تابع، أقحم في نمط للإنتاج والتبادل يتسم في جوهره بالرأسمالية الاستعمارية وتغذية أقلية من المعمارين الأوروبيين بمعية بعض المجموعات المالية الكبرى الفرنسية، مما جرد المغاربة من أجود أراضيهم وحرمتهم من ثرواتهم المعدنية والسمكية والطاقة.

حين قدمت فرنسا إلى المغرب جاءت مدججة بأرتال من شركات ومقاولات لا تحسن غير لغة واحدة. وحرصت على ربط الاقتصاد المغربي بنظيره الفرنسي و"تأبيد" النفوذ الاقتصادي الفرنسي، عبر خلق نخبة فرنكفونية وفية في المغرب، كما أسلفنا، كان لها السلطة في إدارة البلاد واستمرت في الحكم بعد استقلالها. وقد تمكن الفرنسيون منذ ذلك الحين إلى اليوم من خلق شراكة تفضيلية متينة مكنتها من التواجد الوزان والهيمنة على قطاعات اقتصادية إستراتيجية في مجالات الطاقة والصناعات البترولية والسكك

والمنظومة التربوية المغربية. وسنقف هنا عند إحدى أهم المحطات الفارقة في تاريخ المغرب الراهن، والتي كشفت مفعول الشقوق الاستعمارية، وخلقت واقعاً لغوياً وثقافياً مركباً، وجعلت فرنسا تعود إلى رحاب الوطن من خلال لسانها وجمهرة المتعصبين لثقافتها ومثالها الحضاري. وهي المحطة المتعلقة بإصلاح المنظومة التعليمية من خلال مصادقة البرلمان المغربي، نهاية يوليوز ٢٠١٩، على القانون الإطار رقم ٥١، ١٧، المتعلق بمنظومة التربية والتكوين والبحث العلمي^(٣٦)، والذي تقضي مادته الثانية والواحدة والثلاثون باللجوء إلى "التأويل اللغوي" لتبرير وتمير قرار تدريس المواد العلمية باللغة الفرنسية بدل العربية التي تقررت كلفة لتدريس هذه المواد منذ حوالي أربعين سنة.

إن اعتماد اللغة الفرنسية وتقوية حضورها في المنظومة التعليمية كلفة أجنبية أولى للتدريس بدل الإنجليزية، لا يعني حديثاً عن اللغة الفرنسية في حد ذاتها، بالمعنى الديدانكيكي البيداغوجي، وضرورة انفتاح المغرب على تعلم اللغات الأجنبية والفرنسية من ضمنها، إنما حديثاً عن منظومة ثقافية تمت صياغتها في شكل مشروع للهيمنة مسكون بأيديولوجية شوفينية تعمل على ربط المغاربة بفرنسا وبتاريخها، ومسح الشخصية الثقافية، وتزوير الذاكرة الجماعية من أجل إنقاذ الميراث الثقافي واللغوي الفرنسي من الاكتساح الأنغلو فوني. وهذا ما يجعل الغزو الثقافي، في شكله الفرنكفوني، وجهاً من أوجه التبعية الثقافية والذي يقوض الاستقلال الوطني المفترض، باسم "شعارات حضارية" زائفة، تقول بالثقافة وحوار الحضارات.

٢/٢- تكريس علاقات الارتباط الاقتصادي

رغم الإعلان الرسمي عن استقلال البلاد في مارس ١٩٥٦، ظل المغرب تحت الوصاية الاقتصادية والمالية الفرنسية بحكم مجموعة من العوامل الموضوعية التي حالت دون تبلور اقتصاد وطني مستقل ومنفصل عن الأنظمة والهيكل الاقتصادية التي رسختها الإدارة الفرنسية في عهد الحماية. وقد أثر هذا الواقع على تأخر بروز قطاع خاص مبادر، ثم إن النموذج الاقتصادي الذي رسخته فرنسا كان يتمحور، أساساً، حول اقتصاد

ووصل رصيدها في ٢٠٢٢ إلى أكثر من ٢٠٠ مليار درهم، بحصة تصل إلى ٣٠,٨ في المائة، حسب مكتب الصرف الفرنسي.

ويضم المغرب حالياً ما يزيد عن ١٠٠٠ فرع لشركات فرنسية بينها ٣٣ شركة من ضمن مؤشر "كاك ٤٠" (المؤشر الرئيسي في بورصة باريس لأكبر أربعين شركة فرنسية)، وتؤمن فرنسا ثلث الاستثمارات الأجنبية في هذا البلد^(٢٨). كما تعتبر الشريك التجاري الثاني للمغرب بعد إسبانيا، حيث تحتل المرتبة الثانية في قائمة مورديه. وهذه القوة المالية والاقتصادية هي التي تفتح أمام المنظومة الفرنسية الطريق فسيحاً لتمير برامجها ومخططاتها التي لا تقتصر على التعليم والاقتصاد، بل تمتد إلى القوى الناعمة في السينما، والتلفزيون والثقافة والرياضة.

غير أن الامتيازات الاقتصادية التي تجنيها فرنسا هي مقابل تنازلات كبرى من جهة المغرب. فمازال المغرب يعتمد على دعم فرنسا ومساعداتها المالية، وهو يكن تقديراً خاصاً لعلاقته مع فرنسا التي يعتبرها حليفاً ثابتاً له، بالنظر لدعمها الدبلوماسي في ملف الصحراء، الذي يعتبر حساساً بالنسبة للمغرب، والذي كانت فرنسا إلى وقت قريب تحسن استثماره بدهاء منقطع النظير. فمن أجل الحفاظ على المغرب منطقة نفوذ، كانت فرنسا تعتمد إلى لعب دور المحامي المدافع عن مصالح المغرب في المحافل الدولية، فنجدها تتراجع بشدة عن قضيته الأولى لتأييد تحكمها في الاقتصاد الوطني، بأسلوب لا يدعوها بأي شكل من الأشكال للإسهام الحقيقي والفعال في حل تلك القضية. وفي مقابل هذا الدعم على مستوى قضية وحدته الترابية، يقدم المغرب نفسه على أنه حليف موثوق به لأوروبا بشكل عام وفرنسا بشكل خاص، ووجهة آمنة للاستثمار.

الحديدية والطيران وصناعة السيارات الذي تهيمن عليه علامات فرنسية مثل "رونو" و"بيجو-ستروين"، وحلت البرجوازية الفرنكوفونية محل البرجوازية التقليدية. وبحكم تلك الشراكة المبكرة، أصبحت اللغة الاقتصادية لرجال الأعمال المغاربة اليوم هي اللغة الفرنسية. وتظل سياسة الصفقات الكبرى وتمركز الرأسمال العمود الفقري للتواجد الاقتصادي الفرنسي بالمغرب، وسخرت فرنسا جزءاً كبيراً من ميزانية الدولة للمنشآت التي تخدم أغراضها، وتضافرت تلك العوامل لتفرض على المغرب حالة من التخلف الاقتصادي الذي يفرض عليه أن يظل تابعا لفرنسا^(٢٩). وباسم الباب المفتوح في الاقتصاد، تم تفكيك مؤسسات اقتصادية استراتيجية للدولة، وتمت خصخصتها بأثمان بخسة. في هذا السياق، يحكي المؤرخ المغربي حسن أوريد كيف طرحت قضية الخوصصة عقب سقوط حائط برلين، وكيف ترأس الملك الحسن الثاني دورة أبريل للبرلمان سنة ١٩٩٠ ليسهب القول في فضائل الخوصصة، حيث تم تفكيك مؤسسات اقتصادية استراتيجية للدولة، وتمت خصخصتها بأثمان بخسة، وتولت شركات فرنسية في كبريات المدن مرافق توزيع الكهرباء والماء والتطهير السائل، ومُنحت أراض خصب وشاسعة لشخصيات فرنسية نافذة، ومنها تلك التي حصلت على قروض ضخمة من أبنائك مغربية، لم تستثمرها في المشروع وإنما أخذتها جزاءً وفاقاً^(٣٠).

وعلى الرغم من سياسة تنويع الشركاء والانفتاح الاقتصادي للمغرب على الاقتصاديات العالمية الرائدة من خلال توقيع مثلاً لاتفاقية التبادل الحر مع الولايات المتحدة الأمريكية وتوسع حجم المعاملات مع عدد من البلدان الكبرى كروسيا واليابان وحتى الصين، إضافة إلى الارتفاع الكبير في حجم المعاملات مع بلدان الجنوب خصوصاً إفريقيا جنوب الصحراء، إلا أن فرنسا، وحسب المعطيات الرسمية الصادرة عن مكتبي الصرف المغربي والفرنسي، ظلت إلى حدود سنة ٢٠٢٤ تتربع على "عرش أبرز المستثمرين بالمغرب" بصافي تدفقات هائل، حيث بلغت حصتها ٣١,٤ في المائة (٧٣٧ مليون يورو) من مجموع صافي الاستثمارات الأجنبية المباشرة (Flux net IDE) في المغرب في عام ٢٠١٧،

خاتمة

الإحالات المرجعية:

- (1) Le Roy Ladurie, Emmanuel, Le territoire de l'historien, éditions Gallimard, Paris 1973.
- (2) تامر عزام الدليمي، **الإدارة الفرنسية في المغرب ١٩٣٩-١٩٥٦**، (عمان، الأردن: دار غيداء للنشر والتوزيع)، ٢٠١٦، ص ١٢
- (3) بشأن هذه الاتفاقيات، انظر: Mohammed Omar El-Hajoui, Histoire diplomatique du Maroc, 1900-1912) Paris : G P. Maisonneuve, 1937
- (4) للتوسع في أثر ضريبة الترتيب، يراجع: الطيب بياض، **ضريبة الترتيب وأثرها على المجتمع المغربي ١٨٨١-١٩١٢**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، (كلية الآداب ظهر المهرارز، فاس، ٢٠١٢/١/٢٠)
- (5) **بيير كيلين (Pierre Guillen)** من مواليد ٣١ دجنبر ١٩٢٩م بباريس، وهو مؤرخ فرنسي متخصص في التاريخ المعاصر والعلاقات الدولية، اشتغل أستاذا للتاريخ في جامعة كرونوبل (Grenoble) توفي فاتح يناير ٢٠١٩ عن عمر يناهز ٨٩ سنة، له عدة إسهامات تهم جوانب من تاريخ المغرب خلال العقود السابقة لموعد إبرام الحماية الفرنسية على البلاد. يراجع في هذا الباب: بيير كيلين، **الاقتراضات المغربية ١٩٠٢-١٩٠٤**، تعريب المصطفى بزنوسي، مراجعة إبراهيم بوطالب، (الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى ٢٠٠٧).
- (6) الطيب بياض، **المخزن والضريبة والاستعمار: ضريبة الترتيب ١٨٨٠-١٩١٥**، (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠١١)، ص ٢٥٧.
- (7) سمير بوزويقة، **الشرعية القانونية للحماية الفرنسية**، (منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، ٢٠١٦)، ص ٥٧.
- (8) عبد الخالق كموني، "حيثيات فرض الحماية الفرنسية على المغرب والموقف الرسمي منها"، مجلة **مدارات تاريخية**، العدد الخامس، المجلد الثاني، (مارس ٢٠٢٠)، ص ١٨٢.
- (9) محمد بن الحسن الحجوي، **حالة المغرب والحماية**، (الرباط: مخطوط المكتبة الوطنية، ٢٥٤٠)، ص ٨-٩.
- (١٠) وصف الناصري هزيمة تطوان بأنها "أزال حجاب الهيبة عن بلاد المغرب، واستطال النصارى بها، وانكسر المسلمون انكساراً لم يعد لهم مثله.."، أنظر: الناصري أحمد بن خالد السلاوي: **كتاب الاستقصا لخبر دول المغرب الأقصى**، (الدار البيضاء: دار الكتاب، ١٩٥٦)، (٩)، ص ١٠١.
- (11) Abdallah Laroui, Les Origines sociales et culturelles du nationalisme marocain, textes à l'appui (Paris: F. Maspero, 1977), 245
- (12) أجبر المغرب على عقد اتفاقية للاقتراض بتاريخ ٢١ مارس ١٩١٠، حصل بموجبها المغرب مبدئياً على ١.١ مليون فرنك، مقابل تجفيف مختلف مصادر ماليته من عائدات جمارك ومستفادات المراسي ومداخل الأملاك المخزنية التي تم رهنها كضمانات لهذا القرض. فأصبح المغرب بعد الإنذار الفرنسي وتوقيع اتفاقية القرض تحت رحمة المراقبة العسكرية والمالية للفرنسيين.
- (13) Allain, Jean Claude, Agadir 1911, une crise impérialiste en Europe pour la conquête du Maroc, publications de la Sorbonne, Paris, 1976.

منذ استقلاله، اعتمد المغرب النموذج الفرنسي سواء في المجال السياسي أو الثقافي أو الاقتصادي، بشكل جعل المغاربة يشعرون، على امتداد تاريخ دولتهم الحديثة، بنوع من "الأبوة" تجاه مستعمرهم السابق، مما ساهم في ظهور نخبة مغربية بعقلية فرنسية تشكلت في رحم اللغة وفي الاقتصاد وفي الإدارة وفي مركز الدولة ودائرة الطبقات العليا المتحركة كنخبة صاحبة قرار. لذلك ليس من السهل تجاوز الإرث التاريخي الذي يلقي بظلاله على علاقات المغرب بفرنسا، ولا يمكن فهم واقع المغرب المعاصر إلا من خلال العودة إلى المرحلة الاستعمارية لما لها من أهمية في تحديد دينامية تكون الدولة الحديثة في هذا البلد اقتصاداً ومجتمعاً وثقافة. لكن الرواسب السلبية للماضي ليست قدراً محتوماً، فإذا كان المغرب وفرنسا يرتبطان اليوم بعلاقات وثيقة وديناميكية، تجسدها كثافة العلاقات السياسية، وحجم المبادلات الاقتصادية والتجارية، وقوة التعاون والتسويق في العديد من الميادين، فإن المحيط الدولي والإقليمي، وكذلك الوزن الجيو-استراتيجي للبلدين والأوضاع المؤسسية والداخلية في كل منهما، بالإضافة إلى المعطيات الاقتصادية والاجتماعية. كل هذه العوامل تفرض ضرورة إعادة بناء العلاقات بين المغرب وفرنسا على أسس جديدة قائمة على الندية والتعاون المشترك والاحترام المتبادل، وتأخذ بعين الاعتبار كل هذه المتغيرات على جميع المستويات.

- (٢٦) عبد الإله بلقزيز، **الاستعمار الثقافي وجذور الفرنكوفونية**، مقال رأي بمجلة الخليج، بتاريخ ٣١/١٠/٢٠١٠، <https://www.alkhaleej.ae>، تم التصفح بتاريخ ٢٤/٠٩/٢٠٢٤.
- (٢٧) محمد فاوهار، **سوسيولوجيا الانتاج المعرفي الكولونيالي بشأن التربية والتعليم في المغرب**، مجلة **عمران**، العدد ١٧، (صيف ٢٠١٦)، ص ٧١.
- (٢٨) عبد الهادي التازي، **الترجمة في عصر الانفتاح على اللغات**، ضمن مستقبل اللغات بالمغرب، مجلة العربي، العدد ٥٠، السنة ٢٠٠٠، ص ٧٢.
- (٢٩) علي بنطالب، **السياق الاستعماري وتأثيراته على الوضع اللغوي بالمغرب**، مجلة أسيناك، العدد ١١، السنة ٢٠١٦، ص ٦٥.
- (٣٠) عبد الإله بلقزيز، **الفرنكوفونية، أيديولوجيا، سياسات، تحد ثقافي، لغوي**، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠١١، ص ٢٠-٢١.
- (٣١) أمين البار، منير بسكرى، **مكانة المغرب العربي في السياسة الفرنسية الخارجية**، (مكتبة الوفاء القانونية، الإسكندرية، الطبعة الأولى ٢٠١٤)، ص ٣٦.
- (٣٢) حسن أوريد، **نعيب فرنسا والعيب فينا**، مقال رأي بمجلة زمان، ٨ ماي ٢٠٢٤.
- (٣٣) يتكون القانون الإطار رقم ١٧، ٥١ المتعلق بمنظومة التربية والتكوين والبحث العلمي من ديباجة و ٦٠ مادة موزعة على عشرات الأبواب، وهو كما جاء في ديباجته "مرجعية تشريعية ملزمة في اتخاذ النصوص التشريعية والتنظيمية اللازمة لبلورة الأهداف والتوجهات والمبادئ المتعلقة بإصلاح منظومة التربية والتكوين".
- (٣٤) بشرى زكاف، **"تدبير الشأن الثقافي في المغرب خلال مرحلة الاستعمار"**، مجلة عمران العدد ١٧، المجلد الخامس، (صيف ٢٠١٦)، ص ٥٢-٥٣.
- (٣٥) محمد أقيلي، **تاريخ المغرب: تحيين وتركيب**، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، ٢٠١١، ص ٥٥٧.
- (٣٦) تامر عزام الدليمي، **الإدارة الفرنسية في المغرب ١٩٣٩-١٩٥٦**، دار غيداء للنشر والتوزيع، ٢٠١٦، عمان، الأردن، ص ٥٢.
- (٣٧) حسن أوريد، **"نعيب فرنسا والعيب فينا"**، مقال رأي بمجلة زمان، ٨ ماي ٢٠٢٤.
- (٣٨) فرنســــــــــــا والمغــــــــــــرب، عــــــــــــلى الموقع: <https://www.diplomatie.gouv.fr/ar>، شــــــــــــهد في ١٦/٠٦/٢٠٢٠، في: <https://www.diplomatie.gouv.fr/ar/afrique-du-nord-et-moyen-orient/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%BA%D8%B1%D8%A8/la-france-et-le-maroc>.
- (١٤) سمير بوزويطة، **الشرعية القانونية للحماية الفرنسية**، (الرباط: منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، ٢٠١٦)، ص ٥٢-٥٣.
- (١٥) مصطفى الشابي، "سنة ١٩٣٠ أو المغاربة واستعادة الثقة في النفس"، مجلة **المناهل**، العدد ٨٩/٩٠، (يونيو ٢٠١١)، ص ١٠.
- (١٦) عبد الحميد احساين، **نصوص عن النخبة والسلطة في بداية عهد الحماية الفرنسية بالمغرب ١٩١٢-١٩٢٥**، (الدار البيضاء: منشورات جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الانسانية بنمسك، ٢٠١٩)، ص ٣١.
- (17) Joseph Salvador, *Le Traité de 1912*, C.H.E.A.M, 1953, p6
- (18) Daniel Rivet, *Lyautey et l'institution du protectorat français au Maroc 1912-1925*, L'Harmattan, Paris, 1988, pp46-47
- (١٩) جورج سبيلمان، **المغرب من الحماية إلى الاستقلال ١٩١٢-١٩٥٦**، ترجمة محمد المؤيد، (منشورات مجلة أمل، التاريخ والثقافة، الطبعة الأولى، السنة ٢٠١٤)، ص ٢٥.
- (20) Georges Hardy, *Portrait de Lyautey*, Paris Bloud et Gay, 1949, p.233.
- (21) Alphonse Juin, «Lyautey: Le Politique et le Militaire», *Cahiers Charles de Foucauld*, vol. 33, no. 1 (1954), p. 143.
- (٢٢) خالد أعسو، "الهجرة المغربية إلى فرنسا (١٩١٢-١٩٧٤): أي موقع للشباب؟"، مجلة **عمران**، العدد ٢٢/٢٣، (٢٠١٢)، ص ٩٦.
- (٢٣) وليام هويسنتن، **الحماية الفرنسية بالمغرب بين الأوج والأفول تحت قيادة الجنرال نوكيس**، تعريب ابراهيم بوطالب، (منشورات كلية الآداب بالرباط، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ٢٠٠٢/٢٠٠١)، ص ١٩.
- (٢٤) تقوم هذه السياسة على ضرورة الاعتماد على الأعيان، "النخب الحية" في البلاد، للتحكم في المجال وأهله. وقد استعمل ليوطي، في هذا السياق، مصطلحات أخرى، أهمها "سياسة الابتسامة" و "سياسة اليد الممدودة"، لدعم خطابه القائم، إلى جانب مبدأ "الحماية" على مبدأ "الشراكة"، الذي يعني إشراك النخب السياسية المغربية وكسب ثقتها وتوريثها في سياسته الاستعمارية. وقد ذكر الباحث دانييل ريفي في هذا الصدد، أن معظم المغاربة استسلموا، خصوصا بعد انتصار فرنسا في الحرب العالمية الأولى، لفكرة التعاون مع "الحماية"، وأن ليوطي، الذي "شعر بما يختبر في صدورهم من مشاعر تعبر عن رفض الاحتلال، عرف كيف يتعامل معهم ويجذبهم إليه، "محاولة في نفس الوقت" تأخير تشكل شعور وحدوي لدى المغاربة. أنظر لمزيد من التفاصيل حول الموضوع:
- Daniel Rivet, *Lyautey et l'institution du Protectorat*, éd. L'Harmattan, Paris 1988, pp.177-178
- (25) Abdallah Ben Mlih, *Structures politiques du Maroc colonial: d'un Etat Sultanien à un Etat sédimental*, 1988 (thèse manuscrite: Structures politiques du Maroc colonial, L'Harmattan, 1988, pp.14, 15, 16 etc...)

نماذج من تدبير المحاكم العرفية لشؤون وقضايا القاصرين وفاقدي الأهلية ببوادي زيان خلال عهد الحماية (١٩١٢ – ١٩٥٦)

د. حنان اقشيبيل

دكتوراه في التاريخ المعاصر
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين فاس
مكناس – المملكة المغربية



ملخص

تنظم الأعراف حياة الناس في البادية بين الأفراد والقبائل، وبالعودة إلى تاريخ القبائل المغربية خلال عهد الحماية (١٩١٢-١٩٥٦) نجد أن قبائل زيان الأمازيغية على سبيل المثال كانت كلها بوادي باستثناء عاصمتهم خنيفرة. ويتعبير آخر كانت أعراف البادية بمثابة "قانون محلي" يستمد شرعيته من التجربة الجماعية، التقاليد، والسلطة الرمزية لشيخ وأعيان القبيلة. لقد أبقى المستعمر الفرنسي على أعراف القبيلة، وأسس المحاكم العرفية التي نقلت العرف من دور الأعيان، ومساجد القبائل، إلى قاعات المحاكم العرفية. وهكذا غصت المحاكم العرفية المحلية بعيد تشييدها بقضايا من المعيش اليومي للسكان. وحيث أنه لا يمكن الإحاطة بكل هذه القضايا كان لابد من اختيار قضايا بعينها تقدم صورة واضحة عن تدبير القضاء العرفي الاستعماري. هكذا قضايا في قبائل المغرب العميق. اخترنا في هذا المقال الحديث عن تدبير المحاكم العرفية بهذا المجال الجغرافي لقضايا شؤون القاصرين. ومن خلاله باقي محاكم القبائل الأمازيغية التي شيد بها المستعمر محاكم عرفية. حيث سنكتشف معا تعامل العرف الإداري الاستعماري مع هذه الفئة الحساسة من المجتمع المغربي خلال فترة حرجة من العمر. وذلك ببسط وتحليل قضايا نموذجية تمنح للقارئ فكرة عامة عن قدرة العرف على التكيف مع مستجدات المجتمع.

كلمات مفتاحية:

المغرب؛ المحاكم العرفية؛ القاصرين؛ قبائل زيان؛ عهد الحماية؛ العرف

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٥ أكتوبر ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢٩ نوفمبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2026.449818.1323

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

حنان اقشيبيل، "نماذج من تدبير المحاكم العرفية لشؤون وقضايا القاصرين وفاقدي الأهلية ببوادي زيان خلال عهد الحماية (١٩١٢-١٩٥٦)" - دورية كان التاريخية - السنة التاسعة عشرة - العدد السادس والسبعون، فبراير ٢٠٢٦، ص ١١٥ - ١٢٢.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: hananekchibel2016@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نشر هذا المقال في دورية كان 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

الأحكام في الحال. وحتى تكون للموضوع أرضية تمهيدية تضع القاري في السياق جاء هذا المحور التمهيدي على شكل تعاريف شاملة للعرف والمحاكم العرفية.

١/١- مفهوم العرف والمحاكم العرفية

العرف لغة: "عرف" العين والراء والفاء أصول صحيحة يدل أحدها على تتابع الشيء متصلاً ببعض، والآخر على السكون والطمأنينة^(٢). اشتقت الكلمة من عَرُوفٌ عارفٌ يعرفُ الأمور ولا ينكر أحداً رآه مرة، والعَرِيفُ والعارفُ بمعنى مثل عليم وعالم^(٣)، وقِيمٌ يتولى شؤون الجماعة أو القبيلة. وعَرَفَ فلان على قوم: أي دبر أمرهم وقام بسياستهم^(٤). والعَرِيفُ مأخوذ من المعرفة، والعرافة للعريف كالنقابة للنقيب، وكأنه ينقسم بين أن يكون عارفاً من أن يكون عريفاً عليهم، وبين أن يكون معروفاً فيمن هو عريف لهم. نقول: عَرَفَ الرجل أي صار عَرِيفاً^(٥)، ومنه العَرِيفَةُ^(٦).

العرف اصطلاحاً: هو مجموعة من القواعد الوضعية وآليات التدبير الذاتي التي فرضتها الضرورة الاجتماعية. تسهر القبيلة على سنّها لتنظيم شؤونها الداخلية والخارجية سواء تعلق الأمر بالجرائم، أو المس بالأعراض، أو لحماية الملك الخاص والعام^(٧). ويصبح بذلك قانوناً صادراً عن جهاز قبلي تختاره أجماعة التي تمثل مختلف مكونات القبيلة^(٨)، في مجتمع تتعدّم فيه سلطة فوقية تقوم بهذا الدور^(٩). يخص منطقة أو جماعة دون غيرها، ويتميز بقابليته للتطور.

يسمى العرف "إزرف" عند عموم آيت اومالو، ويرجع بعض الباحثون كلمة إزرف إلى معدن الفضة الأبيض النقي، الذي كانت تصنع منه بعض المسكوكات المتداولة بين الناس^(١٠). ولعل هذا ما جعل *É. Laoust* يربط بين إزرفان، والقوانين المعمول بها في المناطق المستقرة التي تتداول عملة فضية^(١١). ويعني إزرف في بعض القبائل ترصيف جدران البيت أو البئر بالحجارة بشكل منتظم، ومنها أزاريف التي تعني الشب^(١٢). ولا نستبعد أن يكون لهذه القوانين دور في الحفاظ على ثوابت المجتمع كما يثبت الشب الألوان على الصوف.

يقصد بأعراف البادية مجموع القواعد الشفوية (في الغالب) التي تنظم حياة الناس في البادية بين الأفراد والقبائل. وبتعبير آخر تعد أعراف البادية بمثابة "قانون محلي" استمدّ شرعيته من التجربة الجماعية، التقاليد، والسلطة الرمزية لشيخ وأعيان القبيلة عبر أعصار طويلة. ومع بسط المستعمر الفرنسي سيطرته على المغرب أبقي على أعراف القبائل، وأسس المحاكم العرفية التي نقلت العرف من سلطة الشيخ الأعيان إلى سلطة المحاكم مع الاحتفاظ بجوهرها كما كان سابقاً.

اتحادية قبائل زيان الجبلية الأمازيغية وسط المغرب واحدة من هذه المناطق التي خضعت لسلطة هذه المحاكم الاستعمارية. وحيث أن أغلب أراضي بلاد زيان كانت مناطق بدوية خلال عهد الحماية، فقد غصت محاكمها بقضايا من المعيش اليومي لسكان هذه البوادي. قضايا تراوحت بين ما هو روتيني لا يستدعي الوصول إلى المحاكم، وأخرى احتاج القضاء العرفي نفسه للاجتهاد من أجل إيجاد حلول عادلة لها. وحيث إنه لا يمكن الإحاطة بكل هذه القضايا كان لابد من اختيار قضايا بعينها تقدم صورة واضحة عن تدبير القضاء العرفي الاستعماري لقضايا القاصرين في القبائل الأمازيغية المغربية.

أولاً: الإطار المفاهيمي والمجالي للعرف

عرف المغرب منذ قرون خلت نظاماً قضائياً زواج بين العرف القائم على التجارب المحلية، والقضاء الشرعي القائم على تعاليم الكتاب والسنة والفقہ الإسلامي. ونظراً لشساعة مساحة البلاد وصعوبة تغطيتها بالكامل بقضاة شرعيين، واختلاف القضايا باختلاف المجالات الجغرافية. أجاز المخزن المركزي استخدام العرف في حل قضايا المعيش اليومي بالبادية المغربية في رسائل عدة وجهت إلى أعيان القبائل في مختلف مناطق البلاد خلال فترات تاريخية متباعدة. بلاد زيان واحدة من هذه القبائل التي وثقت مصادرها التاريخية أن موحى اوحمو الزياني كان يصدر أحكامه العرفية من شرفة إحدى غرف قصبته المطلة على ساحة القنطرة بالضفة اليسرى لنهر أم الربيع^(١) بعدما تعرض عليه القضايا لتنفيذ

العالمي، بإشراكها كل المسلمين في محنة إخوانهم المغاربة..."^(١٧). بعد أقل من أربع سنوات من صدور هذا الطهير وتحديداً في بداية ١٩٣٤م، أصبحت المحاكم العرفية واقعاً لا يرتفع في هذه المجالات.

ثانياً: نماذج مختارة من تدبير المحاكم العرفية لشؤون وقضايا القاصرين وفاقدي الأهلية ببادية بلاد زيان خلال عهد الحماية

لكي تلامس دراستنا موضوع حقوق القاصرين كقضية راهنية من منظور تاريخي، بسط هذا المبحث نماذج مختارة بزوايا متعددة علها تسهم بشكل أو بآخر استجلاء صورة هذه الفئة في القضاء المغربي خلال الفترة المدروسة.

١/٢-التغريم كآلية عرفية تأديبية تعويضية للضرر الذي أصاب القاصر

يطلق على التغريم بالأمازيغية المحلية (tighrima)، وهو وسيلة تأديبية للفاعل، وتعويضية للضحية في النظام العرفي الأمازيغي بالمغرب خاصة في بوادي الأطلس والمناطق الصحراوية على نذرتة. يدفع بموجبه الفاعل تعويضاً عن قيمة الأضرار التي تسبب بها للضحية بعد تقييمها إن كانت مادية، أو بتقديرها من طرف المحكمة أو "أجماعة" إذا كان الضرر ومعنوياً. وتدفع إما مادياً (أموال)، أو عينيّاً (مواشي، حبوب...) أو رمزياً (ذبيحة، إعتذار...) ويتضح من بعض القضايا التي وثقتها سجلات المحاكم العرفية المحلية بقبائل زيان أن التغريم يصبح أكثر إلحاحاً وفاعلية كلما كان الضحية ناقص المسؤولية كالأحمق والقاصر. وفيما يلي نموذج محلي لهذه القضايا حيث: اتهم (أوعبد الله نعيسى) من أيت عيسى، أيت معي، أيت بنعلي بتاريخ ٣ أكتوبر ١٩٥٢ خصمه (بوعزة نعلال) من نفس الفخذة باستغلال فرسه بشكل تسبب في إصابته، وطالب بالتعويضات التي يقرها العرف. وخلال جلسة الاستماع ليوم ٢٠ نونبر ١٩٥٢ التي تم استدعاء الأطراف إليها، وبعد أن جدد المدعي طلبه، أقر المدعى عليه بأنه فعل ذلك مضطراً من جهة، ولكون المدعى عليه كان قاصراً غير قادر على

العرف شرعاً: تعددت تعاريفه بتعدد الدارسين، حيث يعرفه الجرجاني بقوله: هو "ما استقرت النفوس عليه بشهادة العقول وتلقته الطبائع بالقبول"^(١٣). ويعرفه باحث محدث بالقول: هو "ما يتكرر استعماله من فعل أو قول حتى يكسب صفة الاستقرار في النفوس، والتقبل في العقول، والرعاية في التصرفات الشرعية والقانونية"^(١٤). ويعرفه الفقيه المغربي العبدلاوي بأنه: "درج الناس على سلوك معين في ناحية من نواحي حياتهم الاجتماعية زمناً طويلاً، ثم اعتقادهم بعد ذلك بالزامية هذا السلوك وبأن مخالفته تستتبع توقيع جزاء"^(١٥).

٢/١-نبذة تعريفية بالمحاكم العرفية

المحاكم العرفية هيئات قضائية محلية شيدت للفصل في النزاعات وتنظيم العلاقات الاجتماعية وفق التقاليد الأعراف والعادات المحلية السائدة داخل الجماعة أو القبيلة. تهدف إلى إصلاح ذات البين، وتقوية لحمة القبيلة أكثر من العقاب. كانت "أجماعة" و"أمغار" من يقوم بهذا الدور قبل عهد الحماية، وبعيد تثبيت أركانهم في المغرب استمد الضباط والمراقبون المدنيون الفرنسيون فكرة فصل العرب عن الأمازيغ في مجال القضاء كخطوة أولى لتسهيل السيطرة على البلاد من تجربتهم في الجزائر، وأعادوها في المغرب دون ارتكاب نفس الأخطاء. وهكذا عين ظهير شتبر ١٩١٤ عدداً من القبائل "المتبعة للعوائد البربرية" من أمازيغ وسط البلاد لتطبيق القضاء العرفي فيها، ومن بين هذه القبائل آيت سركو و آيت يعقوب من زيان^(١٦). توسعت تدريجياً بقوانين تعديلية بين ١٩١٤ و ١٩٢٨ بهدف أن تشمل جميع الأمازيغ. وتوجت جهودهم في تنزيل مخطط المحاكم العرفية في ١٦ ماي ١٩٣٠ بإصدار الظهير المنظم لسير العدالة في المناطق ذات الأعراف البربرية، والتي لا توجد بها محاكم شرعية. وذلك في محاولة لفصل القضاء العرفي عن القضاء الشرعي الإسلامي. وقد أثار ذلك الظهير ردود فعل قوية نكتفي منها بشهادة من أهل هذا الظهير، حيث علق شارل أندري جولياني على هذه التصرفات قائلاً: "إن قضية الظهير لم تشمل الحركة القومية، بل أدخلت المغرب المسلم في الإسلامي

النزاع، إذ تُعدّ شهادتهم ملزمة للطرفين مهما كانت طبيعتها.

دليلنا في ذلك قضية اتهمت فيها (فاظمة. ح) من أيت بومزوغ أيت لحياني خصمها من نفس الفخدة بتحطيم العوارض الخشبية التي تحمل سقف منزل ابنها القاصر بـ "بوكديك"^(١٩) وطالبته بالإصلاح. وخلال جلسة ٢٧ فبراير ١٩٥٣ نفى المدعى عليه تحطيم أو الاستيلاء على العوارض الخشبية المذكورة، باستثناء عارضتين أخذهما بموافقتها ومن منزل مجاور لمنزلها. نفت المدعية أن يكون هذا الأخير طلب منها الإذن وذكرت أنه أخذ ٦ عوارض وليس عارضتين من السقف. أجلت محكمة زيان بأثلموس القضية أسبوعين لمثول عصيب صاحب المنزل القاصر. خلال جلسة ١٣ مارس ١٩٥٣ صرح الوصي المذكور بأنهم مسؤولون عن هذه العوارض (الوصي، والقاصر، وأمه) وهي في ملكية أحد البدو الرحل، تمت إزالتها من قبل المدعى عليه شخصياً تحت أنظار شهود^(٢٠) قبل المدعى عليه شهادتهم.

وخلال جلسة ٢٧ مارس ١٩٥٣ صرح الشهود أن العوارض ليست في ملكية المدعى عليه. وأخذاً بعين الاعتبار أن المدعية لم تمنح للمدعى عليه الحق في أخذ العوارض، وحيث أن الشهود أكدوا أن العوارض ليست في ملكية المدعى عليه. وحيث أن الشهادة المتوافق عليه ملزمة للطرفين.

لهذه الأسباب، أمرت المحكمة المدعى عليه بإعادة العوارض الستة إلى مكانها بالمنزل المجاور لبيت المدعية، في أجل لا يتعدى ١٥ يوماً وأمرته بدفع الصائر البالغ ٣١٦ ريال^(٢١). جدير بالذكر أن معظم منازل بوادي جبل زيان شرق مدينة خنيفرة كانت مسقوفة بألواح خشب الأرز وليس بالطين أو غيره. لذلك كان من السهل تفكيك السقف ونقله من مكان لآخر. وهو الأمر الذي يفسر كثرة هذه القضايا بالمنطقة التي يستغل فيها البعض الفراغ المؤقت لهذه المنازل بسبب انتجاع أهلها إلى السهل خلال فصل الشتاء، لتفكيك وسرقة أسقفها، ويفسر أيضاً وصاية الجيران على هذه المنازل في غياب أهلها.

اتخاذ قرار منحه الفرس مؤقتاً من جهة أخرى. وقررت المحكمة مراجعة القضية في غضون أسبوعين.

وخلال جلسة ١٨ دجنبر ١٩٥٢، لم تجد المحكمة أغلبية لاتخاذ قرار وفقاً للعرف، وقررت الاستماع إلى "أجماعة" دوار أيت عكي والتي يعتمد عليها المدعي لغرض معرفة ما إذا كان التغريم (tighrima) أو مستحقاً أم لا. وأجلت المحكمة تأجيل القضية لجلسة عامة. وخلال جلسة ١٥ يناير ١٩٥٣ التي حضرها الطرفان، وممثلاً "أجماعة" الدوار، حيث تم تقديمها بشكل فردي سألتهما ما إذا كانت الذبائح موجودة في اتفاق الطرفين أم لا؟ وخلال جلسة ٣١ يناير ١٩٥٣ التي حضرها رئيس المحكمة، ورئيس مكتب الدائرة، ومفوض الحكومة، كان السؤال المطروح على المحكمة هو: هل غرامة الذبائح قابلة للتطبيق بين أعضاء نفس العشيرة؟ بناءً على معطيات تحريات ميدانية من طرف قضاتها، قررت المحكمة أن يدفع المدعى عليه تعويضات للمدعي يتم تحديدها بعد فحص الحيوان المصاب. وخلال جلسة ١٥ فبراير ١٩٥٣ بعد أن فحصت محكمة زيان بأثلموس الفرس بعناية حددت التعويض المستحق لهذا الأخير بمبلغ ١٥ ألف فرنك يتم دفعها في غضون شهرين^(١٨). عموماً لم يهدف التغريم الذي ما يزال مطبقاً في بعض أعراف زيان فقط لتأديب الفاعل، بل أيضاً لرد الاعتبار للطرف المتضرر أو جماعته، خصوصاً إن كان من الفئات التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها. وأيضاً إعادة التوازن الاجتماعي للقبيلة.

٢/٢-التصرف في ملكيات تحت تصرف

قاصر بدون إذنه

يتضح من القضية التي نعرضها أن للأمم حق الترافع أمام المحاكم العرفية نيابة عن ابنها القاصر، حماية لممتلكاتهما المشتركة. إلا أن وجودها وحده لا يكفي، إذ لا بد لكل قاصر يقيم الأب من "عاصب" لأن المحاكم المعنية تشترط حضور هذا الأخير لتأكيد الاتهامات قبل مباشرة هكذا قضايا. ويوضح ذات النموذج الذي نسوقه أن المحاكم العرفية لا تفصل في قضايا فيها تضارب التصريحات دون حضور شهود متوافق عليهم بين طرفي

٣/٢- سوء تدبير ممتلكات القاصر

حسم العرف المحلي بقبائل زيان مبكراً فيمن يتولى الرسمي تدبير ممتلكات القاصر نتيجة الوفاة أو الطلاق حتى يصبح فيها قادراً على إدارة ممتلكاته بنفسه. إذ أسند هذه المهمة للكفيل أو "العاصب". وقد يحدث أن يسهم الكفيل في إتلاف عدد ممتلكات القاصر، إما عمداً عن طريق الاختلاس، أو عن غير قصد نتيجة قلة الخبرة في التدبير خاصة عندما يكون الكفيل امرأة. وهذا يجعله (١) محط دعوى قضائية يحتاج معها لإثبات العكس، أو تحمل مصاريف الممتلكات الضائعة. ويفتح العرف باباً للاجتهاد عندما يكون المكلف معروفاً بين أفراد قبيلته بالأمانة، ولا يملك ما يتحمل به المصاريف. كان هذا هو حال (رابحة. ع) أيت بوحودو أيت عبي بعد أن تقدم (العربي. ن) من نفس الفخدة بشكاية ضدها بتاريخ ٦ أكتوبر ١٩٥٣ قال فيها: "أن المدعى عليها كانت وصية على ابنه (محمد اوعلي) وأتلفت حبوباً مقدارها ٥٠٠ عبرة^(٢٢) من الشعير، و٥٥ عبرة من القمح الصلب"، وطالب المحكمة بالتدخل.

وخلال جلسة ٢٠ أكتوبر ١٩٥٣ جدد المدعي طلبه، وبدا للمحكمة أن المدعى عليها غير قادرة على الدفاع عن نفسها بشأن اختفاء هذه الكمية من الحبوب. دافع عنها أحد أقربائها الذي أكد أنه لا يشك في الكفيلة من جهة، أنها لا تملك ما تدفعه في التعويض باعتبارها يتيمة من جهة أخرى. وأكد أنه مستعد لدفع نصف الضائع أي ٢٧٥ عبرة من الشعير و١٥ عبرة من القمح الصلب ومنحت نسخة من الحكم للطرفين^(٢٣). وقد يحدث أن يتناوب على رعاية القاصر أكثر من كفيل، فتضيق مصالحه وممتلكاته بينهما. وهنا يأتي دور المحكمة العرفية التي تستخدم كل الوسائل المتاحة لها لتحديد المسؤوليات، وترتيب الجزاءات.

نمذجنا في ذلك طلب إرجاع ممتلكات ضائعة لقاصر تقدمت به مدعية من آيت بومزوغ آيت بوزمور ضد الكفيل الحالي والسابق لابنة أخيها المتوفى منذ أكثر من عام من نفس الفخدة. اتهمتهما فيها بالسيطرة على ممتلكات هذه الأخيرة القاصر بعد تبنيه. وخلال جلسة ١٥ يوليوز ١٩٥٣ أمرت المحكمة قاضيين

(البوهالي نعلي والحسين أوزينا) بإجراء بحث للتحقق من ممتلكات الفتاة القاصر وتسجيلها. وخلال جلسة ٢٩ يوليوز ١٩٥٣، أكد القاضيان بناء على تحرياتهما أن المدعى عليه الأول لم يتكلف برعاية القاصر إلا قبل حوالي شهر واحد، وأن ضياع ممتلكاتها كان حينما كانت تحت رعاية المدعى عليه الثاني. قررت المحكمة العرفية زياناً بالكُلوس في هذه الحالة ووفقاً للأعراف المحلية بأن يرجع المدعى عليه الثاني للطفلة كل ممتلكاتها الضائعة^(٢٤). وجدير بالذكر في هذا الباب أن العرف المحلي يفرض على الوصي على أن يسلم للقاصر للموصى عليها كل الممتلكات، لا بعضها عد بلوغ سن الرشد أي عند الزواج، وعند عند بلوغ سن الرشد بالنسبة للذكور.

٤/٢- حكم بيع وشفعة عقارات في ملكية

قاصر

لم تتردد المحاكم العرفية في إلغاء جميع قضايا البيع أو الشفعة في العقارات التي يملكها شخص قاصر لعدم أهليته، حتى لو لم تكن موضوع القضية. وفرضت على كل أطراف العملية إعادة الأمور إلى نصابها كما كانت قبل هذا البيع. وحيث أن القضايا كثيرة في هذا الباب تقدم نموذجاً لشكاية بتاريخ ٢ مايو ١٩٦٣ تقدم بها مدع (باو. باو. م) من أيت حدو حمو إزماضن ضد خصميه (مولاي إدريس. ب. نحدو) والشيخ (الحسين. م) من نفس الفخدة يقول فيها: "باع المدعى عليه الأول للمدعى المدعى عليه الثاني أرضاً بوراً بسعر ٦٠,٠٠٠ فرنك. وأطلب ممارسة حقي في الشفعة".

وخلال جلسة ٢٠ يونيو ١٩٥٣ وبعد أن جدد المدعي طلبه، تبين للمحكمة العرفية الابتدائية زياناً بالكُلوس أن الأرض موضوع النزاع في ملكية طفل قاصر تحت وصاية المدعى عليه الأول. وبالتالي قررت إلغاء هذا البيع وأمرت بإعادة مبلغ ٦٠٠٠٠ فرنك للمشتري الأول في أجل ١٥ يوماً. وبناء على تقارير القاضيين بناصر موعني وحمو نعيشة، تمت تولية المدعى عليه الأول رعاية شؤون القاصر حتى بلوغه سن الرشد، وتم تسليم نسخة من الحكم للطرفين^(٢٥).

٥/٢- تسوية تبادل عقارات مع قاصر

تطبيقاً للأحكام المتعلقة بحماية القاصرين، رفضت المحاكم العرفية بزيان كل أشكال البيع أو التبادل التي يكون قاصر طرفاً فيها سواء تعلق الأمر بعمليات تبادل من نفس النوع (أرض بأرض مثلاً) أو من نوعين مختلفين (أرض بمنزل كما هو الحال في نموذجنا)، ولو كان هذا التبادل بموافقة ولي أمر القاصر. ويبدو أن المحاكم استندت في أحكامها التي تكون أحياناً بعد أن تمت عمليات التبادل إلى أن ملكية القاصر غير تامة قبل بلوغه سن الرشد، وتلزم الأطراف بإلغاء كل ما سبق. وفيما يلي نموذج لهذه القضايا:

تقدم (العربي. ع) من آيت عمو عيسى آيت ايوب بشكاية ضد خصمه (محمد. ع.ع) وكفيله (ميمون. ع) من نفس الفخذة بتاريخ ١٥ شتنبر ١٩٥٢ يقول فيها: "بعد إجراء تبادل عقارات مع المدعى عليه الأول، بمساعدة ولي أمره المدعى عليه الثاني، أطلب تسوية هذا التبادل الذي يعود تاريخه إلى ثمانية أشهر - أعطاني المدعى عليه الأول منزلاً يقع في "تاياكا أوليلي" وأعطيته أه أعطيته أنا بالمقابل الأرض المسماة "إيكر نقيدانت Iguer Nqidnat الواقعة في "بولمو" بسعة خمس عبرات من الشعير تقريباً".

خلال جلسة ١٢ نونبر ١٩٥٢، أكد المدعى عليه الثاني، أن كفيله المدعى عليه الأول، الذي لا يزال قاصراً، لا يمتلك هذا المنزل. وبناءً على ذلك، وتطبيقاً للأحكام المتعلقة بحماية القاصرين، قررت المحكمة العرفية الابتدائية آيت كرات^(٢٦) رفض هذا التبادل. وأمرت الأطراف باستعادة الحيازة، المدعى لأرضه، والمدعى عليهم في المنزل وتم إشعار الطرفين بالقرار بحضور ثمانية قضاة.

٦/٢- استغلال الراعي القاصر

تجدر الإشارة إلى أن بداية الموسم الرعوي بمجال الدراسة يبدأ مع نهاية فصل الربيع وبداية فصل الصيف، وهي مدة تتزامن وارتفاع درجات الحرارة بشكل يجعل الرعي في الهواء الطلق صعباً. وبعد انتهاء هذه المدة يستخدم بعض أرباب المواشي حيوياً لطرد الرعاة - خاصة القاصرين - والقيام بمهمة الرعي بأنفسهم. لذلك

حمى العرف القاصر العامل، وضمن حقوقه تماماً كالبالغين. وحيث إن بلاد زيان منطق رعوية بامتياز كانت معظم القضايا التي دونت في سجلات المحاكم العرفية المحلية تتضمن شكايات رعاة قاصرين.

وهكذا تقدم راع قاصر (بأمر من والده) من آيت عمو عيسى آيت واحي بشكاية ضد صاحب قطيع من آيت شارط آيت عمو أو سعيد. اتهمه فيها بطرده من رعاية قطيع (لم يحدد عدد رؤوسه) بعد شهرين ونصف من بداية عمله. وخلال جلسة ١٢ نونبر ١٩٥٢ التي حضرها الطرفان اعترف المدعى عليه بصحة أقول المدعي وقبل دفع ٣٠٠ ريال للمدعي في أجل ١٥ يوماً^(٢٧).

٧/٢- ضرب وحر ج القاصر

عند تعرض قاصر للضرب، ينوب عنه والده أو الوصي عليه في رفع الشكاية نيابة عنه ويحضره. ويبدو أن المحاكم العرفية المحلية تعاملت مع قضايا القاصرين بنفس مسطرة التعامل مع قضايا البالغين. فقد أجمعت القوانين العرفية المحلية منذ ظهور المحاكم العرفية على أن اعتداء شخص على آخر يخول له تعويض. ونموذج ذلك قضية ضرب وجرح ابن قاصر تقدم بها (م. نحمو) من آيت بُوْحْدُو آيت أحمد من طرف (عبو. ح) من آيت بُوْحْدُو آيت القايد في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٢، اتهمه فيها بضرب ابنه وإصابته في رأسه وطالب بالتعويض. وخلال جلسة ٢٢ دجنبر ١٩٥٢ قدم المدعي شهادة طبية تثبت عجز ابنه لمدة ٤ أيام. واعترف المدعى عليه بالاعتداء. لهذه الأسباب أمرت المحكمة المدعى عليه بأن يدفع للمدعي ما مجموعه ٦٠٤ ريال في أسبوعين^(٢٨):

- أ. تعويض الدم: شاة، قالب سكر، ٨/١ شاي، كيلو سمن، قطعة صابون، وعبرة قمح
- ب. تكاليف المحكمة:
- التكاليف القانونية ٣٤ ريالاً.
- مصاريف الإقامة ١٨٠ ريال.
- النفقات الطبية ١٥٠ ريال.
- ج. مقابل العجز عن العمل:
- ٦٠ ريال × ٤ = ٢٤٠

خاتمة

قصارى القول، لم يعتبر العرف القاصر شخصاً ضعيفاً تماماً، ويحتاج إلى رعاية كاملة، بقدر ما تعامل معه كشخص فاعل في المجتمع لم يكتمل نموه بعد. ويحتاج إلى من يحمي معه مصالحه إلى أن يصبح قادراً على تدبير أموره، خاصةً تلك التي يمكن أن تضيع بعد بلوغه. وبالعودة إلى النماذج التي أشرنا في هذا المقال، يُعدّ التغريم أمر نادر بين الكبار، لكنه يصبح أكثر تطبيقاً وفاعلية كلما تعلق الأمر بالقاصرين، إذ يعتبر العرف الضرر الذي يلحق بالمعني ناتج بالأساس عن محاولة استغلال الفاعل لضعف تمييزه وعدم أهليته. وتتولى الأم رعاية ابنها القاصر بعد وفاة والده تحت مراقبة "عاصب" من أقارب زوجها، وتسأل عن تدبير ممتلكاته.

تفقد الوصاية بشكل نهائي في حالة زواجها من جديد، حيث تنتقل بشكل تلقائي وكامل إلى "العاصب". بينما يتولى الأب بعد وفاة الأم أو طلاقها إدارة ممتلكات أبنائه القاصرين، ويمكنه بيعها للإنفاق على أسرته، دون أن يستشير أحداً أو يقدم حساباً^(٣١) لأحد في مجتمع تقليدي يزكي قوامة وسلطة الأب على أبنائه يعيشون في بيته حتى زواجهم.

وعندما يتعلق الأمر بضرب وجرح القاصر واستغلاله أثناء العمل، فإن القانون العرفي يتعامل مع خصومه تماماً كما لو تم الاعتداء على حقوق رجل بالغ. أما عندما يتعلق الأمر بالشخص المسن المشكوك في فقدانه للأهلية، فإن المحاكم العرفية المحلية تفعل مسطرة الشواهد الطبية والشهود، مع إيقاف كل أشكال استغلال ممتلكات المعني إلى أن يصدر فيها حكم نهائي.

وعموماً لا يوجد أجل قانوني محدد لإعداد حسابات نهاية الوصاية على القاصر، لكن التصفية تتم عملياً خلال السنة. ويتم إبراء ذمة الوصي أمام "جَمَاعَة"، وفي حالة نزاع حول مدى ضرورة استمرار الوصاية، "جَمَاعَة" هي التي تفصل في الأمر. بينما يستعيد المحجور الحرية الكاملة في التصرف بأمواله عندما ينتهي الحجر، ويتوقف دور الوصي أو الوالدين. ويكون الأوصياء مطالبين بتقديم الحساب له، أما زوجة المجنون فلها أن تطلب حل عقد الزواج، إذا صرّحت بأنها غير سعيدة.

٨/٢- أعراف الأحوال الشخصية والمدنية وقضايا الحجر على فاقد للأهلية

يتضح من النموذج الذي نسوقه، ونماذج أخرى عديدة أن وضع طلب تدخل المحكمة العرفية لحماية ممتلكات المسن الذي يدعى أنه فاقد للأهلية يؤخذ بعين الاعتبار لطابعه الاستعجالي. وهكذا طالب مدع من أيت لحسن أيت عزيز^(٣٩) عن طريق المحكمة بإيقاف تبديد أحد أقربائه من نفس الفخدة لممتلكات عمه ضعيف الذاكرة دون سبب منذ حوالي عام ١٩٩٣، وطالب بتدخل المحكمة. وخلال جلسة ١٣ أكتوبر ١٩٥٣ وبعد أن احتج المدعى عليهم على تلميحات هذا الأخير دعت المحكمة العم لتقديم شهادة طبية في الجلسة القادمة وصرح القاضيان أنهما عيّنا ناظرين من عشيرتي الطرفين لمراقبة أملاكه في انتظار تسوية القضية. وخلال جلسة ١٧ نونبر ١٩٥٥ قدم المدعى عليه الأول شهادة طبية مؤرخة في ١٥ نونبر ١٩٥٥ تثبت أن هذا الأخير بكامل قواه العقلية ويتمتع بجميع كلياته ولا يوجد سبب لتعيين وصي عليه. وأخذاً بعين الاعتبار أنه إذا كانت هناك بعض المعاملات المنقولة وغير المنقولة التي تؤثر على ممتلكات المدعى عليه الأول لا يمكن التعاقد عليها إلا بموافقة الأخير، حكمت المحكمة برفض الدعوى^(٣٠)

الإحالات المرجعية:

- (١٧) جوليان، شارل اندري إفريقيا الشمالية تسير القوميات الإسلامية
والسيادة الفرنسية، ترجمة المنجي سليم وآخرون الدار التونسية
للنشر، تونس، ١٩٧٦، ص ١٤٨
- (18) Région De Meknès, Cercle De Khénifra, Tribunal
Coutumier De Zayans, Jugement N°68, Du 31 Janvier
1953,
- (١٩) **بوكدجيك**: بالكاف المعقودة كلمة أمازيغية تعني اللؤلؤ الأبيض
"أكُدجيك"، وهو اسم يطلق على أحد أكبر المداشر الجبلية لقبيلة
أيت بومزوغ. سمي المدشر/ الجبل بهذا الاسم لكثرة مناجم الملح
الأبيض اللامع به.
- (٢٠) علوان نسيدي يوسف، مولاي على نمحمد او علي، وعبو نعلوان.
(21) Région De Meknès, Cercle De Khénifra, Tribunal
Coutumier De Zayans, Jugement N°١٨٥, Du 27 Mars 1953
- (٢٢) **العبرة**: وحدة كيل تقليدية مغربية كانت وما تزال تُستعمل في
الأسواق القروية والمعاملات الفلاحية. بمجال الدراسة حتى اليوم
إلى جانب القنطار ونصف القنطار تُستخدم لقياس الحبوب
كالقمح، والشعير، والخرطال، والذرة، وتختلف قيمتها من منطقة
إلى أخرى حسب العرف المحلي حيث تعادل
- في بعض المناطق تعادل حوالي ١٢ كلغ من القمح. وفي مناطق أخرى
تصل إلى ١٥ أو ١٦ كلغ، تبعاً لطبيعة الوعاء المستعمل (المكيال).
- (23) Région De Meknès, Cercle De Khénifra, Tribunal
Coutumier D'ait Krat, Jugement N°٤٢٠, Du 20
Octobre 1952
- (24) Région De Meknès, Cercle De Khénifra, Tribunal
Coutumier De Zayane, Jugement N°٣٧٨, Du 29 Juillet
1953
- (25) Région De Meknès, Cercle De Khénifra, Tribunal
Coutumier De Zayans, Jugement N°٣١٤, Du ٢٠ Juin 1953
- (26) Région De Meknès, Cercle De Khénifra, Tribunal
Coutumier De Ait Krat, Jugement N°434, ١٢ novembre
1952
- (27) Région De Meknès, Cercle De Khénifra, Tribunal
Coutumier D'Ait Krat Jugement N°٤٨٩, Du ١٢ novembre
١٩52.
- (28) Région De Meknès, Cercle De Khénifra, Tribunal
Coutumier D'Ait Krat, Jugement N°٦٠١, Du ٢٢
Décembre ١٩52.
- (٢٩) يمثله المسمى (س. اورحو أوبناصر) بموجب تفويض رسمي سنة
١٩٥٣
- (30) Région De Meknès, Cercle De Khénifra, Tribunal
Coutumier D'Ait Harkat, Jugement N°٤١٧°, Du ١٣
Novebre 1953
- (31) Sanchis, Baptiste (Commandant), Étude Sur Le Droit
Coutumier De La Tribu Berbère Des "Ait Oum El Bekht"
Du Territoire De Casba Tadla (Maroc Occidental),
C.F.A.M, Cote 214, Université De Paris, 1926, P 79

- (١) كُتون سعيد، الجبل الأمازيغي آيت أومالو وبلاد زايان المجال والإنسان
والتاريخ، تعريب محمد بوكبوت، إصدار مصلحة الشؤون الأهلية
بالمغرب، عن منشورات لجنة إفريقيا الفرنسية، باريس، ١٩٢٩،
منشورات الزمن، مطبعة بني يزناسن، سلا، سلسلة ضفاف، ع ١٨،
يوليوز ٢٠١٤، ص ٩.
- (٢) بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، منشورات دار الجبل، بيروت، لبنان،
ط. ١، ١٩٩١، ج ٤، ص ٢٨١.
- (٣) نفس المصدر، ج ٩، ص ٢٣٦.
- (٤) إبراهيم مصطفى، الزيأت أحمد، حامد عبد القادر، النجار محمد،
المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية، مجمع اللغة العربية بالقاهرة،
دار العودة، القاهرة، ٢٠١٠، ص ٥٩٥.
- (٥) التوحيدي أبو حيان، **البصائر والذخائر**، تحقيق وداد القاضي، دار صادر،
بيروت، ط. ١، ١٩٨٨، ج ٥، ص ١١٩.
- (٦) **العريفة**: تعد حتى اليوم بالمغرب حلقة الوصل بين الدولة والمواطن
وعون سلطة، بعد المقدم، والشيخ.
- (٧) بوبريك رحال، **زمن القبيلة: السلطة وتدبير العنف في المجتمع
الصحراوي**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط. ١، ٢٠١٢، ص ٦٩.
- (٨) نفسه، ص ٧٦.
- (٩) نفسه، ص ٧٠.
- (١٠) الدغرني أحمد، **"القانون الأمازيغي قانون "تانا" نموذجاً"**، الندوة
الدولية حول تاريخ الأمازيغ، التاريخ المعاصر، ج ٢، الدورة السادسة
للجامعة الصيفية بأكادير، ٢٠٠٠، مزين العربي، **مادة "إزرف"**، معلمة
المغرب، م س، ج ١، ص ٣٣٣. جذير بالذكر أن عدة مناطق ببلاد زيان
كانت دور سكة خلال العصر أبرزها معدن عوام غرب مَريّث، ووازقور
(بوزقور) جنوب شرق خنيفرة.
- (11) Laoust Émile, **Mots Et Choses Berbères Notes De
Linguistique Et D'ethnographie Dialectes Du Maroc**,
Éditeur Augustin Challamel, Librairie Maritime Et
Colonial, Paris, 1920, P 417.
- (١٢) مزين العربي، **مادة "إزرف"**، معلمة المغرب، منشورات الجمعية
المغربية للتأليف والنشر بإشراف محمد حجي، معلمة المغرب،
مطابع سلا، ١٩٨٤-٢٠٠٤، ص ٣٣٣-٣٣٤.
- (١٣) الجرجاني علي بن محمد، **التعريفات**، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار
الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٥، ج ١، ص ١٧٩.
- (١٤) الزلمي مصطفى إبراهيم، **المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية في
نمط جديد**، مطبعة إحسان للنشر والتوزيع، العراق، ط. ١، ٢٠٣٢، ص
٥٨
- (١٥) العلوي البوعبدلوي إدريس، **أصول القانون**، مطابع دار القلم،
بيروت، ١٩٧١، ج ١، ص ٥٦٩.
- (١٦) ظهير شريف "بتاريخ ٢٠ شوال ١٣٣٢ (١٩١٤/٩/١٢) في شأن ما
يتعلق بأمور القبائل البربرية بالإيالة الشريفة"، وقرار وزيري "بتاريخ
٢١ شوال ١٣٣٢ (١٩١٤/٩/١٢) في تعيين القبائل المتبعة للعوائد
البربرية"، المملكة المغربية الشريفة المحمدية، **الجريدة الرسمية**،
عدد ٧٣، بتاريخ ١٨ شتنبر ١٩١٤.

الحضور العسكري الأمريكي في المغرب إبان الحرب العالمية الثانية نظرة في الدوافع الاستراتيجية والتداعيات السياسية والاجتماعية (١٩٤٢ - ١٩٤٥)

طارق الهامل

باحث بسلك الدكتوراه في التاريخ المعاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - عين الشق
جامعة الحسن الثاني - المملكة المغربية



ملخص

يستعرض هذا المقال الوجود العسكري الأمريكي في المغرب بين عامي ١٩٤٢ و ١٩٤٥، تحديداً خلال عملية "طورش" التي مثلت نقطة تحول استراتيجية في الحرب العالمية الثانية. كانت المغرب قاعدة رئيسية للحلفاء في شمال إفريقيا، حيث تم إنشاء شبكة من القواعد الجوية ومحطات الاتصالات التي جعلت من البلاد مركزاً لوجستياً حيوياً. أدى هذا التدخل إلى تقليص النفوذ الفرنسي في المنطقة وتعزيز مكانة السلطان محمد الخامس، مما ساهم في تغيير موازين القوى السياسية لصالح الحركة الوطنية المغربية. تكمن أهمية هذه الفترة في تحول الوجود العسكري الأمريكي من حالة مؤقتة إلى وجود دائم، حيث أقيمت منشآت استراتيجية مثل القواعد الجوية في الدار البيضاء وبور ليوطي. كما أن عملية "طورش" أسفرت عن تعزيز العلاقات المغربية-الأمريكية وأسهمت في مسار الاستقلال المغربي من خلال تحولات دبلوماسية مهمة، مثل مؤتمر أنفا في ١٩٤٣. على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي، ساهم الوجود الأمريكي في انتعاش الاقتصاد المحلي، ولكنه جلب أيضاً تحديات معيشية بسبب نقص المواد الغذائية. ثقافياً، كان لهذا الوجود تأثيرات ملموسة على الحياة اليومية المغربية، مثل التأثير على اللغة والموضة. وتخلص الدراسة إلى أن الوجود العسكري الأمريكي في المغرب يمثل مرحلة مفصلية في تاريخ العلاقات المغربية-الأمريكية، إذ أسس لوجود طويل الأمد في المنطقة وأثر في مسار الاستقلال المغربي، وفي بروز الولايات المتحدة كقوة رئيسة بالمنطقة.

كلمات مفتاحية:

الوجود العسكري الأمريكي؛ القواعد الجوية؛ محطات الاتصالات؛ العلاقات المغربية الأمريكية؛ الحرب العالمية الثانية

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٥ أكتوبر ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٠٩ نوفمبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.429737.1291

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

طارق الهامل، "الحضور العسكري الأمريكي في المغرب إبان الحرب العالمية الثانية: نظرة في الدوافع الاستراتيجية والتداعيات السياسية والاجتماعية (١٩٤٢-١٩٤٥)". - دورية كان التاريخية. - السنة التاسعة عشرة - العدد السادس والسبعون، فبراير ٢٠٢٦. ص ١٢٣ - ١٣٢.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: tarik.elhamil-etu@etu.univh2c.ma

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان 4.0 Attribution International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

وقد سعت العملية إلى تحقيق أهداف استراتيجية متعددة المستويات. عسكرياً، هدفت إلى فتح جبهة جديدة ضد قوى المحور والتخفيف عن الجبهة الشرقية. ولوجستياً، سعت العملية إلى السيطرة على البحر المتوسط لتأمين أقصر طرق الإمداد. ومن الجانب النفسي والاعتباري، رغب القادة العسكريون في بعث رسالة للعالم بأن موازين القوى بدأت تميل لصالح الحلفاء^(٥).

١/١- التحضيرات الاستخباراتية والدبلوماسية

اعتمد نجاح عملية "طورش" على تحضيرات استخباراتية ودبلوماسية مبكرة اتسمت بكثافة وتنسيق بين مختلف الوحدات العسكرية الأمريكية. فقد لعبت الشبكة الدبلوماسية والقنصلية^(٦) دوراً محورياً في هذا الباب، إذ اعتمدت الولايات المتحدة على شخصيات دبلوماسية مثل روبرت مورفي والأدميرال وليام ليهي للتواصل مع المسؤولين الفرنسيين الموالين لحكومة فيشي في شمال إفريقيا. وكان الهدف من هذا التواصل المزدوج يتمثل، من جهة، في كسب التعاطف الفرنسي والمحلي، ومن جهة أخرى في جمع معلومات استخباراتية دقيقة عن البنية التحتية^(٧).

وفي هذا السياق، أعدت الولايات المتحدة تقارير استخباراتية شاملة لتثقيف قادتها العسكريين حول المغرب. ومن أبرز هذه الوثائق نذكر، على سبيل المثال لا الحصر، تقريراً بعنوان "معطيات مهمة عن المغرب الفرنسي"^(٨) (Pertinent Data on French Morocco) قدم معطيات استراتيجية واجتماعية وديموغرافية واقتصادية حول المغرب، إلى جانب بيانات طبوغرافية دقيقة عن الطرق والموانئ والمطارات. كما تم إعداد "كتاب المعلومات السوداء عن المغرب" (The Black Book, Information on Morocco)، وهو عبارة عن دليل تفصيلي عن المدن المغربية الرئيسية مثل الدار البيضاء والرباط وآسفي، تضمن خرائط ملاحية ومعطيات عن الشواطئ والجسور والطرق مع تقييم لإمكانات توظيفها عسكرياً^(٩).

وسلطت تقارير استخباراتية أخرى الضوء على القوة العسكرية الفرنسية والنفوذ الألماني. فقد كشف تقرير

شكل نزول القوات الأمريكية بالسواحل المغربية في نونبر ١٩٤٢، ضمن عملية "طورش"^(١)، منعطفاً حاسماً في مجريات الحرب العالمية الثانية. ولم يكن المغرب هدفاً عسكرياً بحد ذاته، ولكن موقعه الاستراتيجي عند بوابة المحيط الأطلسي والبحر المتوسط جعله نقطة ارتكاز مثالية للحلفاء لشن عمليات عسكرية في عمق شمال إفريقيا، مما أسهم في إضعاف قوى المحور بشكل كبير. ولم تقتصر آثار هذا التدخل على المجال العسكري فحسب، بل أسست لمرحلة جديدة كلياً في العلاقات المغربية-الأمريكية. فقد انتقلت هذه العلاقات من إطارها الاقتصادي المحدود إلى شبكة معقدة من التفاعلات السياسية والعسكرية والثقافية. وكان أهم تجليات هذه المرحلة هو التحول السريع للوجود العسكري الأمريكي من وجود مؤقت مرتبط بأعمال الحرب إلى وجود منظم ودائم، تمثل في إنشاء قواعد جوية وبحرية ومرافق لوجستية استمرت لأكثر من عقدين. وتركز الأهمية التاريخية لهذه الفترة على أن ما تلا عملية النزول مباشرة كان بداية تشغيل القواعد العسكرية ومحطات الاتصالات الأمريكية، والتي شكلت النواة الأولى لتمرکز عسكري أمريكي منظم في المنطقة. وقد لعبت هذه المنشآت دوراً حيوياً في دعم العمليات العسكرية للحلفاء وربط مسارح القتال في شمال إفريقيا وأوروبا بالقيادة الأمريكية.

أولاً: عملية طورش: نظرة في السياق،

التخطيط والتنفيذ

جاءت عملية "طورش" في سياق دولي متأزم بعد سقوط فرنسا بيد ألمانيا وبروز تهديد حكومة فيشي الموالية لألمانيا في شمال إفريقيا^(٢). وقد دفعت هذه العوامل، بالإضافة إلى الخشية من قطع طرق الإمداد الحيوية، القيادتين الأمريكية والبريطانية إلى اختيار المغرب مسرحاً لأضخم عملية إنزال في ذلك الوقت^(٣). وتم تنفيذ العملية في ٨ نونبر ١٩٤٢ في ثلاث نقاط رئيسية هي: بورليوطي، فضالة، وآسفي وكان الهدف الرئيسي بلوغ مدينة الدار البيضاء^(٤).

الأعلى دوايت أيزنهاور، أكدت على الصداقة التاريخية بين الشعبين، وتضمنت وعداً صريحاً بعدم البقاء في المغرب بعد الحرب. والهدف من هذه الرسائل كان إقناع المغاربة بأن التدخل الأمريكي يمثل "تحريراً" لا "احتلالاً"، وهو ما يعكس البعد السياسي المواكب للبعد العسكري في عملية الإنزال^(١٦).

٣/١-عملية طورش: من التخطيط إلى التنفيذ

على مستوى التخطيط العسكري والتنفيذ لهذه العملية العسكرية الكبرى، فقد أنيطت القيادة العليا للجنرال دوايت أيزنهاور، فيما تولى الأدميرال هنري كينت هيويت قيادة القوات البحرية، والجنرال جورج س. باتون قيادة القوات البرية في المغرب^(١٧). وشكلت القوة الهجومية الغربية (Western Task Force) التي قُسمت إلى ثلاث مجموعات هجومية رئيسية^(١٨)، لكل منها هدف محدد. حيث كُلفت مجموعة الشمال (GOALPOST) بالاستيلاء على القاعدة الجوية في بور ليوطي، فيما أوكلت إلى مجموعة الوسط (BRUSHWOOD) مهمة الإنزال في فضالة فم السيطرة على الدار البيضاء، في حين عهدت إلى مجموعة الجنوب (BLACKSTONE) مهمة الإنزال في آسفي وتأمين المنطقة ومنع وصول تعزيزات من مراكش^(١٩).

ورغم هذا التخطيط، واجه الحلفاء تحديات متعددة. فقد شكل الحفاظ على سرية العملية وتجنب عنصر المفاجأة عاملاً حاسماً في نجاحها، في حين مثلت التضاريس والظروف المناخية تحدياً إضافياً، إذ إن الشواطئ كانت صخرية والأمواج عالية، بحيث لم تكن مناسبة للإنزال سوى يوم واحد من كل خمسة أيام. وإلى جانب ذلك، كانت القوات الفرنسية في المغرب، والبالغ عددها حوالي ٥٥ ألف جندي مجهزين بدبابات وطائرات وسفن حربية في الدار البيضاء، تشكل مصدر قلق جدي بسبب ولائها لحكومة فيشي، فضلاً عن المخاوف من تدخل ألماني مباشر أو حتى تدخل إسباني بقيادة فرانكو.

يظهر هذا التحليل كيف أن عملية "طورش" لم تكن مجرد عملية عسكرية بحتة، بل كانت مشروعاً

روبرت دافيس في نوفمبر ١٩٤١ عن تطوير الفرنسيين للمطارات العسكرية، وعن وجود ما يقارب ألفي ضابط ألماني في المغرب يرتدون الزي الفرنسي، في مؤشر على عمق الاختراق الألماني. كما أشار التقرير إلى عرض ألماني مقدم لحكومة فيشي يقترح تقديم دعم عسكري مباشر في حالة حدوث إنزال للحلفاء^(٢٠). ولم تقتصر مصادر المعلومات على الدبلوماسيين فقط، إذ اعتمدت الولايات المتحدة كذلك على الشركات الأمريكية العاملة في المغرب، مثل شركة "دوغلاس" للطيران، التي قدمت معطيات حول المطارات والقواعد المغربية^(٢١). كما لجأت إلى عملاء ميدانيين تابعين لمكتب الخدمات الاستراتيجية (OSS)، وإلى شبكات من المتعاونين المحليين من بينهم أفراد من الجالية اليهودية^(٢٢). وإلى جانب ذلك، أسهمت الصور الجوية والمسح الهيدروغرافي الذي نفذه الطيران البريطاني والأمريكي في اختيار أنسب المواقع للإنزال^(٢٣).

٢/١-السياسة الأمريكية في توجيه الرأي العام

المغربي عشية عملية طورش

أولت الولايات المتحدة اهتماماً كبيراً لتقييم الموقف المحلي بالمغرب قبيل تنفيذ عملية "طورش"، إذ كشفت تقارير قنصلية، خاصة تلك الواردة من طنجة، أن غالبية المغاربة - بنسبة قاربت ٨٠% - أبدوا ميلاً للتعاطف مع الحلفاء، أملاً في الخلاص من الهيمنة الفرنسية. وقد شكلت هذه المعطيات عنصراً أساسياً في صياغة الاستراتيجية الأمريكية تجاه المجتمع المغربي^(٢٤).

وانطلاقاً من هذا الإدراك، حرصت القيادة العسكرية الأمريكية على ضبط سلوك قواتها بما ينسجم مع خصوصيات البيئة المحلية. فأصدرت تعليمات دقيقة تقضي باحترام الثقافة والدين، وتجنب أي مساس بحرمة المساجد، مع إظهار التقدير للعلماء والرموز الدينية. ولقد عكست هذه التوجيهات وعياً سياسياً بضرورة كسب ثقة السكان وضمان تعاونهم^(٢٥).

وبالموازاة مع ذلك، وخلال الساعات الأولى لنزول القوات، وظفت الولايات المتحدة الدعاية كوسيلة لتعزيز صورتها لدى الرأي العام المغربي، من خلال توزيع منشورات موقعة من الرئيس فرانكلين روزفلت والقائد

إس ماساتشوستس"، والسفينة الحربية الفرنسية "جان بارت" المدعومة بالبطاريات الساحلية. وعلى الرغم من صدور أمر بوقف إطلاق النار في ١١ نوفمبر، استمرت بعض المناوشات قبل أن تخضع الدار البيضاء للسيطرة الأمريكية^(٢٤).

٥/١-التأثير والتداعيات العسكرية

انتهت العمليات القتالية يوم ١١ نوفمبر ١٩٤٢ بعد مفاوضات بين الأمريكيين والفرنسيين. وقد مكن هذا النجاح الحلفاء من تأمين موطئ قدم استراتيجي في شمال إفريقيا والسيطرة على الموانئ والمطارات المغربية الحيوية، مثل ميناء الدار البيضاء وقاعدة بور ليوطي الجوية، وتحويل المغرب إلى قاعدة خلفية آمنة لدعم العمليات اللاحقة في شمال إفريقيا^(٢٥).

ورغم النجاح الاستراتيجي، فقد تكبدت القوات الأمريكية خسائر مهمة بلغت ٥٢٦ قتيلًا و٨٣٧ جريحًا و٤١ مفقودًا^(٢٦)، إضافة إلى خسائر بشرية في صفوف المدنيين المغاربة قُدرت بحوالي ٧٤٥ بين قتل وجريح ومفقود. وبالمقابل^(٢٧)، عززت الولايات المتحدة وجودها العسكري بسرعة، إذ ارتفع عدد جنودها إلى ٦٥,٠٠٠ بحلول نهاية نوفمبر 1942. كما تحولت المطارات والموانئ المغربية إلى قواعد دعم حيوية في البحر الأبيض المتوسط، وانضم نحو ٨٣,٠٠٠ من الجنود المغاربة (الكوم) العاملين في الجيش الفرنسي إلى صفوف قوات الحلفاء، ليسهموا لاحقًا في الحملة الإيطالية سنة ١٩٤٣^(٢٨).

وعلى المستوى السياسي، أفرزت العملية تحولاً سياسياً عميقاً في المنطقة، إذ أسهم في إضعاف النفوذ الفرنسي، وفي المقابل فتح قنوات جديدة بين المغرب والولايات المتحدة. فقد شكّل لقاء أنفا في يناير ١٩٤٣ منعطفاً حاسماً، حين اجتمع الرئيس روزفلت ورئيس الوزراء تشرشل بالسلطان محمد بن يوسف (محمد الخامس) في غياب الفرنسيين، في إشارة واضحة إلى دعم أمريكي محتمل للمطالب المغربية بالاستقلال^(٢٩).

وقد اتخذ السلطان موقفاً بالغ الأهمية حين رفض مقاومة الإنزال الأمريكي، مؤكداً: "إننا لسنا في حرب مع أمريكا، ولا أسمح لقوات بلادي أن تريق دماءها في

دقيقاً جمع بين الاستخبارات الدقيقة، والدبلوماسية الخفية، والدعاية السياسية، والتخطيط العسكري الدقيق لضمان نجاحها وتقليل خسائرها.

٤/١-تنفيذ عملية نزول القوات الأمريكية في

المغرب

انطلق النزول الأمريكي بالسواحل المغربية يوم ٨ نوفمبر ١٩٤٢. وقد واجهت القوات الأمريكية مقاومة فرنسية من القوات الموالية لحكومة فيشي، واستمرت المعارك أربعة أيام متواصلة قبل أن يُفرض وقف لإطلاق النار في ١١ نوفمبر. واتسمت العملية بضخامة حجمها العسكري. فقد شارك من الجانب الأمريكي ما يقارب ١٠٧,٤٥٣ جندياً، خُصص منهم نحو ٣٥,٠٠٠ للجهة المغربية^(٢٠)، جرى إنزالهم بواسطة ٣٥٠ سفينة حربية و٥٠٠ ناقلة مدعومة بالمدرعات والطائرات. أما الجانب الفرنسي فقد حشد في شمال إفريقيا ما يقارب ١٢٥,٠٠٠ جندي، مدعومين بحوالي ٢٠٠ دبابة و٥٠٠ طائرة و٢٠ سفينة حربية، ما يعكس جاهزية نسبية للمواجهة^(٢١).

في المحور الجنوبي، نزلت مجموعة "بلاكستون" في آسفي بهدف قطع الطريق أمام أي تعزيزات فرنسية قادمة من مراكش نحو الدار البيضاء. وبفضل الدعم البحري الكثيف ودقة التخطيط، تمكنت القوات الأمريكية من السيطرة على المدينة ومينائها في اليوم نفسه، مع تسجيل خسائر محدودة^(٢٢). وفي الشمال، استهدفت مجموعة "غولبوست" القاعدة الجوية في بور ليوطي، نظراً لأهميتها الاستراتيجية في توفير الغطاء الجوي. إلا أن العملية واجهت صعوبات كبيرة بسبب الظلام والارتباك عند الإنزال، فضلاً عن المقاومة الفرنسية العنيفة عند مصب نهر سبو. وبعد معارك برية وبحرية استمرت يومين، تمكنت القوات الأمريكية من السيطرة على القاعدة في ١٠ نوفمبر^(٢٣).

أما في الوسط، فقد نزلت مجموعة "بروشوود" على شاطئ المحمدية للتوجه نحو الدار البيضاء، العاصمة الاقتصادية للبلاد. ورغم نجاح الإنزال الأولي، فقد واجه التقدم نحو المدينة مقاومة عنيدة. ودارت في عرض البحر معركة كبرى بين البوارج الأمريكية، ومنها "يو إس

وقبل عام ١٩٤٢، كانت البنية التحتية الجوية في المغرب محدودة نسبياً، إذ لم تتجاوز ثماني مطارات عسكرية و١٤٥ مدرجاً للطوارئ أنشأها الفرنسيون، موزعة على مدن رئيسية مثل الدار البيضاء ومراكش وفاس. غير أن القيادة العسكرية الأمريكية سارعت، عقب الإنزال، إلى تنفيذ خطة لتطوير هذه المنشآت وإنشاء قواعد جديدة، جُهِّزَت بمرافق متطورة شملت أبراج مراقبة، وحظائر للطائرات، ومنشآت اتصالات، ومساكن للطيارين والجنود، إلى جانب مرافق طبية وترفيهية تضمن استدامة العمليات^(٣٦).

في هذا السياق، برزت عدة قواعد جوية كان لها دور محوري في الاستراتيجية الأمريكية. فقد اعتُبرت قاعدة الدار البيضاء-كاز (Cazes) الأهم ضمن الشبكة، حيث جرى توسيع مدرجها الرئيسي من ٨٥٠ متراً إلى ٢٠٧٠ متراً لاستقبال الطائرات الثقيلة والقاذفات، كما ضمت ٢٢ حظيرة للطائرات ومنشآت سكنية لـ ٨٠٠ فرد، مما جعلها مركزاً رئيساً للصيانة والإمداد والعمليات المشتركة^(٣٧).

أما قاعدة بور ليوطي، فقد اكتسبت أهمية استراتيجية فائقة خلال عملية طورش، لكونها المدرج الوحيد، آنذاك، القادر على استقبال الطائرات غير القادرة على العودة إلى حاملات الطائرات^(٣٨). وبعد الحرب، تحولت إلى منشأة دائمة لدعم الأسطول الأمريكي في البحر المتوسط بموجب اتفاقيات أمريكية-فرنسية^(٣٩). وبالنسبة إلى قاعدة سلا الجوية، فقد أنشئت على مساحة شاسعة تناهز ١٢٠٠ هكتار لتستوعب القاذفات الثقيلة من طراز B-17، وقد جاءت لتعويض مطار الرباط القديم وتكون بمثابة المقر الرئيس للقوات الجوية الأمريكية في المغرب^(٤٠).

إلى جانب ذلك، اهتم الأمريكيون بتطوير واستغلال قواعد أخرى، نذكر منها، على سبيل المثال لا الحصر، قاعدة برشيد/سيدي رحال التي أصبحت مركزاً رئيسياً للتدريب العسكري^(٤١)، وقاعدة وجدة التي بلغت نسبة إنجازها ٨٦% سنة ١٩٤٤ واستغلت لتأمين المنطقة الشرقية، وقاعدة مكناس التي تميزت بموقعها الاستراتيجي ومدرجها المتطور، فضلاً عن قاعدة سيدي

مقاومة النزول الأمريكي". هذا الموقف لقي تقديرًا كبيراً لدى القيادة الأمريكية، وتُرجم برسالة من الرئيس روزفلت إلى السلطان، أشاد فيها بدوره وأكد على أهمية التعاون المستقبلي بين البلدين^(٣٠).

وتنوعت ردود الفعل المغربية إزاء الإنزال. فقد ساد الهلع في البداية نتيجة القصف الجوي والبحري، مما دفع العديد من سكان الدار البيضاء إلى النزوح نحو القرى المجاورة^(٣١). إلا أن المشهد سرعان ما تحول إلى فضول وانجذاب بعد انتهاء المعارك، حيث احتشد السكان لمشاهدة الجنود والمعدات الأمريكية المتطورة، ما عمق قناعتهم بتفوق القوة الأمريكية وضعف السيطرة الفرنسية^(٣٢).

وفي المقابل، نشأت صور للتقارب بين الجنود الأمريكيين والسكان، خاصة الأطفال الذين تلقوا هدايا وحلوى (علكة)^(٣٣)، ما ساهم في تعزيز صورة الأمريكيين كمحررين. غير أن نسبة من النخبة المغربية أبدت خيبة أمل من الخطاب الأمريكي الرسمي، الذي تجاهل ذكر مساهمة المغرب المحتملة في دعم الحلفاء، وهو ما كشف عن تطلع مبكر للاعتراف بدور المغاربة في مسار الحرب^(٣٤).

لم يكن الإنزال الأمريكي في نونبر ١٩٤٢ مجرد عملية عسكرية عابرة، بل شكل حدثاً مؤسساً غير موازين القوى في المغرب. فقد أنهى الهيبة التي كانت تحيط بالاستعمار الفرنسي، وأرسى أسس علاقة جديدة مع الولايات المتحدة، كما زرع بذور الأمل في الاستقلال لدى الشعب المغربي ونخبته السياسية.

ثانياً: ترسيخ الوجود العسكري الأمريكي في المغرب

١/٢- تشغيل وتطوير القواعد الجوية

بعد نجاح عملية نزول القوات الأمريكية بالمغرب، انتقل الهدف الأمريكي من الاحتلال المؤقت إلى إقامة وجود عسكري دائم ومنظم في المغرب. وقد كان إنشاء وتطوير شبكة من القواعد الجوية حجر الزاوية في هذه الاستراتيجية، إذ جرى تحويل المغرب إلى منصة انطلاق لدعم العمليات العسكرية في شمال إفريقيا وجنوب أوروبا^(٣٥).

في طابق بمبنى شركة "شال"^(٤٥). أما محطة مراكش، فقد كانت الأضخم والأكثر تعقيداً في شمال إفريقيا بحلول أواخر ١٩٤٣، إذ ضمت ١٣٦ موظفاً متخصصاً في الراديو، التلّكس، التشفير والصيانة، وأشرفت على محطتين فرعيتين في إجوكاك بمنطقة الحوز والصويرة^(٤٦). كما لعبت محطة بوريوطي دوراً محورياً في ربط مسارات الطيران بين أوروبا والدار البيضاء وداكار، في حين تخصصت محطة تازة في مراقبة الطيران ورصد الأحوال الجوية بالمنطقة الجبلية. وإلى جانب ذلك، أنشئت محطات إضافية في مكناس، وجدة، وأكادير لتوفير تغطية شاملة^(٤٧).

ولم يكن إنشاء هذه الشبكة مجرد إجراء تقني، بل حمل دلالات استراتيجية عميقة. فقد شكّل ترسيخاً للوجود الأمريكي بالمغرب، وسيطرة على المجالين الجوي والمعلوماتي لشمال غرب إفريقيا وربطهما مباشرة بالقيادات العسكرية في أوروبا. كما أظهرت الوثائق أبعاداً إنسانية واجتماعية لهذا الوجود، سواء من خلال أنماط الإقامة (بين الخيام والمساكن الدائمة)، أو الاحتفالات والأنشطة الترفيهية، أو التكيف مع المناخ والبيئة المغربية. والأهم أن هذه التجربة شكلت قاعدة صلبة لبناء القواعد الأمريكية الكبرى في المغرب خلال الخمسينيات، وجعلت من البلاد حليفاً استراتيجياً للمغرب في فترة الحرب الباردة.

ثالثاً: آثار الوجود العسكري الأمريكي في المغرب

عند تحليل الوجود العسكري الأمريكي في المغرب بين ١٩٤٢ و ١٩٤٥، يمكن رصد مجموعة من الآثار المتعددة. فمن الناحية الاستراتيجية، برز المغرب بموقعه الجيوستراتيجي عند ملتقى الأطلسي والمتوسط كمنصة عملياتية مركزية للحلفاء. وجاءت عملية "طورش" في نونبر ١٩٤٢ لتجسد أول تدخل عسكري أمريكي واسع النطاق في المغرب، مغيرة مسار الحرب في شمال إفريقيا. وعلى المستوى العسكري واللوجستي، تحول الوجود الأمريكي من وضع مؤقت إلى قاعدة دائمة عبر تطوير شبكة القواعد الجوية ومحطات الاتصالات، مما حول المغرب إلى مركز لوجستي لدعم العمليات في

يحيى الغرب التي خُصصت بشكل أساسي لنقل الجنود والمعدات تحت إشراف قيادة النقل الجوي (ATC).^(٤٨) ولم يكن بناء شبكة القواعد الجوية الأمريكية في المغرب مجرد إجراء لوجستي عسكري، بل حمل معه تداعيات عميقة ومتعددة الأبعاد. فعلى المستوى العسكري، أدرج المغرب ضمن الشبكة الاستراتيجية العالمية للقوات الجوية الأمريكية، وأصبح نقطة ارتكاز حيوية خلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها. أما سياسياً، فقد مثّل هذا الوجود بداية انفتاح جديد بين المغرب والولايات المتحدة، تجاوز إطار الحرب وأسهم في التأثير على مسار استقلال المغرب وعلاقاته الدولية. وعلى المستوى الرمزي، عكس وجود هذه القواعد بجلاء صعود الولايات المتحدة كقوة عظمى، في مقابل تراجع النفوذ الاستعماري الفرنسي التقليدي في المنطقة.

٢/٢-محطات الاتصالات والرصد الجوية الأمريكية

لم يقتصر الوجود الأمريكي على بناء وتطوير القواعد الجوية فحسب، بل امتد ليشمل شبكة واسعة من محطات الاتصالات والأرصاد الجوية المنتشرة عبر التراب المغربي، مما عزّز السيطرة الأمريكية على المجالين الجوي والمعلوماتي. وقد أنشأت الولايات المتحدة، بين ١٩٤٢ و ١٩٤٤، منظومة اتصالات عسكرية متطورة عُرفت باسم "نظام اتصالات الخطوط الجوية العسكرية (Army Airways Communications System)" كان الهدف من هذه الشبكة إحكام السيطرة على المجال الجوي وتنسيق العمليات العسكرية في شمال إفريقيا وأوروبا، الأمر الذي جعل المغرب عقدة اتصالات حيوية^(٤٩).

أُنيطت مهمة الإشراف على هذه المنظومة بـ"السرب ١١١" الذي أحدث في ماي ١٩٤٤، وتولى إدارة شبكة واسعة امتدت لتغطي مواقع استراتيجية مثل الدار البيضاء، بوريوطي، مراكش، إجوكاك في الحوز، تازة، والصويرة^(٤٤). وقد برزت محطة الدار البيضاء في قاعدة كازكاول وأهم هذه المحطات، حيث بدأت نشاطها في دجنبر ١٩٤٢ بطاقم يضم ثمانية أفراد، تطور لاحقاً إلى ١١٨ فرداً، مع مقر إداري رئيسي في وسط المدينة

خاتمة

تعود بداية الحضور العسكري الأمريكي في المغرب إلى عملية "الشعلة" سنة ١٩٤٢، حيث أنشأ الأمريكيون شبكة واسعة من القواعد الجوية ومحطات الاتصالات مستفيدين من البنية التحتية الفرنسية القائمة، مع تطويرها بما يتماشى مع اعتباراتهم الاستراتيجية. وقد تنوعت وظائف هذه القواعد بين توجيه الطائرات، والمراقبة، ورصد التحركات العسكرية، كما أدى اتساع النشاط الأمريكي إلى نشوء جالية أمريكية معتبرة في البلاد خلال سنوات الحرب وما بعدها. ومع انتقال العمليات الحربية إلى أوروبا، وضع الحلفاء خطة للإبقاء على بعض المنشآت الاستراتيجية وإغلاق غير الضرورية منها، مما أدى بعد ١٩٤٥ إلى تقليص واسع للوجود الأمريكي مع استمرار استعمال مواقع محدودة أبرزها مطار الدار البيضاء-كاز وبور ليوطي. ورغم التراجع الكبير في عدد المنشآت الأمريكية عالمياً، حافظت البحرية الأمريكية على حضور رمزي في المغرب، مستندة إلى رصيد العلاقات الودية التي نسجها الجنود الأمريكيون مع المغاربة خلال الحرب، وهو ما مهد لعودة سريعة للقوات العسكرية الأمريكية مطلع الخمسينيات.

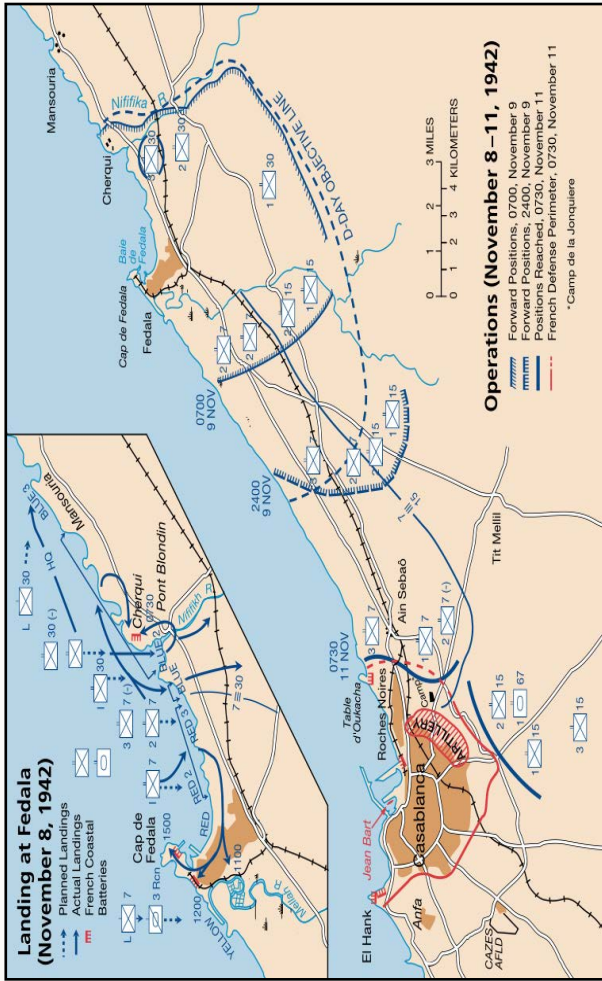
المتوسط وأوروبا، مع بسط السيطرة على المجالين الجوي والإلكتروني.

أما على الصعيد السياسي، فقد أضعف هذا الوجود النفوذ الفرنسي وكشف محدودية سلطة حكومة فيشي، في حين عزز مكانة السلطان محمد الخامس كزعيم وطني. كما مهد لبروز علاقات مباشرة بين المغرب والولايات المتحدة خارج إطار الوساطة الفرنسية، وأسهم في خلق مناخ دولي موات للحركة الوطنية، انعكس في تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال عام ١٩٤٤. اقتصادياً واجتماعياً، وفر الوجود الأمريكي فرص عمل في مجالات البناء والصيانة والخدمات، وأدى إلى تدفق الدولار وإنعاش الاقتصاد المحلي، فضلاً عن نقل خبرات تقنية جديدة. في المقابل، نتجت أزمة معيشية حادة بسبب نقص المواد الغذائية، واستغل بعض التجار الوضع لتحقيق أرباح استثنائية.^(٤٨)

ثقافياً ورمزياً، تركت التجربة بصمات واضحة، سواء عبر إدخال كلمات إنجليزية إلى اللهجة الدارجة، أو عبر أنماط اللباس الجديدة المتأثرة بالجنود الأمريكيين، أو من خلال التوزيع اليومي للعلكة والحلوى على الأطفال. كما لعبت السينما والموسيقى الأمريكية دوراً في الانفتاح الثقافي، بينما عبرت الأشعار والأغاني الشعبية عن مخاوف من التغيرات القيمية المرافقة^(٤٩).

على المدى الطويل، شكّل هذا الوجود العسكري تمهيداً للتعاون الاستراتيجي المستقبلي بين المغرب والولايات المتحدة بعد الاستقلال، إذ احتفظت واشنطن بامتيازات عسكرية في بعض القواعد. كما ساهم في بروز الولايات المتحدة كفاعل رئيسي في المنطقة مقابل تراجع النفوذ الاستعماري الفرنسي التقليدي. خلاصة القول، إن الوجود العسكري الأمريكي في المغرب خلال الحرب العالمية الثانية لم يكن حدثاً عابراً، بل محطة مفصلية ذات تداعيات عسكرية، سياسية، اقتصادية، اجتماعية وثقافية، أسست لعلاقات جديدة وتحولات عميقة في مسار المغرب المعاصر.

الملاحق



خريطة رقم (١)

خريطة احتلال الدار البيضاء^(٥١)

صورة رقم (١)

صورة جوية لميناء فضالة^(٥٠)

الإحالات المرجعية:

- (16) Abdelmalek Lahlou, Casablanca à l'heure de l'opération TORCH et de la conférence d'Anfa, Imprimerie Najah Eljadida, Casablanca, 1993. p.p.143-144. p.142.
- (17) Gordon Ij. Joint Power Projection: Operation Torch. op.cit. p.62.
- (18) Ibid.
- (19) The Twelfth Air Force in The Invasion of North Africa, op.cit.
- (20) Ibid.
- حسب الوثيقة فقد بلغ مجموع السفن الحربية المشاركة في العملية ٣٥ سفينة، بالإضافة إلى ٥٠٠ ناقلة. أما إجمالي عدد القوات التي شاركت في هذه العملية العسكرية الكبرى، فقد وصل إلى ١٠٧ ألف فرد.
- (21) Arthur R. Wilson, Report of operations in North Africa. www.archive.org. p.12. [downloaded on 12.4.2025; 21:00]. p.٢2.
- (22) The Twelfth Air Force in The Invasion of North Africa, op.cit.
- (23) The Twelfth Air Force in The Invasion of North Africa, op.cit.
- (٢٤) Ibid.
- (25) Lohse, Alexandra, and Jon Middaugh. Operation Torch: The American Amphibious Assault on French Morocco, 1942. Naval History and Heritage Command, Department of the Navy, 2022. p.23.
- (26) George F. Howe, United States Army in World War II, The Mediterranean Theater of Operations, Northwest Africa: Seizing The Initiative in The West, Center Of Military History, United States Army, Washington, D. C., 1993, pp.173.
- (27) Wilson, Report of operations in North Africa. Op.cit. p.12.
- (28) Colonel Gerald M. Adams, A history of us strategic airbases in Morocco 1951-1963, published by the Moroccan Reunion Association, 1992. p.xvii.
- (29) Adams, A history of us strategic airbases in Morocco.. op.cit, p. p.xviii.
- (٣٠) يوسف خلطنت ومحمد الأكل، الإنزال الأمريكي بالمغرب-نونبر ١٩٤٢، مجلة ليكسوس الإلكترونية، العدد ٣٧، فبراير ٢٠٢٠، ص: ١٧-٢١، ص. ٢٠.
- (31) Lahlou, Casablanca a l'heure de l'opération TORCH ..., op.cit. p.124.
- (٣٢) يونس جنوحي، العملية المنسية لنزول أمريكيين بشواطئ المغرب خلال الحرب العالمية الثانية.
- (٣٣) المصدر نفسه.
- (34) FRUS, The Chargé at Tangier (Childs) to the Secretary of State, Tangier, November 14, 1942. DIPLOMATIC PAPERS, 1942, EUROPE, VOLUME II. www.history.state.gov.
- (١) يُطلق مُصطلح "عملية طورش" (Torch Operation) "على الحملة العسكرية التي شنتها قوات الحلفاء بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، على سواحل كل من المغرب والجزائر في نونبر من عام ١٩٤٢م، في إطار مسار أحداث الحرب العالمية الثانية.
- (2) Gordon Ij. Joint Power Projection: Operation Torch. National Defense Univ Washington Dc Inst For National Strategic Studies. Published Online 1994. p.p 60-69, p.61.
- (3) The Twelfth Air Force in The Invasion of North Africa, History of The Twelfth Air Force, Vol 1, Part 1, AFHRA, REEL A6191.
- (٤) هذه العملية شملت أيضاً مناطق بالجزائر إلا أننا فضلنا الاختصار على النقاط المغربية احتراماً لإشكالية البحث.
- (5) The Twelfth Air Force in The Invasion of North Africa, op.cit.
- (٦) تشير وثائق وكالة البحث التاريخي التابعة للقوات الجوية الأمريكية إلى أن قنصل و.م.أ بالمغرب دافيد كينغ DAVID W. KING زار مطارات المغرب وأعد حولها تقارير استخباراتية مؤرخة في ٢٠ يونيو ١٩٤١.
- انظر:
- Airfields Briefing charts, Northwest African coastal Airforce, AFHRA, REEL 6165.
- (7) John C. Beam, "THE INTELLIGENCE BACKGROUND OF OPERATION TORCH," Parameters 13, no. 1 (1983), doi:10.55540/0031-1723.1308. p.p 60-68, p.61.
- (8) The Twelfth Air Force in The Invasion of North Africa, op.cit.
- (9) Ibid.
- (10) Robert Davis, Report on French Morocco up to November 20, 1941, AFHRA, REEL A1468.
- (١١) سافر كويل مدير الشركة عبر ربوع المغرب باستعمال الطائرة والسيارة، بناء على طلب من الجنرال الأمريكي أرنولد. وأعد سلسلة تقارير استخباراتية حول المغرب.
- AFHRA, REEL A1468, op.cit..
- (12) Ibid.
- (13) Armor in the invasion of North Africa, student research report, Armored school, Fort Knox Kentucky, 1949-1950. Downloaded from: Ike Skelton Combined Arms Research Library Digital Library, https://cgsc.contentdm.oclc.org. [15.7.2025, 20:00], p.68.
- (14) FRUS, telegram from The Chargé at Tangier (Childs) to the Secretary of State, Tangier, June 9, 1942, DIPLOMATIC PAPERS, 1942, EUROPE, VOLUME II, www.history.state.gov.
- (15) The Twelfth Air Force in The Invasion of North Africa, op.cit.

- (35) The Twelfth Air Force in The Invasion of North Africa, op.cit.
The Twelfth Air Force in The Invasion of North Africa, (٣٦) op.cit.
- (37) AFHRA, A1468
- (38) Construction Order, AFHRA, REEL 6555, MAY, 21 1943.
- (39) El-Mostafa Azzou, La présence militaire américaine au Maroc, 1945-1963, Guerres mondiales et conflits contemporains Éditions Presses Universitaires de France 2003/2 (n° 210), pages 125 à 132. p.126.
- (40) Provisional Air Route Manual, op.cit.
- (41) Construction Order, AFHRA, op.cit.
- (42) AFHRA, REEL A6191; Construction Order, AFHRA, REEL 6555, MAY, 25 1943.
- (٤٣) جاء في إحدى المراسلات العسكرية أن القوة الجوية ونظم الاتصالات تمثلان **الروابط الحيوية غير المرئية** التي تشبك أرجاء العالم بأسره عبر الأثير وموجاته، منقولة الأوامر إلى العقل البشري ليتحول إلى فعل ملموس **يقود الطائرات من قاعدة إلى أخرى** في كل مكان سعياً لتحقيق النصر. AFHRA, REEL A3174
- (44) Ibid.
- (45) Ibid.
- (46) Ibid.
- (47) Ibid.
- (48) Abdelmalek Lahlou, Casablanca a l'heure de l'opération TORCH, op.cit. p.144.
- (49) Ibid.
- (50) Ibid.
- (51) Gordon Ij. Joint Power Projection: Operation Torch. op.cit. p.68.

المرض والعلاج وحضورهما في الذهنيات مقاربة أولية حول ثقافة التداوي عند المغاربة خلال العصر الحديث

أنيس حمان

مرشح للدكتوراه

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - وجدة
جامعة محمد الأول - المملكة المغربية



ملخص

في هذا المقال سنقف على تصورات المغاربة في وضعيتي المرض والعلاج، معالجين عدة جوانب تخص هاتين الوضعتين، وذلك لأهمية هذا الموضوع ولأهمية الصحة الجيدة في حياة الإنسان. فالصحة -كما يُقال- "تاج فوق رؤوس الأصحاء لا يراها إلا المرضى"، وبتعبير اليونانيين القدماء: "الصحة قيثار شددت أوتارَه شدةً متساوياً، فإذا ارتخى أحدهم زال التناغم وماتت الروح قبل موت البدن"، ولعل من أسباب ارتخاء هذه الأوتار: المرض، سواء كان مؤقتاً أو مزمنًا، فحصول المرض وحلوله على صحة الإنسان لا يأتي إلا بالاضطراب، حيث يمرض الإنسان نفسياً أكثر مما يمرض بدنياً إذا مرض بمرض عضوي، ويعجز البدن إذا مرض الفرد بمرض نفسي، لأن بين الروح والجسد تكامل، ولا صحة إذا مرض أحدهما. والظاهر، أن المغاربة في هذه الفترة وهم يعيشون على نمط حياة مختلفة عن أنماط سير الحضارات الأخرى، ستكون نظرتهم للمرض والعلاج تختلف مع باقي الشعوب -خاصةً التي شهدت دفعة في التقدم خلال الفترة المدروسة- وأن ما كان يتصور لهم هو نتاج بيئة ووسط. وقد يكون هناك تمايز وتباين في تصور الذهنيات للأشياء داخل بلد المغرب الأقصى نفسه، لكن ليس بشكل يعبر عن مفارقة ضخمة مادامت أطراف المجتمع يحكمها عامل الجغرافيا والمعتقد والدين والاحتكاكات المستمرة التي تحصل بينهم، وتظل مسألة المرض والعلاج لوحدها تطرح إشكالات عديدة داخل البلد الواحد، فمثلاً: كان حجم المرض ونوعه في البادية يختلف عن حجم ونوع الأمراض في المدينة، وبين هذه الأمكنة تختلف أفكار العقلليات في علاقتها بعنصري المرض والعلاج، حيث يدخل عامل المكان باعتباره متحكماً في طبيعة الذهنية.

كلمات مفتاحية:

المرض؛ العلاج؛ تاريخ الذهنيات؛ الأساطير والفولكلور؛ المعتقدات الشعبية

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٣٠ سبتمبر ٢٠٢٥

تاريخ قبول النشر: ١٧ نوفمبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.428598.1286

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أنيس حمان، "المرض والعلاج وحضورهما في الذهنيات: مقاربة أولية حول ثقافة التداوي عند المغاربة خلال العصر الحديث". - دورية كان التاريخية. - السنة التاسعة عشرة - العدد السادس والسبعون: فبراير ٢٠٢٦، ص ١٣٣ - ١٤٥.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive: https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: anis.hamman@ump.ac.ma

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان ٤.٠ Attribution International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

قبل موت البدن"^(٤)، ولعل من أسباب ارتخاء هذه الأوتار: المرض، سواء كان مؤقتاً أو مزمنًا، فحصول المرض وحلوله على صحة الإنسان لا يأتي إلا بالاضطراب، حيث يمرض الإنسان نفسياً أكثر مما يمرض بدنياً إذا مرض بمرض عضوي، ويعجز البدن إذا مرض الفرد بمرض نفسي، لأن بين الروح والجسد تكامل، ولا صحة إذا مرض أحدهما.

والظاهر، أن المغاربة في هذه الفترة وهم يعيشون على نمط حياة مختلفة عن أنماط سير الحضارات الأخرى، ستكون نظرتهم للمرض أو نظرهم للعلاج تختلف مع باقي الشعوب-خاصةً التي شهدت دفعة في التقدم خلال الفترة المدروسة-وأن ما كان يتصور لهم هو نتاج بيئة ووسط. وقد يكون هناك تمايز وتباين في تصور الذهنيات للأشياء داخل بلد المغرب الأقصى نفسه، لكن ليس بشكل يعبر عن مفارقة ضخمة مادامت أطراف المجتمع يحكمها عامل الجغرافيا والمعتقد والدين والاحتكاكات المستمرة التي تحصل بينهم، وتظل مسألة المرض والعلاج لوحدها تطرح إشكالات عديدة داخل البلد الواحد، فمثلاً؛ كان حجم المرض ونوعه في البداية يختلف عن حجم ونوع الأمراض في المدينة.^(٥) فالمسألة هنا إن أريد بها دراسة دقيقة فإنها تتطلب مادة مصدريّة قوية تفك لغز هذا الغرض، لذا اكتفينا بما هو متوافر لدينا من معلومات، معتمدين على ملكة التحليل، لأن بدونها لا يمكن للباحث في تاريخ الذهنيات أن يتوفق في معالجة المواضيع داخل هذا الحقل.

أولاً: ذهنية المغاربة أثناء حلول الوباء

كان الطاعون أو الوباء يتفشى بشكل دوري، على رأس كل عشر سنوات أو خمسة عشر سنة، ويظهر في أشهر الرطوبة، أي في فصل الشتاء وفي فصل الربيع، ويتلاشى أثره بحلول فصل الصيف.^(٦) فظلّ المغاربة يعتبرونه وما يقابله من أوبئة فتاكة عقاباً من الله يجازي به أصحاب المعاصي والمنكر، فمثلاً، سكان فاس اجتمعوا في أحد الأيام للنظر في الأسباب الكامنة وراء الشدة، بما فيها من وباء وغلاء وانتشار للأمراض وضيق العيش، فأرجعوها بإجماع إلى أفعال اليهود المتجلية في صنع "الماحيا" وفي شهاداتهم للزور.^(٧) وتتعدد الشهادات

في البداية يجب الإشارة إلى أن تاريخ الذهنيات تخصص مبهم المصطلح ضبابي المنهاج، تكمن جاذبيته كما قال مارك بلوك، "بالتحديد في عدم دقته"،^(٨) فهو يقترب من تخصصات عدة، تشكل له مكملات أساسية وضرورية. "ففي الوقت الذي جرّ فيه لوسيان فيفر هذا المفهوم نحو ما هو سيكولوجي فضلّ مارك بلوك ما هو سوسيوولوجي"،^(٩) وعن علم النفس وعلم الاجتماع تتفرع عدة علوم إنسانية ما دام هذان التخصصان محطة دراسة الإنسان بشقيه النفسي والسلوكي، هذه العلوم تساعد على تفسير وفهم مجمل السلوكيات البشرية، سواء تعلق الأمر بين بني البشر، أو بعلاقتهم بمحيطهم؛ هكذا احتلت العقلية مكانة مهمة في البحث التاريخي، واقترن البحث فيها بالتاريخ الأنثروبولوجي، وذلك لخصوصية مفهومها ومرونته وفاعليته التفسيرية.

وقد فرض الانتشار الواسع للعلوم الإنسانية داخل حقل تاريخ العقلية ضرورة انفتاح الباحث في هذا الميدان على وثائق مختلفة الاتجاهات والمواضيع مدعماً عمله بها، لأن الوثائق المتعددة والمتنوعة تحمل -لا محالة- معلومات مساعدة في بناء بحث في تاريخ العقلية، لتصبح بهذا الوثيقة كيف ما كان نوعها لصيقة مؤرخ الذهنيات. ومنه يعتبر تاريخ الذهنيات متناظر المصطلحات يصعب إعطاؤه تعريف شاف مع هذا الكم الهائل من الوثائق الذي يغلب عليه طابع التنوع والاختلاف. والأمر هذا لا استغراب فيه طالما أن الباحث في هذا الحقل، همّه الوقوف عند الحدود بين الثقافة العامة والثقافة العامية، وإقامة جسر بين المكتوب والشفهي ولغة الطقوس والاشارات، باعتبارها أدوات تفسيرية قيّمة.^(١٠)

وفي هذه الدراسة سنقف على تصورات المغاربة في وضعيتي المرض والعلاج، معالجين عدة جوانب تخص هاتين الوضعيتين، وذلك لأهمية هذا الموضوع ولأهمية الصحة الجيدة في حياة الإنسان. فالصحة -كما يقال- تاج فوق رؤوس الأصحاء لا يراها إلا المرضى، وبتعبير اليونانيين القدماء: "الصحة قيتار شدت أوتاره شداً متساوياً، فإذا ارتخى أحدهم زال التناغم وماتت الروح

الله.^(١٢) فيما كان الناجون من الوباء يتيقنون أنهم فلتوا من قبضته إذا حل شهر ماي، حيث يبدؤون الاحتفال بأعمارهم الجديدة المديدة بتنظيم أيام احتفالية خاصة، يرقصون فيها ويغنون ويأكلون فيها ويشربون.^(١٣) من خلال ما قدمناه، يتبين أن أغلب العامة كانوا متأكدين بأن أسباب جائحة الوباء تعود لأفعالهم، وأن ما أصابهم فهو من أنفسهم، لذلك كانت الوسائل التي يقاوم بها الفرد الوباء أغلبها طرق غيبية، كالدعاء الذي كان يشكل لهم كفارة لذنوبهم التي سلطت عليهم عدو الوباء كانتقام منهم. وقد رضي الكثير بشر هذا القدر وجعلوا الموت بسببه شهادة؛ كالموت في الجهاد ضد العدو الكافر. والذي نجا وظل حياً يرزق بعد زوال الوباء كان عند نفسه وأهله كالمولود الجديد.

ثانياً: الزمن بركة ووقاية وشفاء

آمنت الأذهان بدور بعض الأزمنة في التخلص من المرض وحصول الشفاء وتنقية الروح وتحقيق الراحة النفسية، حيث كان الأفراد يجتمعون في أيام معلومة ومحددة ليقوموا طقوساً خاصة بها، وكانت هناك أيام لا يحتفل فيها الأفراد بشكل جماعي ويكتفون بالاحتفال داخل منازلهم، فيما بقيت أيام بلا احتفال، لكن أهميتها ظلت راسخة في معتقدات العامة. فكيف شكل الزمن فرصة تستغل في التداوي؟

من بين هذه الأزمنة على سبيل المثال؛ "العنصرة"، التي تعود ذكرها إلى زمن النبي يحيى بن زكريا عليه السلام، تم الاحتفال بها في الرابع والعشرين من يونيو من تقويم جوليان،^(١٤) بحيث تقوم طقوس العنصرة على احتفال أساسه إضرام النار في ساحة تتوسط المنازل والحقول ومزاحم المواشي، فيقفز الناس عليها ثلاث أو سبع مرات، وعند اقتراب موعد إطفاء النار تقوم النساء برمي نوات "أعقا" في النار - وهي نواة المشمش - لتحميها إيماناً منهم بقدرتها في الشفاء، كما أن القفز فوق النار أو التعرض لها مثل لهم وقاية من الأمراض ومن الأرواح الشريرة. وكانت تمر هذه الطقوس الخاصة بهذه المناسبة بتريديد أغاني وأناشيد وأهازيج، فمثلاً كان أفراد قبيلة أمانوز يرقصون فيها ويقفزون فوق النار مرددين كلام من قبيل: "إننا نخطأك أيتها النار تاركين

في المصادر الوسيطة والحديثة بخصوص هذا التعليل الغيبي للجوائح.

كان الوباء يمثل عند المغاربة ناقوساً يعلن اقتراب يوم القيامة ونهاية الحياة الدنيا والفناء، فقد عبر أحد المخبرين عن وباء حل بمنطقة درعة في هذه الفترة قائلاً: "فلما كان عام تسعين وألف، تغيرت الأحوال وتدافعت الأهوال وتكاشفت الرجال وزلزلت الأرض (...) وبدلت الأرض غير الأرض (...) فمرج أمر الناس، (...) وتغيرت البلاد ومن عليها (...) فامتلات البلاد طاعوناً وطوقت أصقاع المغرب منه طوفاناً وظهر وفشا وبهر، حتى كأن قيام الساعة قد حضر، فلا ملجأ منه ولا وزرا إلى ربك يومئذ المستقر".^(١٥)

أما فيما يخص مواجهة الوباء، فقد سارع كل وطرقه في التصدي له، مع العلم أن أغلب المغاربة كانوا متيقنين أن لا دواء لهذا النوع من المرض، لأنهم أعدوه قاتلاً وسالماً للأرواح لا ينجو منه إلا من كتب الله له حياة مديدة، فاكتفوا بالوقاية أحياناً، وتجريب بعض الأعشاب التي لا جدوى لها في أغلب الأحيان، إلى جانب استخدام بعض الأبخرة مع التسييح والتكبير، وإصاق بطائق مدون عليها بعض الأدعية على جدران المصاب، أو اللجوء إلى الأولياء والاستغاثة بهم خوفاً من الموت لتحقيق بعض الطمأنينة المؤقتة.^(١٦) فهذا ابن هيدور (ت ١٤١٣م) كان يوصي بالدعاء التالي حينما يحل الوباء: "يا حليم يا حنان يا كريم اللهم اكفني شر هذا الريح وما جاء به بفضل بسم الله الرحمن الرحيم" وكذا دعاء: "اللهم صل على سيدنا محمد صلاة تعصمنا من الأهوال والآفات وتطهرنا من السيئات". هذا إلى جانب الاستعانة بتخطيط بعض الجداول التي كان يوزع بعض الحروف والكلمات في خاناتها.^(١٧) وأدعية أخرى دعا بها الله كل متوسل يريد النجاة من الموت، مثل دعاء: "اللهم سکن فتنة صدمات قهرمان الجبروت بألطافك النازلة من باب الملكوت، حتى نتشبت بأذيال قدرتك، ونعتصم بك، يا ذا القدرة الكاملة والرحمة الشاملة، يا ذا الجلال والإكرام".^(١٨)

لكن في المقابل كان هناك أشخاص استسلموا للموت بدافع الشهادة، لأنهم اعتقدوا أن موتهم بالوباء يخول لهم الانضمام إلى لائحة الشهداء المجاهدين في سبيل

الإمراض؛ فعلى سبيل المثال لا للحصر، كان المريض بمرض البواسير يعتقد بأنه مسكونٌ بجنيّ لواط.^(١٩) والاعتقاد بالمسببات الغيبية في المرض كان يقابله اعتقاد بالطرق الغيبية في العلاج؛ فمثلاً كانت العائلة عندما يمرض أحد أفرادها، يتقدم طرف ثانٍ ليقوم بدور المعالج عبر وضع درهم في فمه ويخرج من المنزل، فما إن يلتقي بأحد الجيران أو الأصدقاء ويكلمه يكون ذلك بمثابة شفاء للمريض،^(٢٠) بدافع أن المريض قد أصيب بشر العين، وأن الطريقة الناجعة لشفائه هي التي ذكرنا. وكان الذي يصيبه العجز الجنسي ليلة الدخلة يتم علاجه بكسر أربع بيضات أو ستة على الأرض، أو يقصد الحراز ليكتب له تميمة ويعلقها.^(٢١) وفي إطار أدبيات الجنس يذكر ابن الزهر أن تعليق رجل الأرنب اليسرى على فخذ الرجل أو المرأة عند الجماع يمنع الحمل. ولتحقيق المصالح وتيسير الأمور يتم حمل ريش الهدهد ولسانه. كما كان ناب الكلب يحفظ من عضه الكلب.^(٢٢) وهذا النوع من الوقاية والعلاج مسّ الطبقة المثقفة في زمانها أيضاً كما هو الشأن لابن الزهر. وللحرص على ذكاء الصبيان وتفتح أذهانهم، كان يُكتب على أكفهم آيات من الذكر الحكيم، ولجذبهم نحو المسجد لحفظ القرآن الكريم كانت تتم عملية تظهير قمطهم/ سرتهم في ساحة المسجد.^(٢٣)

وكان المريض بالحميرة أو "بوحمرّون" كما هو معروف عند المغاربة، يلجأ إلى غرفة مكسوة بفراش أحمر، كما أن المريض نفسه يرتدي كسوة حمراء، وهذه طريقة يرجع لها الفضل في علاج هذا المرض، حيث تفجر الحميرة والحمى ويكون الشفاء،^(٢٤) وعلى ما يبدو أن الذي فكر في هذه الطريقة اعتقد أن حمرة الفراش واللباس تُذهب حمرة الجلد ويبرأ المصاب. من ناقل الحديث في هذا الأمر، يمكن القول، إنه كانت هناك عدة أمراض فُسرت أسبابها بغيبية وعولجت بغيبية نظراً لجهل أسبابها العلمية، وكذا لسهولة هذا التفسير الذي- طبعاً- يتماشى والمعتقد الموروث، ولطبيعة هذا العلاج غير المكلفة. بهذا تعامل المغاربة بسذاجة مع حالاتهم المرضية وكوّنوا أفكاراً عنها انطلاقاً من هواجسهم ومنطلقاتهم في التفكير المختلفة.

فيك البراغيث والقمل" وأيضاً لفظ: "ترك عندك المرض، نترك عندك البؤس، نترك عندك الحمى نترك عندك الأثم".^(١٥) وهذه كلها عبارات توحى لمردديها بأمل الشفاء والتطهير وذهاب الغم، إنها على الأقل كانت تحقق لهم راحة نفسية وهدوء روحي. وكان أهل الريف يختم هذه الطقوس بعد الاحتفال ليلاً على لهيب النار في الصباح، حيث يذهبون مبكراً نحو البحر ومعهم مواشبيهم ودواجنهم مستقبليين أمواجه لأنها في اعتقادهم تحقق لهم المناعة والقوة، وتخلصهم من الخوف والشر، ليستقبلوا الأيام القادمة بروح طاهرة نقية.^(١٦)

كما ساد اعتقاد راسخ في أمطار ما بين ٢٧ أبريل و٣ ماي لدى سكان المغرب، لأنها تعد أيام تطهير، والمطر الذي يهطل في هذه الفترة أعتقد أنه يشفي العديد من الأمراض، وينمي شعر النساء بسرعة، ويقوي ذاكرة الصبيان على الحفظ السريع لسور القرآن الكريم،^(١٧) وقد يكون المنطلق الديني الذي يرى أن ماء السماء مباركا هو الذي رسّخ هذا الاعتقاد.

عموماً، ارتبطت معتقدات المغاربة بأزمة معينة وأيام محددة حاولوا استغلالها عن طريق الاحتفال وممارسة العادات المعهودة خلالها، طلباً للشفاء ودفعاً للمرض، وقد بينا هذا الأمر انطلاقاً من تقديم بعض الأمثلة من مناطق شمال المغرب، وهي احتفال وتخليد لأيام داع رمزها في مختلف مناطق المغرب، وأحياناً تجاوزت هذه العادات سياج البلد المغربي إلى بلدان أخرى.

ثالثاً: ذهنية تؤمن بالعلاج الغيبي

أدّى الجهل بمسببات الأمراض وطرق علاجها العلمية إلى حصول قلق لدى المغاربة، فاعتبروا بعض الأمراض نتاجاً لبعض الظواهر الغيبية، كتلك الناتجة عن التردد على الماء الراكد أثناء غروب الشمس وأثناء شروقها باكراً، ففي نظرهم أن الماء في هاتين الفترتين يكون أهلاً بالجن، وبمجرد مسه أو الاقتراب منه يكون سبباً في المرض والهلاك،^(١٨) أي أن الأمراض التي كانت تصيب الناس مع غروب الشمس أو مع شروقها تعود إلى سبب مباشر بالنسبة لهم، تمثّل في دور الجن في

وقد نظم الشاعر في أكل لحم القنفذ المشوي الشعرَ
الآتي: (٢٠)

في أكل شي ذكر القنفوذ
تهيج والحل المعقود
وإن شحمه دلكت الذكر
أنعظه نعظاً مبطرا
وإن تبخرة بجلد القنفوذ
ينحل العقدة بإذن الصمد

هكذا مد المغاربة أيديهم إلى بعض أعضاء الحيوانات
مستغلين إياهم في تحقيق الشفاء، وذلك بحثاً عن
الصحة في عالم المخلوقات الأخرى تغطية للنقص
الحاصل في الذوات المريضة، فتم اللجوء إلى خصائص
بعض الأعضاء الحيوانية لتعويض ما يقابلها من مرض
في الأعضاء البشرية، وفي هذا الشأن من حقنا أن
نتساءل عن حجم فعالية الاستعلاء في التداوي، فهل
المغاربة فعلاً استفادوا من بيئتهم في التداوي أم أن الأمر
كان وهماً يخيم على العقول دون تحقيق نتيجة إيجابية
في الشفاء؟

خامساً: كيف في تصور المغاربة

يعرف الغساني نباتاً يسمى بالقنب أو بالشهدانج،
الذي يغرس كثيراً بنواحي مكناسة الزيتونة، "إذا يبس
وجف، يمرس وينفض كما ينفض الكتان، ويصنع منه
الشرائط والحبال" ويشير الغساني إلى فعالية هذا
النبات في الإسكار، كما يشير في الوقت نفسه لمنافعه
الطبية العديدة. (٢١) هذه النبتة تعرف بنبتة الكيف عند
العامة، بدأ استعمالها في المغرب منذ القرن السابع
هجري، حيث انتشرت بين رجال التصوف الذين
استعملوها لزيادة الحماس أثناء الأذكار الصوفية. (٢٢)
في العصر الحديث شاع التعاطي للدخان والحشيش
بين مختلف الفئات الاجتماعية، كالعلماء والفقهاء
والأولياء والمجاذيب، (٢٣) ورغم معرفة المغاربة لنبتة التبغ
بعد سيطرة أحمد المنصور على السودان، فإنهم تعاطوا
بكثرة لنبتة الكيف. (٢٤) الملاحظ أن هذه النبتة استعملت
في التدخين ولا يبدو أنها استعملت في الطب. والظاهر
أنها نبتة كانت تستعمل من قبل فئات الأولياء والعلماء

رابعاً: ذهنية تؤمن بالاستعلاء في العلاج

الاستعلاء في العلاج هو استعمال الإنسان أعضاء
الحيوانات تسليماً في قدرتها على منحه خاصياتها،
وغالباً ما يتم استعمال أعضاء الحيوانات النادرة، مثل
الضبع والأسد والعقرب الحمراء... تزامناً مع منازل
النجوم. (٢٥) في المقابل ظلت بعض الحيوانات خاصة منها
بعض أنواع الطيور، مقدسة، لا يتم امساس جزء منها،
كما هو الشأن بالنسبة لطائر اللقالق، الذي حظي
بتقديس هام في الثقافة المغربية عبر تاريخها. (٢٦)

استعمال بعض الحيوانات والاستعانة بها في تحقيق
الأغراض، كحمل ريش الهدهد ولسانه لتيسير الأمور،
والهدهد ذكر في القرآن في قصة النبي سليمان عليه
السلام، وهو بذلك طائر مفضل يمتاز بخصائص عدة.
فالحيوانات التي كانت تستعمل في هذا الصدد أغلبها
حيوانات نادرة تم التعرف عن خاصياتها إما عن طريق
ملاحظتها، أو من خلال السماع عنها، أو من خلال الدين
كما هو الشأن بالنسبة للهدهد، وتتعدد الوسائط التي
عرف الإنسان من خلالها منافع بعض الحيوانات.

فعلى سبيل المثال تم استعمال: (٢٧)

- الماعز لعلاج مرض القلب وضد الغشاوة.
- قلب الأسد ضد الجبن.
- طحال القنفذ ضد الأمراض الطحالية.
- كبدة الفأر لعلاج التهاب الكبد.
- كبدة الحمار ضد الصرع.
- مرارة الكلب المسعور ضد داء الكلب.
- لتقوية البصر تحرق عين القنفذ مع عين الهدهد
بشحم دجاجة سوداء. (٢٨)
- حرق قوقعة السلحفاة وخلطها مع زيت الزيتون
لمعالجة بعض الأمراض الجلدية. (٢٩)
- وضع العلق على جبهة المريض، والتبخير بعين السقر
أو عنق الديك الأبيض ورأس الأفعى لعلاج حمى
المستنقعات.
- ذكر القنفذ مشوياً لعلاج العجز الجنسي.

بألوان مختلفة أعظمهم الجن الأسود. وكانت الشعوذة شعوذتان: شعوذة النصف الأول من الشهر وشعوذة النصف الثاني منه، الأولى دفاعية تدفع الأذى والثانية هجومية تلحقه، هذه الأخيرة يقال إنها تستعمل في عجينة قمرية تحضر أثناء تمام القمر بيد ميت حديث العهد بالدفن، تسبب عدة أمراض كإسقاط الشعر والأسنان، وداء الزهري، والنزيف، وحمى النفاس لدى النساء، والشلل، وجلب كراهية الآخرين وغير هذه الأضرار.^(٣٨)

لجأ بعض المغاربة خاصة في البوادي إلى العرافين والسحرة والكهنة والمعرّمين قصد تحقيق غرض الشفاء والتخلص من الأمراض،^(٣٩) سواء كانت عادية أو أمراض ناتجة عن الأوبئة، حيث يكتفون بتقديم "الفتوح" لهم، خاصة عندما كانوا ييأسون من تجريب طرق أخرى لم تجد لهم نفعاً.^(٤٠) وكانت مهنة الشعوذة مريحة لأصحابها، أمثال الطلبة والفقهاء والحرازين، والعرافين المستعملين لخط الرمل، والمستشرفين الغيب بقراءة المستقبل في قدر الماء أو في الأكف، والنساء اللاتي توهمن سدج العوام بارتباطهن بأجناس مختلفة من الشياطين والجن.^(٤١)

المشعوذون استغلوا ضعف المرضى ونالوا منهم مستخدمين حيلاً لا تكشف وأخذوا مالهم المكدود، وكان من الساحرين من لعب بأجساد بعض النساء، فقد جاءت امرأة تشتكي إلى ساحر عقرها ونال من جسدها كما أحب بحيلة ودهاء، فيذكر "أن امرأة عاقر قصدت بعض المعالجين فقال لها عندي مسألة صحيحة للعاقر ولاكن لا يتأتى في عملها لأن كاتبها يكتبها في ذكره ويجامع بها حتى [بياض] ذلك فرغبت منه عملها ففعل، وهذه حيل وخدع... وحكايتهم في هذا المعنى أكثر من أن تحصى."^(٤٢)

قصد العلاج كان الناس الذين يستعينون بالمشعوذين يتم إمدادهم بتمائم يعلقونها في أعناقهم وفي أحزماتهم، أو تحت الوسادة التي ينامون عليها، وكانت هذه التمام عبارة عن أوراق مكتوبة ومغلقة بجلد، أو عبارة عن مخلب أسد، أو عظم سلحفاة، وأحياناً الحرمل والشب، أو جلد أفعى.^(٤٣) وعلى سبيل المثال لا للحصر، كان

والفقهاء، ولم تطرح إشكالية إحلالها أو تحريمها، لأن الذي سيطر هذه الإشكالية تعاوى لتدخينها. ويذكر الغساني آثار الكيف على أفراد مغرب القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي بقوله: "عمت البلوى في هذا الزمان الكثير من الفواحش والمنكر بكثرة أكله والاشتغال به عند الرجال والنسوان والشبان والصبيان، وفحش ذلك فيهم واتبعوا أهواءهم إلا من عصمه الله."^(٣٥) وجاء عند الحسن الوزان بأن ثمن هذه النبتة كان مرتفعاً جداً، وأنه إذا أكل الفرد منها أوقية استخفه المرح وأخذ يضحك ويأكل ما يأكله ثلاثة رجال، ويسير أسوء من الثمل، وهو مخدر يقوي على الجماع بكيفية غريبة.^(٣٦) نبتة الكيف استعملت للإسكار بدل العلاج، إلا نادراً، وقد عرفت بدايةً بين رجال التصوف، وانتقلت في ما بعد إلى فئات مختلفة من المجتمع، منه يبدو أن المغاربة استعملوا النبتة هذه للإسكار عبر تدخينها غافلين عن منافعها الطبية وفوائدها الصحية.

سادساً: العلاج بالشعوذة

إن ظاهرة الشعوذة وما يرتبط بها من تكهن وسحر ورجم بالغيب ومختلف تجلياتها في التنبؤ والاعتقاد الراسخ في القدرات الخارقة لبعض الأشخاص على قراءة المستقبل وتحقيق المبتغى سواء تعلق الأمر بإنجاح تجارة أو زواج أو شفاء... أو تحقيق ضرر كحصول الخصام أو نزاع زوجي وطلاق، أو مرض أو كساد تجارة... هي ظاهرة ارتبطت بالشعوب كافة، وفي مختلف العصور والأزمنة، وحسب الأستاذ محمد استيتو، أن ظاهرة الشعوذة تجد جوها الملائم حينما تضطرب الأوضاع وتتأزم، خاصة الأوضاع السياسية والطبيعية،^(٣٧) أي مراحل نشوء بعض الهزات العنيفة التي تؤثر على ذهنية المجتمع بسلبية، حيث تنشأ معتقدات عن سوء الأحوال المعيشية، التي تولد الخوف من الموت والقلق جراء توالي الإزم. وتعود ثقافة التشعوذ عند المغاربة كذلك للجهل الذي غرس في عقليتهم الساذجة، الشيء الذي أدى لا محالة إلى تصديق كل الخرافات الناتجة عن هذه الظاهرة أحق تصديق.

آمن المغاربة بالعالم الروحاني وبمخلوقات الجن التي تُعدّ أساس الشعوذة، وحسبهم كان الجن إناناً ودكرانا

المريض بالقولنج يكتب على كفيه البيتين الآتين ويلحسهما:^(٤٤)

قلبي قطبي وقالبي أجفاني
سري خضري عينه عرفاني
روحي هارون وكليمي موسى
نفسى فرعون والهوا هاماني

ظاهرة الشعوذة ثابتة داخل كل مجتمع، وقد أثبتت دراستنا تعاطي مغاربة هذه الفترة لهذه الظاهرة، سواء تعلق الأمر بامتهانها أو الاستعانة بها لتحقيق أهداف ومقاصد معينة. فهل فعلاً تحققت هذه الأغراض؟

أبحاث علم النفس تقول: إن "بين الجسم والعقل صلة متينة لا تتفصم، فكل عملية عقلية يصاحبها عملية بدنية في جسم الإنسان... وكل إحساس يرافقه تغيرات في الخلية العصبية في المخ تسفر عن صورة خاصة."^(٤٥) ولعلّ هذا ما يحصل أثناء زيارة المرضى لهؤلاء المشعوذين، فهم يعتقدون أشد الاعتقاد في قدراتهم، فهم بذلك متيقنون بأن زيارتهم ستقضي بالغرض، وأن يوهم المريض نفسه بالشفاء بمجرد زيارته العرّاف، كاف لتحقيق الشفاء، لأن كل إحساس جديد يرافقه حال جديد.

سابعاً: المتصوفة بركة وعلاج

عرفت حركة التصوف تطورا ملحوظا في المغرب، فبعد ظهورها في الأندلس خلال القرن الرابع هجري، وفي المجال المغربي خلال القرن السادس من التقويم نفسه، وصلت إلى أوجها نهاية العصر الوسيط حيث استمر هذا الأوج طيلة العصر الحديث. لعبت هذه الحركة عدة أدوار، في الدين، والسياسة، والمجتمع، والسلوكيات، والأخلاق، وفي عدة منظومات، حيث كانت تقتسم مع السلطة المركزية تدبير شؤون البلاد. وقد بات دورها واضحا في العلاج،^(٤٦) حيث اقتطع المتصوفة نصيبهم من المرضى وتكلفوا بعلاجهم، والشأن نفسه بالنسبة للمجاذيب والملازمة والبهاليل الذين حضروا بشكل قوي بعد زمن المرينيين، أي خلال العصر الحديث ككل.^(٤٧)

إن ظهور العديد من الأولياء الذين تميزوا بكرامات مختلفة، وقدرات خارقة في دفع المضرة والأذى، أدى إلى جذب العامة، خاصة الفقراء منهم، حيث رأوا البركة في أرباب الزوايا، فشكّلوا لهم معينا على أمور الدين والدنيا، وبدوا أقرب إلى قلوبهم من حكامهم، فيما تقربت الفئات المسورة بالصدقات والأوقاف إلى الزوايا التي كانت تعمل بلا ملل أو كلل على إيواء المحتاجين وإطعامهم. لكن هناك مَنْ أعاب دور الزوايا في هذه الفترة الحرجة باتهامها بلعب دور الكنيسة في العصور الوسطى لطبيعة النمط الذي كانت تعمل به، والمتمثل في العيش على العطاءات والخدمات، أي أنها شكلت مؤسسة توكالية، إذ غدا قسم يحكم وهم أربابها، وثان يعبد وهم أتباعها، وثالث يوفر لها القوت وهم الراجين بركتها.^(٤٨)

وقد احتل المتصوفة مكانة مهمة داخل المجتمع لما يعودون به على أفرادهم من نفع يحقق أغراضهم، خاصة حينما يتعلق الأمر بعلاج المرضى، لأن في هذه الحالة كانت مكانة الولي تضاهي مكانة الطبيب، فهذا أحد المتصوفة لأمّ صديقا له على حمل أخته إلى الأطباء قبل أن يأتيه بها، حيث قال الولي لصديقه: "ذهبت إلى الأطباء بفاس وحقرت عبدك ولم يساو عندك شيئا"، وقد سعى العديد من الأولياء إلى إبراز قدراتهم في معالجة العديد من الأمراض المستعصية، وفلحوا في ذلك.^(٤٩)

وقدرة الأولياء على شفاء المريض جعلت أحد المتبركين ببركتهم ينظم شعرا قائلًا عنهم:^(٥٠)

أولياء الإله إني مريض
والداء لديكم والشفاء
أنتم الباب والإله كريم
من أتاكم له المنا والهناء
كم أتى لحماكم من سقيم
زال عنه سقامه والبلاء
فانظروا إليّ بفضلكم في علاجي
وامنحوني بجودكم ما أشاء

من حاجة".^(٥٥) إذ يتحدث هنا عن الضريح ويشبهه بمشروب الترياق الذي يستعمل للوقاية وعلاج بعض الأمراض. يضيف قائلاً في هذا المستوى: "نزلنا بالزاوية المرة الثانية مقفلنا من حضرة مراكش، كانت لنا بنية عجزت عن النهوض وهي في سن من يمشي، فظنناها مقعدة، فذهب بها الخدم فزوروها، فقامت بالفور على رجلها تمشي. وأمثال هذه الأمور لو تتبعنا منها ما رأينا وما سمعنا لمألنا بها الدواوين (...) الوصي إذا مات انقطع تصرفه من الكون، وما يحصل لزائره مثلاً إنما يحصل له على يد قطب الوقت بحسب درجة ذلك الولي". ولعل هذه الشهادة تبين أن الأشخاص الذين تلقوا علاجهم واستوفوه في الأضرحة عددهم كثير. كما يفسر اليوسي سبب حصول هذه البركة بوجود أحد الأقطاب حياً، إذ يضاف هذا الشرط مع شرط الزيارة، فيحصل الشفاء للزائر حسب درج ولاء الولي الصالح المقصود بالزيارة.^(٥٦)

تشبث المغاربة بهذا الصنف من العلاج لسهولة ولإيمانهم الوثيق بنجاعته، لأن الأشخاص الذين كانوا يمارسون هذا النوع من التداوي يتشاركون معهم في الدين، بل ويمثلونه، ويفضله يحققون البركة لهم، سواء في العلاج أو في شؤون أخرى. لكن بعض العقليات عرفوا بركة مهمة فضلوها عن بركة الأولياء، وهي بركة رضاء الوالين، فقد نسجوا مثلاً أصبح شعبياً يعبر عن هذا الأمر، يقول: "لي هرسوه الوالدين ما يجبروه الصالحين". لكن، عموماً، لعبت المؤسسات الدينية دورها الذي اتصف بالكمال خلال هذه المرحلة، فمن أدوارها تلقين العلوم الشرعية، وتحفيظ القرآن الكريم، والحرص على ضبط السلوكيات الفردية والجماعية داخل المجتمع، والإفتاء في القضايا وفي النزاعات، إذ كانت تتقاسم مع السلطة تسيير أمور الدين والدنيا داخل الدولة المغربية.

ثامناً: الشفاء بركة

إن احترام آل البيت وتقديرهم منذ دخول الإسلام إلى المجال المغربي خصلة محلية لا يمكن نكرانها عندما نتحدث عن آل البيت في المغرب، بحيث؛ تعتبر-حسب المغاربة-محبة هؤلاء واحترامهم وتقديرهم طاعة لله،

أما عن الكيفية التي اتخذها الأولياء في المعالجة، فإنها كانت تعتمد على طرق بسيطة، حيث يكتفون باللمس، أو المسح، أو الريق، أو الرقي، أو الدعاء، أو الصدقة، كما أنهم استعملوا بعض المواد كالحناء غالباً، هذا إلى جانب كتابتهم التمام والحروز.^(٥٧)

استفادت العامة من خدمات الزاوية في المأكّل والمشرب وفي التبرك. وكانت بركة الأولياء الصالحين لا تنتهي بموتهم بل تستمر بعدها، حيث تتحول قبورهم - التي غالباً ما تكون داخل زواياهم- إلى أضرحة تتم زيارتها بإتباع طقوس خاصة، فبمجرد حصول نية زيارة الضريح يبدأ الزائر في البحث عن "الزيارة"، أي الشيء الذي سيحمله معه إلى الضريح، وغالباً ما تكون "الزيارة" عبارة عن شموع أو ذبيحة سوداء، أو كلاهما، وأول ما يفعل الشخص عند دخوله للضريح هو الانحناء إلى حد الركوع وهو يطوف حول قبر الولي ويتمسح به، ويدهن يده أو مكان وجعه بالماء الذي في الإناء الموضوع فوق التابوت، مع ذكر اسم الولي وطلبه والتوسل إليه لتحقيق الغرض الذي من أجله تمت الزيارة.^(٥٨)

أوصى بعض الأولياء وهم على قيد الحياة بزيارة قبورهم كل من أراد التبرك بهم، فهذا قبر امبارك اعبابو كانت تتم زيارته لأنه أوصى بذلك طالبه قاسم الخصاصي قائلاً له: "إذا أردت قضاء حاجة فات قبري يوم السبت قبل طلوع الشمس، واستقبل القبلة وناديني بثلاث مرات تقضى لك إن شاء الله".^(٥٩) كما كانت هناك أضرحة متخصصة في علاج بعض الأمراض، شأنها شأن بعض العيادات الطبية في أيامنا، فمثلاً قبر الفقيه عبد الرحمان المنجرة (ت. ١٧٦٦) كان مختصاً في علاج الحمى، وضريح علي بوغالب يقصد لعلاج القروح والدمامل والجراحات والخراجات، وقبر أبو الشتاء الخمار يعالج الحمقى والمعتوهين. الشيء نفسه قامت به بعض المساجد التي بدورها استقبلت المرضى الراغبين في علاج أمراضهم، كمسجد أبي مدين الغوث بأقصى حومة الرميلة بفاس، ومسجد القرويين الذي تسبب أحد سواريه إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني.^(٥٤)

نقلنا شهادة عن الحسن اليوسي في هذا الشأن، يقول: "شاهدت المولى إدريس بن إدريس رضي الله عنه أيام مقامي بمدينة فاس ترياقاً مجرباً في كل ما أنزل به

"الشريف" يعامل تعاملًا خاصًا للنيل من بركته في شفاء الأمراض، وفي استجابة الدعاء، وتحقيق الخير، ودفع الشر والبلاء.

لكن بقدر ما كان احترام الشرفاء من قبل العامة معهودا، كان الوقوف أمام صحة نسبهم وقوفا استهدف الشرفاء بالسب العلني، وذلك لأن هؤلاء المشككين رأوا في ذوي النسب الشريف حب المصلحة على أنقاض الآخرين.^(٦٣) بهذا كانت الذهنية المغربية في علاقتها بالشرفاء، ذهنيّتان: الأولى رأت فيهم منزل صدق ورفعة وشرف وفلاح، والخضوع لهم والتقرب منهم طاعة وصلاح، والثانية ترقبت بأعين الريب نسبهم وخطواتهم ووقفت أمام تحركاتهم داخل المجتمع.

تاسعًا: على فراش المرض

تعتبر لحظات المرض من أصعب الأوقات التي يمكن أن يمر الإنسان منها، حيث تخون الصحة صاحبها الذي تزداد حالته سوءا إذا غاب أفراد عائلته عنه ولم يجد من يعينه ولو بمد يد بشرية ماء. وغالبا ما يلزم بيته ليتكفأ أهله بمداداته حتى يبرأ أو يتوفى. وكانت أوصل المجتمع تزداد متانة خلال هذه المناسبة، لما أوصى به الدين الإسلامي من صلة الرحم، والتآزر بين أفراد المجتمع، ليشد بنيان المسلمين في ما بينهم في فترات الشدة، ولقد اجتهد الفقهاء في تحديد آداب الزيارة وخصصوه في ما يلي: "زيارة المريض مرة كل ثلاث أيام وقضاء وقت قصير معه والاختصار في الحديث معه والسؤال عن حاله".^(٦٤)

كان المريض يزوره أصدقاؤه وأفراد عائلته وجيرانه، بما فيهم من معه في عداوة أو صراع أو نزاع، وكان الزائر يحمل معه بعض العطايا حسب قدرته المادية ومكانته الاجتماعية، التي قد لا تتفع المريض، لأن أغلبها لم تكن تزد على أن تكون عبارة عن مواد زراعية، كأقساط الحبوب أو القطناني أو ما شابه. كانت زيارة المريض خصلة يتفاخرون بها الناس كلهم لما تعود عليهم بالأجر وتعود على المريض بتخفيف أثر المرض عليه. وكان المريض غالباً ما يحاول ستر مرضه خاصة أمام من معه في خلاف أو نزاع، أو أمام كل من زاره إذا كان مرضه يخجله أو يخرجه، كالمرض الذي يصيب الأعضاء

والتمرد عليهم معصية له سبحانه، لأن الأمر مرتبط بشخص الرسول (ﷺ)، لهذا أصبحت محبة الشرفاء جزء من المقومات الثقافية داخل المجتمع المغربي، وأصبح هذا الأمر مفعول به عمليا منذ بداية الاحتفال بعيد المولد النبوي على عهد السلطان أبي يعقوب المريني.^(٥٧)

رُوجَّ للحظوة الإلهية التي يتمتع بها الشرفاء وبالبركة التي تورث لديهم أباً عن جد، فكان الناس بذلك يعتقدون أن الاقتراب من الشرفاء سيمنحهم نصيبهم من بركة هؤلاء، سواء أشراف البيت الحاكم أو أشراف باقي الأسر داخل المجتمع؛ نظر أفراد المجتمع إلى السلطان وآله نظرة رسخت لهم مفهوم الصلاح واستجاب الدعاء، كما أنهم آمنوا حق الإيمان بشرعيتهم في الحكم وتسيير شؤون البلاد والعباد، ليكون السلطان بذلك خليفة الله على أرضه، مطبقاً للعدل مقيماً للدين الذي يشكل سنده الأساسي في الحكم.^(٥٨) هذه النظرة التي نظر بها المجتمع إلى الشرفاء باتت واضحة من خلال شهادة الفشتالي في معركة واد المخازن، حيث شبه هذه الواقعة بغزوة بدر قائلاً: "وبذلك المشهد الكريم الذي حضرته ملائكة الرحمان وجنود الأرض والسماء ما شمل الناس بمنه وبركته وسعدوا بطائره إلى يومنا هذا".^(٥٩) هذا التشبيه يرى أن سر نجاح المغاربة في معركة الملوك الثلاثة كامن في قوة الإله الممنوحة منه سبحانه إلى أشراف آل البيت.

كما أن بعض المصادر اعتمدت في تفسيرها للشدائد والإزم على العامل السياسي رائية أن التمرد على السلاطين الأشراف والخروج عن طاعتهم عامل أساسي في حدوث الكوارث بمختلف أنواعها،^(٦٠) فهذا الضعيف يقول محلاً بعض الكرب: "وذلك كله من الشؤم والفتن والخروج على الملوك".^(٦١) والشأن نفسه بالنسبة لأحمد الناصري الذي قال: "وكذلك والله أعلم من استيلاء العبيد على الدولة وشؤم افتياتهم عن كثرة الخلع والتولية إلا هذا وشبهه".^(٦٢) هكذا ظل الشرفاء عنصر مهم يحظى باحترام تام داخل المجتمع، بل وتعدى الأمر إلى "تقديس" "الشريف"، واجتتاب إغضابه، ومنحه الهبات والصدقات لأنه في نظرهم يستحقها، وأن التصديق عليه يحقق البركة ويقربهم من الله، فكان بذلك

هذه، قد يستمر المريض مدة طويلة في فراشة، وقد يصل إلى الاحتضار ويسلم الروح لصاحبها بعد سلسلة من أسباب ضعيفة الاستشفاء وميؤوسة الجدوى.

عاشراً: أسس الذهنية المغربية

ارتبطت الذهنية المغربية في تفسيرها بعض الظواهر الطبيعية بثنائية الخير والشر، واضعة كل ما يصيبها في خانتين، خانة الخير أو خانة الشر، فالمرض أو الفقر أو كساد تجارة أو كل ما كان يضر بمصلحة الفرد اعتبر شراً يجب تجاوزه، والشفاء أو الغنى أو نجاح تجارة أو كل ما يحقق مصلحة الفرد اعتبر خيراً يحبذ استدامته واستمراريته، هذه الثنائية بنت أسس تفسيرها على معتقدات مستتبطة بدورها من تركيب ثنائي يجمع بين التفسير الديني والتفسير الأسطوري الخرافي،^(٧١) "يختلف عن سلسلة المعقولات التي تستند إليها المعرفة (...) ومما تصف به المعتقدات هو كونها تولد أوهاما في النفوس، وترغم هذه النفوس على الخضوع لسلطانها."^(٧٢) بهذا تجعل المعتقدات العوام يصدقون كل شيء مهما كان مستحيلاً، وهذا راجع "لجهل العامة نواميس الطبيعة جهلاً تاماً، حتى إنها تنظر لجميع الظواهر الطبيعية كيفما كانت كتصرفات إلهية،"^(٧٣) سبب "ضعف الوعي الديني الرسالي، وتدني مستوى الإدراك العلمي، مقابل التعلق بأحكام التنجيم والسحر والعرافة."^(٧٤) حيث كانت هذه السداجة العقلية تفرض نفسها في ظروف كانت الذهنيات تبحث فيها عن أجوبة لما يقع، مستشعرة بالخوف وانعدام الأمان، في ظل غياب الأمن المادي والأخلاقي، الذي لم يكن يخفف من وطأته سوى قيم التلاحم والتضامن داخل المجتمع.

استمدت الذهنية المغربية آلياتها التصورية من المعتقد المقدس، الذي حدد مجمل سلوكيات الأفراد داخل المجتمع، ووهم الأنفس بأصحية تفكيرها، وبقدرتها على تحليل الظواهر الطبيعية بشكل حر وصحيح دون تشكيك في صحة هذا التحليل. فكانت فترات الشدة والرخاء حسب المغاربة مرتبطة بأنفسهم أي بتصرفاتهم وأعمالهم، وأن ما يعيشون عليه من خير مرتبط بهم، مدخلين الدين وشرائعه في التفسير، فصلاحهم صلاح لأحوالهم والخروج عن طاعة الله وأولي الأمر منهم سببا

التناسلية أو المناطق الحساسة.^(٧٥) المريض كان غالباً ما يظهر صبره ومدى قوته في مواجهة المرض ورضائه بالقدر. كما كانت أسقام بعض المرضى تثير السخرية والتفرز عند من وصلوهم، كمرضى الجذام و الجدري والقرع، أو المكسورين وغير ذلك،^(٧٦) ففراش المرض كان موطناً لمختلف المواقف والأحاسيس.

إن حالة المرض من أشد الحالات ألماً، فالأمراض لا تأتي إلا بالألم والإنهاك ونقص في القوة؛ حيث يشعر المريض بالضعف، كأمراض الأسنان، أو أمراض الرأس، أو أمراض الأمعاء، أو أمراض الجهاز التنفسي، وتتعدد الأمراض المؤلمة، فقد كان المريض أثناء مرضه يتمنى لو كان الموت يشتري فيشتريه ويتخلص من شدة الألم والمعاناة.^(٧٧) وعلى العكس من ذلك كان بعض المرضى لا ينقطع لسانهم عن ترديد كلمات التحميد والشكر لأنهم اعتبروا المرض ابتلاء من الله وجب قبوله والتعامل معه كامتحان في دار الدنيا.^(٧٨)

كما كان انتشار بعض الأمراض المعوزة التي كانت تعجز كل حيل العلاج والتداوي تثير إحساس فقدان الأمل لدى الأهل، الذين كانوا في هذه الحالة يطلبون الموت للسقيم قصد راحته والتخلص من عذاب المرض.^(٧٩) وحينما كان اليأس يخيم على بعض الأسر عندما تطول مدة مرض أحد أفرادهم، كانوا يحاولون تدبير الوضع بأي طريقة كانت كي لا يستمر المريض في عذابه، فمثلاً كان البربر إذا خاب ظنهم في شفاء المريض وأرادوا التأكد من ذلك، ذهبوا به إلى منبع نهر سبو حيث توجد عين يقال إن لا قعر لها، و"غطسوه في مائها حتى يقرب إلى أن يطفو، ثم يخرجونه، فإن خرج على فمه دم يستبشرون بحياته وإلا أيقنوا بهلاكه."^(٨٠)

من نافل القول، في أيام المرض كان الفرد إذا مرض لا يجد مأوى له سوى منزله دون أن يستفيد من خدمات البيمارستانات، وأثناء المكوث في المنزل، يمر بمحطات مرضية نفسية أكثر منها جسدية، خاصة إذا كان المرض مستعصي العلاج، ولا يخفى عن أي أحد دور العامل المادي في هذه الحالة، الفقراء إذا مرضوا قد لا يجدون ما يأكلون، فما بالك تدبير أمور الدواء والعلاج، حتى وإن كانت هناك بعض الهدايا والصدقات التي يتلقاها المريض من عند عائديه، فإنه غالباً لا ينتفع بها، والحالة

خاتمة

لقد واجه بعض المغاربة خلال هذه الفترة عدة أمراض وأوبئة بطرقهم الخاصة، وتفاعلوا معها حسب ما تمليه عليهم معتقداتهم المختلفة، نظراً لجهلهم الطرق العلمية، مستغلين بعض الأيام التي آمنوا ببركاتها وبقدرتها في تحقيق الشفاء، إلى جانب اعتقادهم اليقيني في بعض طرق العلاج الغيبية لبعض الأمراض التي تم اعتبار أسبابها أيضاً غيبية، كما أنهم استعملوا كل ما رأوه ناجع في مداواة أمراضهم، غافلين عن منافع العديد من الأعشاب التي تواجدت في محيطهم بل على أطراف منازلهم.

ويمكن العامل الأساسي في طبيعة تركيبة الذهنية المغربية، التي اتخذت منطق الغيب في التفسير، مستعينة بالشعوذة وبالتصوف، وببعض التعليقات الدينية المختلفة وبالخرافات التي طبعت المخيال الجماعي، وتحكمت في توجيه سلوكيات الأفراد داخل المجتمع المغربي، وحددت علاقاتهم مع الأشياء ومع الطبيعة ومع الكون ككل، ولعل ماساهم في ترسيخ هذه العقلية هو الخوف من الطبيعة ومن تأثيراتها القاسية على الإنسان في ظل غياب منظومة منطقية تفسر نوااميس الطبيعة بعلمية قريبة من الحقيقة، إذ كان الفرد يحتاج إلى طمأننة نفسه تجاه ما يحيط به محاولاً إيجاد تفسير ولو بالتطفل على تحليل تجليات الطبيعة، ليس لشيء سوى لتحقيق راحة على مستوى فهم واستيعاب حركات وميكانيزمات أشياءها، متخذاً في تفسيره آليات متوارثة تكونت سابقاً، أغلبها مستمدة من المعتقد الذي أساس تشكيله الدين والفهم الخاطئ له، والذي هو الآخر ينتج عنه ظهور خرافات وأساطير مساعدة على شرح وتأويل الموجودات.

في الإزم التي تصيبهم، هذا إلى جانب تفسيرهم الأسطوري والخرافي الذي غالباً ما ينطلق مما تمليه عليهم عواطفهم المختلفة، كتفسير ظاهرة زلزلة الأرض بشخصية الثور الذي يحمل الأرض فوق قرنه،^(٧٥) فإذا أراد نقلها من قرن لآخر تهتز، وهذه أسطورة قد تكون نتاج لفهم خاطئ للقرآن الكريم يقصد شخصية ذو القرنين الذي قصته في أواخر سورة الكهف.

فمثلاً؛ كان التفسير الغيبي للجوائح ولفترات الغلاء والشدة هو السائد خلال هذه الفترة، فكل شدة من السماء تقابلها معصية في الأرض، فأول المغاربة الخسف والزلازل بالربا، وقحط المطر بجور الحكام، وكثرت الموتى بالزنا، وهلاك الماشية بالتمسك عن إخراج الزكاة.^(٧٦) كما اعتبر "البلاء المنتشر وكثرة الهرج والغلاء في سائر البلاد من إمارات قرب خروج الإمام الفاطمي."^(٧٧)

واللجوء إلى هذا التفسير يفرض نفسه في وسط قلت فيه سبل البحث العلمي وضعفت أمام واقع سياسي مزري لم يساعد على تطور العلوم، حيث ولّى الحكام وجوههم قبل الجيش وأداروا ظهورهم للعلم والعلماء. إذ نجد الفئات التي تمثل السلطة بدورها تميزت بهذه الذهنية الساذجة، ففي أيام ولاية الناصر بوشنتوف على إمارة هنتاة في مراكش، كانت تعلق على صومعة الكتبية أربع تفاحات من الذهب الخالص كتائم يعتقد العامة أنها تصد الأرواح الشريرة وتجلي البلاء عنهم حارمين أنفسهم من الانتفاع بها في ضرورات التسيير في هذه الإمارة.^(٧٨)

هكذا، ظلت سداجة الذهنيات تعيق عجلة النمو في مختلف الميادين، حيث رجع الاهتمام إلى الدراسة الفقهية الجامدة التي تقتصر على حفظ الملخصات وشرحها وشرح شروحها دون الاجتهاد الذي يعتبر أساس الحداثة، محاولين تفسير مختلف الظواهر بسيطرة القوى الخفية، إلى جانب سيطرة التصوف الذي تظاهر بالكرامات وتحول فيما بعد إلى التعاويذ للشعوذة، مغيباً التفسير العلمي المنطقي لمختلف الظواهر والأشياء.

الإحالات المرجعية:

- (١٧) نفسه، ص. ٣٦٥.
- (١٨) بودلال، حسن، **الإنسان والحيوان إبان الأزمات في تاريخ المغرب**، في: **الأزمات والهشاشة بالمغرب مقاربات متقاطعة، أعمال مهدة للأستاذ محمد استيتو**، تنسيق: مصطفى نشاط- بغداد بوحسون- عبد الحميد الصنهاجي -رشيد اليشوتي- محمد الغرابي، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الرباط، مطابع الرباط نت، ٢٠١٩، ص. ٣١٨. في سبب الأمراض يذكر ابن خلدون في عصره أنه يعود بالدرجة الأولى إلى عامل التغذية، والسبب الأقرب إلى المعقولة، يقول: "اعلم أن الأمراض إنما هو من الأغذية، كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الجامع للطب، وهو قوله، المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء، وأصل كل داء البردة." أي التخمّة. أنظر، ابن خلدون، المقدمة، م. س، ج. ٢، ص. ٩٥٧. وفي السبب الغيبي المذكور أعلاه؛ المتجلي في الاقتراب من الماء الراكد، يذكر لنا ابن خلدون تفسيره العلمي متحدًا عن دور الماء المتعفن والهواء الخبيث في الأمراض، بحيث يقول: "ومما يراعى في ذلك [أي في عملية بناء المدن] للحماية من الآفات السماوية وطيب الهواء للسلامة من الأمراض، فإن الهواء إذا كان راكداً خبيثاً، أو مجاوراً للمياه الفاسدة، أو منافع متعفنة، أو مروج خبيثة أسرع إليه العفن من مجاورتها، فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لاملالة، وهذا مشاهد. والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب." أنظر، ابن خلدون، **المقدمة**، م. س، ج. ٢، ص. ٨٥١.
- (١٩) رويان، بوجمعة، **الطبيب موشان وكتابه الشعوذة بالمغرب**، في: **الأزمات والهشاشة في المغرب مقاربات متقاطعة، أعمال مهدة للأستاذ محمد استيتو**، تنسيق: مصطفى نشاط- بغداد بوحسون- عبد الحميد الصنهاجي -رشيد اليشوتي- محمد الغرابي، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الرباط، مطابع الرباط نت، ٢٠١٩، ص. ٣٠٠.
- (٢٠) حقي، محمد، **الموقف من المرض في المغرب والأندلس في العصر الوسيط**، بني ملال، مطبعة مانبال، ٢٠٠٧، ص. ٦٩.
- (٢١) **الفقر والفقراء... م. س**، ص. ٤١٣.
- (٢٢) حقي، محمد، م. س، ص. ٦٩.
- (٢٣) **الفقر والفقراء... م. س**، صص. ٣٨٤-٣٨٥.
- (٢٤) بن عبد الله، عبد العزيز، **الطب الإسلامي والعلم الحديث**، في: **المناهل**، العدد ٣٣، دجنبر ١٩٨٥، ص. ٧٣.
- (٢٥) رويان، بوجمعة، عرض لكتاب لوسيان رينو: **دراسة حول حفظ الصحة والطب بالمغرب متبوعة بموجز عن مناخ المدن الرئيسية في الإمبراطورية**، في: كنانيش، العدد ٣، صيف-خريف ٢٠٠١، (منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة)، ص. ١٥١-١٥٢.
- (26) Douité, Edmonde, *Missions Au Maroc en tribu*, librairie paul geuthner, Paris, 1914, p. 4.
- (٢٧) رويان، بوجمعة، م. س، ص. ١٥١.
- (٢٨) نفسه، ص. ١٥٢.
- (٢٩) بودلال، حسن، م. س، ص. ٣١٥.
- (٣٠) **الفقر والفقراء**، ص. ٤١٣.
- (٣١) **حديقة الأزهار**، ص. ٣٣٦.
- (٣٢) الرايس، عبد الأحد، **الفوائد التاريخية لتصنيف النبات بفاس من خلال كتاب "حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار"** لأبي القاسم
- (١) حبيدة، محمد، **المدارس التاريخية**، الرباط، دار الأمان، ٢٠١٨، ص. ١٥٧.
- (٢) نفسه، ص. ١٣٤.
- (٣) نفسه، ص. ١٠٦.
- (٤) بول غيونجي، **الأسس النظرية للطب الإسلامي**، في: **عالم الفكر**، مجلد ١٥، ع. ٤، يناير-فبراير، مارس ١٩٨٥، ص. ٢٠١.
- (٥) بخصوص علاقة المرض بالبادية، يذكر ابن خلدون قائلاً: "إن أهل البدو فمأكلهم قليل في الغالب، والجوع أغلب عليهم لقلة الحبوب، حتى صار لهم ذلك عادة، وربما يظن أنها جيلة لاستمرارها (...). ثم إن الرياضة موجودة فيهم لكثرة الحركة في ركض الخيل أو الصيد أو طلب الحاجات لمهنة أنفسهم في حاجاتهم (...). فتكون أمزجتهم أصلح وأبعد من الأمراض، فتقل حاجتهم إلى الطب." والحياة في البادية تختلف تماماً عن الحياة في المدينة، من حيث التغذية وطبيعة الحركة بالخصوص، وهذا أمر يبين مفارقة المجالين في مسألة انتشار الأمراض من عدمها بهما. ابن خلدون، محمد عبد الرحمن، **المقدمة**، ط. ٣، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، دون تاريخ النشر، ج. ٢، ص. ٩٦٠.
- (٦) التريكي، حميد، وروبنزرجي، برنار، **المجاعات والأوبئة في المغرب القرنين ١٧ و١٨م**، ترجمة: عبد الرحيم حزل، ط. ٢، الرباط، دار الأمان، ٢٠١٠، ص. ١٨٨.
- (٧) البزاز، محمد الأمين، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ١٩٩٢، ص. ٦٦.
- (٨) التريكي وروبنزرجي، م. س، ص. ٢٩١-٢٩٢. ناقلا عن محمد المكي بن موسى الناصري الدرعي، **الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة**، مخطوط بالمكتبة الوطنية، رقم: د. ٢٦٧٣، صص. ١٥٨-١٥٩.
- (٩) بن تومية، فطمة الزهراء، **صورة الطاعون الأسود عند المغاربة في العصر الوسيط**، في: **الأزمات والهشاشة بالمغرب مقاربات متقاطعة**، أعمال مهدة للأستاذ محمد استيتو، تنسيق: مصطفى نشاط- بغداد بوحسون- عبد الحميد الصنهاجي -رشيد اليشوتي- محمد الغرابي، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الرباط، مطابع الرباط نت، ٢٠١٩، صص. ١٧١-١٧٠.
- (١٠) البزاز، محمد الأمين، م. س، ص. ٣٩٢.
- (١١) ابن الخطيب، **مقنعة السائل عن المرض الهائل**، تقديم وتحقيق: حياة قارة، الرباط، دار الأمان، ٢٠١٥، ص. ٥٦.
- (١٢) التريكي وروبنزرجي، م. س، ص. ٢٠١.
- (١٣) نفسه، ص. ١٨٩.
- (١٤) استيتو، محمد، **الفقر والفقراء في المغرب القرنين ١٦-١٧**، وجدة، مؤسسة النخلة للكتاب، ٢٠٠٤، ص. ٤٠٤.
- (١٥) التريكي وروبنزرجي، م. س، ص. ١٨٩.
- (١٦) جدي، مراد، **طقوس الاحتفالات الفصلية بالريف شمال المغرب: الزمن كممارسة سوسيو ثقافية**، في: **الأزمات والهشاشة بالمغرب مقاربات متقاطعة**، أعمال مهدة للأستاذ محمد استيتو، تنسيق: مصطفى نشاط- بغداد بوحسون- عبد الحميد الصنهاجي -رشيد اليشوتي- محمد الغرابي، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الرباط، مطابع الرباط نت، ٢٠١٩، ص. ٣٥٨.

- (٥٨) أخليف، مصطفى، م. س، ص. ١١٤.
- (٥٩) الفشتالي، عبد العزيز، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء**، دراسة وتحقيق. عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، ص. ٢٧.
- (٦٠) البزاز، محمد الأمين، **تاريخ الأوبئة والمجاعات...**، م. س، ص. ٦٧.
- (٦١) الضعيف، **تاريخ الدولة السعيدة**، تحقيق. أحمد العماري، الرباط، دار المأثورات، ١٩٨٦، ص. ١٢٦.
- (٦٢) الناصري. أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق. جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٥٦. ج. ٧، ص. ١٤٥-١٤٧.
- (٦٣) فتحة، محمد، **النوازل الفقهية والمجتمع: أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن ٦ إلى ٩ هـ/ ١٢-١٥م)**، الدار البيضاء، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٩. (سلسلة الأطروحات والرسائل)، ص. ٢٥٥-٢٥٦.
- (٦٤) حقي، محمد، م. س، ص. ٤٦.
- (٦٥) نفسه، ص. ٣٤-٣٥.
- (٦٦) نفسه، ص. ٥٠.
- (٦٧) نفسه، ص. ٣٣.
- (٦٨) نفسه، ص. ٣٤.
- (٦٩) نفسه، ص. ٥٩.
- (٧٠) أحمد ابن القاضي المكناشي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من أعلام مدينة فاس**، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، ١٩٧٣، ص. ٤٧.
- (٧١) بلعابد، إدريس، م. س، ص. ٣٢٩.
- (٧٢) لوبون، غوستوف، **الأراء والمعتقدات**، ترجمة. عادل زعيترا، عصير الكتب، ٢٠١٨، ص. ٢٦٤.
- (٧٣) الوزان، م. س، ج. ١، ص. ٨٧-٨٨.
- (٧٤) بلعابد، إدريس، م. س، ص. ٣٢٦.
- (٧٥) نفسه، ص. ٤٥٥.
- (٧٦) **الفقر والفقراء...**، م. س، ص. ٤٥٥.
- (٧٧) الأفراني، محمد السوسي بن محمد الصغير المراكشي، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، تحقيق وتقديم: عبد اللطيف الشاذلي، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٨، ص. ٢٨١.
- (٧٨) التريكي و روبنزي، م. س، ص. ٥٧.

- الغساني(ق. ١٦هـ/ ١٦م)، في: **التاريخ العربي**، ع. ١٨، ربيع ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م، ص. ٢٠٦.
- (٣٣) **الفقر والفقراء...**، م. س، ص. ٤٢١.
- (٣٤) رويان، بوجمعة، م. س، ص. ١٤٩.
- (٣٥) الغساني، أبو القاسم بن محمد ابن إبراهيم، **حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار**، تحقيق. محمد العربي الخطابي، ط. ٢، بيروت- لبنان، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠، ص. ٣٣٧.
- (٣٦) الوزان، الحسن بن محمد الفاسي، **وصف إفريقيا**، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، ٢. أجزاء. الطبعة ٢، بيروت-لبنان، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣. (منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر)، ج. ٢، ص. ٥٩.
- (٣٧) **الفقر والفقراء...**، م. س، ص. ٢١٩.
- (٣٨) رويان، بوجمعة، **الطبيب موشان وكتابه الشعوذة بالمغرب**، في: **الأزمات والهشاشة بالمغرب مقاربات متقاطعة، أعمال مهداة للأستاذ محمد استيتو**، تنسيق. مصطفى نشاط- بغداد بوحسون- عبد الحميد الصنهاجي -رشيد اليشوتي- محمد الغرايب، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الرباط، مطابع الرباط نت، ٢٠١٩، ص. ٣٠٠-٣٠١.
- (٣٩) **وصف إفريقيا**، م. س، ج. ١، ص. ٢٠٥.
- (٤٠) **الفقر والفقراء**، ص. ٤٥٥.
- (٤١) **وصف إفريقيا**، م. س، ج. ١، ص. ٢٤٤-٢٠٥.
- (٤٢) **الفقر والفقراء**، ص. ٤٥٦.
- (٤٣) رويان، بوجمعة، م. س، ص. ١٥٠.
- (٤٤) حقي، محمد، م. س، ص. ٦٩.
- (٤٥) بيدس، إميل خليل، **دليل الأمراض النفسية والبدنية**، ط. ١، بيروت، دار الاتفاق الجديدة، ١٩٨٦، ص. ١٢٦.
- (٤٦) حقي، محمد، **الموقف من المرض...**، م. س، م. س، ص. ٧١.
- (٤٧) أخليف، مصطفى، **الإستوغرافية المرينية والسعيدية: من الأساطير المؤسسة إلى احتواء الأطر والمرجعيات**، وجدة، مكتبة الطالب، ٢٠١٨. (منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة)، ص. ١٣٧-١٣٨.
- (٤٨) **الفقر والفقراء**، ص. ١٤٦-١٤٨.
- (٤٩) حقي، محمد، **الموقف من المرض...**، م. س، ص. ٧٣.
- (٥٠) ريوش، الحسين، **العلاقات بين البوادي والمدن المغربية ما بين القرنين ١٠ و١٢ هـ/ ١٦ و١٨م**، أطروحة جامعية لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة محمد الأول بوجدة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠١١، ص. ١٦٢.
- (٥١) حقي، محمد، **الموقف من المرض...**، م. س، ص. ٧٦.
- (٥٢) **الفقر والفقراء...**، م. س، ص. ٤٥٨.
- (٥٣) نفسه، ص. ٤٥٨.
- (٥٤) نفسه، ص. ٤٥٩-٤٦٠-٤٦٢.
- (٥٥) اليوسي، الحسن، **المحاضرات**، إعداد. محمد حجي، دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٧٦، ص. ٧٥.
- (٥٦) اليوسي، **المحاضرات**، م. س، ص. ٧٦.
- (٥٧) فتحة، محمد، **النوازل الفقهية والمجتمع: أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن ٦ إلى ٩ هـ/ ١٢-١٥م)**، الدار البيضاء، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٩، ص. ٢٣٧-٢٣٨.

الدور الريادي لسياسة الملك عبد العزيز آل سعود "رحمه الله" في تعزيز التنمية الاقتصادية

أ.د. خليل خلف حسين الجبوري

رئيس قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة تكريت
جمهورية العراق



ملخص

يُعَدُّ الاقتصاد الركيزة الأساسية لبناء الدول وعامل من عوامل استقرارها، ومن هذا المنطلق، تم اختيار الموضوع "الدور الريادي لسياسة الملك عبد العزيز (رحمه الله) في تعزيز التنمية الاقتصادية"، للاطلاع على السياسة الاقتصادية العامة التي اتبعها الملك عبد العزيز (رحمه الله)، والتي ساهمت بشكل فعال في وجود قاعدة اقتصادية قوية تجني المملكة العربية السعودية ثمارها اليوم. قسمت الدراسة إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة، تخلصها رسوم بيانية توضح النهضة الاقتصادية للمملكة، تناولنا في المقدمة الخطوات الأولى في التحول الاقتصادي للمملكة العربية السعودية، من اقتصاد يعتمد على الحج كمورد مالي، إلى نهضة عامة ساهم فيها الملك رحمه الله من خلال الأقوال والأفعال، وتطرقنا في المبحث الأول إلى السياسات الزراعية التي أسهمت في النهوض الاقتصادي من خلال توطين السكان (البدو) في مناطق عرفت باسم الهجر، وحفر الآبار وبناء السدود، وتأسيس المشروعات الزراعية الحديثة، وإدخال المكثنة في الزراعة، وغير ذلك من السياسات. وتناولنا في المبحث الثاني، السياسات الصناعية والتجارية، من خلال إدخال المصانع الحديثة، والاهتمام بالتجارة الداخلية والخارجية، من خلال إنشاء الطرق وتطوير وسائل النقل ومحاربة الاحتكار، فضلاً عن التنظيمات المالية. واعتمدت الدراسة على مجموعة من المصادر منها صحيفة أم القرى لسنة (١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م)، وكتاب من الخطب الملكية، الرياض، جمع دارة الملك عبد العزيز (١٩٩٩)، وغيرها من المصادر.

كلمات مفتاحية:

المنتجات الزراعية؛ تاريخ السعودية الحديث؛ السياسات النفطية؛ القرى الزراعية؛ الجمارك

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٤ أكتوبر ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٠٨ نوفمبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.429580.1290

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

خليل خلف حسين الجبوري، "الدور الريادي لسياسة الملك عبد العزيز آل سعود (رحمه الله) في تعزيز التنمية الاقتصادية"، - دورية كان التاريخية، السنة التاسعة عشرة - العدد السادس والسبعون، فبراير ٢٠٢٦، ص ١٤٦ - ١٦٠.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: khkhaljbory@tu.edu.iq

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع الإبداعي 4.0 (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

يُعدُّ الاقتصاد من المرتكزات الأساسية في بناء الدول واستقرارها، إذ يرتبط بقدرتها على إدارة مواردها، وتثبيت مؤسساتها، وتلبية حاجات مجتمعتها. ومن ثمَّ فإن دراسة السياسات الاقتصادية في المراحل التأسيسية للدول تعدُّ مدخلاً مهماً لفهم طبيعة نشأتها ومقومات تطورها؛ وتكتسب تجربة المملكة العربية السعودية في عهد الملك عبد العزيز (رحمه الله) أهمية خاصة، لأنها تمثل مرحلة تأسيس دولة حديثة في ظروف سياسية واقتصادية صعبة، فمنذ استرداد الرياض سنة ١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م، شرع الملك عبد العزيز (رحمه الله) في مشروع طويل لتوحيد البلاد، ولم يكتمل هذا المشروع إلا بعد أكثر من ثلاثة عقود من الجهد السياسي والعسكري والإداري، واجهت الدولة الناشئة آنذاك تحديات اقتصادية كبيرة، تمثلت في قلة الموارد، وضعف الإنتاج المحلي، والاعتماد على مورد الحج بوصفه مورداً مالياً رئيساً، فضلاً عن محدودية النشاط الزراعي والصناعي والتجاري، وغياب المؤسسات المالية الحديثة، لذلك أصبح بناء اقتصاد قادر على دعم الدولة واستمرارها من أهم التحديات التي واجهت الملك عبد العزيز، أدرك الملك عبد العزيز مبكراً أن تثبيت الدولة لا يتحقق بالقوة السياسية وحدها، بل يحتاج أيضاً إلى تنظيم الموارد وتنمية القطاعات الاقتصادية المختلفة، لذلك اتجه إلى تبني سياسات عملية شملت تنمية الزراعة، وتشجيع الاستقرار السكاني، وتنظيم التجارة، وتطوير وسائل النقل، وإنشاء مؤسسات مالية وإدارية، ثم الاستفادة لاحقاً من الموارد النفطية في دعم البناء الاقتصادي للدولة.

مشكلة البحث

ينطلق البحث من تساؤل رئيس مفاده: كيف أسهمت سياسة الملك عبد العزيز (رحمه الله) في تعزيز التنمية الاقتصادية في المملكة العربية السعودية؟ ويتفرع عن ذلك البحث في الوسائل التي اتبعها لتحقيق هذا الهدف، وأثرها في ترسيخ القاعدة الاقتصادية للدولة.

أهمية البحث وأصالته

تتبع أهمية هذا البحث من تناوله جانباً حيوياً من جوانب تاريخ المملكة العربية السعودية، يتمثل في الدور الذي أدته السياسة الاقتصادية في دعم مشروع التوحيد وبناء الدولة، وفي حدود ما توافر للباحث من مصادر ودراسات، لم يقف على دراسة تناولت هذا الموضوع بصورة مستقلة بهذا العنوان، الأمر الذي يمنحه قدراً من الجدة والأهمية.

منهج البحث وتقسيمه

اعتمدت الدراسة على عدد من المصادر الأولية والثانوية، وفي مقدمتها صحيفة أم القرى والخطب الملكية، إلى جانب الدراسات التاريخية ذات الصلة، وقد انتظمت الدراسة في مقدمة ومبحثين وخاتمة؛ تناول المبحث الأول السياسات الزراعية والنفطية والمعدنية، في حين تناول المبحث الثاني السياسات الصناعية والتجارية والتنظيمات المالية، ثم أعقبت ذلك خاتمة تضمنت أبرز النتائج.

تمهيد

كانت خطوات الملك عبد العزيز (رحمه الله) من سنة (١٣١٩هـ / ١٩٠٢م)، ثابتة نحو إنشاء ما عُرف بالمملكة العربية السعودية، ولكن تلك الخطوات لم تستكمل شكلها إلا بعد إحدى وثلاثين عاماً، قضاها الملك (رحمه الله) في حروب متلاحقة، حتى استطاع أن يوحد البلاد، وكان خلال تلك المدة يشعر أن ما جرى استثنائي كونه يحتاج إلى أموال لديمومة الوحدة، مع قلة الموارد ومحدوديتها، إذ لم يكن مجموع الدخل القومي حتى سنة (١٣٥١هـ / ١٩٣٢م)، يكفي لسد الحاجات المعاشية، بسبب قلة الموارد^(١)، بعد أن نعلم أن المورد الاقتصادي البارز والوحيد أيام قيام الدولة هو مورد الحج، وهو مورد سنوي، وكان لا يدر على الدولة أكثر من ألف جنيه سنوياً^(٢).

ولم يكن أمر الموارد الاقتصادية ببعيد عن فكر الملك عند تأسيس الدولة، إذ أنه (رحمه الله) ببرنامجه الاجتماعي والاقتصادي منذ سنة (١٣٢٨هـ / ١٩١٠م)، عندما استشار والده الامام عبد الرحمن، وأركان العائلة السعودية من المتقدمين في العمر في استراتيجية العمل

خطبه (رحمه الله) مال قاله سنة (١٣٤٤هـ / ١٩٢٦م) في جدة: "وأما حقوقنا على الدول ففيما يتعلق بهذه الديار نطلب منهم أن يسهلوا السبل إلى هذه الديار المقدسة للحجاج والزوار والتجار والوافدين"^(٧)، فهو (رحمه الله) يعمل مع الدول الأخرى على ضرورة تسهيل حركة الحجاج، والتي بدورها تساهم في ظهور الحركة التجارية التي تساهم بشكل مباشر على ظهور تنمية الاقتصاد الذي يعمل الملك لتذليل الصعاب لها.

وكان للعمال والموظفين شأن في خطبه لاسيما في خطبة الملك سنة (١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م) الذي قال فيها: "يجب أن يعمل الموظفون بما أمر الله ورسوله، دون أن يخشوا في الحق لومة لائم، ولا ارتياب مريب"^(٨)، كما قال في خطابه في الوكالة المالية في الطائف يوم ١٨/محرم/ ١٣٥١هـ / ٢٤ مايو ١٩٣٢م أن: "الناس أحرار في مأكلكهم ومشاربهم ومرازقهم ونزههم، ومن اعتدى عليه فليراجعني لأنصفه"^(٩)، وفي خطبة الملك في المأدبة الملكية الثانية ١٠ ذي الحجة ١٣٥٦، ١٠ فبراير ١٩٣٨م قال فيها: "وللحرية أن يكون الإنسان حراً فيما يملك، ولك أن تتصرف في مالك كيف تشاء إلا ما حرمه عليك ربك"^(١٠)

وبتلك الخطب والأحاديث رسم الملك (رحمه الله) سياسة اقتصادية عامة تمثلت في حرية التجارة، وحماية التجار والمواطن في أن واحد. وهنا يكمن سؤال، ما هي الأساليب والموارد التي عمل عليها الملك (رحمه الله) لتميتها؟

معلوم أن اقتصاديات الدول تنهض وتنمو بالاعتماد على عدة أركان، هي الزراعة والنفط (بعد اكتشافه)، والصناعة والتجارة، والتنظيمات المالية، فكل دولة بدون زراعة، لا تزدهر ولا تصل إلى الرفاهية، فضلاً عن وجود النفط خلال القرن العشرين، أسهم كثيراً في نمو اقتصاد الدول النفطية، وبدونهما (الزراعة والنفط)، تختفي الصناعة، وبدون صناعة، ستكون التجارة في أدنى مستوياتها، لذا كان الاقتصاد وتميته من أهم التحديات التي واجهت الملك عبد العزيز (رحمه الله)، وكانت له إجراءات أسهمت في وصول المملكة العربية السعودية، وسنعمل في المباحث التالية إلى رسم الصورة التنموية لاقتصاد المملكة خلال تلك الحقبة.

في هذا الجانب، كما بحث ذلك مع بعض علماء الدين. فلما كانت سنة (١٣٣٠هـ / ١٩١٢م)، بدأ بوضع برنامجه موضع التنفيذ، وظل يتابع مراحل سنة تلو سنة، فيعدل فيه ما يحتاج إلى تعديل، ويصلح منه ما دلت التجربة على ما يحتاج إلى تصحيح، ويوسع فيه ما استطاع وفقاً لاتساع حدود بلاده وامكانياتها، مسترشداً دائماً بالتجربة كمحك كاشف للخطأ من الصواب^(٣).

واستمر الإصرار على بناء الدولة من خلال الاستجابة لعديد التحديات التي واجهت الملك (رحمه الله) آنذاك، وهذا ما لوحظ في خطاب الملك (رحمه الله) في المؤتمر الوطني الذي عقد في محرم ١٣٥٠هـ / ٢ يونيو ١٩٣١م، بخصوص اقتصاد الدولة بقوله: "وكذلك نطلب منكم النظر في المسائل الاقتصادية، ويجب في هذا الشأن إمعان النظر في الحالة الوسطى والبحث عن مصلحة البلاد والمشاريع التي يمكن تطبيقها فيها، والتي يرجى منها الفائدة للبلاد والعباد"^(٤).

لذلك تُعدّ مرحلة حكم الملك عبد العزيز (رحمه الله) من أهم مراحل تكوين الدولة السعودية اقتصادياً، فهو (رحمه الله) استطاع أن يبني دولة، دون أن تكون لها موارد مالية جديده، تساعد على القيام في أول عهدها، باستخدام سياسات اقتصادية تنموية ساهمت في التغلب على العقبات التي ربما تطرأ على ديمومة الدولة، ولدة أربعين عاماً، بموارد سنوية تصل إلى بضعة ملايين من الجنيهات كل عام، ولم تصل إلى الرقم (٢٥) مليون جنيه إلا في سنة (١٣٧٠هـ / ١٩٥٠م)، أي قبل ثلاث سنوات من وفاته، وكل ذلك بسبب السياسات الاقتصادية التنموية^(٥).

للقوف على ملامح الفكر الاقتصادي لدى الملك عبد العزيز "رحمه الله"، يمكن الاستناد إلى خطبه وأحاديثه التي تعكس توجهاته في هذا المجال. فقد ورد في أحاديثه سنة (١٣٣٤هـ / ١٩١٥م)، قوله: "إنا ملزمون القضاة في كل بلد البحث عن معاملات الناس وعقودهم وما يجري بينهم من عقود الدين وبيع السلم قبل قبضه، كل هذه الأمور الربوية التي يتعامل بها الناس من حقها ورفع لنا خبرها برئت ذمته"^(٦)، وفي هذا ضبط للمعاملات التجارية، التي تسهم في إقامة تجارة موافقة للشريعة الإسلامية، وبما يحقق فائدة للمواطن، ومن

بدأت النهضة العامة، حتى امتدت إلى الحقل الزراعي، وأدخلت زراعة الخضر والفواكه^(١٤)؛ فكان الاستيراد هو الحل الوقتي لتأمين الغذاء إلى أن يتم معالجة توفيره ذاتياً.

وانتهت الدولة آنذاك إلى ضرورة توفير الغذاء ذاتياً من خلال إقامة المشاريع التي تؤمن الغذاء للشعب، حتى وإن اعتمدت تلك المشاريع على ما ينتجه الآخرون (الغرب) من الآت تساهم في رفع قدرة الإنتاج، ويلاحظ ذلك من خلال ما ذكره الملك (رحمه الله) خلال افتتاح مجلس الشورى في مكة بدورته الجديدة لعام (١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م) بالقول: "تمتاز الدورة التي نفتتحها هذه عن سابقاتها بما سيوكل للمجلس من أعمال وأمور جديدة، أن دورة المجلس تمتاز بقيامه في أيام أزمة اقتصادية عالمية، يتحتم عليه فيها النظر في كل ما يؤول إلى اقتصاد في النفقات بقدر الامكان في كل مشروع يعرض عليه"^(١٥)، وتم التأكيد على ضرورة استخدام الآلات الحديثة التي ينتجها الغرب، والاعتماد عليها في الزراعة والصناعة، ولا يمكن إهمال استيرادها لأنها من نتاج حضارة الغرب^(١٦).

السؤال هنا كيف عالجت حكومة الملك عبد العزيز تلك التحديات، تحدي الأرض، وتحدي الماء؟ لقد كانت التنمية العامة لمجالات الاقتصاد، واستثمار الأرض والماء، والأدوات الحديثة الدور الكبير في نمو الاقتصاد وهو ما سنلاحظه في الإجراءات التالية:

١/١) -١- الإجراءات التنموية في مجال

الزراعة

شهدت المملكة العربية مع أول سنة لتولي الملك عبد العزيز مهام الإدارة فيها اتخاذ إجراءات متنوعة ساهمت في تنمية القطاع الزراعي وتمثلت تلك الإجراءات في:

بناء المدن الزراعية (الهجر)

يمكن القول إن عام (١٣٣٠هـ / ١٩١٢م)، شهد أول الإجراءات العملية لتنمية القطاع الزراعي وكان ذلك من خلال تأسيس القرى الزراعية التي عرفت باسم هُجر^(١٧)، وكانت تهدف إلى استثمار الإنسان من خلال توطين البدو الرحل في أماكن مستقرة، وتعليمهم الزراعة والعيش في بيوت مبنية تشكل كل مجموعة منها

أولاً: السياسات الزراعية والنفطية والمعدنية وأثرها في التنمية الاقتصادية

١/١- السياسات الزراعية، وأثرها في التنمية الاقتصادية

يبدو أن تحدي تفعيل الزراعة كان كبيراً، لعدة أسباب، منها أن سكان المملكة العربية السعودية يتكون من فئتين: بادية وحاضرة، وكانت فئة البدو تمثل نسبة أعلى من فئة الحضر في العدد، ومعلوم أن البدو يعتمدون في معيشتهم على التنقل والرعي، بعد أن نعلم أن عدد السكان على أقرب تقدير كان في سنة (١٣٥٢هـ / ١٩٣٢م) بين مليون ونصف المليون إلى مليونين^(١٨). لذا وقع على عاتق الملك (رحمه الله) تحويل المجتمع البدوي إلى مجتمع متحضر يحافظ على هويته الإسلامية، من خلال عمليات تنمية ومشاريع حضارية، لاسيما أن الحضارة هي الانتقال من حياة البداوة والترحال والرعي إلى مرحلة الاستقرار والزراعة والصناعة، وذلك لا يكون إلا من خلال منظومة حكم وتربية وتعليم وزراعة، وتحقيق الارتباط بالأرض^(١٩).

ولم يقف الأمر عند المجتمع، بل هنالك تحدٍ آخر وهو طبيعية الأرض، فالأراضي الصالحة للزراعة هي مساحات قليلة نسبة إلى مساحة الجزيرة العربية، لكن على ما يبدو أن المجتمع تمكن من استثمار الواحات التي تشكل هلالاً تحف به الرمال من جانبه، لاسيما في نجد، ففي تلك الواحات تتوافر المياه والتربة الصالحة للزراعة، مما شجع السكان على التركز في واحات جبل شمر والقصيم والعارض والخرج والوشم وسدير والافلاج ووادي الدواسر^(٢٠).

والسؤال: على ماذا كانت تعتمد المملكة في توفير الغذاء؟

عندما قامت المملكة العربية السعودية، على عهد الملك عبد العزيز (رحمه الله) كانت تعتمد على الاستيراد في توفير الكثير من المواد الغذائية لاسيما القمح والرز، وأدخل الأخير ليكون مع اللحم الأكلة الشعبية الشائعة، لأن التمر واللبن كانا الغذاءين الأساسيين للشعب، ولم يدخل الخضار ولا الفاكهة في عداد الوجبة اليومية، فلما تطورت الحياة تطورت الحاجات الغذائية، وما أن

ساهم اكتشاف النفط في تنمية الزراعة من خلال تبني مشاريع زراعية على أسس حديثة، كالتي ظهرت في الخرج القريبة من مدينة الرياض، ففي سنة (١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م) بدأ مشروع تشرف عليه البعثة العراقية، ومن ثم المصرية، وفي سنة ١٩٤٠ امتد المشروع وتطور ليدخل فيه المضخات المائية وقنوات الري، وكانت بعدد ١١ قناة، تحت إشراف خبراء البعثة الزراعية الأمريكية التي ساهمت فيها شركة أرامكو والحكومة السعودية، لإصلاح الزراعة في الخرج، وفي سنة ١٩٤٦ أشرفت الشركة الأمريكية على المشروع مباشرة لينتج أنواع الحبوب والخضراوات والفواكه، ثم توسع المشروع ليضم مناطق أخرى مثل الهفوف والقطيف والطائف ومنطقة وادي فاطمة بالقرب من مدينة جدة^(٢٦).

ولم يقتصر الأمر على مدينة الخرج، إذ توسع الأمر حتى وصل إلى مدينة القصيم والخرج والمدينة المنورة، وجلب لتلك المشاريع مهندسين زراعيين من العراق، يتم اختيارهم بعناية وارسالهم للعمل في تلك المدن التي كانت تتوافر فيها مياه العيون والابار، وقامت المملكة لتعزيز التنمية في تلك المدن إلى استيراد الأشجار والنباتات من خارج أراضيها، لا سيما من العراق، وكان يقوم بهذه المهمة المهندسان العراقيان صادق عباس ومهدي عامر، في الرياض والخرج نظير مبلغ (١٠) دنانير لكل منهما، وكان المهندس مهدي عامر يسافر إلى العراق لتأمين الأشجار المطلوبة، وكان يجلبها من خلال لوري يسافر عليها مهدي إلى بغداد ويعود بها مع الأشجار، ولم يقتصر الأمر على الزراعة بل تعدى إلى فحص التربة المزروعة لبيان مدى صلاحيتها للزراعة، وإرسال خبير زراعي إلى المدن لتفقد المزارع، ودراسة الحالة الزراعية وامراضها، وتعليم المزارعين وإرشادهم، وجاءت تلك الجهود من أجل تنمية الزراعة وتطويرها، لحياة أفضل للشعب، وكل ذلك لدعم استقرار المجتمع^(٢٧).

ادخال المكننة الزراعية

لأجل تنمية الزراعة عمدت المملكة العربية السعودية إلى استيراد المكننة الزراعية^(٢٨)، ففي ١١ جمادي الأولى ١٣٤٩هـ/ الموافق ٣ أكتوبر ١٩٣٠م يذكر أن المملكة

قرية زراعية، بدل متابعة كسب العيش عن طريق رعي الإبل والأغنام^(١٨) ونفذ هذا البرنامج من عدة خطوات أولها، دعوة القبائل المرتحلة لترك حياة الارتحال في البادية والإقامة في "هجر" زراعية تنشأ خصيصاً لكل قبيلة في البادية^(١٩)، ثم حرص الملك عبد العزيز (رحمه الله) على أن تكون أماكن الهجر قريبة على بئر، أو نبع ماء، لأنه لا حياة ولا زراعة من غير ماء^(٢٠).

ومن أهداف تلك القرى هو محاربة روح الكسل عن طريق المعلمين من علماء الدين، الذين يسمون بالمطاوعة، إذ أرسلوا إلى سكان الهجر، لتعزيز روح العمل بينهم، كون أعمال الزراعة والتجارة والحرف الصناعية كانت عملاً معيماً بنظر البدو آنذاك، وحث الناس على العمل ورفع مستوى المعيشة^(٢١). وأقيمت خلال حكم الملك عبد العزيز (رحمه الله) ما يقارب مائة وعشرين هجرة، وكان لكل قبيلة هجرة^(٢٢)، وما يميز تلك المستوطنات انهم الفوا الزراعة واستعدبوا ثمارها^(٢٣)

حفر الآبار وبناء السدود

تمثل الطبيعة الجغرافية للجزيرة العربية تحدياً كبيراً أمام الملك عبد العزيز (رحمه الله) لتنمية الزراعة لذلك أوعز بحفر الآبار وبناء السدود وتركيب طواحين الهواء، وتركيب مضخات تدار بزيوت الديزل، بل ذهب به الأمر إلى استيراد المياه لسد حاجة الناس في الهجر سنة (١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م)، وعمل على إيصال المياه إلى المدن من خلال مد الانابيب من وادي فاطمة تغذي مدينة جدة بمليون غالون من الماء، ثم أوصل الانابيب إلى مدينة مكة^(٢٤)

انشاء المديريات الزراعية

بدأت المملكة العربية السعودية بإنشاء مديرية الزراعة في جدة (١٣٦٧هـ/ ١٩٤٧م)، وقامت بإجراءات ساهمت في التنمية الزراعية منها: زيادة المساحة المزروعة من خلال توزيع أراضٍ للراغبين في استئجارها لقاء عُشر انتاجها، وتحسين حالة الأراضي الزراعية، وتجهيزها للإنتاج بشكل عام، ثم القيام بدراسة جيولوجية واسعة لتحديد أماكن بناء سدود وحفر آبار^(٢٥).

تأسيس المشروعات الزراعية الحديثة

به ويرده في موعده، وقيام مديرية الزراعة بصرف سلف للمزارعين من أجل المساهمة في رفع مستوى الزراعة والرقي بها وتطورها^(٣٣). ولم يقف الأمر عند ذلك، بل اهتم (رحمه الله) بالمزارعين والحرص على مصالحهم، إذ كان (رحمه الله) يعفي بعض المزارعين من تسديد اثمان المعدات الزراعية، والتبئيه على المزارعين بعدم بيع السواني والبيوت لسداد الديون، بسبب تراكمها عليهم، لاسيما على أهل بريدة^(٣٤).

الإعانات المالية

تعدّ الإعانات المالية أحد أوجه التنمية التي اعتمدتها حكومة الملك عبد العزيز (رحمه الله)، إذ قامت بتوزيع إعانات مالية لتشجيع العمل الزراعي، ففي سنة (١٣٦١هـ / ١٩٤٢م) وزعت الحكومة ٣٠ ريالاً ذهباً مع كل كيس من القمح، وفي سنة (١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م) وزع على الفلاحين حوالي مليون ونصف المليون من فئة الريال العربي، وفي سنة (١٣٦٤هـ / ١٩٤٥م) منع بعض التجار الدائنين من التصرف في الرهن الذي يرهونه على بعض المدينين من المزارعين، مثل السواني والبيوت^(٣٥)، كل ذلك للتخفيف عن الفلاح وإنجاح مهمة الزراعة التي وكلت له.

(١/١) ٢- نتائج التنمية الزراعية

أن ما قامت به المملكة العربية السعودية خلال حكم الملك عبد العزيز (رحمه الله)، من إجراءات تعزز من التنمية الزراعية، هل انعكس ذلك إيجاباً على نمو وازدهار الزراعة، إذ بنموها وازدهارها يعني نجاح الإجراءات التنموية، وهذا ما لوحظ في الازدهار التصاعدي للزراعة في المملكة مدة الدراسة. وأول نتائج التنمية الزراعية هي زيادة المساحات المخصصة للزراعة في المملكة العربية السعودية خلال العشر سنوات من (١٣٦١هـ / ١٩٤٢م) إلى (١٣٧١هـ / ١٩٥٢م)، بزيادة لا تقل عن ٣٠ ألف هكتار، ووفق ما نشاهد في المخطط في أدناه^(٣٦):

"جلبت ماكنات حديثة لاستخراج المياه وغيرها في أراضي الحجاز، فنجحت نجاحاً باهراً كان من نتائجها أن أقبل الاهلون على جلب مثل هذه الماكينات لاستعمالها في الزراعة"^(٣٧)، واستمرت عملية استيراد المكنة، بل وتوزيعها على المزارعين، ففي سنة (١٣٥٠هـ / ١٩٣٢م)، تم استيراد ١٢٠ ماكينة زراعية، وتوزيعها على المزارعين في مديني القصيم والمدينة المنورة، مع اعطائهم مبلغ ٥٠ جنيه، يعيدها المزارع للدولة على شكل أقساط ولمدة ٦ سنوات^(٣٨)، وكانت تلك الآلات والمكائن تستورد من مناشيء عالمية مثل ماكينات رستن، وماكينات فلبلي، وعمدت الدولة على توفير عدد من المهندسين في كل جهة تقدم منها تلك الماكينات لتركيبها وإصلاحها، وبيع الأدوات بموجب أحكام مقررة تحت مراقبة وزارة الزراعة^(٣٩).

الاعفاء الجمركي

لم تهمل الدولة آنذاك الواقع الاقتصادي العام للمزارعين، ولأجل تخفيف الأسعار عنهم قامت الدولة في سنة (١٣٥٨هـ / ١٩٣٨م) بإعفاء الآلات الزراعية من التعرفة الجمركية، وبموافقة من أعلى سلطة، ولم يقف الأمر على إعفاء الآلات الزراعية فقط من التعرفة الجمركية، بل شمل كذلك آلات تفريخ البيض وآلات حلب الابقار وصفائح تعبئة التمور والكاز الأبيض الخاص بالإضاءة، والديزل المستعمل في تشغيل المكائن الزراعية^(٤٠). وهذا يعزز من استخدام الآلات الحديثة في الزراعة أولاً، ومن ثم يجعل تلك الآلات أكثر رخصاً بعد إعفائها من رسوم الجمرك، مما يعزز انتشارها بشكل واسع في أراضي المملكة.

استخدام نظام التقسيط

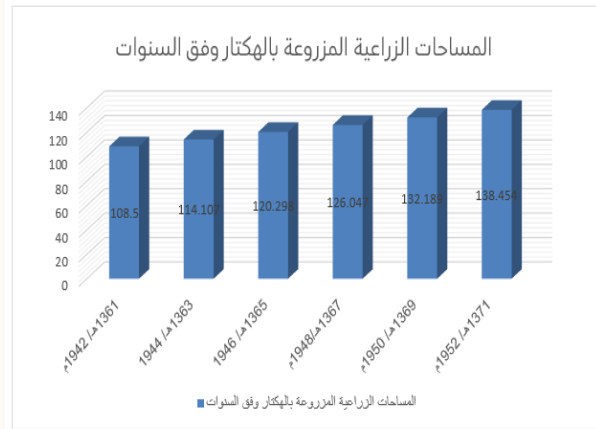
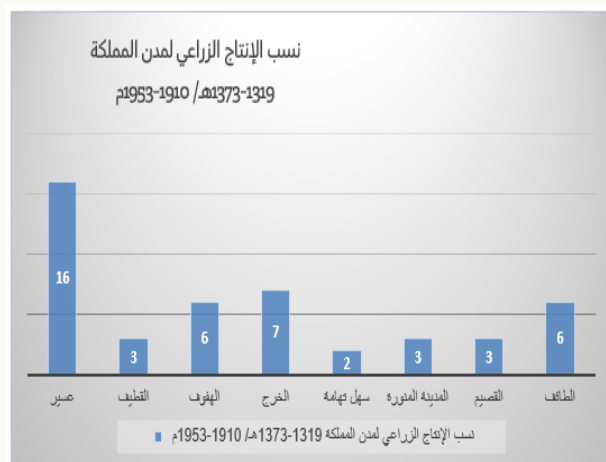
لغرض تخفيف العبء على المزارعين ومساعدتهم في الحصول على مكنة زراعية حديثة، قامت الدولة بتقسيط قيمة الماكينات عليهم بطريقة مناسبة، وتشكيل لجنة لتقرير حاجتهم من عدمها، وتكون مسؤولة عن دفع باقي الأقساط في وقتها، وقد استمرت تلك المعونات تقدم للمزارعين وذلك بهدف تنمية القطاع الزراعي، فضلاً عن توفير نظام الأقساط، كان هنالك نظام لتسليف المزارعين عن طريق إعطاء المزارع قرضاً ينتفع

العربية السعودية من بلد صحراوي إلى بلد منتج زراعياً، لا بل هنالك تنوع واضح في نوع المزروعات^(٤٣).

جدول رقم (١)

المنتجات الزراعية في المملكة العربية السعودية خلال الفترة (١٩١٠ - ١٩٥٣م)

نوع المحصول	المدينة
الحبوب، مثل: القمح والشعير والذرة الصفراء والبيضاء والدخن والسمسم واللوبياء، والاعلاف مثل البرسيم، القطن، والليف الأبيض (لصناعة الحبال)، والصمغ العربي، وصمغ شجرة القتاد، واللبن (ينتج من شجر الدوم وتستعمل خشابه في المباني)، والموز والعنب، والبن.	عسير
التمور، والبرسيم والخضار.	القطيف
التمور، والبرسيم والخضار والفواكه والحبوب مثل القمح والشعير والأرز.	الهفوف
التمور، والبرسيم والحبوب مثل القمح والشعير، والذرة، والفواكه، والخضار.	الخرج
الحبوب مثل الذرة، والدخن.	سهل تهامة
التمور، والخضار، والفواكه مثل العنب.	المدينة المنورة
التمور، والحبوب مثل القمح، والشعير.	القصيم
القمح والشعير والذرة بنوعيهما، والفواكه، والخضار، والورد.	الطائف



مخطط رقم (١)

المساحات الزراعية المزروعة بالهكتار وفق السنوات (١٩٤٢ - ١٩٥٢)
من عمل الباحث

ولوحظ أن المساحات المزروعة في مدينة الخرج وحدها قد ازدادت، وهذا لم يكن صدفة، بل كان نتيجة السياسات التنموية، فقد وصلت المساحات المزروعة من ٣٥٠٠ فدان إلى زيادة وصلت بحدود ٨٠٠٠ فدان^(٣٧)، فضلاً عن ذلك فقد زادت الآبار التي عمّرت في نجد وحدها ووصلت إلى حدود من ١٠٠ بئر^(٣٨). ولم يقف الأمر عند ذلك، فقد تنوعت المحاصيل الزراعية فبعد أن كانت المملكة تعتمد على زراعة النخيل فقط إذ كانت تشكل أشجار النخيل ما نسبته ٩٠% من مساحة الأراضي الزراعية في بريدة وعنيزة، وكانت تزرع تحت ظل أشجار النخيل أشجار الفواكه والخضراوات والبرسيم اللازم لطعام الحيوانات^(٣٩)، وكانت الهفوف تنتج من التمر بما يقدر بـ ٥١ ألف طن سنوياً^(٤٠)، والقطيف تنتج ما يقارب ٣٤ ألف طن سنوياً^(٤١)، ازداد التنوع الزراعي بشكل إيجابي في المملكة خلال حكم الملك عبد العزيز (رحمه الله)، ووصلت إلى مرحلة تحقيق الامن الغذائي، والاكتفاء الذاتي، واستقرار لاقتصاد المواطن وتنميتها ضرورة لتحقيق ذلك^(٤٢).

ومن كل ما سبق ظهرت هنالك نتائج رائعة يوضحها الجدول التالي، إذ يتضح فيه تنوع المنتجات الزراعية في المملكة العربية السعودية خلال المدة ١٣١٩-١٣٧٣هـ/ ١٩١٠-١٩٥٣م وحسب المناطق، وهذا يدل على نجاح الإجراءات التنموية التي حدثت آنذاك، وتحول المملكة

السعودية لم يظهر بالصورة التجارية إلا في سنة (١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م)^(٤٦)، بعد أن أعلنت شركة ستاندر أويل أوف كاليفورنيا الأمريكية بالشراكة مع شركة تكساس أويل عن اكتشاف البترول بكميات تمكن من استثماره، ولكن الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥م) حالت دون الاستفادة منه بالشكل المرضي، إلا في سنة ١٣٦٤هـ / ١٩٤٤م، على الرغم من أن المملكة العربية السعودية بدأت بعقد اتفاقياتها النفطية من سنة ١٩٣٣، استفادت خلالها من الحصول على قرضاً مبدئياً قدره (٣٠) ألف جنيه إنكليزي ذهبي، مع إيجار سنوي قدره (٥) آلاف جنيه إنكليزي ذهبي أو ما يعادله، واستمرت الاتفاقيات ففي سنة (١٣٥٩هـ / ١٩٣٩م) تعهدت الشركة (أرامكو) أن تقدم للملكة العربية السعودية (١٤٠) ألف جنيه إنكليزي ذهبي أو ما يعادلها^(٤٧).

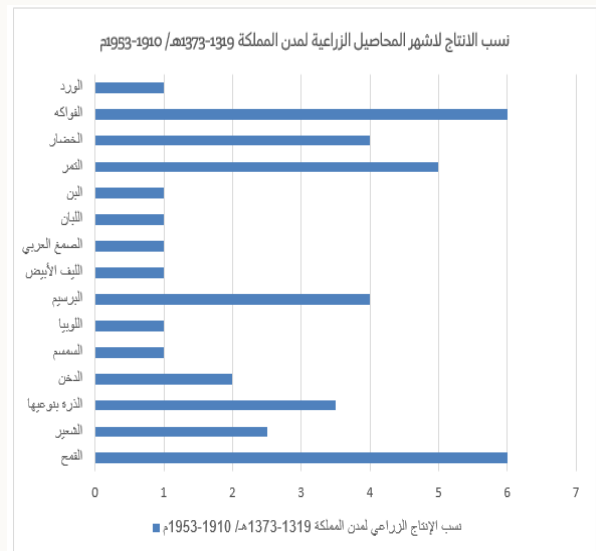
لذا ساهمت الثروة المدفونة في باطن الأرض من نفط وغاز طبيعي، فضلاً عن المعادن مثل الحديد والذهب والنحاس والفضة وغيرها من المعادن، إلى العمل جدياً نحو استثمارها بما يحقق سد الحاجات ومن ثم الرفاهية^(٤٨)، وبعد ازدهار سوق النفط عالمياً، تحركت المملكة العربية السعودية وفاتحت شركة أرامكو بضرورة تعديل الاتفاقية السابقة، وليكون مناصفة الأرباح أساس للاتفاق الجديد، وتم توقيع الاتفاقية في سنة (١٣٧٠هـ / ١٩٥٠م)^(٤٩)، بحيث تضاعفت إيرادات النفط وبلغت ١١٠ مليون دولار في سنة (١٣٧١هـ / ١٩٥١م)، وفي سنة (١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م)، بلغت الإيرادات ٢١٢ مليون دولار^(٥٠).

ساهم الاتفاق الجديد في زيادة كبيرة حصلت عليها الخزينة العامة^(٥١)، بل ذهب أحد الباحثين إلى القول إن هذه الاتفاقية كانت نصراً كبيراً للملكة العربية السعودية، شعباً وحكومة، لما حققت من فرض لإرادتها من جهة ورضوخ الشركات النفطية لمطالبها من جهة أخرى، ونجاح الاتفاقية تمثل في الآثار والتداعيات الإيجابية التي انعكست على أرض الواقع من تطور اقتصادي انعكس على الازدهار العمراني في مجالات بناء المدارس والمستشفيات وإنشاء الطرق والجسور^(٥٢). وفضلاً عما وفره النفط من أموال ساهمت في التنمية

مخطط رقم (٢)

يوضح أعلى مدينة بالإنتاج الزراعي لمدن المملكة^(٤٤) خلال الفترة (١٩١٠ - ١٩٥٣م)

ومن المخطط أعلاه (رقم ٢) يتضح أن مدينة عسير كانت أكثر مدن المملكة تنوعاً في زراعة المحاصيل الزراعية، يليها مدينة الخرج، ثم الطائف والهفوف. وبعد أن كانت زراعة النخيل هي الزراعة المشهورة في الجزيرة العربية، يتضح من المخطط في أدناه (رقم ٣) أن زراعة القمح قد توزعت على مدن المملكة العربية السعودية، يليها زراعة الفواكه، وجاءت زراعة النخيل بالمرتبة الثالثة، توزيعاً على المدن. وهذا يشكل نقلة نوعية في طبيعة الطعام المعتمد من قبل السكان، فضلاً عن نجاح الإجراءات التنموية التي عملت على زيادة الزرع أولاً، ثم تنوعها ثانياً.



مخطط رقم (٣)

يوضح أشهر المحاصيل الزراعية في المملكة^(٤٥) خلال الفترة (١٩١٠ - ١٩٥٣م)

٢/١-السياسات النفطية والمعدنية، وأثرها

في التنمية الاقتصادية

يقوم اقتصاد الدول قبل اكتشاف النفط على ثلاثة أركان، الزراعة، والصناعة والتجارة، ولكن بعد اكتشاف النفط، عد النفط مورداً مهماً من موارد الدولة المالية، لكن يجب أن لا نغفل أن النفط في المملكة العربية

نفس السنة اثنين من المهندسين الأوروبيين ليتولى أحدهما إدارة المصنع الحكومي بجدة، الخاص بالسيارات^(٥٦).

ولم يقتصر الأمر على ذلك ففي سنة (١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م)، تم تأسيس ورشة جديدة في جرول، إلى جانب ورشة جدة، ودار الصناعة والكسوة في مدينة مكة المكرمة^(٥٧)، وفي سنة (١٣٥٠هـ/ ١٩٣٢م)، تم تأسيس مصنع للخياطة في مدينة مكة المكرمة^(٥٨)، وفي عام (١٣٥٢هـ/ ١٩٣٤م)، كان العمل على تأسيس مشروع الغزل والنسيج الوطني في المدينة المنورة^(٥٩). لذلك يمكن القول إن الصناعات خلال حكم الملك عبد العزيز (رحمه الله)، قد تطورت بإدخال مصانع حديثة، لم تقض على الصناعات التقليدية بالتأكيد، لكن دخول المصانع الحديثة أسهمت بشكل فعال في تنوع الإنتاج الصناعي وتطويره، وهذا لم يأت من فراغ، بل من إجراءات تموية، منها تسهيل دخول المصانع الحديثة، كل ذلك كان سبباً في تنمية اقتصاد المملكة آنذاك.

٢/٢- السياسات التجارية، وأثرها في التنمية الاقتصادية

اهتمت الحكومة السعودية بالتجارة وتنميتها من خلال بعض الإجراءات الريادية تمثلت في إقامة المعاهدات مع الدول الأخرى، مثل اتفاقية رمضان ١٣٤٤هـ/ مارس ١٩٢٦م مع سوريا، التي هدفت إلى تنظيم الجمارك للمنتجات الزراعية والحيوانية والصناعية، وتبادل النقود الذهبية والفضية^(٦٠)، وتم تعزيزها بمعاهدة أخرى سنة (١٣٥٠هـ/ ١٩٣٢م)، إذ احتوت في بعض بنودها ضرورة توفر شهادة مصدر لدى القوافل الحاملة للبضائع تحتوي على جميع التفاصيل التي تختص بالبضائع التجارية وحيوانات النقل^(٦١)، واتفاقية أخرى سنة (١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م)، حررت خلالها حركة التبادل التجاري من صادرات وواردات مما سمح بتنمية العلاقات الاقتصادية وتطورها^(٦٢).

ولم يقتصر الأمر عند عقد الاتفاقيات لتنمية التجارة، بل ذهبت الدولة في سنة (١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م) إلى إنشاء محكمة تجارية جديدة^(٦٣)، لفض النزاعات التجارية، وهذا كله يساهم في تنمية التجارة. وتنقسم

الاقتصادية بشكل عام، فقد ساهمت الشركات النفطية في تنمية الزراعة من المشروعات الزراعية.

ثانياً: السياسات والتنظيمات في عهد الملك عبد العزيز وأثرها في التنمية الاقتصادية

سيتطرق المبحث الثاني إلى جانب مهم من الجوانب الاقتصادية التي نالت اهتمام الملك (رحمه الله)، وهو الجانب الصناعي، والجانب التجاري، فضلاً عن التنظيمات المالية، إذ عمدت الدولة آنذاك إلى الاهتمام في تنميتها، واستثمار كل ما له دور في ريادة الصناعة والتجارة، والمال، وسيتم تناولهما وفق الفقرات الآتية:

١/٢- السياسات الصناعية، وأثرها في التنمية الاقتصادية

أجمع أهل التنظير على القول: أن التصنيع هو حجر الأساس في عملية التنمية الاقتصادية^(٥٣). فهل كانت هنالك صناعات في المملكة العربية السعودية أيام تأسيسها؟

لا يمكن القول بأنه لا توجد صناعات، فيذكر أن مدن المملكة كان فيها صناعات، لكن ما يميز تلك الصناعات أنها بدائية ويدوية، مثل الصناعات الجلدية كدبغ الجلود، وصناعة الأحذية، والأحزمة والمحافظ والأكياس وبيوت المسدسات والخناجر ومحافظ البنادق والأسرجة والرحال، وبعض الصناعات الأخرى كصناعة أواني الطبخ والهاونات، ودلال القهوة والحلي الفضية والذهبية، والمحامص والاقفال والعتلات والمواقد والمسامير، وصناعة السروج والرحال التي كانت تصنع من خشب الاثل، فضلاً عن صناعة الغزل والنسيج بمغازل يدوية خشبية وبانوال يدوية خشبية تكون عادةً في البيوت^(٥٤)، لكن تلك الصناعات مع ظهور الدولة أيام الملك عبد العزيز (رحمه الله)، قد تطورت ودخلت إليها المصانع، وأول دخول المصانع الحديثة إلى المملكة العربية السعودية كان في سنة (١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م)، إذ تم فيها تأسيس مصنع للثلج في مدينة جدة، يديره أحد كبار التجار النجديين^(٥٥)، واستدعت الحكومة آنذاك في

الاقتصاد العام إلى تشجيع التجارة الخارجية، ولغرضين، الأول: إدخال البضائع التي يحتاجها السكان، والثاني: إدخال الحداثة إلى البلد مما أنتجته البلدان الأخرى من بضائع سواء إنتاجية كالمصانع أو استهلاكية، وانقسمت التجارة الخارجية إلى واردات إذ كانت البلاد تستورد كل ما يحتاجه السكان كالشاي والبُن والمنسوجات القطنية والأدوات المنزلية^(٦٨).

وأغلب البضائع كانت تدخل إلى المملكة، كان عن طريق الموانئ، فضلاً عن البر، والحركة التجارية الخارجية قديمة جداً، وتعززت مع دولة الملك عبد العزيز (رحمه الله)، ففي سنة (١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م)، وصلت الباخرة (ولفس بوك) إلى مدينة جدة قادمة من انتورب وعليها ٤٢٨ طرد بضاعة^(٦٩)، ثم وصلت باخرة (تالودي) في نفس السنة قادمة من مدينة السويس، وعليها ٧٨٦ طرد بضاعة^(٧٠)، ووصلت باخرة أخرى (ساسري)، قادمة من مصر ومحملة بـ ٤٢٣ طرد بضاعة^(٧١)، وأخرى من نفس السنة قادمة من مدينة البصرة (الباخرة زيزياش)، وعليها ٣٠٠ طن بضاعة^(٧٢)، وباخرة خامسة (الباخرة تالودي)، قادمة من ميناء سواكن محملة بـ ١١٣٤ طرد بضاعة^(٧٣).

وهذا العدد من السفن الواصل إلى ميناء جدة في نفس العام، يوضح أهمية ميناء جدة أولاً، ثم يوضح نشاط التجارة الخارجية للمملكة العربية السعودية آنذاك، وبالتأكيد فإن كل السفن التي تصل إلى مدينة جدة كانت تفرغ حمولتها من بضائع، وتشحن بضائع أخرى، فضلاً عن أن ميناء جدة كان حلقة وصل بين بلدان شرق آسيا وبين مصر والشام وتركيا.

ومعلوم أن المملكة العربية السعودية لم تستورد فقط، بل كان لها صادرات معلومة، إذ تنوعت صادراتها سواء الداخلية بين المدن أو الخارجية مع البلدان الأخرى، فاشهر الصادرات التجارية هي الجمال ففي سنة (١٣٤٦هـ / ١٩٢٨م)، كان عدد الابعار التي وصلت إلى أسواق سورية قادمة من الجزيرة العربية كانت بحدود ٤ آلاف بغير^(٧٤). أما البضائع فقد كانت تصدر بكميات كبيرة توضحها اعداد الجمال التي تحملها، ففي سنة (١٣٤٦هـ / ١٩٢٨م)، وصل إلى سورية من بلاد نجد قافلة من الجمال تصل إلى ١٢٠ جملاً تحمل بضائع

التجارة في المملكة العربية السعودية حالها حال الدول الأخرى إلى تجارة داخلية وتجارة خارجية، وسنفصلها كما يأتي:

التجارة الداخلية:

اشتهرت العديد من مدن المملكة برواج التجارة فيها مثل الرياض وعنيزة وبريدة وحائل، وكانت تلك المدن تشكل مراكز تجارية تستورد البضائع من بلاد الشام عن طريق الجوف فحائل فالرياض، ومن بلاد إيران والعراق كانت البضائع تأتي عن طريق البصرة ثم إلى الكويت فالهفوف وقطر ثم إلى الرياض، وأحياناً من البصرة إلى حائل وتوزع في الداخل^(٦٤)، فساهمت تلك المدن على وجود حركة تجارية داخل المملكة العربية السعودية.

كما ساهمت القبائل البدوية في ظهور الحركة التجارية الداخلية، إذ لم يقتصر نشاطها التجاري على حدود ارضهم، بل امتد إلى المدن، فكانوا يبيعون منتوجاتهم الحيوانية ويشتررون من الأسواق ما هم بحاجة إليه، كالسكر والبُن والأرز والمصنوعات المنزلية والحلي الفضية والذهبية^(٦٥). أما أشهر البضائع ذات الرواج التجاري آنذاك فكانت الفواكه والخضار واللحوم والمصنوعات الأخرى كأدوات المنزل والشاي والبُن والهيل والقرنفل والعدس وال فول والحبوب والأرز^(٦٦).

وعن طبيعة حركة التجارة الداخلية، فقد كانت منضبطة بإجراءات تنظيمية تسهم في رفع مستوى اقتصاد الدولة، فمن تلك الإجراءات، كما جرى في سنة (١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م)، إذ لم يسمح لتجار الرياض بنقل البضائع إلى الجوف والقريات، مثلما يجري نقلها عن طريق حائل، كما حددت الحركة التجارية الداخلية بأن يكون نقل البضائع إلى القرى والجوف عن طريق السواحل الحجازية فقط، وإذا كانت هنالك رغبة من التجار بنقل البضائع من الحجاز إلى الجوف والقريات، فيطلب منه أخذ الموافقات من النائب العام أو وزير المالية^(٦٧). ويبدو أن تلك كان يهدف إلى ضبط نقل البضائع أولاً، ثم فرض الجمرع عليها ثانياً.

التجارة الخارجية:

لم تقتصر التجارة في المملكة العربية السعودية على التجارة الداخلية، بل ذهبت الدولة ولغرض تنمية

وطريق آخر إلى وادي السرحان، وطريق من مدينة مكة المكرمة إلى الخريبة، وكانت تخطط آنذاك لمشروع طريق سير المركبات بين مكة المكرمة والطائف.^(٨١)

وحرص الملك (رحمه الله) على استخدام وسائط النقل الحديثة مثل السيارات، ففي حضوره في المؤتمر الوطني سنة (١٣٥٠هـ / ١٩٣٢م)، قال: "وكذلك مسألة السيارات، فلها أضرار ومنافع، وقد كنا فكرنا في توحيدها وجعلها شركة في الحالة الوسطى والبحث في مصلحة البلاد والمشاريع التي يمكن تطبيقها فيها والتي يرجى منها الفائدة للبلاد والعباد"^(٨٢)، وفي خطابه (رحمه الله) في نفس السنة في القصر الملكي في مكة المكرمة ذي الحجة ١٣٥٠هـ / أبريل ١٩٣٢م قال: "وإني أقول بوجود القوة في كل شيء، في الزراعة وفي السياسة وفي الصناعة وفي كل امر فيه طاعة لله"^(٨٣)، فكانت الهمة على تحديث كل الوسائل التي تسهم في التنمية الاقتصادية.

لذلك سعت الحكومة على الاستمرار في توسيع وتحديث طرق النقل ففي سنة (١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م)، استعانت بمهندسين مصريين على تعبيد طريق جدة - مكة المكرمة بطول ٤٦ ميل، ثم رصف ذلك الطريق بالأسفلت مرة أخرى بواسطة شركة أرامكو، وتم تعبيد طريق الرياض - الطائف - مكة المكرمة، وطريق آخر بين الرياض - الهفوف - الظهران - القطيف - جبيل بواسطة شركة أرامكو أيضاً^(٨٤) وهل اقتضت إجراءات التحديث على الطرق البرية؟ بالتأكيد لا، فكان الاتجاه نحو تحديث بقية وسائط النقل لاسيما الطيران إذ تم تأسيس شركة الطيران السعودية سنة (١٣٦٧هـ / ١٩٤٧م)، بعدد ١٠ طائرات^(٨٥)، ومد سكة حديد الدمام - الرياض سنة (١٣٧١هـ / ١٩٥٢م)^(٨٦). فبتلك الإجراءات التنموية في مجال تحديث وسائط النقل، يمكن القول ان النظرة الريادية للملك (رحمه الله) ساهم إلى تطور هذا القطاع الاقتصادي المهم.

تحديث نظام الجمارك:

يُعدّ نظام الجمارك من الأنظمة المرتبطة بالتجارة، ومن خلالها يتم تنظيم عمل السلع الصادرة والواردة، وفرض رسوم عليها متى ما اقتضت الضرورة لذلك،

اليها، فضلاً عن ذلك كان الملح يصدر من الجزيرة ويصل إلى سورية مثلاً بقوافل تصل بين ١٤٠-١٥٠ جماًلاً محملة بالملح، وكانت تلك القوافل تعود محملة بالضائع أيضاً^(٧٥).

وكانت التمور من أهم البضائع التي تصدر من مدن المملكة داخلياً كان أم خارجياً، إذ كانت التمور من أشهر الصادرات التي تصدرها مدينة الاحساء، وكانت مدن المملكة تُصدر إلى مدينة جدة ما مجموعه ٩٠٠٠ طن من التمور سنوياً، وكانت يصل إلى قطر من التمور ما مقداره ٢٠٠٠ طن، وقيل إن المملكة كانت تستهلك من التمور ما مقداره ٤٠ ألف طن سنوياً، ويصدر الفائض إلى نجد والكويت^(٧٦).

من كل ما سبق يتضح أن الحركة التجارية الداخلية والخارجية في المملكة العربية السعودية آنذاك كانت تنشط، وفي تزايد مستمر ولأجل ذلك كانت هنالك إجراءات ريادية لتستوعب ذلك الحراك التجاري، مثل:

إنشاء الطرق وتطوير وسائط النقل:

معلوم أن الجزيرة العربية كانت تعتمد في التنقل على الدواب بشكل عام، فقد كانت الجمال أحد وسائل النقل التقليدية لنقل البضائع التجارية، بين مدن الجزيرة العربية^(٧٧)، وما أن أُدخلت السيارات كواسطة نقل حديثة، عمل الملك (رحمه الله) على ربط أجزاء المملكة المترامية الأطراف بشبكة من الطرق ومحطات القطر^(٧٨).

لذا يمكن القول إن الحداثة في تطور وسائط النقل كان لها إلى اتخاذ إجراءات سريعة تسهم في زيادة التنمية التجارية، ومنها ضرورة إنشاء وتوسيع طرق النقل الموصلة بين المدن، لاسيما بعد أن نعلم أن أول سيارة دخلت إلى المملكة العربية السعودية كان سنة ١٩١٥^(٧٩)، وما تلا ذلك من ظهور مصانع لإنتاج السيارات في مدينة جدة كما ذكرنا ذلك في صفحات سابقة. فأول تلك الإجراءات كان في سنة (١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م)، إذ تم تعبيد طريق جدة-مكة المكرمة^(٨٠)، ولم يقف الأمر عند ذلك ففي سنة (١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م)، قامت الحكومة بإصلاحات في بعض الطرقات العامة، وفتح طرق جديدة من المدينة المنورة إلى مدينة العلا،

تفعيلها، ومن أهم تلك المؤسسات هي وزارة المالية. وتعدّ من أشهر الوزارات التي أنشئت في عهد الملك عبد العزيز (رحمه الله)، وارتبطت بالتنمية الاقتصادية، إذ لم تكن للمالية حين نشوء الدولة تشكيلات بالمعنى المؤسساتي المعروف، لذلك مر تأسيس وزارة المالية بالمراحل اللاحقة^(٩١):

- أنشئت في كل بلدة من بلدان المملكة "إدارة" لحماية الزكاة، مستقلة عن غيرها، مرجعها حاكم البلدة، ويكون الملك عبد العزيز مرجعية للجميع.
- أمر بوضع ترتيب لربط الإدارات المالية الصغيرة المتفرقة في الحجاز بإدارة واحدة مسؤولة أمامه، فأنشئت في ١٧ ربيع الآخر ١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م، مؤسسة في مدينة مكة المكرمة سميت "مديرية المالية العامة" وتولاها عبد الله السليمان الحمدان بلقب "مدير المالية العام"^(٩٢).

وهنا يجب التطرق إلى أهم مهام وزارة المالية في التنمية الاقتصادية، وهي الاستقلالية النقدية، وأن يكون للدولة سكة خاصة بها تعزز من وحدتها واستقلاليتها السيادية والمالية، ولأن التنظيمات المالية أحد أركان الاقتصاد، فبدون المال، لا يوجد اقتصاد حقيقي، والمال هنا نقصد به المال الحقيقي الملموس الممثل بالنقد، لذلك تُعدّ العملة النقدية للبلدان دلالة على استقلاليتها، وهذا ما عمل عليه الملك عبد العزيز (رحمه الله) مع أول أيام تشكيل الدولة، لاسيما وأن الجزيرة العربية لم تكن تملك عملة خاصة بها، بل كانت تعتمد على النقود العثمانية والإنكليزية، بل ذهب الأمر أن تعتمد نجد على العملة النمساوية، وكان النقد يتوافد على الجزيرة ويزيد من تنوعه من خلال دخول الحجاج مع عملات بلادهم، وهذا الخليط من العملات الأجنبية، مع غياب العملة المحلية تماماً، أدى إلى فوضى في التعامل وأثر على العمل التجاري، ولم يكن أمام دولة الملك عبد العزيز (رحمه الله) إلا الإبقاء على التعامل مع تلك العملات الأجنبية على اختلافها^(٩٣).

وهنا يحق لنا أن نسأل ما هي الإجراءات الريادية التي أسهمت في تنمية الاقتصاد من خلال سك النقود؟ قبل الإجابة على السؤال، يجب أن نعطي تعريف للنقود

لذلك اهتمت الحكومة بالجمارك ففي سنة (١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م)، أصدرت الحكومة نظاماً جديداً للجمارك وتم خلاله إجراء إصلاحات كبيرة في دوائره^(٨٧)، بما يتلاءم مع التنمية الاقتصادية، وتكمن أهمية الجمارك أيضاً، كونها أحد مصادر تمويل الخزينة، فنلاحظ أنه في سنة (١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م)، كانت تفرض على كل راس غنم نصف ريال، وكل مائة وعشرون وزنة سمن، عشرة ريالات، وكل بعير ثلاثة ريالات^(٨٨).

وساهمت مؤسسة الجمرک منذ سنة (١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م) في حماية اقتصاد الدولة من خلال حماية النقد، إذ فرضت الدولة رسوماً جمركية على العملات الفضية التي تدخل إلى البلاد، ولضمان تغطية العملة العربية سمحت بدخول الذهب إلى المملكة بدون رسوم سواء كانت سبائك أو عملات، مع منع خروج الذهب والفضة عملات أو سبائك^(٨٩).

محاوية الاحتكار:

يُعدّ الاحتكار أحد آفات التعامل التجاري المرتبطة مع المواطن، وتساهم في اضطراب أسعار السلع، لذلك واجهتها الحكومة بشكل مباشر، من خلال التأكيد على استيراد سلع معينة، وهذا ما حصل في سنة (١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م)، عندما علمت الدولة بنقص السمن والدقيق والأرز والسكر، وبعض البضائع في مكة المكرمة، عملت على تسهيل وصول تلك السلع إليها وبكميات كبيرة ومن طرق متعددة، إلا أن الأسعار لم تنخفض، وعلمت الحكومة أن سبب ذلك هو احتكار التجار لتلك السلع وخزنها، لاسيما مادة السمن، لذلك كانت الإجراءات هي الأخذ على أيدي أولئك التجار، مع أن الحكومة شاعت أن تترك الناس أحراراً في بيعهم وشرائهم وان لا نتعرض لهم في شيء، إلا أن يصل الأمر إلى احتكار اقوات الناس^(٩٠). وهذا يؤكد أن الدولة عازمة على استقرار الأسواق، وحرية التجارة بما لا يؤثر على اقوات الناس.

٣/٢-التنظيمات المالية، وأثرها في التنمية الاقتصادية

نقصد بالتنظيمات المالية، هي المؤسسات التي ساهمت في تعزيز التنمية الاقتصادية في المملكة العربية السعودية، وكان للملك (رحمه الله) الدور الريادي في

في الحالة الحاضرة بسبب الازمة الاقتصادية الواقعة في كل بلاد العالم^(١٠٢).

ومن ذلك يتضح الإصرار الكبير من قبل الملك على وجود عملة تحفظ مصالح البلاد العامة؛ ولأجل حماية النقد العربي فرضت الدولة رسوماً جمركية على العملات الفضية التي تدخل إلى البلاد، ولضمان تغطية العملة العربية سمحت بدخول الذهب إلى المملكة بدون رسوم سواء كانت سبائك أو عملات، مع منع خروج الذهب والفضة عملات أو سبائك^(١٠٣) وبذلك فرضت الحكومة سياستها المالية على الجزيرة، وأصبح الريال السعودي من أهم العملات في المنطقة كل ذلك بسبب السياسة الريادية في مجال تنمية المال.

خاتمة

تمكنت المملكة العربية السعودية بفضل سياسات الملك عبد العزيز (رحمه الله) الريادية في مجال التنمية الاقتصادية من وضع المملكة على القاعدة الصحيحة لبناء الاقتصاد الشامل للدولة وتنميته بما يخدم الشعب، وهذا ما توصلت إليه الدراسة فضلاً إلى مجموعة من النتائج التي تلخصها فيما يلي:

- ساهم وصول الملك عبد العزيز (رحمه الله) إلى سدة الحكم من توحيد المملكة العربية السعودية تحت نظام حكم مركزي، وإرساء دولة حديثة.
- تمكنت المملكة العربية السعودية وبفضل السياسات الزراعية التنموية من توسيع نطاق المساحات الزراعية، فضلاً عن ظهور تنوع كبير في المزروعات، واستيراد بعض الأشجار من دول الجوار لزيادة التنوع الزراعي، مع الاعتماد على الخبرات الزراعية من العراق ومصر.
- من أهم الإجراءات الريادية في مجال التنمية الزراعية هو إنشاء القرى الزراعية الحديثة (الهجر)، التي ساهمت في استقرار المجتمعات البدوية في أماكن معلومة، واكسبتهم حرفاً يعاشون منها.

التي تعرف بانها أداة اقتصادية واجتماعية مهمة وحيوية يصعب الاستغناء عنها في تسيير شؤون الحياة، والقيام بالمعاملات اليومية، وهي وسيط للمبادلة يتمتع بقبول عام بين الأفراد لإبراء الذمة^(٩٤). وهنا يمكن أن نعرف أهمية وجود النقد الخاص بالدولة.

بما أنه لم تكن هنالك عملة موحدة لكامل مناطق المملكة العربية السعودية بداية تكوينها، إذ كانت النقود المتداولة خليطاً من الجنيه البريطاني والريال الفرنسي، والروبية الهندي وغيرها، ولأن التنمية الاقتصادية من أولى اهتمامات الملك عبد العزيز (رحمه الله)، فقد أمر في سنة (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م) بسك نقود نحاسية سعودية، فظهر القرش، ونصف القرش، وربع القرش، كما أمر بالتعامل بالنقود التركية والفرنسية بعد أن ضرب عليها كلمة "الحجاز- نجد"^(٩٥)، ثم سكت الحكومة قرشاً عربياً سعودياً من النيكل قيمته تعادل نصف قيمة القرش الاميري الذهبي^(٩٦)، وفي سنة (١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م)، أصدر الملك عبد العزيز (رحمه الله) أول نظام للنقد باسم "نظام النقد الحجازي النجدي المسمى بالنقد العربي"^(٩٧)، وفي سنة (١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م) تم سك الريال العربي السعودي، وهو الوحدة الكبرى للعملة، ليحل محل المجيدي والريال النمساوي، وجعل آنذاك بحجة الريال المجيدي^(٩٨)، وأصبح الريال العربي عملة رسمية لمملكة الحجاز وملحقاتها اعتباراً من شعبان (١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م)^(٩٩)، وربطت قيمة الريال العربي بالجنيه الإنكليزي الذهب، وكان يساوي ١٠ ريالات فضة عربية^(١٠٠).

وفي سنة (١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م)، أصدر الملك (رحمه الله) بلاغاً عاماً حول العملات يوضح أهمية وجود عملة خاصة بالمملكة بقوله: "اجتهدت الحكومة أن تقوم بسك عملة تريح بها البلاد وأهلها، وتحفظ بها مصالحها الدنيوية، وفعلاً سكت ريالاً عربياً من الفضة، وقرشاً من النيكل، وكل ذلك حرصاً على راحة البلاد ليكون لها عملة تستند إليها، وبوجودها انقطعت من الحجاز وغيره عملة الاتراك السابقة وهي المجيدي والهلل"^(١٠١)، بل ذهب الملك إلى القول: "إن الحكومة ساعية وعازمة على تعميم عملتها في جميع بلادها ولكن الظروف لم تساعد

الإحالات المرجعية:

- (١) أحمد عسه، معجزة فوق الرمال، ط٣، لبنان، المطابع الاهلية اللبنانية، ١٩٧٢، ص٥٣٩-٥٤٠.
- (٢) عسه، معجزة فوق الرمال، ص٣٢٨.
- (٣) عسه، معجزة فوق الرمال، ص٦١.
- (٤) المصحف والسيف مجموعة من خطابات وكلمات وأحاديث ومذكرات المغفور له جلالة الملك عبد العزيز آل سعود مؤسس المملكة العربية السعودية، ط٣، الرياض، دار الناصر للنشر والتوزيع، جمع واعداد: محيي الدين القابسي، (١٩٨٣)، ص٦٨.
- (٥) عسه، معجزة فوق الرمال، ص١٣٦.
- (٦) مختارات من الخطب الملكية، الرياض، جمع دارة الملك عبد العزيز (١٩٩٩)، ج١، ص١٩-٢٠.
- (٧) مختارات من الخطب الملكية، ج١، ص٣٢.
- (٨) صحيفة أم القرى (١٣٤٦هـ/١٩٢٧م، عدد ١٤٢، ٦ ربيع الأول/ ٢ سبتمبر)، مختارات من الخطب الملكية، ج١، ص٣٨.
- (٩) صحيفة أم القرى (١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م، عدد ٣٨٩، ٢١ محرم/ ٢٧ مايو)، مختارات من الخطب الملكية، ج١، ص٦٧.
- (١٠) صحيفة أم القرى (١٣٥٦هـ/ ١٩٣٨م، عدد ٦٨٨، ١١ ذي الحجة/ ١١ فبراير)، مختارات من الخطب الملكية، ج١، ص١١٨.
- (١١) خلف سليمان النمري، "اقتصاديات النشاط الزراعي في عهد الملك عبد العزيز"، مجلة الدارة، ٤٤، السنة ٢٥ (١٤٢٠هـ)، ص١.
- (١٢) النمري، اقتصاديات النشاط الزراعي، ص١١-١٢.
- (١٣) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، الإصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبد العزيز، الرياض، دار المريخ، ١٩٨٦، ص٣٤.
- (١٤) عسه، معجزة فوق الرمال، ص٦٤٥؛ الويس موسيل، آل سعود دراسة في تاريخ الدولة السعودية، ترجمة عن الألمانية: سعيد بن فايز السعيد، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٣، ص٥٣.
- (١٥) صحيفة أم القرى (١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م، عدد ٣٨٧، ٧ ذي الحجة/ ١٣ مايو)، مختارات من الخطب الملكية، ج١، ص١٩-٧٠.
- (١٦) صحيفة أم القرى (١٣٥١هـ/ ١٩٣٥م، عدد ٤٣٤، ١١ ذي الحجة/ ١٦ إبريل)، مختارات من الخطب الملكية، ج١، ص٧٠.
- (١٧) أمين الريحاني، تاريخ نجد وملحقاته وسيرة عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاته، طه، الرياض، منشورات الفاخرية، ١٩٨١، ص٢٦٢.
- (١٨) النمري، اقتصاديات النشاط الزراعي، ص١٢؛ عسه، معجزة فوق الرمال، ص٦١.
- (١٩) عسه، معجزة فوق الرمال، ص٦٢، ١٠٢.
- (٢٠) النمري، اقتصاديات النشاط الزراعي، ص١٣؛ عسه، معجزة فوق الرمال، ص٦٢.
- (٢١) عسه، معجزة فوق الرمال، ص٦٣.
- (٢٢) عسه، معجزة فوق الرمال، ص٦٤؛ الريحاني، تاريخ نجد، ص٢٦٢.
- (٢٣) الريحاني، تاريخ نجد، ص٢٦٤.
- (٢٤) صحيفة أم القرى (١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م، عدد ١٣٧، ٢٩ محرم/ ٢٩ يوليو)، ساعد العرابي الحارثي، الملك عبد العزيز رؤية عالمية، الرياض، دار القمم للإعلام، ١٤١٥هـ، ص٣٧١-٣٧٢.
- (٢٥) النمري، اقتصاديات النشاط الزراعي، ص٢٥-٢٦.
- (٢٦) أبو عليّة، الإصلاح الاجتماعي، ص٢٠-٢٠٦.
- (٢٧) خولة بنت محمد بن سعد الشويعر، وثائق عصر الملك عبد العزيز المتعلقة بالأمور الداخلية المحفوظة في دارة الملك عبد العزيز دراسة تحليلية، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، ٢٠٠٦، ص٧٧-٧٨.
- (٢٨) الشويعر، وثائق عصر الملك عبد العزيز، ص٧٥.
- إدخال المكننة الزراعية الحديثة، ثم إعفاء دخول تلك المكننة من الرسوم الجمركية، وتسهيل وصولها إلى المزارعين من خلال نظام التبسيط، أدى إلى نمو سريع في الجانب الزراعي.
- ساهمت الدولة في دعم الفلاحين من خلال تقديم القروض لهم لشراء المكائن الحديثة، كما قامت في كثير من الأوقات في إطفاء تلك الديون عنهم، فضلاً عن تقديم الإعانات المالية، مساهمة منها لتعزيز التنمية الزراعية.
- إنشاء مديرية تعني بالزراعة (مديرية الزراعة)، تهتم بشؤون المزارعين، وتعمل على إدخال الخبرات إلى البلاد، وزيادة عدد الآبار المستعملة في الزراعة، وبناء السدود.
- اهتمت الدولة بالصناعة من خلال إدخال مصانع حديثة مثل مصانع الثلج، ومصانع السيارات، والنسيج.
- كان للتجارة اهتمام واسع في سياسات المملكة الريادية، التي تساهم في تطويرها منها تحديث النظام الجمركي للبضائع الصادرة والواردة، وإدخال وسائل النقل الحديثة من سيارات وطائرات وقطار، وإنشاء طرق جديدة، والاهتمام بالطرق القديمة من خلال تحديثها.
- حاولت الدولة السيطرة على التجارة وتنميتها من خلال محاربة الاحتكار بتوفير السلع متى ما احتاجت لذلك.
- الاهتمام بالقطاع المالي من خلال انشاء وزارة المالية، التي تبنت إصدار عملة نقدية خاصةً بالمملكة العربية السعودية، والذي يساهم في تثبيت أركان الدولة السيادي والاقتصادي.

- (٢٩) صحيفة أم القرى (١٣٤٩هـ / ١٩٣٠، عدد ٣٠٤، ١١ جمادي الأولى / ٣ تشرين الأول).
- (٣٠) النمري، اقتصاديات النشاط الزراعي، ص٤٨؛ أبو علي، الإصلاح الاجتماعي، ص٢٠٧.
- (٣١) الشويعر، وثائق عصر الملك عبد العزيز، ص٧٥.
- (٣٢) صحيفة أم القرى (١٣٤٩هـ / ١٩٣٠، عدد ٣٠٤، ١١ جمادي الأولى / ٣ تشرين الأول)؛ الشويعر، وثائق عصر الملك عبد العزيز، ص٧٥؛ النمري، اقتصاديات النشاط الزراعي، ص٤٧-٤٨.
- (٣٣) الشويعر، وثائق عصر الملك عبد العزيز، ص٧٥.
- (٣٤) الشويعر، وثائق عصر الملك عبد العزيز، ص٧٦.
- (٣٥) النمري، اقتصاديات النشاط الزراعي، ص٤٦.
- (٣٦) النمري، اقتصاديات النشاط الزراعي، ص٢٧.
- (٣٧) أبو علي، الإصلاح الاجتماعي، ص٢٠٦.
- (٣٨) أبو علي، الإصلاح الاجتماعي، ص٢٠٧.
- (٣٩) أبو علي، الإصلاح الاجتماعي، ص٣٤.
- (٤٠) أبو علي، الإصلاح الاجتماعي، ص٥٥.
- (٤١) أبو علي، الإصلاح الاجتماعي، ص٥٥.
- (٤٢) النمري، اقتصاديات النشاط الزراعي، ص٤٨.
- (٤٣) النمري، اقتصاديات النشاط الزراعي، ص٥٥.
- (٤٤) النمري، اقتصاديات النشاط الزراعي، ص٥٥.
- (٤٥) النمري، اقتصاديات النشاط الزراعي، ص٥٥.
- (٤٦) سعيد بن مشيب بن مالح القحطاني وزهرة سعيد صالح حصوصه، "التنافس البريطاني على النفط في المملكة العربية السعودية في عهد الملك عبد العزيز (١٣٣٨-١٣٦٨هـ / ١٩٢٠-١٩٤٩م)"، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية (جامعة بابل)، ع٣٦، كانون أول (٢٠١٧)، ص٢٥.
- (٤٧) اليكسي فاسيلييف، تاريخ العربية السعودية، بيروت، شركة المطبوعات، ١٩٩٥، ص٤٢؛ عسه، معجزة فوق الرمال، ص٣٣٢-٣٣٥.
- (٤٨) عسه، معجزة فوق الرمال، ص٤٣٠-٤٣١، ص٤٣٥.
- (٤٩) عسه، معجزة فوق الرمال، ص٣٣٩، ص٣٤٨؛ علي معجل الشيعبي، "اتفاقية مناصفة الأرباح في المملكة العربية السعودية الأسباب والتداعيات"، مجلة نسق، مج٣، ع٧، ٣٠ أيلول (٢٠٢٢)، ص٦٩.
- (٥٠) عسه، معجزة فوق الرمال، ص٥١٩.
- (٥١) عسه، معجزة فوق الرمال، ص٣٤.
- (٥٢) الشيعبي، اتفاقية مناصفة الأرباح، ص٧٢-٧٠.
- (٥٣) عسه، معجزة فوق الرمال، ص٦١.
- (٥٤) أبو علي، الإصلاح الاجتماعي، ص٣٨.
- (٥٥) الملك عبد العزيز في مجلة الفتح (قائمة ببلوجرافية)، الرياض: دار الملك عبد العزيز، اعداد: فهد بن عبد الله السماري ومحمد بن عبد الرحمن الربيع، (١٩٩٩)، ص٩٧.
- (٥٦) الملك عبد العزيز في مجلة الفتح، ص٩٧.
- (٥٧) صحيفة أم القرى (١٣٤٩هـ / ١٩٣٠، عدد ٣٠٤، ١١ جمادي الأولى / ٣ تشرين الأول).
- (٥٨) الملك عبد العزيز في مجلة الفتح، ص٩٧.
- (٥٩) الملك عبد العزيز في مجلة الفتح، ص٩٧.
- (٦٠) الهام بنت عطية الله هلال السلمي، العلاقات السعودية السورية في عهد الملك عبد العزيز (١٣١٩هـ - ١٣٧٣هـ / ١٩٠٢م - ١٩٥٣م)، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى، الرياض: ٢٠١٣، ص٢٧٦-٢٧٥.
- (٦١) السلمي، العلاقات السعودية السورية، ص٢٨١.
- (٦٢) السلمي، العلاقات السعودية السورية، ص٢٨٣-٢٨٥.
- (٦٣) صحيفة أم القرى (١٣٤٩هـ / ١٩٣٠، عدد ٣٠٤، ١١ جمادي الأولى / ٣ تشرين الأول).
- (٦٤) أبو علي، الإصلاح الاجتماعي، ص٣٦-٣٥.
- (٦٥) أبو علي، الإصلاح الاجتماعي، ص٣٣.
- (٦٦) أبو علي، الإصلاح الاجتماعي، ص٣٦.
- (٦٧) الشويعر، وثائق عصر الملك عبد العزيز، ص٢٩١.
- (٦٨) أبو علي، الإصلاح الاجتماعي، ص٥٦-٥٧.
- (٦٩) صحيفة أم القرى (١٣٤٩هـ / ١٩٣٠، عدد ٣٠٤، ١١ جمادي الأولى / ٣ تشرين الأول).
- (٧٠) صحيفة أم القرى (١٣٤٩هـ / ١٩٣٠، عدد ٣٠٤، ١١ جمادي الأولى / ٣ تشرين الأول).
- (٧١) صحيفة أم القرى (١٣٤٩هـ / ١٩٣٠، عدد ٣٠٤، ١١ جمادي الأولى / ٣ تشرين الأول).
- (٧٢) صحيفة أم القرى (١٣٤٩هـ / ١٩٣٠، عدد ٣٠٤، ١١ جمادي الأولى / ٣ تشرين الأول).
- (٧٣) صحيفة أم القرى (١٣٤٩هـ / ١٩٣٠، عدد ٣٠٤، ١١ جمادي الأولى / ٣ تشرين الأول).
- (٧٤) صحيفة أم القرى (١٣٤٧هـ / ١٩٢٨، عدد ٢٧، صفر / ٣ أغسطس).
- (٧٥) صحيفة أم القرى (١٣٤٧هـ / ١٩٢٨، عدد ٢٧، صفر / ٣ أغسطس).
- (٧٦) أبو علي، الإصلاح الاجتماعي، ص٥٧.
- (٧٧) أبو علي، الإصلاح الاجتماعي، ص٥٧.
- (٧٨) صحيفة أم القرى (١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م، عدد ١٣٧، ٢٩ محرم / ٢٩ يوليو)؛ الحارثي، الملك عبد العزيز، ص٣٨٨-٣٨٩.
- (٧٩) أبو علي، الإصلاح الاجتماعي، ص٣٨.
- (٨٠) صحيفة أم القرى (١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م، عدد ١٣٧، ٢٩ محرم / ٢٩ يوليو)؛ الحارثي، الملك عبد العزيز، ص٣٨٨-٣٨٩.
- (٨١) صحيفة أم القرى، ع٣٠٤.
- (٨٢) المصحف والسيف، ص٦٨.
- (٨٣) المصحف والسيف، ص٨٠.
- (٨٤) أبو علي، الإصلاح الاجتماعي، ص٢٠٨.
- (٨٥) أبو علي، الإصلاح الاجتماعي، ص٢١١.
- (٨٦) أبو علي، الإصلاح الاجتماعي، ص٢٠٨.
- (٨٧) صحيفة أم القرى (١٣٤٩هـ / ١٩٣٠، عدد ٣٠٤، ١١ جمادي الأولى / ٣ تشرين الأول).
- (٨٨) الشويعر، وثائق عصر الملك عبد العزيز، ص٣٠٤.
- (٨٩) إبراهيم بن عويص الثعلبي، تنظيمات الدولة في عهد الملك عبد العزيز ١٣٤٣-١٣٧٣هـ / ١٩٢٤-١٩٥٣م دراسة تاريخية، الرياض، النشر العلمي والمطابع، ١٩٩٨، ص٢٨٨.
- (٩٠) صحيفة أم القرى، ٦٤، ١٣٤٣هـ.
- (٩١) الشويعر، وثائق عصر الملك عبد العزيز، ص٥٤.
- (٩٢) الشويعر، وثائق عصر الملك عبد العزيز، ص٤٦.
- (٩٣) العتيبي، تنظيمات الدولة، ص٢٨٤.
- (٩٤) سعيد سامي الحلاق ومحمد محمود العجلوني، النقود والبنوك والمصارف المركزية، الأردن، دار اليازوري، ٢٠١٦، ص٢٩.
- (٩٥) الشويعر، وثائق عصر الملك عبد العزيز، ص٧٨.
- (٩٦) الشويعر، وثائق عصر الملك عبد العزيز، ص٧٨.
- (٩٧) العتيبي، تنظيمات الدولة، ص٢٨٧.
- (٩٨) الشويعر، وثائق عصر الملك عبد العزيز، ص٧٩.
- (٩٩) العتيبي، تنظيمات الدولة، ص٢٨٧.
- (١٠٠) العتيبي، تنظيمات الدولة، ص٢٨٨.
- (١٠١) القابسي، المصحف والسيف، ص٢٧٤-٢٧٥.
- (١٠٢) القابسي، المصحف والسيف، ص٢٧٥.
- (١٠٣) العتيبي، تنظيمات الدولة، ص٢٨٨.

المقاومة المسلحة والاستقلال

من خلال مدونة الشعر الشعبي التونسي

بين ١٩٥٢ - ١٩٥٦

طارق محمدي

باحث دكتوراه في التاريخ المعاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - سوسة
الجمهورية التونسية



ملخص

تستعرض هذه الدراسة دور الشعر الشعبي التونسي في توثيق مراحل المقاومة الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي خلال الفترة من ١٩٥٢ إلى ١٩٥٦، موضحة أهمية هذا النمط الأدبي في إبراز تفاصيل الكفاح الوطني الذي شارك فيه الشعب التونسي بكل فئاته. تتمثل أهمية الدراسة في تسليط الضوء على قدرة الشعر الشعبي على توثيق الوقائع التاريخية الكبرى، مثل معارك التحرير والاستقلال الداخلي (١٩٥٥) والاستقلال التام (١٩٥٦)، والتي قد تكون غابت عن بعض المصادر التاريخية الرسمية. تهدف الدراسة إلى إثبات دور الشعر الشعبي كأداة تاريخية فاعلة في نقل الذاكرة الجماعية والتفاعل مع الأحداث السياسية والاجتماعية التي شهدتها تونس في فترة الكفاح ضد الاحتلال الفرنسي. تم استخدام المنهج التاريخي في تحليل القصائد الشعرية الشعبية التي أرخت لتفاصيل المقاومة المسلحة والمعارك البارزة مثل معركة جبل العيودي، وجبل برفو، وغيرها من الأحداث التي تم توثيقها من خلال الذاكرة الشعبية. أبرزت الدراسة قدرة الشعر الشعبي على توثيق التضحيات التي قدمها الشعب التونسي من خلال كلمات الشعراء، حيث تم تحفيز الأجيال على مواصلة النضال من أجل الاستقلال. أظهرت الدراسة أن الشعر الشعبي كان أداة مهمة في حفظ تفاصيل المقاومة والاستقلال، وأنه يعكس الوعي الوطني ويسهم في بناء الذاكرة التاريخية الجماعية للشعب التونسي.

كلمات مفتاحية:

الشعر الشعبي التونسي؛ الحركة الوطنية؛ المقاومة المسلحة؛ الاستقلال الداخلي والتام؛ الذاكرة الجماعية

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٣ أكتوبر ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ١٧ نوفمبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.431869.1296

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

طارق محمدي، "المقاومة المسلحة والاستقلال من خلال مدونة الشعر الشعبي التونسي بين ١٩٥٢ - ١٩٥٦". - دورية كان التاريخية. - السنة التاسعة عشرة - العدد السادس والسبعون: فبراير ٢٠٢٦. ص ١٦١ - ١٧٨.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Internet Archive https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: tarek1993mhamdi@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان 4.0 تحت شروط الترخيص المشاع للمعزاة (CC BY) من Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

لا ريب أن هذه الفترة التاريخية تحتل مكانة متميزة وحظيت بكتابات كثيرة استندت إلى المصادر الارشيفية والخطابات والصحف والكتب والمذكرات والسير والشهادات الحية، وفي هذا السياق ومع اشتغالي على ارشيف ومدونة الشعر الشعبي التونسي في رسالة الماجستير أو أطروحة الدكتوراه واشتغالي على المقالات الوطنية والدولية بالاعتماد على "مدونة الشعر الشعبي". جلب انتباهي اهتمام هذا النمط التاريخي الذي خاض في كل مراحل المقاومة منذ ١٨٨١ إلى جلاء بنزرت ١٩٦٣، بل وقد رافق بناء الدولة الوطنية الحديثة، وسجل الانجازات ومراحل البناء ونحتها من خلال القصائد الشعرية، وأخبر الشعراء الشعبيون عن تضاعف العمل الوطني غداة الحرب العالمية الثانية وصور تنوع طرق الكفاح السياسي والشعبي المسلح التي اعتمدها قيادة الحركة الوطنية والشعب ضد جهاز الاحتلال الفرنسي. فإن كان البحث التاريخي غايته معرفة الحقيقة بكل تفاصيلها أو ملامستها فلا بد من العودة إلى ارشيف الذاكرة الشعبية والموروث الثقافي " المتمثل في مدونة الشعر الشعبي التونسي الذي كان عنصرا فعالا وشاهدا على جزئيات وتفاصيل ما حدث في تلك الفترة، كيف لا وهي الوعاء الذي حفظ تاريخنا النضالي والمقاومة السياسية والمقاومة الشعبية ولد خير الاستقلال الداخلي أو عيد النصر وحدث الاستقلال التام الذي تحتل به تونس إلى يومنا هذا بالقصائد الشعرية الشعبية الملحمة. وتكمن أهمية الدراسة في التعريف على قدرة الشاعر الشعبي الذي كان له الدور الريادي في عملية التوثيق لجل مراحل الكفاح المسلح والمقاومة بين ١٩٥٢ و١٩٥٦ ضد الاحتلال الفرنسي.

كما تكمن أهمية هذه الدراسة في اثبات ثراء وقدرة المدونة الشعبية على رصد ادق التفاصيل للوقائع الكبرى ونجاح الشاعر الشعبي في تصوير صورة مكتملة المعالم لمرحلة المقاومة والاستقلال رغم التجاهل الأكاديمي لهذا النمط من المصادر التاريخية. نهدف من خلال هذه الدراسة إلى اثبات قيمة الشعر الشعبي التونسي في دراسة تاريخ المقاومة والكفاح الوطني والاستقلال من

أجل إحياء الذاكرة الجماعية وتوثيق نضال ومقاومة رجالات الوطن الذين خاضوا المعارك وصنعوا مجد الاستقلال ورفعوا راية الحرية. كما نهدف إلى التذكير برموز النضال السياسي وقادة المقاومة المسلحة.

اعتمدنا في هذه الدراسة على "المنهج التاريخي" لتتبع كبرى المحطات النضالية الوطنية من ١٩٥٢ تاريخ اندلاع المقاومة المسلحة مروراً بتاريخ الاستقلال الداخلي "عيد النصر" ١٩٥٥، وصولاً إلى تاريخ الاستقلال التام.

ويمكن أن نطرح الاشكاليات التالية:

- كيف خلد الشعر الشعبي التونسي كبرى المعارك والوقائع بين ١٩٥٢-١٩٥٤؟
- كيف خلد الشعر الشعبي عيد النصر؟
- كيف أرخ الشعراء الشعبيون لحدث الاستقلال التام؟
- إلى أي مدى نجح الموروث الشعبي التونسي في توثيق تفاصيل هذه المحطات النضالية الكبرى؟

أولاً: أرشيف الشعر الشعبي والذاكرة الجماعية يؤرخ لكبرى الوقائع الشعبية بين ١٩٥٢-١٩٥٤

١/١-دعوة الشعراء الشعبيين إلى المقاومة المسلحة ضد الاحتلال الفرنسي

رافق الشعر الشعبي المقاومة التونسية منذ بدايتها، فكان الشاعر التونسي يصور أحداثها ووقائعها اليومية في الأشعار والقصائد التي توارثتها الذاكرة الشعبية بالرواية من جيل إلى جيل عن طريق الحفظ بالمشافهة أو التدوين، لتصبح اليوم مصدر من المصادر التاريخية التي يمكن الاعتماد عليها في دراسة مسألة المقاومة المسلحة كما سنثبت ذلك في هذا العنصر وبقية العناصر الأخرى من البحث. وسنحاول إبراز الدور التاريخي الذي لعبه الشعر الشعبي في تسجيل تاريخ المحطات النضالية من أجل التحرر. يقول الشاعر "عبادة السعدي" في قصيد "مراحل الحركة الوطنية" وهو يدعو إلى إعلان المقاومة وافتكاك الحق المسلوب في مقطع يبرز قيمة الشعر الشعبي التونسي في المسار النضالي:

ويزرع الأمل في نفوس الشَّعب بأنَّه لا بدَّ من حلول النَّهار
مكان اللَّيل وبعد الحزن سيكون الفرح والسُّرور.
بهذه الطَّريقة تم تشجيع الشَّعر الشعبيّ للمقاومة
الشَّعبية تحت شعار "منعرج التَّحديّات" ضدَّ غطرسة
السلطة الاستعماريّة. كما دعا إلى إعداد وتهيئة الشَّعب
التونسي بمختلف فئاته الوطنيّة. وجّه الشَّاعر الشعبيّ
رسالة مفادها إعلان التمرّد في شكل خلق أجواء من
الاضطرابات المؤثّرة في حدود الإمكانيّات المتاحة من
أجل تفعيل عمل العصابات "الفلاقة" لضرب القوى
الفرنسيّة. وهذا الشَّاعر المرحوم "محمد الصغير
ساسبي" يقول في مقطع شعريّ:

"كانك فهاّم
قلبك راوي بالإسلام
بقوّة وإعزام
ونيه ما فيها تخمام
سيفك جمجام
كونك في الرّبعة فهاّم
مديك غرام
تركب وتغيث المضام
تقصي الظلام
وتبني للفتن علام
اسمك يقام
تتسمّى من ناس كرام
الشّيّ دوام
لوزمن عام ورا عام
ما يحلّي المرّ
كان ومد أوسو والحرّ"^{(٢) (٣) (٤)}

يدعو محمد الصغير ساسبي في هذا المقطع إلى رفع
التَّحديّ ومواجهة الاستعمار والتَّجنّد بالعزم والإرادة
والشَّجاعة والخيل والسَّلاح والالتجاء إلى الجبال،
للقضاء على الظلم وبفعل المقاومة يخلّد التَّاريخ أسماء
الرّجال والمناضلين الذين وهبوا أنفسهم من أجل رفع
راية الوطن وتحريره من غطرسة المحتلّ.
في الأثناء أمام وضع النخب السياسيّة والنّقابيّة في
السجون وبقاء القلّة القليلة خارجه لكنّهم مراقبون من
طرف أعوان السلطة الفرنسيّة أدرك الوطنيّون أنّ الحلّ

"راهي لا وقفت الأقطاب
ولا عوق في الفجّ الذّيب
تتحشّد جملة الأعراب
وتتعمّر كلّ رواقيب
كيف يوقع ضرب النشّاب
توعد الظلام مهازيب
حتّى بورقيبة لا غاب
عنده كلّ بعيد قريب
يرقى ينزل مثل عقاب
عل فرق حبار مساريب
يا تونس ما عاد خطاب
مع ناس تحبّ التّصيب
يلزمنّا شايب وشباب
نوقف للحرث دواليب
اسمع يا فاهم نوصيك
كون عاتي وعمرك يحميك
يا تونس لوما الأقدار
ما كانت الإسلام تبور
مغدورة غاية الأعدار
سابق في علم الشُّكور
تبكي على أولادك الأبرار
في شدّة وقلبك مقهور
لازم بعد الليل نهار
وبعد العكس يكون سرور
اللّي ما تواع الدّين أحرار
ارتاحوا من دنيا الغرور"^{(١) (٢)}

فالشَّاعر يقول بأنَّه لو اجتمع الرّجال حول القادة
الذين وهبوا أنفسهم للنّضال الوطنيّ وتأخذ من الجبال
معسكرات لضرب القوّات الفرنسيّة ويجتمع الجميع
ليشارك في معركة الخلاص والحسم، حتّى في ظلّ
غياب الرّعاء في السجون على غرار الحبيب بورقيبة،
ويشير الشَّاعر أنّه لم يعد وقت للحوار والخطاب من
أجل الحصول على الحقوق والحرية مع السلطة
الفرنسيّة التي جبلت على حبّ السّلطة والتّصيب.
ويدعو إلى التسلّح بالشَّجاعة في مواجهة عدوّ الوطن،

منذ تواجد الألمان في تونس أثناء الحرب العالمية الثانية، كما ساهم بعض العناصر من الدستوريين والنقابيين في دعم المقاومة ولو بطرق مختلفة وبسيطة على غرار دور الحركة الوطنية في تشكيل عصابات ومجموعات مقاتلة من مختلف جهات البلاد التونسية: "شجعت الحركة الوطنية على تكوين وحدات كفاح في مختلف الجهات التونسية، وظهرت منذ بداية الحركة عصابات يشرف عليها قادة عينهم الحزب الحر الدستوري الجديد أو اعترف بهم فكونوا وحدات منظمة للكفاح المسلح تعمل بهديه ولكنها تنظم نفسها حسب الإمكانيات المتوفرة".^(١٠)

كما ساهم الاتحاد العام التونسي للشغل في تنظيم حركة المقاومة وتكوين "جيش التحرير التونسي". يقول المنضال عبد القادر السمعلي: "وقد اكتشفت لاحقا أنه لكل من أحمد التليلي ومحمد بن عمارة الزعبطي والحسين بوزيان ... من مناضلي جهة قصصة دور كبير جدا في جمع وشراء الأسلحة والذخيرة الحربية الباقية من مخلفات الحرب العالمية الثانية"^(١١)

لقد اجتمع الشعب وكل المنظمات الوطنية على ضرورة المقاومة ومواجهة الآلة الاستعمارية العنيفة، وأصبحت العمليات الثورية التي حدثت في الجنوب التونسي وبعض مناطق الساحل والشمال والوسط التونسي حديث الناس والصحافة فقد نجح المقاومون في تنظيم أنفسهم تحت قيادة مجموعة من المناضلين الذين خلدهم التاريخ وهم الطاهر لسود بجهة القصرين، الساسي لسود بجهة الكاف، العجمي بن مبروك بجهة القيروان، لزهري الشرايطي بجهة القصرين.

٢/١- أهم المعارك الشعبية ورموزها الذين

وثقهم الشعر الشعبي التونسي

سنكتفي في هذا العنصر بذكر أكبر القادة وأبرز المعارك التي خاضها رجال الكفاح المسلح. كان للشعر الشعبي دور كبير في التاريخ للمعارك والوقائع التي خاضها الثوار في الجبال وكل ربوع الوطن، وقد استعرض الشعر سير المعارك ونتبين من ذلك أن المقاومة كانت عامة وشاملة خاضها الشعب بأكمله رغم ضعف الإمكانيات وغياب قيادة موحدة لتنظيم الكفاح إلا أنها

يكمن في المقاومة المسلحة ولو بالإمكانيات المحدودة والمتاحة: "ونتيجة لذلك أدركت النخبة من الحركة الوطنية التي بقيت خارج السجون، كما أدرك كل الوطنيين، وربما أدرك معهم عامة المواطنين بمختلف أنحاء الإيالة أن الكفاح التحريري المسلح قد بدأ عمليا"^(٥)، فقد تم إنشاء وتكوين العديد من التشكيلات العسكرية والعصابات ومجموعات الفلقة في جميع أنحاء البلاد، ولعل أهمها التشكيلات التي اتخذت من الجبال مكانا للإغارة كمجموعة الطاهر الأسود والساسى الأسود والأزهر الشرايطي ومجموعة العجمي بن مبروك ومصباح الجربوع... حيث تم نقل المقاومة من المدن إلى البوادي والأرياف.

تكونت "عصابات" المقاومين المعروفة بحركة "الفلقة" منذ جانفي ١٩٥٢ من خارج الأحزاب ودون إذن منها حتى وإن كان عديد المقاومين من الوطنيين داخل الحزب الدستوري الجديد قبل صعودهم إلى الجبل، فإن غالبيتهم كانوا منتمين إلى الوطن فحسب، ونشطت حركة الفلقة خارج أوامر الأحزاب الوطنية ودون تمويلها^(٦) وهذا الرأي يدعو إلى الاستغراب نسبيا، صحيح أن الكثير من المقاومين كانوا لا ينتمون إلى الشعب الدستوري ولا إلى المنظمات الوطنية، إلا أن نفي وجود علاقة بين بعض الفلقة والحزب الدستوري أمر تتسفه بعض الشهادات على غرار المناضل "بلقاسم قرف"^(٧) حيث قال: "أدخلني الحزب عام ١٩٤٩ حسن بن عبد العزيز"^(٨) إذ كنت قبل ذلك لا أفهم معنى السياسة ولا الحزب ... وفي ربيع ١٩٥٢ أتاني حسن... وبدأنا الحركة... كانت أول عملية قمنا بها... في القلعة الكبرى في فصل الصيف حيث قتلنا بالرصاص فرنسياً والطاهر شوشان لأنه "بيوع" وقد نفذنا ذلك لأنهم بعثوا وقالوا لنا إن ذلك الشخص يشي بالدساترة يتجسس عليهم"^(٩).

عموماً لجأ التونسيون إلى النضال المسلح لمقاولة الإرهاب والعنف الفرنسي بمثله بعد أن ثبت فشل النضال السياسي السلمي، ليعترك الشعب من أجل استرجاع حريته المسلوبة ووطنه المغتصب من طرف المحتل. رغم التباين الكبير بين أسلحة المحتل الفرنسي وأسلحة الثوار والمقاومين التي تم الحصول على أغلبها

لقد كانت هذه المعركة من أوّل المعارك الدّامية التي خاضها الثّوار في الجنوب وخلّدها الشّعر الشعبيّ وخلّد أبطالها الذين بذلوا الغالي والنّفيس في سبيل هذا الوطن.

(٢/١) ٢- معركة جبل برقو (١٣-٠٨ نوفمبر

١٩٥٤):

الأکید أنّ هذه المعركة دارت رحاها من ٠٨ إلى ١٣ نوفمبر ١٩٥٤ والتي كانت بمساعدة من الحزب الحرّ الجديد الذي راهن على الثّوار كعنصر قوّة ضدّ المستعمر الفرنسي، ومن أجل وضع فرنسا في موضع تقبل بمطالب الشّعب للحصول على الاستقلال حيث قال أحد المناضلين الذين شاركوا في المعركة: "وقد أعاننا الحزب الدّستوري الجديد بالسّلاح وأرسل لنا عديد المقاومين من جهات مختلفة كما تعزّزت المنظّمة بالتحام مجموعة ٦ جنود من عسكر الباي فرّت لتلتحق بنا، وكانت المنطقة تتحرّك بتعليمات من الحزب تأتينا مباشرة من تونس"^(١٦).

تم اختيار مكان تحصّن المجموعة جبل برقو نظرا لمناعة المكان الذي يعمل كحصن منيع أمام هجمات الجيش الفرنسي. بدأت المعركة يوم ٨ نوفمبر بمهاجمة مركز الجيش الفرنسي في سيدي سعيد يقول أحد المناضلين: "لقد هاجمناهم في الموعد المحدّد وأسرنا ٥ أفراد من الحامية وكانوا ٣ ضباط فرنسيين وجنديين من أصل جزائري وصعدنا بهم الجبل"^(١٧). حاول الثّوار مساومة فرنسا من خلال تبادل الأسرى الفرنسيين مقابل إطلاق سراح قياديين دستوريين كانوا في السّجون. وقد قرّرت القوّة الفرنسيّة ضرب الثّوار في جبل برقو في ١٣ نوفمبر. يقول أحد المناضلين بالجبل: "لقد جدّدت فرنسا ١٨ ألف عسكري وحاصرت الجبل من كلّ جهة ونزلت بدبّاباتها والطّائرات إضافة للخيول... بدأت المعركة يوم السّبت ١٣ نوفمبر ١٩٥٤ على الساعة السادسة صباحا لتدوم إلى صبيحة يوم ١٤"^(١٨). وكانت نتائج هذه المعركة وخيمة على الجانب الفرنسي وتكبّدت خسائر بشريّة فادحة مقابل خسائر أقلّ بكثير من جانب الثّوار يقول أحد الثّوار في شهادته عن ضحايا المعركة: "كما أنّ عدد القتلى في صفوفهم

حقّقت الهدف المنشود وهو الدّفع بفرنسا لاتّخاذ خطوات نحو الاستقلال الدّاخلي ١٩٥٥. وسنستعرض أهمّ المعارك التي وثّقها الشّعر الشعبيّ وتركت أثرا كبيرا في الذاكرة الجماعية والشّعبية وبقيت من الملاحم التي يتغنّى بها الشّعب في كلّ مناسبة:

(٢/١) ١- معركة جبل العيدودي ١٨ أوت

١٩٥٣:

وقعت هذه الواقعة في صائفة ١٩٥٣ بجبل العيدودي بالحامة قابس، واندلعت بين المقاومين التونسيين والقوّات الاستعماريّة استشهد فيها ثلاثة شهداء من العامّة رفقة الشّهيد "الطاهر بوزعيمة"^(١٩) وهم علي بن مصباح دغسني وبلقاسم بن محمد بن عمار ومفتاح بن حسن صقر. وقد تمّ تخليد هذه المعركة التي استخدمت فيها القوّات الفرنسيّة القنابل والقذائف ويروي الطاهر الأسود تفاصيل هذه المعركة فيقول: "أنّ العسكر الفرنسي رصد تحركات مجموعة الطاهر بوزعيمة، فاستهدفهم بقذائف الهاون ممّا أدّى لاستشهاد الطاهر بوزعيمة ومن معه... ويضيف الطاهر الأسود نشبحوا فيهم كيفاش يتحرقوا مسلمناش فيهم وحبينا نقرّبوا نمنعوش منهم لي قعد حي... نسمع في عسكري جزائري في جيش فرنسا يقول روح يا الطاهر أصحابك ماتوا". ويقول الطاهر الأسود في موضع آخر: "انطلقت المعركة في ١٤ أوت لتدوم من السادسة صباحا إلى الخامسة مساء استعملت فيها القوّة الفرنسيّة شتّى الأسلحة من الرشاشات الأوتوماتيكيّة إلى مدافع الهاون وقد استشهد ٤ من الثّوار"^(٢٠).

خلّدت الأوساط الشّعبية بالحامة هذه المعركة في الأغاني الشّعبية، التي لا تزال يردّدها البعض إلى يومنا هذا، على غرار قصيدة معركة جبل العيدودي التي تمّ إلقاؤها في المهرجان الدولي للأغنية الريفيّة وهذا المقطع منها يؤرّخ لشهداء المعركة:

"صارت دعة في العيدودي بين ضحوة وصباح
في العيدودي يا فاهمينّا ثمة صار نطاح
مات فيها الطاهر بوزعيمه والصقر مفتاح
بلقاسم من بيت قديمة وعلي بن مصباح"^(٢١)^(٢٢)

ضرب الموزر والرقال
مدافع ترزم تقنبيل
الطيارة على روس لجبال
تخبر بالصانفيل
هي اللي باعت صف رجال
اللي ماتوا من أولاد تليل
يا ربّي ذي الجلال
يا عالم يا وكيل
أرحم رجالنا الأبطال
اللي ماتوا مقاتيل
من أجل الحرية والاستقلال
لا للنهب والتدجيل
وقت الشدة تعدّى وزال
واللي تبقى للذكرى والتسجيل^{(٢٢) (٢٣)}

(٢/١) ٤-معركة جبل سيدي عيش الثانية

٢١ نوفمبر ١٩٥٤

من أعظم الملاحم التي خاضها الشعب التونسي ضدّ جحافل الجيش الفرنسي وأعوانه حسب روايات متّفق عليها من المناضلين الذين شاركوا في المعركة الثانية بجبل "سيدي عيش" مشيخة أولاد رضوان في قفصة بالجنوب الغربي التونسي، وقعت: "منذ الصباح الباكر ليوم ٢١ نوفمبر ١٩٥٤، بين أعداد كبيرة جدّاً من قوّات جيش الاحتلال، قيل أنّ غالبيتها مستقدمة خصيصاً من الفيالق المحاربة "بديان بيان فو" من الهند الصينية وبين كتيبة هامّة من جيش التحرير التونسي بقيادة القائد "الأزهر الشرايطي".^(٢٤)

وكانت نتيجة المعركة حسب الروايات لصالح الثوار بسبب صعوبة تضاريس الجبل وتحصّن الثوار به كحصن يقيهم من هجمات القوّات الفرنسيّة. تقول الروايات أنّ عدد القتلى من جانب المقاومة بلغ ٢٣ شهيداً في حين عدد قتلى الجيش الفرنسي كان بالعشرات. تمّ تخليد هذه المعركة الحاسمة في أكثر من قصيدة، حيث وثّق الشاعر "عمار بن الصادق المحمودي" معركة جبل "سيدي عيش" الثانية في قصيد شعبيّ، يصف فيه حالة الجيش الفرنسي بعد بداية المعركة ويذكر الخطّة العسكريّة التي

كان كبيراً يربو على ٨٠ فرداً، أمّا في صفّ المقاومين فلم يستشهد إلاّ ١١ وأسر اثنان^(١٩). لكن يبدو أنّ العدد المذكور ١١ شهيد خطأ لأنّ شهداء معركة الجبل ١٨ شهيداً كما هو موجود في النّصب التّذكاري الذي يحمل أسماء الشهداء في الصّورة.

(٢/١) ٣-معركة جبل الناظور: ٢١ نوفمبر

١٩٥٤:

قامت هذه الواقعة في مشيخة أولاد تليل فريانة القصيرين وفعت حسب أحد الروايات التي وردت في كتاب "مذكرات مقاوم" ففي صبيحة يوم ٢١ نوفمبر ١٩٥٤ عندما قامت قوّات فرنسيّة معزّزة بقوّات من الهند الصينية بتطويق كامل جبل "سيدي عيش" المتّصل بجبل الناظور. يقول صاحب الشّهادة المقاوم "الطاهر بن سليمان"^(٢٠) "أنّ القوّات الفرنسيّة اعتمدت يومئذ على جميع أنواع الأسلحة الثقيلة، المدفعية والدبابات، وطائرات كاشفة وأخرى مقبلة... ضدّ رجال المقاومة المسلّحة... الذين كانوا من أبناء عرش أولاد تليل... حوالي ثمانية عشر مقاوما.... وبعد محاصرة الجبل من كلّ جانب من طرف القوّات الفرنسيّة تمّ عزلهم تماماً عن بقيّة الكتائب... ورغم جهودهم في الدّفاع عن أنفسهم استشهد منهم سبعة عشر مقاوما وتمّ أسر المقاوم الشريف بن محمد دولامي وهو الوحيد الذي بقي من أفراد الفرقة على قيد الحياة"^(٢١).

قدّم هؤلاء الأبطال أنفسهم من أجل تحرير الوطن رغم ضعف الأسلحة العتيقة التي وقفت وناضلت أمام أسلحة المحتلّين المتطوّرة بكلّ شجاعة وحميّة على الوطن. حيث قدّموا درساً في التّضحية بالمال والنّفس من أجل راية الوطن وحرية شعب البلاد التونسيّة. إنّ مثل هذه التّضحيات تكتب بماء الذهب لعلّها تحرك الضمائر المنيّة وتبعث العزّة في صفوف الأجيال القادمة والفخر بوطن أرضه خير شاهد على دماء الشهداء. وقد تمّ تخليد أثر هذه المعركة في قصيد شعبيّ غاية في الروعة والوصف المفصّل لمراحل المعركة وسنورد هذا المقطع:

"تقوى الضّرب وأطوال
من الصّبح حتّى لليل

يرحمهم الربّ الكريم الخالق
وإذا كان يقعد كلّ ذكري نجيك
نجيك نذكرها وقع وخصالك^(٢٧)

(٢/١) ٥-معركة جبل فبرار ٢ أكتوبر

١٩٥٤:

اندلعت هذه المعركة في غرة أكتوبر دارت المعركة في
جبال الرقاب بسيدي بوزيد واشتبكت قوّات الجيش
الفرنسي مع الثوار المتحصّنين بالجبال وأسفرت عن
سقوط ٦ شهداء من المقاومين وهم كالتالي: "الشّهيد
محمد العكرمي، المبروك بن التومي صباحي، محمد
علي بن الصغير، عمر بن بلقاسم بن خليفة صالح،
محمد بن بلقاسم عبيدي والعربي بن محمد علي"^(٢٨).
ويذكر أحد الشّعراء هذه المعركة في قصيد شعبيّ بقي
في التراث الشعبيّ لتلك الجهة بسيدي بوزيد، مخلداً
الشهداء في صورة فنية رائعة ومعبرة على أنّ الشعر
الشعبيّ التونسي كان سنداً تاريخياً مهماً ليكشف عن
أحداث المعارك والوقائع وكبرى المحطّات النضاليّة بكلّ
جزئياتها وتفاصيلها وسنذكر منها هذا المقطع:

"نهير بشلوله ومتيصلّ

من ساس فحولّه

بشلوله حار

بشلوله بوعصابة حار

نهارين معاهم

والثالث بالحبّ شواهم

كافر عقده

ضربو بالموزر تكّاه

ولد أخته حذاه

خرخط لعصابة غضبان

ونوّض في عقابو لعمار^(٢٩)-(٣٠)

(٢/١) ٦-المعركة الثانية بجبل قولا

سيدي بوزيد ١٩ أكتوبر ١٩٥٤:

معركة جبل قولا المجيدة بولاية سيدي بوزيد
معركة أبادت فيها القوّة الفرنسيّة كامل كتية القايد

اعتمد عليها الثوّار، ويصف نتيجة الحرب وضحايا
المعركة والتّقنيات العسكريّة والأسلحة التي تمّ الاعتماد
عليها في هذه المعركة الحاسمة ومنها:

"حادث سيدي عيش تفكر

ديما للأبد

واحد وعشرين في نوفمبر

ثابت يوم أحد

فرنسا دزّت بالعسكر

قيمة لا تتعدّ

وطيّارة تطلع وتحدرّ

في الأخبار تردّ

الثوار رئيسهم مفكّر

قال ما يضرب حدّ

حتّى نزل العسكر حدرّ

جاء يزحف يمرّد

الفوج ليوصل يتكسرّ

لعبتهم بالسدّ

كراهم للموتى تكرّر

في قفصة سبيطار

ثلاثمئة ثاير لا أكثر

والقياد الطاهر وعمار

نتقوى الحادث وأطوال

من الصبحة لليل^(٣٥)

لم تكن موازين القوى متكافئة من حيث العتاد والعدّة
والسلاح إلّا أنّ المقاومين أظهرُوا بسالة وشجاعة كبيرة
في الكفاح من أجل الحرّية والاستقلال. وهذه قطعة
أخرى من قصيدة انتشرت وذاعت في جميع الأوساط
التي تتحدّث عن معركة "سيدي عيش" وهي قصيدة
لشاعر شعبيّ ومقاوم شارك في المعركة وهو المقاوم
والشاعر "محمد بن عبد الله حويشي" ولا يزال على قيد
الحياة "أطال الله عمره بالصحة"، حيث يقول:

"جبل سيدي عيش تحية تليق بمقامك

في وقت الثورة التجينا ليك^(٣٦)

وحميتينا في أيّام المعارك

وتحية الرجال إلّي قاوموا في أحضانك

تحية الشّهاء إلّي ماتوا فيك

أكتوبر ١٩٥٤)، معركة جبل قسوم وتكرونة (٨ أكتوبر ١٩٥٤)، معركة جبل "سيدي عيش" الأولى (١٩٥٤)...^(٣٤)

ثانياً: الشعر الشعبي يؤرخ للاستقلال الداخلي والتام بين ١٩٥٥ و ١٩٥٦

١/٢- توثيق عيد النصر في المخيال الشعبي التونسي

يعود قرار الموافقة على منح تونس الاستقلال الداخلي إلى عدة أسباب أهمها: الكفاح البطولي الذي خاضه الشعب ضد جهاز السلطة الفرنسية والمتمثل في المقاومة المسلحة، التي لعبت دوراً كبيراً في انتزاع النصر أو يوم النصر والاستقلال. بالإضافة إلى تعرض فرنسا إلى العديد من الهزائم في الهند الصينية وقيام الثورة الجزائرية والمغربية... وأخيراً الدور الذي لعبه زعماء الحركة الوطنية وعلى رأسهم الزعيم الحبيب بورقيبة الذي قدم مقترح الاتفاق حول منح تونس الاستقلال الداخلي: "تم نقل الحبيب بورقيبة إلى قصر لافيرتي" يوم ١٧ جويلية ١٩٥٤، وهناك تحدث للصحافة عن الحكم الذاتي وعن احترام كل الطوائف".^(٣٥)

لقد قطعت المفاوضات التونسية الفرنسية أشواطاً انتهت بالاتفاق الثنائي، واعتمد الزعيم على سياسة المراحل وتحصلت تونس على الاستقلال الداخلي يوم ٥ جوان ١٩٥٥. وحاول الشعر الشعبي التونسي توثيق الحدث والتأريخ له ليضل راسخاً في الذاكرة الشعبية. وسنورد مقطعاً طويلاً لقصيدة بعنوان "في عيد النصر" للشاعر الشعبي "السيد الهادي بوكوبة":

"يا مرحبا يا حكيم القياده بشرت بلاده
ورجع موفور صحة العاده
يا مرحبا برئيسنا الحكيم روح سليم
بو الشعب صاحب القلب الرحيم
ها اليوم في جوان وزنه عظيم عند الفهيم
يوم نصر يوم ان خلط الزعيم
جلى على الوطن كامل الضيم وفرحت اولاده
من بعد ما كان يمشوا كساده
ومنها أيضاً يقول:
يا مرحبا بيه بعد المغيبه مجلي الصعيبه
افراجت على الوطن روح حبيبه

بلقاسم الصيفي ومساعديه عبد اللطيف الصيفي ومحمد الطيب الأحمدى، الذين ذهبوا لجمع الأسلحة والمال وجلب المؤونة وتركوا المقاومين في الجبل دون قائد وما إن غادر القادة الجبل حتى نزلت في اليوم الموالي قوات فرنسية كبيرة واندلعت معركة غير متكافئة: "اندلعت معركة غير متساوية استبسل فيها الثوار الشباب المتحمسين إلا أن دعم الطائرات وقوة المدافع وعدد الجند الكبير غلبت شجاعة المقاومين الذين غاب قائدهم الذي تعود على تنظيمهم وتوزيعهم. فاستشهد كل أفراد الطاشمة، ما عدا مقاوم وحيد هو المرحوم أحمد بن عمار حمودي الذي اختبأ في كهف "جروالة"^(٣٦).

وقد تمّ تخليد شهداء المعركة السبعة عشر مناضل في مقطع من الشعر الشعبي للشاعر "علي الزيني" في معارك جبل قسولاب:

"كي صب سحاب
حاز ذراري في قسولاب
دارو الكلاب
قوة ما حلّوش الباب
والرئيس غاب
شناتة ما دلّوش صواب
كاحل لهاب
بقي عالشبان صغار
ضاعوا طياش
منهم واحد رجّع لخبار"^{(٣٧) (٣٨)}

هذه بعض المعارك التي خاضها الشعب التونسي ضد الاستعمار الفرنسي الغاشم، وهذه بقية أهم المعارك والصدامات التي سجّلها التاريخ النضالي التونسي والتي ساهمت في تسليط الضغط على السلطة الفرنسية لتتفاوض في اتخاذ حلول توقف هذه الوقائع التي ألحقت الكثير من الخسائر في الصفوف الفرنسية: "معارك جبال عرباطة (٢٧ مارس و ٩ جوان و ٥ جويلية)، معركة جبل إشكل (٢٢ ماي ١٩٥٤)، معركة مكتر (١٤ جوان ١٩٥٤)، معركة جبل قسوم (٤ أوت ١٩٥٤)، معركة جبل هدا (١ سبتمبر ١٩٥٤)، معركة جبل كريشان (٣

زدام يوم الملاطم تصيبه العالم يهيبه
لا حصل تبغيه ياخذ نصيبه
ثماش لا راس كيف بورقيبه يبلغ مراده
ياسر من الروس كان للوساده^(٣٦)

بورقيبة فيقول الشاعر الشعبي "المبروك الحمدي" في
قصيد بعنوان "في عيد النصر":
"اليوم سادنا حق الفرح وسروره
بيوم فخر يسطع نوره
زالت أيام الشدة

مضى الحزن واليوم الفرح يزايد
بعيدين في العالم خبرهم شايد
سطع ضوهم بدل ظلام بنوره
عيد نصرنا وعيد الشفا للقايد
كل عيد سجل معجزة مشهورة
اليوم فرحهم وهناهم
العيدين لازم نعرفوا معناهم
مرض شعبنا ونال الشفا بدواهم
وبعثوا شرف تونس اليوم فخوره
عنيفين في الماضي تصيدناهم
صمد شعبنا وجابه ايام خطورة

عشنا حياة الذله
منين العدو رامي علينا غله
وأرض الوطن مستعمرة محتله
نتصرفوا في دايرة محصوره
كل يوم نتصدوا مرض وعله
وللصبر يدفعنا لزم وضروره

تونس دخلها فالج
بعث رعب خلى قلوبنا تتخالج
والشعب من حمل الرزين يعالج
نزلت حمول الظلم فوق ظهوره
لكن ربي بعث طبيب يعالج
واجه جبل وقضقضه بذكوره

جلا همنا وحررنا
فعل فعل ما ننسوه طول عمرنا
قطع مناسج غزل مستعمرنا
وهدم سقف الظلم طيح سوره
ومنها يقول:
جلى الاجنبي ورتحنا
مضى الحزن ونسينا الدرك والمحنه

وتمت المصادقة على اتفاقية الاستقلال الداخلي
الذي سيغير المسار التاريخي للبلاد من مستعمرة
فرنسية إلى دولة مستقلة داخليا تسهر على شؤونها
الداخلية فقط: "تمت المصادقة على اتفاقيات الاستقلال
في ٣ جوان ١٩٥٥ من طرف ادغارفور وبيارجولي عن
الحكومة الفرنسية، والطاهر بن عمار والمنجي سليم عن
الوفد التونسي تجسيدا والتزاما بما جاء به خطاب
قرطاج في ٢١ جويلية ١٩٥٤ كانت هذه الاتفاقية خطوة
جديدة نحو الاستقلال التام"^(٣٧). رغم أن الاستقلال
الداخلي لم يكن محل توافق بين أطراف الحركة الوطنية
التونسية، إلا أن الشعر الشعبي التونسي رحب بالاتفاقية
نظرا للوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الحرج
الذي خلفته المقاومة المسلحة حيث عم وانتشر البؤس
والجوع والفقر والفاقة بين الناس، بسبب المقاومة
المسلحة والخوف من بطش الجهاز العسكري فكسد
الزراع ولم يتسن للناس الزراعة ولا الحصاد بسبب
المعارك بين الطرفين. بالإضافة إلى استنزاف المؤونة
والاموال التي كانت بحوزة أهالي "الفلاقة" لأنهم وهبوا
لهم لشراء الأسلحة والملابس... وتبني معظم الشعراء
الشعبيين الخطوة التي سجلها الحبيب بورقيبة على
حساب الحكومة الفرنسية وهي الرضا بالاستقلال
الداخلي حاليا والمطالبة بالمزيد في الأثناء من خلال
سياسة "المطالبة بالقليل في انتظار الوقت المناسب
للمطالبة بالأكثر والمزيد" اعتبر الشعر الشعبي عيد
النصر ٣ جوان ١٩٥٥ يوم تاريخي من حق الشعب
التونسي أن يفخر به لأنه كافح وقاوم وجاهد وناضل من
أجل حصد أول ثمرة تقوده نحو التحرر الداخلي في
انتظار التحرر الكلي والتام. وحسب الشعر الشعبي
التونسي فإن قرار الاستقلال الداخلي هو اللبنة الأولى
التي أثمرت بفضل المقاومة الشعبية والقيادة الحكيمة
لزعماء الحركة الوطنية وعلى رأسهم الزعيم الحبيب

وظهرت نتائج بعدما كافحنا
رمينا العدو بالنبل جا في شوره
تحقق ثبت الحلم في مطامحنا
بلغنا الهدف والعاقبة مستوره^(٣٨)-(٣٩)

واسعا في أوساط الشعب التونسي بكل فئاته فمعظم الشعب عمتهم الفرحة بهذا الخبر السعيد الذي أطلق عليه الشعر الشعبي "عيد النصر". إلا أن الاتفاقيات المبرمة لم تكن محل إجماع بين قطبي القيادة الدستورية: "في أواخر ١٩٥٥ اندلعت الفتنة اليوسفية"^(٤١). وفي نظر صالح بن يوسف فإن هذه الاتفاقية باطلة وضربة قاسمة لحركة التحرير القومية فيقول في خطاب له وهو في "باندونغ:

"إن الشعب التونسي يرفض تلك الاتفاقيات وهو عازم على إحباطها بجميع ما لديه من وسائل وعليه فإن توقيع تلك الاتفاقيات وفرضها على الشعب معناه إعلان الحرب عليه."^(٤٢) ومن هنا كانت البداية التي يخشاها الشعب وهو قيام صراع داخلي بين أبناء الحركة الواحدة والحزب الواحد والهدف الواحد لقد اختلفت التسميات التي ذكرها الدارسون للمسألة اليوسفية البورقبيية تقول الباحثة "عروسية التريكي" في هذا الأمر: "فهل هي فتنة أو ثورة ثانية أو حركة معارضة"^(٤٣)، سنقوم بالإجابة على هذا السؤال أثناء التحليل والشرح والتقدم في عرض المسألة اليوسفية البورقبيية، وقد أشار الشعر الشعبي التونسي في أكثر من موضع عن دعم موقف الحبيب بورقبيية على حساب صالح بن يوسف. أثناء البحث لم نجد سوى إشارات ونتف شعيرة قليلة تشير إلى صالح بن يوسف وهذا يفسر بأن الشعراء الشعبيين وبعد هزيمة بن يوسف سارعوا إلى إخفاء القصائد التي تغنت بالحركة اليوسفية بدافع الخوف من رد فعل الزعيم الحبيب بورقبيية، خاصة وأنه كان على مقربة من الشعراء الشعبيين ويكرمهم مقابل العطاء المادي. بالإضافة إلى أن رئيس الحزب كلف الأديب محمد المرزوقي بجمع التراث الشعري وتم عرض العكاضيات التي تتغنى بإنجازات الاستقلال وعيد النصر وأعياد الميلاد وعيد الجمهورية: يقول محمد المرزوقي: "وجاء الاستقلال فكان أول شيء لمع في ذهني هو تسجيل أخبار هؤلاء الأبطال، وإدخالهم في التاريخ الوطني، وشجعتني على هذا العمل تحريض رئيس الدولة وقائد الأمة نفسه، على وجوب التقريب عن أخبار أبطال القومية المجهولين، وتخليد أسمائهم في التاريخ

فالشعر الشعبي احتفل وخلد حدث الاستقلال الداخلي وعدد مزايا هذا الحدث وتأثيره على الشعب، واهتمام الشاعر الشعبي بهذه الأحداث الوطنية إنما يعكس وعيا كبيرا لمنابر الشعب وصحافته. وقد أثر الخطاب الشعري في الشعب وجعله يعتبر هذا اليوم يوم عيد رغم معارضة البعض، وتأثير الشعر الشعبي في السامع هو تأثير كبير نظراً لرمزية ومكانته عند العامة كيف لا وهي لغتهم المحكية والمحلية التي يتخاطب بها أفراد الشعب: "إنها تعكس وعياً جماعياً، لأنها غير مقصودة لجمالها وإنما لفائدتها الاجتماعية، لأنها تمارس بشكل أو بآخر تأثيراً فكرياً وروحياً وأخلاقياً كبيراً، إضافة إلى قيمتها العملية"^(٤٤)

هذا الدور لعبه الشعر الشعبي التونسي منذ ١٨٨١ حيث كانت مهمته التأثير في النفوس وفي الحياة الوطنية من أجل رص الصفوف حول الوطن وقادته، وهذا ما فعله الشعر الشعبي أثناء اتفاقية الاستقلال الداخلي، ليكون الاستقلال الداخلي مرتبط بعودة الحبيب بورقبيية من المنفى نظراً للمجهود الذي بذله في سبيل حرية الوطن وقد دعا الشعر الشعبي التونسي إلى الاحتفال بهذا الإنجاز وتوحيد الصفوف خلف رجل المرحلة الحبيب بورقبيية. لذلك فإنه أي الشعر الشعبي كان عنوان البذل والعطاء ماديا عبر المشاركة في المقاومة بالسلاح والتبرعات على غرار (علي الكيلو...) أو روحيا وفنيا عبر تخليد وتوثيق الأحداث التاريخية وكبرى المحطات النضالية. فهل كان الاستقلال الداخلي محل إجماع بين الأطراف الوطنية أو محل اختلاف؟

٢/٢-اتفاقية الاستقلال الداخلي محل

صراع بين بورقبيية وبن يوسف حتى نهاية

١٩٥٥

بعد توقيع اتفاقية الاستقلال الداخلي بين حكومة تونس والحكومة الفرنسية، كان لهذه الاتفاقية صدا

التونسي^(٤٤) ويقول الشاعر الشعبي في موقف الشعب من هذه الفتنة "المبروك الحمدي" شاعر بني خدّاش:

أحنا نُؤمّنوا بكلامك
ولا نخالفوا خطوة على نظامك
أهل الجنوب بعنوا معاي سلامك
سلام طيب فاح روأيحه معطوره

أحنا سيف نعترفوا سبيل أخصامك
سوى كان في الغيبة سوى في حضورنا
آخر محل شاهدنا

أحنا جندّ وانت بطلنا وقايدنا
طول المدى ما نخالفوا عاهدنا
ونتجنبوا نهج الخطر ومروره
أحنا ناس وقت المغمعه تجدنا
دولّ قلب للي حاقده مقهوره

أحنا مصلحة للفساد
نحتاط من مرمى رماء الحاسد
أحنا انكشفوا غم الحزين الكاسد
ونخطوا الطريق الخاطيه وغروره
أحنا طبعنا مثل الجبل متراصد
نحزوا ثمن الزيت من الفاتوره

أحنا ناس م اللي يفيدوا
حصين بنينا وسيسانا ما يبيدوا
لا نزيفوا لا نكذبوا لا نحيدوا
أحنا اماس لي تقص الشعر بقشوره^(٤٥)

من خلال هذه القصيدة نتبين أن موقف الشعر الشعبي كان خلف الصف البورقيبي والشعراء اعترفوا بقيادة الحبيب بورقيبة (أنت بطلنا وقايدنا) ويتحدث الشاعر على العهد الذي بين الشعب وقائده وأنهم معه في مواجهة الحاسد والحاقد الذي أصبح في مواجهة الشعب وآماله (وصاحب السو دارت عليه الدورة). لكن انقسام الشعب التونسي إلى صفيين شق مناصر للحبيب بورقيبة وشق حليف لصالح بن يوسف الذي اعترض على هذه الاتفاقيات وحاول بكل جهد الطعن فيها في كل مرة وصرح الأمين العام للحزب الجديد العديد من

التصريحات التي عبر فيها عن رفضه الاستقلال الداخلي قائلاً: "يجب الرجوع إلى الكفاح من جديد لمقاومة الاتفاقية" وفي نفس الإطار صرح يوم ١٧ أكتوبر ١٩٥٥ في ملعب "جيو اندري" (الشاذلي زويتن حالياً) بما يلي: "لقد تمت مخادعة الشعب التونسي في خصوص الاتفاقيات وأن تطبيقها يعد خيانة كبرى" وفي يوم ٢٧ أكتوبر ١٩٥٥ صرح في مدينة القيروان قائلاً: "يجب على الشعب أن يرفض الاتفاقية".^(٤٦)

لقيت هذه التصريحات رواجاً كبيراً خاصة في منطقة الجنوب التونسي نظراً لعدة أسباب أهمها معارضة أهل الجنوب لتواصل تواجد الأراضي بالجنوب تحت النفوذ العسكري الفرنسي؛ وكانت معارضتنا من أجل المنطقة العسكرية التي تحولت حسب اتفاقية الاستقلال الداخلي من وادي الراس وتركزت بقرية رمته التي وقعت فيها معركة ١٩١٥ وبذلك تبقى جميع أراضي أولاد سليم وأولاد عبد الحميد وسكان رمادة وزهية والصمار إلى الحدود الليبية تحت النفوذ العسكري الفرنسي^(٤٧). كانت هذه شهادة المناضل الطاهر عيوني من جهة تطاوين حول أول من استجاب لنداء صالح بن يوسف وهما كما يقول: "كان أول من عارضها أبناء تطاوين المناضل فرج بالحبيب الجليدي عدل إلهاد وكاتب عام الجامعة الدستورية بمدينة... والمناضل أحمد عويني رئيس الشعبة الثانية بتطاوين"^(٤٨). اعتبر صالح بن يوسف أن قرار الاتفاق حول الاستقلال الداخلي ما هو إلا خطوة إلى الوراء ولذلك اتفق معه الكثير من أبناء الشعب وخاصة بالجنوب التونسي وقد اعتبر بن يوسف بأن تسخير الثروة والشؤون الخارجية والأمن لمصلحة فرنسا هو أمر مرفوض حيث يقول في خطاب له: "إن الشعب التونسي يرفض هذه المعاهدة الموقعة بين الحبيب بورقيبة وفرنسا. وأن الحزب الذي يمثل الشعب التونسي يقبل الحكم الذاتي إذا كان خطوة للاستقلال التام. أما هذه الاتفاقية فهي خطوة إلى الوراء لأنها تكبل الشعب وتلزم الدولة التونسية بأن تسخر لفرنسا البلاد وأهلها وثرواتها إذا ما احتاجت فرنسا لذلك. كما خولها في حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل...".^(٤٩)

تتمحور حول أن الاتفاقية مجرد خدعة فرنسية لمواصلة السيطرة على استعباد الأرض والشعب بالإضافة إلى إيمانه بأن الحل الوحيد بطرد المحتل هو الكفاح: "دعا الشعب التونسي إلى رفض هذه الاتفاقيات والإسراع بالتضامن النضالي المسلح مع الشعب الجزائري الشقيق في نضاله ضد الاستعمار الفرنسي" (٥٢).

أمام تحركات صالح بن يوسف وأمام نجاح حملة التشكيك في صحة ومصداقية هذه الاتفاقية عمد الحبيب بورقيبة إلى دعوة الديوان السياسي للحزب تحت قيادته إلى عقد مؤتمر للحزب لحسم بعض النقاط أهمها ما يلي: "وقرر عقد مؤتمر الحزب يوم ١٥ نوفمبر وتجريد صالح بن يوسف من الأمانة العامة ورفته من الحزب" كما اعتبر مؤتمر صفاقس أن هذه الاتفاقية مرحلة مهمة في طريق الاستقلال. وقال الزعيم الحبيب بورقيبة أثناء مؤتمر صفاقس في مشكلة الخلاف بينه وبين صالح بن يوسف «الخلاف الذي كونه أحد رفقاءنا الذين كان معنا منذ سنوات، والذي كان مشاركاً في نظرية استراتيجية الحزب هذه، وهي قبول كل تنازل من فرنسا واستثماره للسير إلى الأمام، فما راعنا وأن أخانا الأستاذ صالح بن يوسف يجيء من الشرق... يحاول تشتيت الأفكار وتصديق الصفوف التي كانت متحدة... وإذا كانت عنده حجج وبراهين يقدمها» (٥٣).

لم يعترف صالح بن يوسف بهذه القرارات التي تم اتخاذها بعد مؤتمر صفاقس وانقسمت البلاد إلى شقين ودخلت في دوامة عنف يشبه الحرب الأهلية. ووصف الشعر الشعبي أنصار بن يوسف بأنهم خانوا العهد وأنهم أهل فساد وفتنة. إذن فالشعر الشعبي ينظر إلى الحركة اليوسفية على أنها فتنة وبلية. يقول الشاعر الشعبي "محمد المرودي" من معتمدية مارت ولاية قابس في قصيد بعنوان "عيد النصر":

الشعب ديما وراك يا بورقيبة
يا ناصره وحببيه
يا صقري يا مولى الحرم والهيبة
صيد الخنق ذلال كل صعيبه
منه وال يروم اطراده
نهار ان يولي بالظلام سواده
يوم ان يكثح بالغيوم غباره

أثر صالح بن يوسف في خطابه في العديد من الأوساط الشعبية التي اقتنعت بوجهة نظره وفكره ورفض الاتفاقية ومواصلة النضال للحصول على الاستقلال التام. وظهرت بوادر الانقسام في تونس وكان سبب ذلك الجدل حول الاتفاقيات والتي ضربت الوحدة الوطنية التي فرضتها المقاومة المسلحة وأصبحنا نتحدث عن شق بورقبيي متمثل في: "وقد تدعم الاتحاد البورقبيي بتأييد الاتحاد العام التونسي للشغل والاتحاد العام للصناعة والتجارة والاتحاد العام لطلبة تونس، كما أعرب علي البلهوان والباهي الأدغم ورشيد إدريس والطيب سليم حين رجوعهم إلى تونس عن تأييدهم لموقف بورقبيي.. (٥٤)".

وقد وافق الشعر الشعبي الشق البورقبيي ودعاه من خلال نظم القصائد الشعرية الموجهة إلى الشعب حيث يقول الشاعر الشعبي "محمد الفرحان" في قصيد بعنوان "في عيد النصر":

"فعلك لا يمحيه زمان
كل خطوة الشعب مضمناها
من تبع شورك مصان
روحه في العز يؤقنها
ومن خالف عنك مهان
يندم كي إتم أماكنها
صادق على صغره الأسنان
صدقك فك تونس وتقنها
وجهها شيوخ وشبان
في كل مصالح قارنها" (٥٥)

بهذه الطريقة كان الشعر الشعبي يدعو الشعب إلى الالتفاف حول الزعيم الحبيب بورقيبة وأن كل من يتبع الزعيم سيفلح ويعيش في أمان. ومن تبع طريق الحسد والمخالف للمشروع البورقبيي سيعيش ذليلاً مهاناً وسيشعر بالندم مع مرور الزمان لأن أتباع رئيس الحزب الحق وطريق الخلاص من السلطة الاستعمارية حسب قول الشاعر محمد الفرحان. وقد تألف الشق اليوسفي من الاتحاد العام للفلاحة ويوسف الرويسي وحسين التريكي بالإضافة إلى مناطق الجنوب التونسي خاصة جهة تطاوين ومدنين... وكانت فكرة صالح بن يوسف

من المقاومة المسلحة ترك الجبال والسلاح والتوجّه إلى سياسة التفاوض.

بالإضافة إلى الجهود المبذولة من قبل حكومة الطاهر بن عمار من أجل استكمال تحقيق الاستقلال التام، ساعد أعضاء الحركة الوطنية الوضع العام السائد خاصة "الثورة الجزائرية"^(٥٥). يقول الأستاذ محمد الهادي الشريف: «حيث ساعدته الثورة الجزائرية كثيراً في تشدّده الذي أرغم فرنسا على تقديم تنازلات للتونسيين»^(٥٦). أمام هذا الوضع المشحون وتوالي الوقائع والأحداث المتسارعة في تونس وخارجها واصل قادة الحركة الوطنية النشاط في إطار المطالبة بالاستقلال التام الذي يحلم به كل الشعب التونسي، والذي سيضع حداً للفتنة اليوسفية ويتوقف التقتيل وأعمال العنف والمحاكمات خاصة بعد فرار صالح بن يوسف إلى ليبيا ثمّ إلى القاهرة «واصل الوطنيون التونسيون بزعامة الحبيب بورقيبة نشاطهم تجاه فرنسا لتعديل اتفاقية ٣ جوان ١٩٥٥ نحو الاستقلال التام»^(٥٧).

ومن بين الأسباب التي يذكرها المناضل الباهي الأدغم التي دفعت الحبيب بورقيبة إلى السفر رفقة وفد تونسي إلى فرنسا للتفاوض من أجل الاستقلال التام هي عودة "محمد الخامس" ملك المغرب والاعتراف باستقلالها. يقول الباهي الأدغم في هذا السياق: «أحضرت لائحة تطالب من خلالها بالسيادة الكاملة المتجسمة في الاستقلال بما فيها الخارجية والدفاع، فقال لي الحبيب بورقيبة: أنا لست متأكداً أنّ الفرنسيين سيذهبون في هذا الاتجاه، فقلت له... كما تعلم فإنّ سلطان المغرب قد اشترط رجوعه إلى المغرب من المنفى بالاستقلال التام ووقع على ذلك "إدغار فور" فأصبح حدثاً جديداً، فأثار ذلك إعجاب الحبيب بورقيبة»^(٥٨) وتمّ تكوين وفد تفاوضي للتفاوض مع حكومة في مولي Guy Mollet وهو الكاتب العام للحزب الاشتراكي الذي تولّى رئاسة الحكومة الفرنسية يوم ٣١ جانفي ١٩٥٦ مكان حكومة "إدغار فور" التي سقطت بعد نجاح المغرب في تحقيق استقلالها. «وبذلك كونا الوفد المفاوض، على أن يكون أعضاؤه يحظون بموافقة الفرنسيين، وهو يتكوّن من الطاهر بن عمار والباهي الأدغم والمنجي سليم وزير الداخلية ومحمود المصمودي

يدهم لجاحم ناره
والحرب بعرقلة جميع أطواره
يخوض المعارك إيمنه ويساره
لا من يقدر عناده
يدهم مثيل السيل حامل واده
أحنا معاك يا مولى الذراع الطويل
ما ينال منا نائل
لو كان تعدوا بالحديد وصايل
ونسنكر فعل الخفيف الصايل
وما نحسبوا الخرماده
هوكه اللي يبغيوا للوطن فساده
ناس اللي يبغيوا يفسدوا سمعتنا
بالبليلة والفتنة
لا صفنا لاهمش من جهتنا
أحنا وراكداً بما ثابتة قيمتنا
وعل عهدنا نتهادي
أنت ذخرننا والزاد والزواده»^(٥٩)

بهذه الصورة عبر الشعر الشعبي عن الخلاف الحاصل بين الشق اليوسفي واتهمه ببث الفتنة والبليلة والحسد، وشق بورقبي يقول فيه الشعر الشعبي أنه طريق الحق الذي من خلاله سيحقق الشعب مراده ومبتغاه بشرط الوقوف في صف الزعيم الحبيب بورقيبة.

٣/٢- الاستقلال التام من ألسن الشعراء

الشعبيين

عاشت البلاد التونسية فترة انقسام خطيرة بسبب اتفاقية الاستقلال الداخلي التي كانت محل اختلاف بين من يراها خطوة إلى الأمام وبين من يراها خطوة إلى الوراء. هذا الأمر ساهم في انقسام البلاد إلى نصفين أو شقين: شقّ يوسف يطالب بالاستقلال التام، وشقّ بورقبي يطالب بتفعيل الخيار الدبلوماسي والتحاور مع فرنسا من أجل اكتمال السيادة الوطنية. لقد أدرك الحبيب بورقيبة أنّ التسوية السياسية هي الحل الأنسب ومفتاح الاستقلال وحرية الشعب التونسي، لذلك طلب

الشعب على الرغم من احتوائه على رصيد تاريخي هام جداً يمكن أن يُستغل في كتابة تاريخ البلاد التونسية وإثبات قيمته في التأريخ للأحداث الوطنية. ولعلّ موضوع "الاستقلال التام" هو أهم ما وثّقه الشعر الشعبي نظراً لرمزيته التاريخية المتمثلة في التخلص من ٧٥ سنة كمستعمرة فرنسية. حيث لم يحظ الشعر الشعبي بمكانته التي يستحقها في توثيق حدث الاستقلال التام. وسنستعرض أبرز القصائد الشعرية الشعبية التي رسمت ملامح الحدث بكل تفصيل حيث يقول الشاعر "عبد العزيز الناي" (٦٣) في قصيد بعنوان "إنجازات الاستقلال من ١٩٥٦ إلى ١٩٧٥":

«عشرين ربيع بلغناهم
سن الرشد والاستقلال
بعد مسافات قطعناها
ومصاعب شتّى وأحوال
بعد الشدّة والدمار
عشناهم طول سنّيات
شعب يقاسي في المرار
م المستعمر والبايات
دعيناها لبّت الأقدار
والمولى يسرّ الأعمال
بعثنا فدّاي الثّار
رمز المبدأ والنضال
ربّي بعثنا بورقيبه
مجاهد حرّبي وسجّيع
وحدها لمة على صييه
شعب لتوجيه مطيع
زعيم وثابت في تجاربه
بكفاحه الواعر يسهال
لينا سهل كل صعيه
جأب النّصر والاستقلال
في ستّه وخمسين نجحنا
تهنينا وضّوات العين
نلنا الاستقلال ربّحنا
في مارس يوم العشرين
بتوجيه القايّد كافحنا
ضدّ الحوّن والاحتلال

وزير الاقتصاد، ومحمد السنوسي مستشار قانوني والطبيب سليم والحبیب الشطي، يوم ٢١ فيفري ١٩٥٦» (٥٩).

يرى الأستاذ الهادي البكوش أنّ المعركة الدبلوماسية التي خاضتها حكومة الطاهر بن عمار بتوجيه من الحبيب بورقيبة نحو تحقيق الاستقلال التام تكمن في ثلاثة معارك حاسمة تمحورت حولها المفاوضات: «المعركة الأولى تتعلّق باستلام مسؤوليات الأمن سريعاً، وتجاوز اتفاقيات الاستقلال الداخلي التي ضبّطت آجالاً طويلة تتجاوز العشرين سنة. المعركة الثانية لتجسيم الاستقلال تتعلّق بمباشرة تونس لصلاحياتها في ميدان العلاقات الخارجية. المعركة الثالثة لتجسيم الاستقلال تتعلّق باسترجاع السلطة العدلية التي كانت فرنسية في رجالها وتشريعاتها وهيكلتها...» (٦٠) حيث استغل الحبيب بورقيبة تواجهده في فرنسا وحاول التواصل مع بعض رجال السلطة الفرنسية على غرار "آلان سفاري" كاتب الدولة الخارجية ووزير العدل "كرستيان بينو": «حيث طالب الحبيب بورقيبة من الحكومة الفرنسية بضرورة مواصلة المفاوضات معها في أقرب وقت وقد نادى لأول مرة بفكرة الاستقلالي في إطار التكافل بين تونس وفرنسا» (٦١).

أمام توتر الأوضاع العامة ومع الضغط الذي مارسه الثورة الجزائرية على المصالح الفرنسية وأمام تلاحم واندماج التيار اليوسفي مع الثورة الجزائرية وتحالفها مع الحركة القومية العربية الصاعدة في المشرق، وحصول المغرب على استقلالها، نجح الوفد التونسي في إقناع الحكومة الفرنسية بالاعتراف بحق تونس في الاستقلال التام «تمّ التوقيع على بروتوكول ٢٠ مارس ١٩٥٦ والذي بموجبه أقرّت فرنسا رسمياً استقلال تونس، وهكذا تمّ إنهاء النظام الذي أنشأته معاهدة "باردو" وبقي على البلدين تحديد طرائق تنظيم تعاونهما في المجالات التي تكون فيها مصالحهما مشتركة لا سيما في الدفاع والعلاقات الخارجية...» (٦٢).

كثيراً ما نجد المصادر والمراجع والأبحاث التي تناولت مسألة الاستقلال من الجانب السياسي والاقتصادي والعسكري دون الاعتماد على الموروث الثقافي "الشعر الشعبي"، وعدم توجيههم نحو الجانب الشعبي أي ثقافة

عَدِينَا مَحْنَهُ وَرَأَ مَحْنَهُ
وبالصَّبْرِ نَحَقُّ الْأَمَالَ^(٦٤)

التونسي في كل ذكرى يحييها للواقعة أو الحدث. وحسب ما توصلنا له من خلال البحث ومقارنة المصادر الرسمية بالشعر الشعبي في تخليد حدث الاستقلال فإنه الأوفر حظاً والأكثر دقة في تحديد اليوم والشهر والسنة (ستة مع الخمسين شرع بابه) أي سنة ١٩٥٦ سنة فتحت بابها لتحقيق كرامة الشعب. ثم يقول (عشرين مارس فيه تم حسابها) أي أن يوم ٢٠ مارس كان يوم عيد الاستقلال التام الحلم الذي كان يراود كل فئات المجتمع التونسي والشعب بكل طبقاته. لذلك لعب الشعر الشعبي حسب وجهة نظرنا دوراً ريادياً في توثيق المحطات النضالية وأحاط بكل تفاصيلها ليكون منبرا يذيع الأخبار الشعبوية للشعب ويخلد ذكرى الاستقلال التام في مشاهد مختلفة وبكلمات تعبر عن فرحة الشعب بهذا الإنجاز. إلا أن النصيب الأكبر من المديح خصه الشعر الشعبي إلى الزعيم الحبيب بورقيبة الذي اعتمد على الخطط الدبلوماسية لنيل الاستقلال، وهذا ما تغنى به الشعر الشعبي التونسي واعترف الشعراء الشعبيون بدور الحبيب بورقيبة في تحقيق الاستقلال التام، فيقول الشاعر الشعبي "نصر عويدات"^(٦٥) في قصيد بعنوان "صمود بورقيبة":

«بورقيبه العالم قارعَله
في حرب استعمار
نظفها خرجت ها المله
وفكلها الأوكار
سياسة بورقيبة مرتوبة
خرج ها المله مغصوبة
فكلها جمل اليوبه
الأرض مع الأشجار
بسياسه فسد ملعوبه
ودحره في مشوار
الأرض تبقت لماليها
وولاد الشعب بتحميها
حتى الفاليجه يخليها
ومفاتيح الدار
واللي يحاول يسترعيها
تشعل فيها النار»^(٦٨)

لقد ظلت علاقة الشعر الشعبي راسخة منذ البدايات الأولى للاستعمار الفرنسي. وأرخ للأحداث والمحطات النضالية الكبرى والشخصيات التي حققت نجاح الشعب التونسي وأحلامه كما أخبرنا بذلك الشاعر "عبد العزيز الناي" في هذا المقطع الشعري، حيث يرى أن لبورقيبة الدور الريادي في دفع فرنسا للاعتراف باستقلال تونس التام، لذلك اجتمع والتف حوله الشعب وأطاع أمره. بالإضافة إلى أن الشاعر يوثق حدث الاستقلال بالسنة (في ستة وخمسين نجحنا) يؤرخ للحدث باليوم والشهر (في مارس يوم العشرين). هذا إن دل على شيء فإنه يدل على قيمة الشعر الشعبي في تتبع المسار النضالي للحركة الوطنية بكل جزئياتها وتفاصيلها وحيثياتها. وهذا مقطع آخر من قصيدة "باب الفرج سرب وبان" قبالة للشاعر الشعبي "عمر بن مبارك الزيتوني"^(٦٥):

«باب الفرج سرب وبان قبالة
على يدين بورقيبه فتح أقفاله
بان صوابه
ستة مع الخمسين شرع بابه
عشرين مارس فيه تم حسابها
شرهان زاهي حاضيين رجالة
استقلاننا جاهد عليه وجابه
صيد الخنق واثق وعرج جباله
كما صيد في الأجبال
لا يكل لا يفهم رجوع لتالي
مضحي على الوطن العزيز الغالي
ساهر لذيذ النوم ما يحلله
مهدي طعمنا به سيدي العالي
نجح فكنا من الكفر والضلالة
هتاؤ في الحرية
تستاهلي تونس الخضرا البيه»^(٦٦)

حاول الشعر الشعبي أن يثبت نفسه ليكون أكثر المصادر التي تخلد هذه الأحداث الوطنية التي كسبت رمزية وأصبحت أعيادا وطنية يحتفل بها الشعب

خاتمة

من خلال ما تقدم من بحث في هذه الدراسة يمكن لنا الخروج بمجموعة من الاستنتاجات المهمة وهي كالتالي:

- لعب الشعر الشعبي التونسي دوراً ريادياً في نقل أحداث المعارك والوقائع التي خاضها الشعب التونسي في وجه الآلة الاستعمارية.
- نجاح الشعر الشعبي في حفظ تفاصيل المقاومة المسلحة في الذاكرة الجماعية والمخيل الشعبي.
- اعتراف الشعر الشعبي والذاكرة الشعبية بالتضحيات الجسام التي قدمها الشعب التونسي أيام المقاومة المسلحة والكفاح بين ١٩٥٢-١٩٥٥.
- قدرة الأدب الشعبي على توثيق الأحداث التاريخية كالمقاومة والاستقلال الداخلي والتام لا يقل أهمية عما وثقته المصادر الرسمية والأرشيفية.
- نجاح أدب المقاومة في رفع اللثام عن المسكوت عنه وفي إظهار رموز المقاومة الشعبية رغم محاولات الطمس والتناسي.
- أخيراً يمكن الاعتماد على الموروث الشعبي وآدب المقاومة كنمط وكنوع من المصادر والمراجع التاريخية التي تمكننا من إعادة كتابة التاريخ انطلاقاً من الذاكرة الجماعية المنسية.

لقد كان النصّ الشعري الشعبيّ حاضراً بكلّ أنواعه في مرافقة الأحداث الوطنية على غرار الاستقلال التام لكن حسب ما توصلنا له أثناء البحث في النصوص الشعرية والدواوين الشعبيّة، لاحظنا أنّ الشعر الشعبيّ تغلّب عليه النزعة البورقيبية، حيث لا يمكن أن نجد قصيداً شعبياً يخلو من ذكر فضل الزعيم الحبيب بورقيبة في نيل الاستقلال. وقد فسّرنا هذا الأمر بسببين: الأول يتمثل في اهتمام الحبيب بورقيبة بالشعر الشعبيّ وتظهر بعض الصور على غرار صورة الشاعر الشعبيّ "محمد الصغير ساسي" في مجلس مع الزعيم، وحسب الروايات فإنّ الشعراء الشعبيين كانوا يسامرون بورقيبة في بعض المناسبات على غرار الأعياد الوطنية والدينية فيكرمهم بالعطايا والهدايا. والسبب الثاني لعدم خلوّ اسم الزعيم من القصائد الشعرية الشعبيّة منذ ١ جوان ١٩٥٥ هو قول الشعر وإضفاء هالة من القداسة على الحبيب بورقيبة من أجل التكبّب والتقرّب من الزعيم. حدّثني السيّد "محمد عامر حكيمة" (شهر الناصر) وهو مختص في الأدب الشعبيّ التونسي وأستاذ لغة عربية من مدينة بنبلّة ولاية المنستير «أنّ بورقيبة كان يوزّع الأموال على كل من يقول قصيدة شعبية في "العكاضيات" والمحافل والمهرجانات والمناسبات الوطنية والأعياد»^(٦٩). هذا ما يفسّر حصول الحبيب بورقيبة على نصيب الأسد من المدح وإعطاء صبغة القداسة عليه (مهدي تونس) حسب قول الشاعر عمر بن مبارك الزيتوني.

هكذا تمّ التأريخ لحدث الاستقلال التام وتوثيق تفاصيله في الشعر الشعبيّ ليكون شاهداً على أهمّ الأحداث التي عاشتها تونس إلى حين تحقيق الاستقلال التام

الإحالات المرجعية:

- (٢٣) مذكرات مقاوم، مصدر سابق، ص ٢٧٧.
- (٢٤) رواية المقاوم عبد العزيز الشرايطي وردت في كتاب، **مذكرات مقاوم**، مصدر سابق، ص ٢٩٢.
- (٢٥) نفس المصدر السابق، ص ٢٩٣.
- (٢٦) الشرح: التجينا ليك: احتمينا بك/.
- (٢٧) محمد بن عبد الله حوبشي، مقطع فيديو منشور على صفحة قفصة مسجلاً في ذكرى معركة جبل سيدي عيش يوم ٢١ نوفمبر ٢٠١٩.
- (٢٨) مقال ورد في المجلة القومية التونسية تحت عنوان، " **معركة قبار** **ضد جيش الاستعمار أكتوبر ١٩٥٤** "، نشر يوم ١٠/١١/٢٠١٩.
- (٢٩) الشرح: بشلولة: هو المقاوم محمد العكرمي/ بالحبّ شواهم: بالرصاص قتلهم/ الموزر: السلاح/ نوص: أطلق/ عقابو: خلفه/ لعمار: الرصاص.
- (٣٠) الهاني (التوهامي)، **قمودة وتاريخها واعلمها**، الاطلسية للنشر، تونس ١٩٩٧، ص ١٣٢.
- (٣١) هشام الهادف، مقال بعنوان " **معركة قولايب ١٩ أكتوبر ١٩٥٤**، نشر بصفحة مقاومي الاستعمار بتونس وصانع الاستقلال، نشر يوم ١٨/١١/٢٠٢٢.
- (٣٢) شرح: كي صب سحب: عندما اندلعت المعركة/ حاز: تم حصارهم/ شناته: شباب صغار/ ضاعو: ماتوا/ رجع أخبار: اعاد الخبر.
- (٣٣) نشر في صفحة ذكرى الأجداد من قبار لقولايب، يوم ١٨/١١/٢٠١٦.
- (٣٤) عميرة عليّة الصغير وعدنان منصر، **المقاومة المسلحة**، جزء الثاني، مرجع سائق، ص ١٦٧.
- (٣٥) سعيد (الصافي)، **بورقيبة سيرة شبه محرمه**، رياض رايس بوك للنشر، لبنان ٢٠٠٠، ص ١٨٤.
- (٣٦) المرزوقي، من **شعر الكفاح الوطني**، مصدر سابق، ص ٢٣٤.
- (37) ElMechat, Samia, **Les relations franco-tunisienne: histoire d'une souveraineté arrachée 1955-1964**, ed, l'harmatan France 2005, p17.
- (٣٨) الشرح: خبرهم شايد: معروف / فالج: جالب الظلم/ تتخالج: ترتجف/ قصفقه: دمره.
- (٣٩) المرزوقي، من **شعر الكفاح الوطني**، مصدر سابق، ص ١٦٩/١٦٨.
- (٤٠) الحيدري (ابراهيم)، **انتولوجيا الفنون التقليدية**، الطبعة الاولى سورية، دار الحوار للنشر والتوزيع، ١٩٨٤، ص ٥١.
- (٤١) المرزوقي (محمد)، الأعمال الكاملة، القسم الأول، **معارك وابطال**، دار محمد علي للنشر، الطبعة الأولى، تونس ٢٠٢٠، ص ٣٤٠.
- (٤٢) المولهني (محمد الحبيب)، **مذكرات الوطن والصمود**، دار الغرب الاسلامي، القاهرة ١٩٩١، ص ٢١٩.
- (٤٣) (التريكي) عروسية، **الحركة اليوسفية في تونس ١٩٥٦-١٩٥٥**، مكتبة علاء الدين صفاقس، ٢٠١١، ص ٨٠.
- (٤٤) المرزوقي، **معارك وابطال**، مصدر سابق، ص ٩.
- (٤٥) المرزوقي، من **شعر الكفاح الوطني**، مصدر سابق، ص ١١٧.
- (٤٦) عميرة عليّة الصغير وعدنان منصر، **المقاومة المسلحة**، الجزء الثاني، مرجع سائق، ص ١٧٠.
- (٤٧) موسي (الضواوي)، **أضواء على الحركة اليوسفية بجهة تطاوين ١٩٥٥-١٩٥٦**، مطبعة التسفير الفني صفاقس، ٢٠١٨، ص ٤٣.
- (٤٨) (الشابي) محمد لطفي، **الحركة الوطنية. ومطلب الاستقلال**، جريدة الصباح، نشر يوم ٢٣ أوت ٢٠٠٧.

- (١) شرح الكلمات: الأقطاب تعني الصالحين/ رواقيب تعني الجبال والهضاب/ النشاب يعني الرصاص/ مهازيب تعني مهزومين.
- (٢) المرزوقي (محمد)، **ديوان من شعر الكفاح الوطني**، وزارة الشؤون الثقافية، تونس ١٩٧٣، ص ٩٢.
- (٣) شرح كلمات: اعزام، العزم/ جمجام، قوي/ غرام، حب المقاومة/ تغيث المضام، تساعد طالب النجدة/ يزن عام وراء عام، تمر السنوات.
- (٤) المرزوقي (محمد)، من **شعر الكفاح الوطني**، مصدر سابق، ص ١٧٨.
- (٥) مذكرات مقاوم، **تجربتي مع جيش التحرير التونسي والمقاومة المسلحة كما عشتها**، ت، وا، عبد الجليل الميساوي، رواية عبد القادر السمعلي، دار نهج للطباعة والنشر صفاقس، ٢٠٠٦، ص ٢٠٢.
- (٦) تأليف جماعي، **موجز تاريخ الحركة الوطنية التونسية ١٨٨١-١٩٦٤**، تونس ٢٠٠٨، ص ١٦١.
- (٧) المسلح في تونس والعناصر الفاعلة فيها. أحد قادة المقاومة المسلحة والنضال.
- (٨) **حسن الورداني** أصيل المنستير منطقة بنيلة بالساحل التونسي تحصل على وسام الجمهورية، توفي سنة ١٩٩٦.
- (٩) **شهادة المقاوم بلقاسم قرف**، محفوظة بالمعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية ١٩٥٥.
- (١٠) خليفة الشاطر وآخرون، تونس **عبر التاريخ: الحركة الوطنية دولة الاستقلال**، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس ٢٠٠٢، ص ١٦٠.
- (١١) مذكرات مقاوم، **تجربتي مع جيش التحرير التونسي**، مصدر سابق، ص ١٨٠.
- (١٢) الطاهر بوزعيمة منازل من الحامة كان مع مجموعة الطاهر لسود. استشهد سنة ١٩٥٣.
- (١٣) **شهادة الطاهر لسود** مسجلة في مدينة الحامة يوم ٢٧/١١/١٩٥٣، ومحفوظة بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية.
- (١٤) شرح: دكة: معركة/ العيدودي: جبل/ نجاح: معركة.
- (١٥) مقطع فيديو للقصيدة المسجلة في " المهرجان الدولي للأغنية الريفية " بمنطقة المزونة من ولاية سيدي بوزيد ٤/٣/٢٠١٦ نوفمبر.
- (١٦) **شهادة مقاومي جبل برقو**، عبد الواحد البرقاوي، محمد الهادي اليحياوي وعمر البرقاوي، مسجلة ببرقو في ١٢/١١/١٩٩٢، ومحفوظة بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية.
- (١٧) عميرة عليّة الصغير وعدنان منصر، **المقاومة المسلحة ١٩٣٩-١٩٥٦**، الجزء الثاني، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، جامعة منوبة، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، ٢٠٠٥، ص ١٣١.
- (١٨) عميرة عليّة الصغير وعدنان منصر، **المقاومة المسلحة**، مرجع سابق، ص ١٣١.
- (١٩) نفس المرجع السابق، ص ١٣٢.
- (٢٠) الطاهر بن سليمان الخضراوي من أولاد سيدي تليل القصيرين وشارك في معركة الناظور.
- (٢١) **مذكرات مقاوم**، رواية عبد القادر السمعلي، مصدر سابق، ص ٢٧٦.
- (٢٢) الشرح: الموزر والرفال: الرصاص/ ترزم تقبيل: صوت القنابل/ تخبر بالصانفيل: تعطي الإشارة/.

- (٤٩) الضاوي موسي، **اضواء على الحركة اليوسفية**، مرجع سابق، ص ٩٥.
- (٥٠) خليفة الشاطر وآخرون، **تونس عبر التاريخ**، مرجع سابق، ص ١٧٣.
- (٥١) محمد الفرخان، **ديوان شعر شعبي**، مخطوط المكتبة الوطنية، تونس ١٩٧٦، ص ٥٧.
- (٥٢) خليفة الشاطر وآخرون، **تونس عبر التاريخ**، مرجع سابق، ص ١٧٣.
- (٥٣) نفس المرجع السابق، ص ٢٣٣.
- (٥٤) المرزوقي، **من شعر الكفاح الوطني**، ص ٢٠٨/٢٠٩.
- (٥٥) الثورة الجزائرية اندلعت بين ١٩٥٤-١٩٦٢.
- (٥٦) (الشريف) محمد الهادي، **تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال**، دار سراس للنشر، ط ٣ تونس ٢٠٠٧، ص ١٣٨.
- (٥٧) (الصغير) عميرة عليّة، **في التحرر الاجتماعي والوطني، فصول من تاريخ تونس المعاصر**، المغاربة للطباعة واشهار الكتاب تونس ٢٠١٠، ص ١٧٣.
- (٥٨) (اللدغم (الباهي)، **الزعامة الهادئة، ذكريات وشهادات وخواطر**، اع، واش، وتح، عبد الرحمان اللدغم، دار نيرفانا للنشر، تونس ٢٠١٩، ص ٣٤٤.
- (٥٩) اللدغم، مصدر سابق، ص ٣٤٦.
- (٦٠) (البكوش (الهادي)، **اضاءات على الاستعمار والمقاومة في تونس وفي المغرب الكبير**، مركز النشر الجامعي، تونس ٢٠٠٧، ص ١٠٥.
- (61) La presse de Tunisie, 25/02/1956
- (62) Raymond André et poucet Jean, **La Tunisie**, Paris presses Universitaires de France, 1977, p77.
- (٦٣) شاعر شعبي من منطقة الفحص ولاية زغوان.
- (٦٤) المرزوقي، **من شعر الكفاح الوطني**، مصدر سارق، ص ١٠١.
- (٦٥) شاعر شعبي من معتمدية مارث ولاية قابس.
- (٦٦) المرزوقي، **من شعر الكفاح الوطني**، مصدر سابق، ص ١٦٦.
- (٦٧) شاعر شعبي من منطقة بني خداش ولاية مدنين.
- (٦٨) المرزوقي، **من شعر الكفاح الوطني**، مصدر سابق، ص ٢٢٨.
- (٦٩) **شهادة حية للأستاذ والشاعر " محمد عامر حكيمه،** أصيل منطقة بنبله من ولاية المنستير، يوم ٦/٠٧/٢٠٢٥ بمقهى النجم خزامة سوسة.

معاهدة الأمن والتعاون المشترك بين اليابان والولايات المتحدة الأمريكية ١٩٦٠ دراسة تاريخية

د. أحمد علي منصور

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر
كلية التربية للعلوم الإنسانية
جامعة ديالى - جمهورية العراق



ملخص

يتناول المقال الرأهن معاهدة الأمن والتعاون المشترك بين اليابان والولايات المتحدة الأمريكية الموقعة في ١٩ يناير ١٩٦٠، والتي تمثل تحولاً كبيراً في العلاقات بين البلدين. وقد أظهرت الدراسة أن المعاهدة قد أسست لعلاقة جديدة تتمتع بالتوازن والشراكة، حيث سمحت لليابان بالحصول على الحماية الأمريكية دون الحاجة للتسلح المكثف، مما مكّنها من التركيز على التنمية الاقتصادية. في المقابل، منحت المعاهدة الولايات المتحدة الحق في الحفاظ على قواعدها العسكرية في اليابان. تستعرض الدراسة أيضاً الظروف السياسية المحيطة بالتوقيع على المعاهدة، مشيرة إلى المعارضة الداخلية القوية التي جوبهت بها، وأدت إلى مظاهرات ضخمة في اليابان. رغم أن هذه الاحتجاجات لم تعرقل المعاهدة، إلا أنها أسفرت عن استقالة رئيس الوزراء الياباني كيشي وإلغاء زيارة الرئيس الأمريكي أيزنهاور. كما تبرز الدراسة التوترات بين اليابان والولايات المتحدة فيما يتعلق بمراجعة المعاهدة الأمنية، مسلطة الضوء على مفاوضات معقدة بين البلدين، وإصرار كيشي على المضي قدماً في تعديل المعاهدة رغم المعارضة. وتختتم الدراسة بتوضيح أن المعاهدة كانت خطوة نحو تحقيق شراكة استراتيجية أكثر توازناً، مع الحفاظ على الاستقرار السياسي والاقتصادي في اليابان، رغم التنازلات التي قدمتها الولايات المتحدة لتحقيق ذلك.

كلمات مفتاحية:

معاهدة الأمن والتعاون المشترك؛ اليابان والولايات المتحدة؛ العلاقات الدولية؛ السياسة الخارجية اليابانية؛ تاريخ العلاقات اليابانية الأمريكية

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٥ أكتوبر ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢٩ نوفمبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.435819.1302

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أحمد علي منصور، "معاهدة الأمن والتعاون المشترك بين اليابان والولايات المتحدة الأمريكية ١٩٦٠: دراسة تاريخية"، دورية كان التاريخية، السنة التاسعة عشرة - العدد السادس والسبعون، فبراير ٢٠٢٦، ص ١٧٩ - ١٨٩.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Internet Archive: https://archive.org/details/@historical_kan_periodical

Corresponding author: ahmed.hs.hum@uodiyala.edu.iq

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع المبدع 4.0 (CC BY) (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

تحتل دراسة المعاهدات الدولية أهمية خاصة، إذ تؤدي تلك المعاهدات دوراً جوهرياً في تنظيم العلاقات بين الدول، وتشكل إحدى الركائز الأساسية للقانون الدولي، كما تُعدّ ضرورة مهمة لفهم الأسس القانونية والسياسية الاقتصادية والدبلوماسية في العلاقات بين الدول، وحل النزاعات بشكل سلمي بين الدول، وبالتالي فإن دراسة وفهم طبيعة المعاهدات الدولية تُعدّ مفتاحاً لفهم طبيعة السياسة الدولية، انطلاقاً مما تقدّم جاء اختيارنا لمعاهدة الأمن والتعاون المشترك بين اليابان والولايات المتحدة الأمريكية لعام ١٩٦٠، وذلك لكشف حقبة مهمة في تاريخ العلاقات بين البلدين.

فُسِّمَ البحث إلى مقدمة وخاتمة وثلاثة محاور، تطرق المحور الأول لمسارات العلاقات اليابانية الأمريكية ١٩٥٢-١٩٥٦، أمّا المحور الثاني ناقش المفاوضات الأمريكية - اليابانية حول المعاهدة الأمنية التي عقدت في طوكيو في تشرين الأول عام ١٩٥٨ واختتمت في كانون الثاني عام ١٩٦٠، وعالج المحور الثالث زيارة رئيس الوزراء كيشي لوشنطن وتوقيعه على معاهدة الأمن، وتطرق لدور كيشي في ضمان مصادقة البرلمان الياباني على المعاهدة، والتداعيات السياسية التي نجمت عن ذلك، والمتمثلة في إلغاء زيارة الرئيس الأمريكي ايزنهاور، واستقالة رئيس الوزراء الياباني كيشي.

قامت اشكالية الدراسة على عدد من الأسئلة المحورية، أتت في مقدمة تلك الأسئلة، لماذا سعت الحكومة اليابانية لتعديل المعاهدة الأمنية مع الولايات المتحدة الأمريكية؟ وكف استطاعت اقناع الاخيرة بالمضي قدماً في مراجعة المعاهدة؟ لماذا أصر رئيس الوزراء الياباني كيشي على محاولة فرض المعاهدة عبر استخدام القوة على الرغم من أنها قد تشكل نهاية لحياته السياسية؟ ما المكاسب التي حصل عليها البلدين من توقيع معاهدة الأمن والتعاون المشترك ١٩٦٠؟

اعتمد البحث في استقاء مادته على مجموعة متنوعة من الكتب الأجنبية يأتي في مقدمتها الكتاب الموسوم (احتجاج في طوكيو ازمة معاهدة الامن) للمؤلف جورج باكارد والصادر في عام ١٩٨١، وتتجلى أهمية

الكتاب في كونه يقدم سرداً متوازناً ومفصلاً لازمة معاهدة الامن والتعاون المشترك، ويُعدّ من أوائل الكتب باللغة الانكليزية التي وثقت الحركة الاحتجاجية ضد المعاهدة، كما تكمن أهمية الكتاب في تحليله للتفاعل داخل الحزب الليبرالي الديمقراطي الحاكم حول المعاهدة، فضلاً عن ذلك اعتمد البحث على عدد من البحوث المنشورة باللغة الإنجليزية والتي كان لها اثر مهم برغد البحث بمعلومات قيمة.

أولاً: مسارات العلاقات اليابانية -

الأمريكية (١٩٥٢-١٩٥٦)

من المعلوم إن اليابان خضعت لاحتلال الحلفاء نظرياً والاحتلال الأمريكي عملياً في عام ١٩٤٥ الذي استمر حتى العام ١٩٥٢ لتبد بعدها مرحلة الاستقلال لكن دون إنَّ تحصل على استقلالها السياسي الكامل، لأنَّ معاهدة الامن الموقعة بين البلدين في التاسع من ايلول عام ١٩٥١ كرست حالة التبعية اليابانية للولايات المتحدة الأمريكية إذ سمحت المعاهدة للأخيرة بإقامة قواعد عسكرية على الاراضي اليابانية، و اعطت الولايات المتحدة الأمريكية امكانية التدخل لقمع أي تمرد أي اضطرابات ضد الحكومة اليابانية ومنحت الولايات المتحدة الأمريكية الحق باستخدام قواعدها في اليابان لعمليات عسكرية في الشرق الأقصى دون التشاور المسبق مع الحكومة اليابانية^(١).

مهدت الاتفاقية الأمنية الموقعة بين البلدين الطريق امام المفاوضات حول الاتفاقية الادارية التي مثل فيها دايان راسك Dean Rusk مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأقصى الجانب الأمريكي، أمّا الجانب الياباني فقد مثله وزير الخارجية كاتسو أوكازاكي، اسفرت المفاوضات عن التوقيع على الاتفاقية الإدارية في الثامن العشرين من شباط عام ١٩٥٢، التي تألفت من تسعة وعشرين مادة، تحدد حقوق والتزامات القوّات الأمريكية في اليابان منحت الاتفاقية الجيش الأمريكي صلاحيات خاصة مثل احتجاز المواطنين اليابانيين وهدم المباني، ونصت الاتفاقية على مسؤولية اليابان في تقاسم تكاليف القوات الأمريكية في اليابان، واكدت على إنشاء قيادة مشتركة وتعيين قائد لها، وعلى ان يمارس ذلك

الوطني، وتحويلها إلى قوة دفاع ذاتي وتبني سياسات من شأنها تعزيز قدرة اليابان على الدفاع عن النفس لجأت أحزاب المعارضة فقد للإضرابات والمظاهرات العامة، عندما أصرت السياسة الأميركية على إعادة تسليح اليابان على نطاق واسع في تناقض مباشر مع الدستور الذي فرضته قبل بضع سنوات^(٥).

أثار توقيع معاهدة المساعدة المتبادلة عاصفة من الجدل داخل الدوائر السياسية اليابانية ففي الوقت الذي دعم الحزب الليبرالي الحاكم Party Liberal عامة إعادة التسليح محدودة ومتدرجة في سياق الدستور الياباني دعا الحزب الديمقراطي Tanzan Ishibashi لتعديل المادة التاسعة من الدستور الياباني التي سلبت اليابان حق الحرب، أما حزب الإصلاح التقدمي فقد دعا لتحويل معاهدة الأمن إلى معاهدة امن متبادل، وإنشاء إنشاء قوة دفاع ذاتي وزيادة القدرات الدفاعية اليابانية، عارضت الأحزاب اليسارية اليابانية ممثلة في الحزب الشيوعي الياباني Japanese Communist Party والحزب الاشتراكي الديمقراطي Japanese Socialist Party فقد أعاد التسليح لأنها تتعارض مع الدستور الياباني، وبيّنت أن المساعدات العسكرية التي تقدمها الولايات المتحدة الأمريكية بموجب اتفاقية المساعدة المتبادلة تنطوي على التزامات عسكرية قد تؤدي إلى جر اليابان للتورط في النزاعات المسلحة في شرق آسيا على حساب المصالح اليابانية^(٦).

تزامن توقيع معاهدة الأمن المتبادل مع قع حادثة تفجير في الأول من آذار عام ١٩٥٤ إذ أجرت القوات الأمريكية اختباراً نووياً الأمر الذي أدى بالقرب من التفجير الأمر الذي اثر مشاعر السخط ضد التواجد الأمريكي على الاراضي اليابانية، ودفع اليابان في الأول من آب من العام نفسه لإصدار فقرار تجريم التجارب النووية على الاراضي اليابانية، في المقابل أثارت الحادثة حالة من الضغط ضد حكومة يوشيدا التي تراجعت شعبيتها الامر الذي فسح المجال امام بقية الاحزاب اليابانية لاستغلال الفرصة للإطاحة بحكومة يوشيدا^(٧).

سعى رئيس الوزراء الياباني يوشيدا إلى استغلال المخاوف الأمريكية من انتشار الشيوعية من المنطقة لحث الولايات المتحدة الأمريكية لترجمة الاهتمام

القائد القيادة العملياتية على جميع القوات الأمريكية في منطقة اليابان وعلى جميع المنظمات الأمنية اليابانية في اليابان، باستثناء الشرطة المحلية، للمساهمة في الدفاع عن اليابان وإنشاء لجنة مشتركة كوسيلة للتشاور بين الولايات المتحدة واليابان بشأن جميع المسائل التي تتطلب التشاور المتبادل، فيما يتعلق بتنفيذ تلك الاتفاقية ومنحت الاتفاقية الولايات المتحدة الأمريكية الولاية القضائية الحصرية على جميع الجرائم التي يرتكبها الافراد العسكريين والمدنيين وعائلاتهم في اليابان، ودخلت الاتفاقية الادارية تلقائياً مع دخول المعاهدة الأمنية حيز التنفيذ في ٢٨ نيسان عام ١٩٥٢^(٨).

في ١٤ نيسان عام ١٩٥٣ طلبت الحكومة اليابانية من الولايات المتحدة الأمريكية تعديل المادة السابعة عشر من الاتفاقية الادارية الخاصة بالولاية القضائية، واخضاع كافة الجرائم التي ترتكبها القوات الأمريكية لاختصاص المحاكم اليابانية، وفي ٢٨ ايلول من العام نفسه تم تعديل الاتفاقية مما أعطى اليابان الحق في محاكمة افراد القوات الامريكية عن الجرائم التي يرتكبونها خارج عملهم العسكري، على ان يكون للولايات المتحدة الأمريكية الاختصاص الاول في المحاكمة عن الجرائم الاخرى او الجرائم الخاصة بأمن الولايات المتحدة الأمريكية^(٩).

انسجماً مع السياسة الأمريكية الرامية لإعادة تسليح اليابان لمواجهة التهديد الشيوعي في المنطقة، وقعت اليابان والولايات المتحدة الأمريكية في الثامن من اذار عام ١٩٥٤ - اتفاقية المساعدة الدفاعية المتبادلة، اصبحت اليابان مسؤولة عن الدفاع عن نفسه من خلال زيادة عدد قواتها البرية إلى مئة ثمانين الف بحلول عام ١٩٥٦، وتطوير اليابان لقدراتها الجوية والبحرية، في المقابل تعهدت الولايات المتحدة الأمريكية بتقديم مساعدات مالية تقدر ٢ مليون دولار بعد دخول الاتفاقية حيز التنفيذ في الأول من تموز عام ١٩٥٤^(١٠).

على الرغم من المعارضة القوية داخل مجلس النواب لاتفاقية المساعدة المتبادلة فان رئيس الوزراء الياباني شجيرو يوشيدا استطاع الحصول على موافقة البرلمان الياباني على المعاهدة، بعد التفاوض مع حزب الإصلاح والحصول على موافقته على إعادة تنظيم قوة الأمن

قوية ومستقرة وقادرة على تحقيق الاستقرار الاقتصادي كما اقترح ليونهارت مراجعة معاهدة الأمن الأمريكية اليابانية لتصبح اتفاقية أمن متبادلة^(١٢).

أنمرت إعادة تقييم السياسة الأمريكية تجاه اليابان التي قادتها السفارة الأمريكية، في اليابان، في وثيقة مجلس الأمن القومي رقم ١/٥٥١٦ التي اعتمدت في نيسان عام ١٩٥٥، وأشارت الوثيقة إلى أنه على الرغم من اعتماد اليابان بشكل كبير على الولايات المتحدة - اقتصادياً وعسكرياً ودبلوماسياً إلا اليابان ستسعى لتقليل ذلك الاعتماد واتباع مسار أكثر استقلالية، بما في ذلك توسيع علاقتها مع الدول الشيوعية مع تزايد مكانة اليابان، فان العلاقات الأمريكية - اليابانية تحتاج إلى إعادة تعريف على أساس المصالح المتبادلة والشراكة العملية، وشددت الوثيقة على ضرورة امتناع الولايات المتحدة عن ممارسة الضغوط على اليابان لزيادة قوتها العسكرية على حساب الاستقرار السياسي والاقتصادي^(١٣).

بدأت الجهود اليابانية لمراجعة المعاهدة الأمنية عندما قرر رئيس الوزراء الياباني هاتوياما في آب عام ١٩٥٥ ارسال وفد برئاسة وزير الخارجية مامورو شيجيميتسو^(١٤) Mamoru Shigemitsu إلى واشنطن لمناقشة امكانية اعادة تعديل المعاهدة الأمنية، خلال الزيارة عقد الاخير اجتماع مع وزير الخارجية الأمريكي جون فوستر دالاس^(١٥) John Foster Dallas في آب ١٩٥٥، شدد خلاله وزير الخارجية الياباني شيجيميتسو على خطورة الوضع الداخلي في اليابان أي تقاعس تجاه تعديل المعاهدة الأمنية سيؤدي إلى وصول الاشتراكيين والشيوعيين للسلطة، أن الرأي العام الياباني على الرغم من تأييده للأحزاب المحافظة لكنه يعتقد ان استقلال البلاد غير كامل، وأن المعاهدة الأمنية لا تخدم مصالح الشعب الياباني القومية بقدر ما تخدم المصالح الأمريكية^(١٦).

رفض وزير الخارجية الأمريكي دالاس تعديل المعاهدة الأمنية وشدد أن اليابان لا تزال تحت التهديد الشيوعي الداخلي والخارجي وانتقد حالة الانقسام التي تعيشها الاحزاب المحافظة، وأكد أن المعاهدة لم تفرض بالقوة على اليابانيين بل جاءت نتيجة تصديق اغلبية

الاستراتيجي المكثف بشرق اسيا عامة واليابان خاصة إلى برنامج مساعدات اقليمي، فعند زيارته إلى الولايات المتحدة الأمريكية في اواخر عام ١٩٥٤، دعا يوشدا الرئيس الأمريكي ادويت ايزنهاور لخطة مارشال اسيوية بقيمة ٤ مليارات دولار لكن طلب يوشيدا قبول بالرفض^(١٨).

مهدت استقالة يوشيدا الطريق امام تولى شخصية جديدة رئاسة الوزراء هو ايشيرو هاتوياما^(١٩) الذي كان أكثر ميلاً لتأكيد المصالح اليابانية، و اتخذ نهجاً أكثر استقلالاً عن الولايات المتحدة من موقف يوشيدا، وتوسيع آفاقها الدبلوماسية من سلفه يوشيدا وفيما يتصل بالشؤون الخارجية، فقد دعا هاتوياما لتطبيع العلاقات مع الاتحاد السوفيتي والصين، أمّا على الصعيد الداخلي فقد دعا هاتوياما لتعديل الدستور الياباني، وإعادة تسليح البلاد على نطاق كامل، وإعادة المركزية الإدارية، وتطبيع العلاقات مع الاتحاد السوفيتي، وقبول وصول هاتوياما لرئاسة الوزراء في بتيان في الولايات المتحدة الأمريكية، ففي الوقت الذي ابدت الاخيرة قلقها بشأن رغبة هاتوياما في تحسين العلاقات مع الصين والاتحاد السوفيتي، أمّا على الجانب الاخر فان افكار هاتوياما حول مراجعة الدستور وإعادة التسليح قوبلت بالارتياح^(٢٠).

دفعت تلك التحولات السياسية الداخلية اليابانية الولايات المتحدة الامريكية لمراجعة سياستها تجاه اليابان، ذلك ما اكد السفير الأمريكي جون أليسون John Alison في ورقته السياسية، في أوائل كانون الثاني عام ١٩٥٥، التي أوصى فيها دعم الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي في اليابان الذي تحقق بفعل قوة الحكومات المحافظة، تعاملها الفعال مع القضايا الاقتصادية، واقترح أليسون معاملة اليابان كشريك متساوٍ واقترح أن تتخذ الولايات المتحدة تدريجياً تدابير مثل الانسحاب التدريجي للقوات الأمريكية من اليابان لزيادة وعي اليابان بمسؤوليتها في الدفاع عن نفسها وشدد على عدم الضغط على اليابان لإعادة تسليح قواتها^(٢١) انسجاماً مع توصيات السفير أقر ويليام ليونهارت السكرتير الأول في سفارة طوكيو، بأن تتكاف كافة القوى المحافظة لتشكيل حكومة يابانية

المستخدمة في ممارسة إطلاق النار لإعادة بيعها فقتلها أثارت حادثة جيران جديراً كبيراً في اليابان، في السادس من آذار أحييت القضية الى اللجنة المشتركة بين اليابان والولايات المتحدة الأمريكية المنصوص عليها في الاتفاقية الادارية لعام ١٩٥٣^(٢١).

شرع كيشي في وضع الاسس لمراجعة المعاهدة الأمنية بحذر اذ التقى السفير الأمريكي الجديد في طوكيو ماك آرثر الثاني Mac Arther II طلب منه السفر إلى واشنطن قبل زيارته حتى يتمكن من شرح طبيعة الموقف الياباني من المعاهدة الامنية للرئيس دوايت ايزنهاور^(٢٢) Dwight Eisenhower وزير الخارجية جون فوستر دالاس، خلال الاجتماع تحدث كيشي عن انعدام الثقة لدى الرأي العام الياباني تجاه الولايات المتحدة الذي كان نابغاً من الاستياء من وضع اليابان التبعية بموجب المعاهدة الأمنية، والرغبة في استعادة أوكيناوا، دعا السفير الأمريكي لحث بلاده للعمل معاً لمراجعة المعاهدة، والتوصل إلى اتفاق بشأن القوات الأمريكية المتمركزة في اليابان أكد استعداد بلاده لتعزيز قدراتها الدفاعية كما اقترح كيشي عودة أوكيناوا إلى اليابان في غضون عشر سنوات^(٢٣) في المقابل أظهرت العديد من استطلاعات الرأي العام التي أجريت خلال عام ١٩٥٧ حرص الرأي العام الياباني على المراجعة، وانسحاب القوات الأمريكية لذلك شرع كيشي بحذر في خطته لمراجعة المعاهدة لم يدل بأي تصريحات في الوقت الذي كان يستعد لزيارة الولايات المتحدة، نظراً لعدم رغبته في تقديم وعود كثيرة لشعبه ثم العودة خالي الوفاض^(٢٤).

في السابع والعشرين من أيار عام ١٩٥٧ أرسل السفير الأمريكي في اليابان ماك آرثر الثاني رسالة إلى وزير الخارجية الأمريكي جون فوستر دالاس، شدد فيها على أن علاقات الولايات المتحدة مع اليابان قد وصلت إلى نقطة تحول وأنها إذ لم تستوعب التحولات، فإن من الحدة والعداء المتزايد اعترف ماك آرثر بأن اليابانيين من كافة المشارب السياسية متعطشون لأن يتم معاملتهم على نفس أساس المساواة التي تعاملنا بها مع الحلفاء الآخرين، وحث السفير الأمريكي على جعل زيارة رئيس الوزراء الياباني المرتقبة لواشنطن، فرصة لتحسين العلاقات بين اليابان والولايات المتحدة^(٢٥).

اعضاء البرلمان الياباني عليها، في مواجهة مطالب وزير الخارجية الأمريكي دالاس بمضاعفة قوات الدفاع البري الى ٣٠٠ الف جندي بحلول عام ١٩٦٠ عرض وزير الخارجية الياباني شيجيميتسو خطة إعادة تسليح مدتها ست سنوات تدعو إلى زيادة سنوية قدرها ١٠,٠٠٠ جندي بري لرفع قوة الدفاع الذاتي البرية إلى ١٨٠,٠٠٠ بحلول عام ١٩٥٨، وإجمالي قوة الدفاع الذاتي إلى ٢٦٠,٠٠٠ بحلول عام ١٩٦٠ عكست تلك الفجوة بين دعوات إعادة التسليح الأمريكية ومقابل التحفظات اليابانية احباطاً واسع النطاق واختلاف الأولويات الأمنية بين البلدين ولكن زيارة وزير الخارجية الياباني مثلث الخطوة الأولى في عملية مراجعة المعاهدة إذ أوضحت الزيارة أنه كلما أسرع اليابان في إعادة تسليح نفسها، كلما تمكنت من مراجعة المعاهدة بشكل أسرع^(١٧).

تولى نوبوسوكي كيشي^(١٨) منصبه في شباط ١٩٥٧، في أول مؤتمر صحفي له كرئيس للوزراء، أعلن كيشي رغبة الشعب الياباني في الغاء المعاهدة الأمنية والاتفاقية الادارية الملحق بها مع الولايات المتحدة الأمريكية^(١٩) السؤال الذي يطرح نفسه ما الاسباب التي دفعت رئيس الوزراء الياباني لطرح فكرة تعديل المعاهدة الأمنية مع الولايات المتحدة الأمريكية؟

استعادة اليابان لسيادتها الكاملة ومحالة تعديل البنود غير المتكافئة، وجعلها أكثر توازناً لاسيما أن المعاهدة كانت أحادية الجانب التالي فإن تعديل المعاهدة يساهم في ظهور اليابان كشريك أكثر تكافوا للولايات المتحدة الأمريكية في ظل الحرب الباردة، وتسمح لليابان لأداء دور أكثر استقلالية في الن الخارجية، كان تعديل المعاهدة وسيلة لاستقطاب الفضائل المحافظة والقومية في اليابان التي عارضت المعاهدة الامنية مع الولايات المتحدة الأمريكية، واخير محاولة كيشي كسب الدعم الشعبي للمضي قدماً بمراجعة الدستور الياباني^(٢٠).

كانت الحادثة التي شجعت كيشي لطرح مراجعة المعاهدة الأمنية هي حادثة جيران التي وقعت في كانون الثاني عام ١٩٥٧، عندما أطلق جندي أمريكي يدعى ويليام جيران النار على امرأة يابانية، تدعى ناكا ساكاي، كانت تقوم بجمع علب الخراطيش النحاسية المستهلكة

مشتركة بين البلدين لدراسة المشاكل الناشئة فيما يتعلق بتنفيذ المعاهدة.^(٢٨)

بعد عودته من الولايات المتحدة الأمريكية، أعاد كيشي تنظيم حكومته في ١٠ حزيران عام ١٩٥٧ عكست التشكيلة الوزارية الجديدة توجهات كيشي في تعزيز العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية من خلال اختيار أيشيرو فوجياما (٢٩) Fujiyama Aiichiro المعروف بموافقة المؤيدة لتوثيق العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية وزيراً للخارجية، بالتزامن من ذلك أصدرت المحكمة اليابانية الخاصة بقضية جيرار قرارها في التاسع عشر من تشرين الثاني من العام نفسه الذي قضى بحبس المتهم لمدة ثلاث سنوات مع إيقاف التنفيذ، وطرده من الخدمة من اليابان، لقد أدت تسوية الجدل حول قضية جيرار إلى إزالة عقبة خطيرة محتملة أمام التعاون الأمني الوثيق، وسمحت أمام تطور للعلاقات الثنائية.^(٣٠)

واصلت الحكومة اليابانية برئاسة نوبوسوكي كيشي برنامجها لإعادة التسليح، بمساعدة وتشجيع الولايات المتحدة الأمريكية، وبحلول عام ١٩٥٩، بلغ عدد قوات الدفاع الذاتي ٢١٠,٠٠٠ رجل، و ١٢٠٠ طائرة، وأكثر من ٤٠٠ سفينة، وكانت لديها ثالث أكبر قوة بحرية في آسيا. بلغت ميزانية الدفاع اليابانية في السنة المالية ١٩٥٩ (بداية من ١ نيسان عام ١٩٥٩) ١٠,١% من الميزانية الوطنية و ١,٢% من الناتج القومي الإجمالي، وكانت تلك رسالة مباشرة لواشنطن بأن اليابان لم تعد تمثل عبئاً عسكرياً عليها مع زيادة عدد القوات العسكرية اليابانية، قلصت الولايات المتحدة الأمريكية عدد قواتها من ٢٠٠,٠٠٠ جندي عام ١٩٥٤ إلى جندي في عام ١٩٥٦، وكان تخفيض عدد القوات الأمريكية في اليابان من استراتيجية الرئيس الأمريكي ايزنهاور لتقليل التكاليف العسكرية الخارجية.^(٣١)

أثمرت جهود الضَّغط المستمرة التي مارسها ماك آرثر من أجل إقامة علاقة معاهدة جديدة مع اليابان، الإشارات السياسية الداخلية في اليابان إذ سمحت الانتخابات التي أجريت في أيار عام ١٩٥٨ هي أول انتخابات عامة منذ اندماج حزبي المحافظين والليبرالي للحكومة بالاحتفاظ بأغليبتها الكبيرة في مجلس

سعى كيشي لوضع الترتيبات الأولية لزياته للولايات المتحدة الأمريكية من خلال إعادة صياغة السياسة الأساسية للدفاع الوطني الياباني، ففي ١٤ حزيران عام ١٩٥٧ اجتمع مجلس الوزراء الياباني، واعتمد خطة الدفاع الوطني الياباني، التي دعت إلى إنشاء قوة دفاع بري قوامها ١٨٠ ألف رجل و، وإنشاء قوات دفاع بحري فضلاً عن تعزيز القوات الجوية، كما دعت بقوة الفصائل المؤيدة لإعادة التسليح في اليابان بالتالي فإن زيادة حجم قوات الدفاع الذاتي الياباني كان دليلاً عملياً على وعي اليابان بحاجاتها الدفاعية، و لأقناع المسؤولين الأمريكيين الذين أبدوا انزعاجاً من تقصير اليابان في إعادة تسليح قواتها، والتأكيد على التزام اليابان بالاتفاقيات المبرمة بين البلدين (٢٦) في أيلول ١٩٥٧، أظهرت الطبعة الأولى من الكتاب الدبلوماسي لوزارة الخارجية رغبة اليابان في السعي إلى انتهاز سياسة خارجية مستقلة، وفي الوقت نفسه تتفق مع المصالح الأمريكية اليابانية، اعتمدت الدبلوماسية اليابانية على ثلاثة مبادئ أساسية التركيز على الأمم المتحدة، والتعاون مع العالم الحر، والحفاظ على موقف ثابت كعضو في آسيا.^(٣٢)

ثانياً: المفاوضات اليابانية-الأمريكية حول المعاهدة الأمنية (١٩٥٨-١٩٥٩)

وصل رئيس الوزراء الياباني كيشي إلى العاصمة واشنطن في التاسع عشر من حزيران ١٩٥٧، والتقى الرئيس الأمريكي داويت ايزنهاور و وزير الخارجية جون فوستر دالاس، خلال المناقشات رفضت الإدارة الأمريكية طلب كيشي باستعادة السيادة اليابانية على اوкинаو بونين، لكنها اعترفت بالسادة اليابانية الكاملة على الجزر، في ختام الزيارة أصدر الجانبان بياناً مشتركاً في ٢١ حزيران العام نفسه، وصف العلاقات الأمريكية اليابانية بأنها تدخل حقبة جديد من قائمة على المصالح المشتركة والثقة، وكانت إحدى النتائج الملموسة لزيارة كيشي هي الاتفاق على انسحاب كافة قواتها القتالية البرية من اليابان خلال العام المقبل، والاعتراف المتبادل ان معاهدة الامن وقعت لتكون انتقالية وليس لتبقى للابد، والاتفاق على انشاء لجنة

النُّوَّاب، بحصولها على (٢٩٨) مقعداً من أصل (٤٦٧) مقعداً، أي زيادة بمقعد واحد على البرلمان مما فتح الطريق أمام مفاوضات رسمية في طوكيو بين البلدين، في المقابل ابدت الولايات المتحدة الأمريكية اهتماماً بالغاً بمسألة مراجعة المعاهدة الأمنية، واعطت الضوء الاخضر للمضي قدماً في مراجعة المعاهدة لخشيتها من انتهاج اليابان سياسة الحياد اذ استمرت المعاهدة الامنية الحالية، فضلاً عن رغبتها في تعزيز مكانة كيشي المعروف بمواقفه المؤيدة للولايات المتحدة الأميركية والمعادية للشيوعية.^(٣٢)

في التاسع من تموز عام ١٩٥٨ اقترح وزير الخارجية الياباني فوجياما على السفير الأمريكي ماك آرثر فتح المفاوضات نحو مراجعة المعاهدة الأمنية، بدوره اكد السفير الأمريكي ان هناك طريقتين لتعديل المعاهدة الأمنية، الأولى هي استكمال المعاهدة الحالية بسلسلة من الاتفاقيات الجديدة والثاني استبدالها بمعاهدة جديدة ذات طابع متبادل، في ٢٥ اب من العام نفسه التقى رئيس الوزراء الياباني وزير الخارجية فوجياما مع السفير الأمريكي ماك آرثر في مقر وزارة الخارجية اليابانية، اعرب فيها عن رغبته في معاهدة جديدة يمكن ان تضع العلاقات اليابانية - الأمريكية على اساس متين ومستقر.^(٣٣)

استعداداً لزيارة وزير الخارجية الياباني للولايات المتحدة الأمريكية المقررة في ١١ ايلول عام ١٩٥٨، سافر السفير الأمريكي ماك آرثر الى واشنطن، وخلال الزيارة تمكن ماك آرثر من اقناع الرئيس ايزنهاور ودالاس على المضي قدماً بمراجعة المعاهدة الأمنية على الرغم من الجهود التي بذلتها وزارة الدفاع وهيئة الاركان المشتركة لعرقلة مراجعة معاهدة الامن ١٢ من الشهر نفسه سافر فوجياما إلى واشنطن، أصدر بياناً مشتركاً مع وزير الخارجية دالاس الذي فتح الطريق أمام مفاوضات المعاهدة من خلال القنوات الدبلوماسية العادية في طوكيو.^(٣٤)

اجتمع السفير الأمريكي ماك آرثر الثاني مع رئيس الوزراء الياباني كيشي في ٥ تشرين الأول عام ١٩٥٨ سلمه مسودة المعاهدة تألفت من عشرة مواد حددت معاهدة المعاهدة عشر سنوات تنتهي بناء على طلب أحد

الاطراف الموقعة عليها ونصت مسودة المعاهدة على أن أي عدوان مسلح في أي منطقة في غرب المحيط الهادي تقع تحت سيطرة أحد الطرفين فان مواجهته تكون مشتركة بدوره رفض كيشي اعطاء ملاحظات على مسودة المعاهدة المقترحة إلا بعد دراستها من قبل الخارجية اليابانية^(٣٥). كان الجدل الرئيس يتعلق بالمنطقة التي سينطبق عليها ميثاق الدفاع المشترك لن القيد المفروضة على اليابان بموجب دستورها، كان تمنع الاخيرة من إرسال قواتها إلى غوام أو تايوان في حالة تعرض القوات الأمريكية للهجوم هناك، ثم تركز النقاش هل من الممكن أن يمتد الحق الدستوري في الدفاع عن النفس إلى جزر ريوكيو، التي الولايات المتحدة تحتفظ بالسيطرة الإدارية عليها؟^(٣٦).

بحلول الوقت الذي بلغت المفاوضات حول مراجعة المعاهدة الأمنية ذروتها كان الدعم السياسي والشعبي لرئيس الوزراء الياباني كيشي يتراجع نتجه تقديم الاخير مشروع قانون للبرلمان الياباني لمراجعة وجبات الشرطة في تشرين الأول عام ١٩٥٨ الذي كان هدفه مواجهة الاضطرابات المتوقعة لمراجعة المعاهدة الأمنية الامر الذي استغله احزاب المعارضة نجحت في ربط مراجعة المعاهدة الأمنية للمسائل السياسية الداخلية ومستغلة الراي العام الياباني للهجوم على هجوم على رئيس الوزراء كيشي الامر الذي اضطره في تشرين الثاني من العام نفسه لسحب القانون بالتالي شجع المعارضة اليابانية على عرقلة أي اتفاق بين اليابان والولايات المتحدة الأمريكية^(٣٧).

سعت الحكومة لتقليل المخاوف الداخلية من اعادة التسليح وعدم منح المعارضة غير المتبلورة فرصة لاستغلال تلك المخاوف من خلال وضع المعاهدة في سياق ميثاق الأمم المتحدة التأكيد على القيود الدستورية على القوات الدفاعية اليابانية الموافقة على التشاور المسبق بشأن المسائل الجوهرية لاسيما ما يتعلق شنر القوات الأمريكية خارج اليابان والتشاور المسبق فيما تلق بإدخال الاسلحة النووية وتقييد منطقة المعاهدة بالمناطق الخاضعة للسيطرة الادارية اليابانية^(٣٨).

ثالثاً: زيارة كيشي- لواشنطن والتوقيع على المعاهدة الامنية وازمة التصديق ١٩٦٠

في الوقت الذي كان فيه رئيس الوزراء الياباني كيشي يستعد للمغادرة إلى واشنطن، تظاهر في طوكيو حوالي ٣٠ ألف رفضاً للمعاهدة الأمنية بينما توجهت مجموعة ٢٠٠٠ طالب إلى مطار هانيدا في وقت متأخر من يوم ١٥ كانون الثاني على أمل منع طائرة رئيس الوزراء من الإقلاع نجحت في الدخول للمطار الأمر الذي دفع قوات مكافحة الشغب في ساعات الفجر من يوم ١٦ كانون الثاني، للإزالة الحواجز التي أقيمت داخل صالة واعتقلت ما يقرب من ألف متظاهر الأمر الذي فسح المجال لطائرة رئيس الوزراء للإقلاع متوجهاً إلى واشنطن لتوقيع المعاهدة الجديدة^(٤٣).

في التاسع عشر من كانون الثاني عام ١٩٦٠، وقع رئيس الوزراء نوبوسوكي كيشي ووزير الخارجية الأمريكي كريستيان هيرتر على معاهدة التعاون المتبادل والأمن بين اليابان والولايات المتحدة الأمريكية تألفت المعاهدة من مقدمة ومادة وجه كيش دعوة للرئيس الأمريكي دوايت ايزنهاور لزيارة اليابان في الذكرى السنوية المئة لانطلاق العلاقات الدبلوماسية بين البلدين لتكون أول زيارة لرئيس امريكي لليابان بدوره قبل الرئيس الأمريكي ايزنهاور الدعوة^(٤٤).

سعى رئيس الوزراء الياباني كيش للتصديق على المعاهدة ان تصبح نافذة قبل زيارة الرئيس الأمريكي ايزنهاور كنوع من الترحيب به لان لو تم التصديق بعد الزيارة فانه ستكون كأنها تدخل من الولايات المتحدة الأمريكية في الشؤون الداخلية لليابان^(٤٥). أما الأحزاب المعارضة للمعاهدة، ومنها الحزب الاشتراكي الياباني، فقد سعى لإظهار عدم الموافقة الشعبية على المعاهدة قائم على تأخير الاقتراع للتصديق على المعاهدة حتى تنتهي دورة البرلمان الحالية دون التصديق أمّا رئيس مجلس النواب فقد دعا لتجديد دورة البرلمان الحالية لمدة خمسين يوماً الأمر دفع اعضاء الح للجلوس في مدخل مجلس النواب لمنع الاعضاء من الدخول لذلك وفي مساء يوم التاسع عشر أيار طلب رئيس مجلس

في ٢٤ كانون الثاني عام ١٩٥٩ أرسل وزير الخارجية الأمريكي دالاس رسالة الى السفير ماك آرثر الثاني أوضح فيها أن المفاوضات الجارية لن تستأنف حتى تأخذ طوكيو زمام المبادرة ويحصل رئيس الوزراء الياباني كيشي على دعم كامل من الحزب الليبرالي الديمقراطي الحاكم بشأن القضايا الرئيسة للمعاهدة بدوره ابلغ السفير الأمريكي ماك آرثر الثاني وزير الخارجية ان الولايات المتحدة لن تكون في وضع يسمح بإكمال مفاوضات المعاهدة الجديدة حتى تتأكد من انها تخض بدعم كامل من الحزب الليبرالي الديمقراطي ومن قدرة رئيس الوزراء على تمرير المعاهدة عبر البرلمان الياباني^(٣٩).

استؤنفت مفاوضات المعاهدة الأمنية التي توقفت بسبب الاضطرابات في البرلمان حول قانون مراجعة واجبات الشرطة في ١٣ نيسان عام ١٩٥٩ في من الشهر قدم وزير الخارجية الأمريكي دالاس استقالته وعين الرئيس الأمريكي ايزنهاور وكيل وزارة الخارجية كريستان هيرتر Christian Herter خلفه له الذي كان داعماً لمراجعة المعاهدة الأمنية في غضون ذلك اعتمد الحزب الليبرالي الديمقراطي مجموعة من المادة حول المعاهدة الأمنية نصت على تعطي المعاهدة كل الأراضي اليابانية باستثناء تلك التي لا تخضع للإدارة اليابانية وإدراج تلك المناطق تلقائياً ضمن منطقة المعاهدة عند عودة الحقوق الإدارية عليها لليابان^(٤٠).

في مواجهة المعارضة الداخلية اليابانية كان تنفيذ التصورات الأمريكية في إعادة تسليح اليابان وإبرام معاهدة جديدة معاً أمراً مستحيلاً لذلك فان خوف ادارة الرئيس الأمريكي دوايت ايزنهاور من الحياد الياباني والحاجة الملح لليابان لتكون معقلاً مناهضاً للشيوعية في سياسة الاحتواء الأمريكية دفع الإدارة الأمريكية لتقديم بعض التنازلات الجوهرية وتفضيل الاستقرار المحلي على إعادة التسلح^(٤١). وفي الاجتماع الرسمي الثاني والعشرين في ٦ كانون الثاني عام ١٩٦٠، وصلت المفاوضات إلى نهايتها وكانت المعاهدة والاتفاقية الإدارية جاهزة للتوقيع^(٤٢).

في ١٥ حزيران عام ١٩٦٠ هاجم الطلبة مبنى البرلمان ونجحوا في دخول ساحة البرلمان، واضرموا النار في بعض سيارات الشرطة لذلك استخدمت شرطة مكافحة الشعب خراطيم المياه والغاز المسيل للدموع لتفريق المتظاهرين مما اسفر عن مقتل طالبة وقت تحت الاقدام جرح متظاهر مر منتصف الليل دون وقوع حوادث، وحصلت المعاهدة المثيرة للجدل أخيراً على موافقة البرلمان تلقائياً، في ٢٠ حزيران عام ١٩٦٠، أقر مجلس المستشارين (أعضاء الحزب الليبرالي الديمقراطي فقط) المعاهدة الأمنية في صباح يوم ٢٣ حزيران عام ١٩٦٠، في المقر الرسمي لوزارة الخارجية في طوكيو، تبادلت اليابان الولايات المتحدة الأمريكية أوراق التصديق على المعاهدة الأمنية الجديدة دخلت المعاهدة التي كانت محط معارضة واسعة النطاق، حيز التنفيذ في ذلك اليوم، وفي نفس اليوم، أعلن رئيس الوزراء كيشي نوبوسوكي استقالته من منصب رئيس الوزراء^(٥٠).

خاتمة

هيأت لنا الحقائق والتحليلات التي وردت في ثنايا دراستنا هذه الارضية المناسبة للخروج بعدد من النتائج والاستنتاجات فيما يتعلق بموضوع البحث هو معاهدة الأمن والتعاون المشترك بين اليابان والولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٠ يمكن توضيحها في النقاط التالية: سعت الحكومة اليابانية بعد حصولها على الاستقلال مدفوعة بمجموعة من العوامل وبضغط من الراي العام الياباني وبعض الاحزاب اليسارية لتعديل تلك العلاقات واقامة علاقة تحالفية تعكس حالة التوازن والشراكة بين البلدين لاسيما أن للسياسية الخارجية اليابانية منذ العام ١٩٥٢ كانت قائمة على التحالف الوثيق مع الولايات المتحدة الأمريكية.

النُّوَّاب إرسال فرقة من الشرطة إلى البرلمان. الموافقة القسرية على المعاهدة الأمنية الجديدة دخلت فرقة مكونة من ٥٠٠ شرطي يرتدون الزي الرسمي والقبعات الرمادية بصمت إلى البرلمان الوطني في ١٩ مايو ١٩٦٠ الساعة ١١:٠٥ مساءً وأبعدت الشرطة بالقوة أعضاء الحزب الاشتراكي الذين تمركزوا أمام مكتب رئيس مجلس النُّوَّاب، في محاولة لمنع التصويت على تمديد جلسة البرلمان، في الساعة ١١:٤٨ مساءً، عاد رئيس مجلس النُّوَّاب، كيوسي إيشيرو، لمقعه واقنع أعضاء الحزب الليبرالي الديمقراطي للتصويت على تمديد دورة البرلمان ثم التصديق على معاهدة الامن التعاون المتبادل^(٤٦).

في الرابع من حزيران عام ١٩٦٠ شهدت اليابان اضراباً وطنياً شارك فيه ٦ مليون شخص من جميع أنحاء البلاد هو الاضراب الاكبر في تاريخ اليابان بعد الحرب العالمية الثانية لقد تركز إضراب الرابع من حزيران على نقابات عمال السكك الحديدية الوطنية نتيجة لذلك توقفت حرة القطارات كما توقفت عربات الترام والحافلات وأكثر من نصف سيارات الأجرة في طوكيو والتي يبلغ عددها ١٢ ألف سيارة عن العمل في ساعات الذروة شلت حركة المرور في العاصمة طوكيو التي كان فيها السكان يعتمدون على وسائل النقل العام وكان الهدف المعلن للأضراب هو إقالة كيشي وتحقيق حل مجلس النُّوَّاب قبل التصديق على^(٤٧).

في العاشر من حزيران عام ١٩٦٠ وصل السكرتير الصحفي الرئاسي الأمريكي جيمس هاجرني إلى مطار هانيدا للترتيب لزيارة الرئيس الأمريكي ايزنهاور لكن تجمع حشد من ١٥ ألف متظاهر وحاصروا السيارة التي تقل السفير الأمريكي والصحفي الرئاسي ورشقوها بالحجارة اضطرت الشرطة اليابانية للتدخل ونقله للسفارة الأمريكية بطائرة هليكوبتر^(٤٨). لم يتمكن السيد كيشي من فرض المعاهدة من خلال مجلس المستشارين، ولجأ بدلاً من ذلك إلى المادة ٦١ من الدستور التي بموجبها إذا فشل مجلس الشيوخ في اتخاذ إجراء نهائي بشأن المعاهدة في غضون ٣٠ يوماً من إقرارها من قبل مجلس النُّوَّاب، فإن ويصبح قرار مجلس النُّوَّاب هو قرار مجلس الدايت^(٤٩).

الإحالات المرجعية:

- (1) Simon Avenell, A history of Post War Japan Recovery Prosperity and Transformation, University of Hawaii Press, 2025, P. 98.
- (2) Tsuyoshi Michael Yamaguchi, the Making to on Alliance Japans Alliance Policy 1945-1952, Washington 1999, P. 74.
- (٣) محمد نعمان جلال، الصراع بين الصين واليابان، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٩، ص ٩٦-٩٧.
- (4) Lwanage, Kazuki, Images Decisions and Consequences in Japan Foreign Policy, Lund University Press, 1993, P.127.
- (5) I. H. Nish, The Japanese American Security Treaty, the Australian Quarterly, Vol 32, No 3, September 2010, P. 9.
- (6) Meloy P Leffler, The Cambridge History of the Cold War, Vol. origins 1, 2010, P. 257.
- (7) Michael Schaller, Altered States the United States and Japan since the Occupation, 1997, P. 72.
- (8) Meloy P. Leffler, Op. Cit, P. 258.
- (٩) **هاتوياما ايشيرو**: ولد في آذار عام ١٨٨٣، درس الحقوق في جامعة طوكيو الإمبراطورية، في عام ١٩١٥ انتخب عضواً في البرلمان الياباني، أصبح بعدها وزيراً للتعليم في المدة ١٩٣١-١٩٣٣، في عام ١٩٤٧ سجن لمدة ثلاثة سنوات ونصف وفي عام ١٩٥٢ إطلاق سراح في العاشر من كانون الأول عام ١٩٥٤ تولى رئاسة الوزراء كان أبرز إنجازاته توقيع البيان المشترك مع الاتحاد السوفيتي ودخول اليابان في الأمم المتحدة، توفي هاتوياما في عام ١٩٥٩ للمزيد، يُنظر: William D. Hoover, Historical Dictionary of Japan, Row man and Littlefield, New York, 2019, P.128.
- (10) John Swenson Wright, unequal allies? United States security and alliance Policy toward Japan 1945-1960, Stanford University Press, 2025, P.74.
- (11) Jennier M. Miller, the struggle to rearm Japan Negotiating the Cold War US Japanese Relations, Journal of Contemporary History, Vol 46, No.1, January 2011, P. 74.
- (12) Makoto lokibe, The History of US-Japan Relations from Perry to the Present, Palgrave Macmillan, 2017, P.134.
- (13) Makoto lokibe, Op. Cit, P.134.
- (١٤) **شيجيتسو مامورو**: ولد في عام ١٨٨٧ في أوتا، درس القانون من جامعة طوكيو الإمبراطورية، وأصبح دبلوماسياً في عام ١٩٢٩ تم تعيينه القنصل العام في شنغهاي، استمر حتى العام ١٩٣٢، في العام التالي، تم تعيينه منصب كبير في وزارة الخارجية، في عام ١٩٣٦ أصبح سفيراً لدى الاتحاد السوفيتي، وفي عام ١٩٣٨ سفيراً في المملكة المتحدة، كان شيجيتسو أحد المندوبين اليابانيين الذين وقعوا على وثيقة الاستسلام على متن البارجة الأمريكية ميسوري في الثاني من أيلول عام ١٩٤٥، في محاكمات جرائم الحرب في طوكيو منذ عام ١٩٤٦، حُكم على شيجيتسو بالسجن لمدة سبع سنوات، ولكن في عام ١٩٥٠ تم إطلاق سراحه، استأنف شيجيتسو ناه السياسية وفي عام ١٩٥٢، تم انتخابه رئيساً للحزب الإصلاحي، وفي عام ١٩٥٤ أصبح نائب رئيس الحزب الديمقراطي الياباني الذي تم تشكيله حديثاً مع تشكيل أول مجلس الوزراء في هاتوياما في عام ١٩٥٤، شغل منصب نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية، لعب دوراً مهماً في محادثات التطبيع اليابانية - السوفيتية في عام ١٩٥٦، توفي في عام ١٩٥٧، للمزيد يُنظر: William D. Hoover, Op. Cit, P.128.

استخدم رئيس الوزراء الياباني كيشي عدة اساليب للحصول على دعم الولايات المتحدة الأمريكية لمراجعة المعاهدة الامنية منها اظهار العداء الشديد للشيوعية ومحاولة تعزيز قدرات اليابان العسكرية عبر تبني خطة طويلة المدى لإعادة التسليح كما استخدم ضغط الرأي العام الياباني والتلويح بإمكانية وصول الشيوعيين للسلطة في اليابان إذ استمرت المعاهدة الحالية فضل عن السعي لاستغلال المخاوف الأمريكية من انتشار الشيوعية في المنطقة وحاجة الولايات المتحدة الأمريكية لليابان كحليف ونجح في نهاية المطاف اقناع الولايات المتحدة بمراجعة المعاهدة الامنية.

أن الحركة الاحتجاجية المناهضة للمعاهدة الأمنية لم تكن بسبب بنود المعاهدة، بل جاءت نتيجة محاولة رئيس الوزراء الياباني كيشي استخدام القوة لتمرير المعاهدة وعدم فسح المجال امام المعارضة البرلمانية لأبداء ملاحظاتها حول المعاهدة ذلك ما عد خروجاً على النظام الديمقراطي التعددي القائم آنذاك عودة الى نظام ما قبل الحرب الذي كان كيشي أحد العناصر البارزة فيه.

كان إصرار رئيس الوزراء الياباني كيشي على تجدي المعاهدة الامنية مع الولايات المتحدة الأمريكية على الرغم من أنها قد تؤدي لنهاية لمستقل السياسي قائم على عدة عوامل تتمثل في رغبة كيشي في الاستفادة من التصديق على المعاهدة لزيادة شعبيته وضمان الولاية الثالثة لرئاسة الوزراء.

أن إدراك الولايات المتحدة لأهمية موقع اليابان الاستراتيجي والحاجة المتصورة لها في تنفيذ سياسة الاحتواء للنفوذ الشيوعي في المنطقة والقيود الداخلية اليابانية دفعها لتقديم بعض التنازلات المهمة في المعاهدة واعطاء الالية لضمان الاستقرار السياسي على حساب السياسة السابقة الرامية لإعادة تسليح اليابان.

(26) Masumi Junnosuke , Contemporary Politics in Japan Translated Lonny E. Carlyle, University of California Press , , 1995, P.22.

(27) Shinichi Kitaoka, The Political History of Modern Japan Foreign Relations and Domestic Politics, Routledge , 2019, P.74.

(28) George R. Packard, Op. Cit, P. 58.

(٢٩) **أيتشيرو فوجيياما**: سياسي اقتصادي ياباني، ولد في طوي في ٢٢ أيار عام ١٨٩٧ ، بعد تخرجه من جامعة طوكيو خلف والده كرئيس للكبير شركة لإنتاج قصب السكر ولب الورق في تايوان عام ١٩٣٤ ، وشغل بعدها منصب رئيس غرفة التجارة والصناعة اليابانية في عام ١٩٤١ بسبب دوره الحرب ، تم تطهير فوجيياما أثناء الاحتلال الأمريكي ، بحلول عام ١٩٥٧ ، انتخب عضوا في البرلمان الياباني ثم اصح بعدها وزيرا للخارجية في عهد رئيس الوزراء نوبوسوكي كيشي في عام ١٩٦١. اصبح فوجيياما المدير العام لوكالة التخطيط الاقتصادي ، توفى أيتشيرو فوجيياما في عام ١٩٨٥ للمزيد يُنظر: William D. Hoover , Op .Cit , P.128.

(30) John Swenson Wright, Op. Cit, P. 230.

(31) Masumi Junnosuke , Op. Cit, P.74.

(32) Edward Beauchamp , East Asia History Politics Sociology Culture, Routledge ,2002, P.74.

(33) Akira Iriye , The States The United States and Japan in the Post War World, the University Press of Kentucky , 1989, P. 83.

(34) John Swenson Wrigth , OP. Cit, P. 83.

(35) Akira Iriye , Op. Cit , P. 84.

(36) George R. Packard , OP. Cit, P.71.

(37) Michael Schaller, OP. Cit , P.150.

(38) Thomas A. Dorhan, American Japanese Security agreements post and Preset, McFarland and Company , North Carolina,2007, P. 83.

(39) Robert D. Eldridge, the Security Treaty Revision of 1989, Ed: John Swenson-Wright, Makato lokibe - Japanese Diplomacy in the 1950 , 2008, P. 172.

(٤٠) مهند سلمان صالح ال محمد، **العلاقات السياسية اليابانية الأمريكية ١٩٥٢-١٩٧٢**، أطروحة دكتوراه، كلية التربية، جامعة البصرة، ٢٠١٣، ص١٣٦-١٣٨.

(41) Thomas A. Dorhan, OP Cit, P. 83.

(42) Masumi Junnosuke , Op. Cit, P.35.

(43) Michael Schaller, OP. Cit, P.150.

(44) I. H. Nish, OP. Cit , P.25.

(٤٥) محمد نعمان جلال، المصدر السابق، ص ١٩.

(46) Masumi Junnosuke , Op. Cit, P.42.

(47) Nick Kapur, Op. Cit, P.2.

(48) Alexander Cooley, Base Politics Democratic Change and the USA Military overseas, Cornell University Press ,2011. , P.25.

(49) I. H. Nish , OP. Cit , P.25.

(50) Nick Kapur, Japans Streets of rage the1960 U.S Japan Security Treaty uprising and the origins of Contemporary Japan, Journal Asia Pacific, Vol 18, No 11, November 2020, P.3.

(١٥) **جون فوستر داليس**: سياسي ورجل دولة أمريكي، ولد في الخامس والعشرين من شباط عام ١٨٨٨م، في وواشنطن، درس القانون في كل من الولايات المتحدة الأمريكية وسويسرا وفرنسا، بدأ حياته بالعمل كمحامي، في عام ١٩١٨م عيّن مستشاراً قانونياً لوفد الولايات المتحدة الأمريكية لمؤتمر الصلح في باريس عام ١٩١٧م، أصبح بعدها عضواً في مجلس الشيوخ الأمريكي، في السادس والعشرين من كانون الثاني ١٩٥٣م تمّ اختياره من قبل ايزنهاور ليكون وزيراً للخارجية، في مطلع العام ١٩٥٩م اضطرّ إلى تقديم استقالته بسبب اشتداد وطأة المرض عليه، توفي في العام نفسه، للمزيد يُنظر: لبنى ناجي محمد ، **جون فوستر داليس دوره السياسي في الولايات المتحدة الأمريكية ١٨٨٨-١٩٥٣**، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة تكريت، ٢٠١٨ .

(16) Michael Schaller ,OP. Cit, P.117.

(17) John Swenson Wright, OP. Cit, P.74.

(١٨) **كيشي نوبوسوكي**: سياسي ورجل دولة ياباني، ولد في الثالث عشر من تشرين الثاني عام ١٨٩٦ في محافظة ياماغوشي، بعد تخرجه من جامعة طوكيو التحق في عام ١٩٢٠ بوزارة الزراعة والتجارة، في عام ١٩٣٦ اصبح وزير للصناعة في حكومة مانشوكو، في عام ١٩٤٢ انتخب عضوا في البرلمان الياباني، بعد هزيمة اليابان في عام ١٩٤٥ سجن لمدة ثلاث سنوات وافرغ عنه في عام ١٩٤٨، في تشرين الثاني عام ١٩٥٥ تولى منصب الامين العام للحزب الديمقراطي الليبرالي، في كانون الأوّل عام ١٩٥٦ أصبح وزيراً للخارجية، في الخامس والعشرين من شباط عام ١٩٥٧ تولى رئاسة الوزراء كان اهم عمل قام به هو مراجعة المعاهدة الأمنية مع الولايات المتحدة الأمريكية، استقال كيشي في حزيران عام ١٩٦٠، توفى كيشي في عام ٢٠١١، للمزيد يُنظر:

Akio Watanabe, the prime ministers of postwar Japan 1945-1995, translation Robert D. Eldridge, Lexington Books, New york, 2016, P. 97.

(19) William R. Nester, Power across Pacific Diplomatic History of American Relations with Japan, Macmillan Press Ltd , London, 1996, P. 272.

(20) James Lowell Freed, The US-Japan alliances 1951-1976, Perry to the Present, Palgrave Macmillan ,2017, P.74.

(21) George R. Packard, Protest in Tokyo the security Treaty Crisis of 1960, Princeton Legacy Library, 1981, P. 36.

(٢٢) **دوايت ايزنهاور**: سياسي ورجل دولة أمريكي، ولد في عام ١٨٩٠م في ولاية تكساس، دخل الأكاديمية العسكرية في ويست بوند عام ١٩١٥م، بعدها أكمل دراسته في مدرسة الأركان العامة التابعة للجيش الأمريكي في ولاية تكساس، بعد سبع سنوات أصبح مساعداً لرئيس هيئة الأركان العامة في الجيش الأمريكي، في عام ١٩٤١م تمّ ترقيته إلى رتبة عميد، خلال الحرب العالمية الثانية أصبح قائداً للقوات الأمريكية في أوروبا، في عام ١٩٤٥م شغل وظيفة القائد الأعلى لقوات حلف شمال الأطلسي (الناتو)، دخل معترك السياسة خلال انتخابات عام ١٩٥٢م، استطاع تحقيق الفوز فيها، ليتولّى الرئاسة الأمريكية ويصبح الرئيس السابع والثلاثون للولايات المتحدة، شغل ايزنهاور منصب الرئيس لدورتين متتاليتين ١٩٥٣م/ ١٩٦١م، توفي في عام ١٩٦٩م، للمزيد يُنظر:

Robert A. Divine, Eisenhower and the Cold War, Oxford University Press, New York, 1981.

(23) Michael Schaller, OP. Cit P.130.

(24) George R. Packard, Op. Cit, P.55.

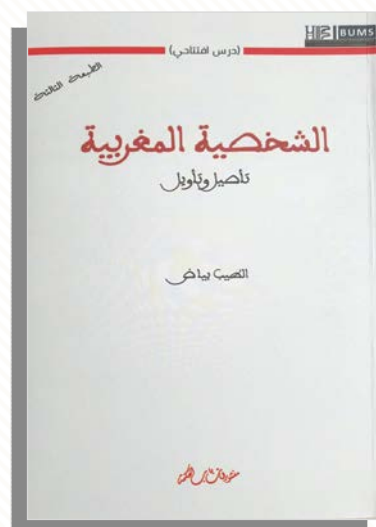
(25) George lokibe, Op. Cit, P. 141.

الشخصية المغربية تأصيل وتأويل

تكوين الشخصية المغربية على محك الزمن الطويل

د. عبد المجيد أيت القائد

دكتوراه في التاريخ المعاصر
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
وزارة التربية - المملكة المغربية



بيانات الكتاب

الكتاب:	الشخصية المغربية: تأصيل وتأويل
المؤلف:	الطيب بياض
الناشر:	منشورات باب الحكمة.
مكان النشر:	تطوان - المملكة المغربية.
سنة النشر:	٢٠٢٤. الطبعة الأولى.
عدد الصفحات:	٩١ صفحة.

كلمات مفتاحية:

الشخصية المغربية، الهايتوس المغربي، النفسانية المغربية، تاريخ المغرب، الذهنية المغربية

معرف الوثيقة الرقمي:

doi 10.21608/kan.2025.400824.1243

مقدمة

ما طبيعة الشخصية المغربية؟ سؤال يشغل بال الفاعلين بمختلف فروع المعرفة الإنسانية لا في المغرب فحسب، بل في مختلف المجتمعات التي تصلها نتف من الأخبار عن هذا الكائن الذي استوطن موقعاً اخترقت شهرته الآفاق منذ قرون غابرة فتعاقبت على مشارفه حضارات من آفاق مختلفة آخرها "حضارة الغرب الأوربي"، التي حملتها التجربة الاستعمارية المعاصرة في ركابها فاحتلت البلاد والعباد خلال النصف الأول من القرن العشرين، بعدما سبقها حشد من العلماء والباحثين من

مختلف فروع المعرفة الإنسانية والاجتماعية نبشوا في طبيعة الشخصية المغربية محاولين فهم مكوناتها وتركيبها الذهني والاجتماعي بغية تيسير مهمة الاستعمار.

ارتباطاً بسياق التساؤل هذا، أصدر المؤرخ المغربي الطيب بياض، المعروف بأبحاثه المجددة والرصينة في الكتابة التاريخية، من خلال الحفر في الثنايا المجهولة والشعاب غير المطروقة في تاريخ المغرب، كتاباً^(١) تبنى مقارنة جديدة لطبيعة الشخصية المغربية تحتكم للزمن التاريخي في شكله الطويل كما ابتكره المؤرخ الفرنسي فرنان بروديل Fernand Braudel^(٢)، رائد الجيل الثاني من

مدرسة الحوليات الفرنسية ذائعة الصيت، وتسترشد مقارنته، إضافة إلى ذلك، بأربعة مفاهيم علمية مستمدة من حقول معرفية متنوعة.

تركيب لمضامين الكتاب

توزعت مواد الكتاب على خمسة محاور، سبقتها مقدمة إشكالية سلط فيها المؤلف الضوء على الصعوبات المنهجية، التي تطرحها مسألة الكتابة عن الذات على من يرتدي عباءة المؤرخ، مشيراً إلى أهداف الكتاب والوصفة المنهجية التي يقترحها لتجاوز المطبات الإستمولوجية والمنهجية التي يطرحها الموضوع المدروس، ففي محور أول بعنوان، "في تقديم الإشكالية وعدة معالجتها"، يسترسل الكاتب في بسط مضامين إشكالية الكتاب والأنطروحة المتبناة من قبله لمعالجتها، فيؤسس إشكاليته على سؤالين معبرين، "ما معنى أن تكون مغربياً؟ وما معنى أن ينشأ هذا المغربي في جزيرة؟"، ويبنى أطروحته على اعتماد مدخل منهجي بمسعى تركيب يَغُضُّ عن تفاصيل الأحداث مع تكثيف جوهرها داخل وعاء التركيب، والانطلاق من مبدأ التأريخ للمغرب كفكرة، فضلاً عن اعتماد تحقيق تاريخي يأخذ بعين الاعتبار مرحلة التاريخ السحيق، الذي يشكل البنية التحتية لتاريخ المغرب وأصل التكوين الحضاري للشخصية المغربية، ارتكزت أطروحة الكتاب كذلك على فكرة الانفتاح المنهجي على العلوم الإنسانية والاجتماعية المجاورة للتاريخ واستعارة بعض المفاهيم التي نحتها باحثون كبار في هذه الميادين والاستئناس بها لفهم جوهر الشخصية المغربية، فضلاً عن اعتماد رهان المقاربة الأكاديمية التي تستبعد منذ البداية فرضية الترافع لفائدة طرح سياسي أو إيديولوجي، أو السير وراء سراب الأصول أو التأريخ للخبر السياسي والانشغال بسرديات التأسيس.

في المحور الثاني سعى المؤلف إلى تفكيك ملابس الولادة المبكرة، التي حصلت للشخصية المغربية وتشكلها الذي تم عبر الزمن الطويل، مركزاً في تحليله على التفاعل المثمر مع نتائج الأبحاث الأركيولوجية في هذا الباب، ليخلص في النهاية إلى أن جوهر الشخصية المغربية تبلور عبر "آلاف الطوابق من الترسبات الحضارية التي انصهرت في الزمن الطويل لتصل مكونات تركيبية بشرية استقرت في هذا المجال خلال مراحل وسياقات مختلفة(...)"^(٣). وفي المحور الثالث

يستحضر المؤلف انتشار الإسلام والبصمات التي تركها ذلك في النفسانية المغربية إلى جانب ما أحدثته صدمة الحداثة من تأثير في البنيات الاقتصادية والاجتماعية والإدارية التقليدية، وفي المحور الرابع المخصص لدراسة ما سماه "عصر الازدواجية أو مغرب الثنائيات" واصل المؤلف التأكيد على ما انطبعت به الذات المغربية من ثنائية، أفرزها الغزو الأجنبي وظلت ملازمة للعقل المغربي الراهن، تتعلق بـ"التقليد والحداثة"، "القديم والجديد"، الأصالة والحداثة، كما لم يفته استحضار البصمة النسائية في التكوين الحضاري للشخصية المغربية، ومنهجية إصلاح أعطاب الذات بين الاجتهادات الذاتية والوصفات الأجنبية. وفيما يشبه الخاتمة أفرد المؤلف عنواناً أعاد فيه استحضار السؤال المهيكل للكتاب: ما معنى أن تكون مغربياً؟ عمل فيه على استشراف أفق ما ينبغي أن تكون عليه الذات المغربية في مواجهتها للصعاب والتحديات المطروحة عليها اليوم.

قراءة تفاعلية مع أطروحة الكتاب

من الملاحظات التي يثيرها الكتاب الجديد الصادر عن منشورات باب الحكمة، والذي كان في الأصل درساً افتتاحياً قدمه المؤلف في رحاب المكتبة الجامعية محمد السقاط بمدينة الدار البيضاء يوم الثلاثاء ٩ يناير ٢٠٢٤:

انفتاح المؤرخ على واحدة من القضايا الجديدة في حقل التاريخ، والتي ظلت حكرًا على تخصصات أخرى منها: السوسيولوجيا وعلم النفس والأنثروبولوجيا وغيرها من العلوم الاجتماعية الأخرى، رغم كونها في الأصل من صميم اهتمامات المؤرخ. انفتاح يبدو من اطلاع القارئ على الصفحات الأولى من الكتاب أنه لم يكن من قبيل الإتياع ولا الابتداع، وإنما هو انفتاح فعلي وعملي تجسد جلياً في استدماج مفاهيم وآليات تحليل العلوم الاجتماعية في المقاربة التاريخية، لإنتاج نص بنفس تركيب وإشكالي عميق، مما يدعونا للتأكيد على أن نص "الشخصية المغربية تأصيل وتأويل"، يشكل بحق نموذجاً للأبحاث التي تثبت وجهة مقارنة المؤرخ، وأصالة أسئلته في معالجة قضايا الحاضر، فحين يتساءل مؤرخ، مستلهم لمنهج كتابة التاريخ الجديد، عن بذور التميز وممكنات النهضة والتطور لدى مجتمع ما، فالمتأكد أن أسئلته ستجاوز ما هو تقني وظيفي ومرحلي مرتبط بالأحداث وتقلباتها، وتمتد لتلامس المستويات البنيوية العميقة

من ذلك المجتمع، لتنتج نصا يصلح دليلا لاستيعاب دروس الماضي وفهم ظرفيات الحاضر ولم لا المساهمة في رسم مسارات المستقبل.

احتكام المؤلف إلى مقارنة إشكالية بنفس تركيبه تتجاوز التناول السردى البسيط مما جعله مثالا للدراسات المطبقة للنهج الإشكالي في كتابة التاريخ بعيداً عن خطابه التنظيرية. فضلا عن انطلاقه من هواجس منهجية أطرت مقاربه للموضوع، بناءً على حرص وطموح واضح على "بناء معرفة تاريخية تتمتع بقدر محترم من المصداقية"، وذلك بالاسترشاد بمحاذير منهجية واضحة على رأسها تجنب الحكم على الماضي بمقاييس الحاضر، وتلافي مزالق الأنكرونية وما تعنيه من خروج عن الزمان بلغة المؤرخ إبراهيم بوطالب، فضلاً عن التعامل النقدي البناء مع نتائج الأبحاث العلمية الأركيولوجية والأدبية.

اقتحام المؤلف لهذا الموضوع الشائك والمعقد بمرجعية أكاديمية تروم تقديم خلاصات واستنتاجات علمية بأكبر قدر ممكن من الموضوعية والهدوء والرصانة، بعيداً عن الخطابات الإيديولوجية في موضوع مثير للحساسيات الإيديولوجية أكثر من غيره، وفي هذا الصدد يفتتح الكاتب مؤلفه بمقولة بليغة تغني عن كل تحليل وتأويل: "أن تكتب عن الذات، أو الوطن، أو الأرض، أو الهوية؛ عن الانتماء بكل أبعاده ومعانيه من موقع علمي ينشد المعالجة الأكاديمية للموضوع، لابد أن تقع تحت ضغط قوتين متعارضتين: الذاتية والموضوعية، الوجداني والعقلاني، نوازع النفس ووازع الصنعة"^(٤). وللخروج من هذا المأزق المنهجي، الذي يؤرق الذوات المفكرة حينما تقترب من موضوع حساس وخاص إلى هذه الدرجة، يقترح بياض وصفة منهجية تحضن المقاربة التي تنشد لنفسها المعالجة العلمية، وتعتبر بها المطبات التي قد تسقطها في مخالب الإيديولوجيا، عبر عنها في قوله: "هو إذا تمرين تأويلي تحفه أخطار الذاتية وتعرضه المطبات الإستمولوجية، لذلك لابد له من إشكالية واضحة وبوصلة محددة وعدة نظرية ومنهجية مُحَصَّنة. كما أن طول الفترة المدروسة وتشعب قضاياها ذات الصلة بجوهر الموضوع، تفرض الانفتاح على حقول معرفية متعددة، وتجعل التحليل ممهدا للتأويل، مع الإعراض عن الكثير من الأحداث والتفاصيل، التي يجري تكثيف جوهرها داخل وعاء التركيب"^(٥)، ويضيف إلى ذلك إجراءً منهجياً آخر لا يقل أهمية عن سابقه، مفاده ضرورة الوعي بجملة المشاعر

والعواطف المستبطنة، التي يحملها الكاتب في وعيه ولا وعيه تجاه موضوع دراسته، حتى يتمكن من الحد من تأثيرها على فهمه الموضوعي لقضايا دراسته.

اعتماد المؤلف لعدة منهجية تنهل من خمسة مفاهيم مستمدة من تخصصات متعددة، ارتبط كل واحد منها بتجربة فكرية رائدة تنتمي لسياقات فكرية وبراديغمات متفاوتة (مفهوم المدة الطويلة للمؤرخ الفرنسي فرنان بروديل، مفهوم الحدود في التاريخ للمؤرخ الأمريكي فريديريك جاكسون تورنير، مفهوم الشخصية للأنثروبولوجي الأمريكي رالف لينتون، مفهوم الهايتوس لعالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو، مفهوم الوطنية للمؤرخ الأمريكي بويد شيفر) أضفت هذه المرجعيات والمداخل المنهجية الخمس على الكتاب رونقاً خاصاً وجاذبية كبيرة، وكونت ما يمكن أن نسميه الهوية المنهجية للكتاب. هوية جعلت الكتاب بعيداً عن المسار الوثائقي كمدخل للتجديد، والذي يقتضي الكشف عن وثائق جديدة أو نتائج أثرية جديدة، وقربته مقابل ذلك من المسار المنهجي كمدخل للتجديد، عبر اعتماد منهجية جديدة تُسعف في إعادة قراءة الموضوع بشكل آخر مختلف عما هو سائد فيما سلف من دراسات وأبحاث، فكان رهان المؤلف الكبير "على مدخل منهجي بمسعى تركيبى مُكَنَّف لتقاطع نظريات ومفاهيم مؤسسة في أفق "تبيئتها" في التربة المغربية، على أمل الظفر بخيط هادٍ إلى رصد مخاض الولادة وتتبع أطوار التشكل ورصد مراحل التحول"^(٦).

هذه الثلاثية التي كونتها هواجس المؤلف المعرفية الثلاث: الكشف عن مخاض الولادة، وتتبع أطوار التشكل، ورصد مراحل التحول، تبنوينا بطريقة في التفكير التاريخي معنية بالأشكلة والتركيب والتأويل أكثر من اهتمامها بالحدث المفرد، مهتمة بالبنية والمجتمع أكثر من هوسها بالفرد، انطلاقاً من رؤية تقاسمها المؤلف مع كل من عبد الله العروي وشارل أندري جوليان، تقوم على أساس الكتابة عن الشخصية المغربية انطلاقاً من هاجس التأريخ للمغرب كفكرة، عبر مراقبة الولادة التي تمت في زمن سحيق، ومتابعة تأثير مختلف المدينيات التي طرأت على المغرب من الخارج، والتي لم تتجاوز كونها ثياب تدثر بها المغربي في محطات معينة، لكن مع الانتباه أيضاً إلى دينك الجسد والروح اللذين بقيا عصيين عن أي تغيير رغم

ما طرأ عليهما من أشكال تفكير من خارج الحدود الذهنية لذلك الكيان الذي صار يسمى مغرباً.^(٧)

لكل هذه الاعتبارات، لم يكن غريباً أن يجعل المؤلف من الصفحات الأولى لكتابه جسراً بين القارئ وتصورات علمين مرموقين من أعلام صناعة التاريخ في العالم أجمع، أحدهما هو مارك بلوك مهندس مفهوم الوظيفة المجتمعية للتاريخ وصاحب السؤال المؤسس حول جدوى التاريخ وما يستطيع تقديمه للمجتمع من إضاءات وفوائد، والثاني هو فرنان بروديل مبتكر المدة الطويلة أو الزمن التاريخي الطويل، وصاحب الفضل في توطين مفهوم البنية وتبيئته ضمن حقل التاريخ. أجد هذه الإشارة بالغة الدلالة من قبل مؤلف، أزعم أنه متأثر بشكل الكتابة التاريخية كما أنتجها النسق الإسطوغرافي الغربي، ويعمل على ابتكار جسور ومسارات تسعف في التوظيف الأمثل لتلك الآليات النظرية والعدة المنهجية في فهم تاريخ المغرب وتفكيك كومات التعقيد التي تلف مختلف قضاياها^(٨)، فمن خلال كلمات الافتتاح تلك، إن صح هذا التعبير، أراد المؤلف أن يوجه القارئ منذ البداية إلى أن مقاربتة لموضوع الشخصية المغربية ليست مقارنة عاطفية أو انفعالية بقدر ما هي مقارنة أكاديمية مؤسسة على عدة منهجية تنأى بها عن النوازع الإيديولوجية، كما أنها مقارنة ليست من قبيل الترف الفكري بل هي عمل يدخل في صميم محاولات فهم نفسانية الإنسان المغربي، وفق المفهوم الذي قعد له عبد الله العروي، للمساهمة في إيجاد حلول لمشاكله الحاضرة واستشراف آفاق مستقبله.

وفق هذا المسار الذي يهدف إلى قراءة تاريخ المغرب والنبش في قضاياها المختلفة برؤية تجديدية تستحضر هذا البعد اليبستيمولوجي ليس فقط في مستواه النظري ولكن أيضاً في مستواه المتعلق بأصول صناعة المؤرخ، فأن يحيل المؤلف مرات متكررة على عبد الله العروي وإبراهيم بوطالب وجرمان عياش ويستثمر ما أنتجوه من أفكار وتصورات بعمق تحليلي كبير، بل يؤطر منجزه هذا في جزء منه عبر محاور تلك الأفكار والتصورات تحليلاً ونقداً وتأويلاً، فهذا لا ينهض إلا دليلاً على مزاجية معبرة ومنتجة بين مستويين من كتابة التاريخ؛ مستوى مهتيل بالمقاربة الأرشيفية ومعني أكثر بأسئلة التأصيل والتأريخ ومستوى آخر منشغل بدرجة كبيرة بأسئلة التأويل.

هذا الهم المنهجي والقلق المعرفي الذي يلزمه القارئ لدى المؤلف، صاحبه كذلك هم آخر برمزية أكثر قوة تتعلق بالرغبة في خلق الامتداد والتراكم، إذ لم يكن المؤلف معنياً، وهو يحاول التأصيل للشخصية المغربية، بتقديم إجابات جاهزة من الماضي عن أسئلة ما زالت حاضرة، بقدر ما كان معنياً أكثر بطرح أسئلة منهجية تسائل اهتمامات مؤرخ اليوم، وتدعوه إلى نفذ غبار الأسئلة التقليدية حول تاريخ المغرب، أسئلة تجعله في الغالب أسيراً للمنازع الإيديولوجية، كما تجعله تائهاً في سراديب الأصول، وتشغله عن الخوض في المواضيع والأسئلة الأكثر أهمية بالنسبة لتاريخ المغرب وما يكتنزه من تراكم حضاري، وبالنسبة لحاضره وما يوفره له ذلك التراكم الحضاري من إمكانات للاستثمار بغية تحقيق النهوض واللاحق بركب الأمم المتقدمة، التي أحسنت قراءة تراكماتها الحضارية وخلقت منها دليلاً تسترشد به اليوم لعبور متاهات الحاضر. وبالنسبة أيضاً لمؤرخ اليوم وما هو مدعو إليه من جهد ضروري لتجديد صناعته حتى تكون منتجة وذات جدوى بالنسبة للحاضر.

في خضم كل هذا، تساءل المؤلف عن دور المجال في صنع الإنسان المغربي ومنح هذا المؤثر دوراً مهماً ضمن المتغيرات المشكلة لأطروحة الكتاب، متأثراً في ذلك بالعدة المنهجية التي صاغها المؤرخ الفرنسي فرنان بروديل، وتظهر أهمية البعد المجالي في أطروحة المؤلف بشكل بارز لدرجة أنه خصص له أحد الأسئلة المركزية المشكلة لإشكالية الكتاب بصياغة جد معبرة مفادها: ما معنى أن ينشأ هذا المغربي في جزيرة؟ وبالاستعانة بمفهوم التخوم كما صاغه المؤرخ الأمريكي فريدريك جاكسون تونير توصل إلى أن شخصية الإنسان المغربي جرى نحتها "داخل تخوم فضاء جغرافي يشبه محطة نهاية السير للقادم من الشرق في اتجاه الغرب"^(٩). فضاء مثل مصباً لروافد حضارية متعددة، تفاعلت ترسباتها عبر أمد زمني طويل مشكلة ما يشبه الحوض الرسوبي الذي تحت طبقاته على مهل، ما جعل خصوصية الإنسان المغربي تنبع من هذا العمق لتمييزه عن التجارب المجاورة له بميزة كون التحولات الكبرى لمساره مستمدة من عمقه المحلي أكثر من ارتباطها أو تأثرها بالمؤثرات القادمة من الشرق، ذلك الشرق الذي تربطه به علاقة معقدة تستبطن كثيراً من الندية والبحث عن التمايز، وعلى هذا الأساس يصبح مفهوم الحدود بالنسبة لتجربة

الشخصية المغربية متجاوزا المعنى البسيط إلى معنى مركب يصبح معه عنصراً أساسياً من عناصر تشكل الشخصية المغربية وليس فقط مجرد عنصر مادي يحيل على موقع جغرافي وحدوده.

ميزة المقاربة التاريخية، بالشكل الذي تظهر به في هذا الكتاب، أنها مقارنة تسمو على الحدث، وتنأى عن الخوض في تفاصيل وجزئيات الوقائع، لتلامس المراقبي العليا من التفكير التاريخي، بلُغَةً عالم النفس التربوي الأمريكي بنجامين بلوم (Benjamin Samuel Bloom)، في مصفوفته الشهيرة عن العمليات العقلية التي تربط مهارات التفكير العليا بعمليات التحليل والتقييم والإبداع. إنها مقارنة تركيبية تستمد جوهرها من التحليل والتأويل والمُسْأَلَة الإشكالية لِمَاضٍ ممتد في الزمن مع قدرة كبيرة على الانفتاح على فضاءات معرفية أخرى وإجادة توظيف آلياتها التحليلية والمنهجية. مكن هذا الاختيار المنهجي المؤلف من توليد نص كثيف ومركز لأمس الأبعاد المختلفة والمركبة للشخصية المغربية.

لم يفرط المؤلف، وهو يحاول تأويل الأبعاد المركبة **لنفسانية الإنسان المغربي،** ويكتب في إطار ما سماه "الورش البحثي المحكوم بحسابات يتقاطع فيها العلمي بالإيديولوجي"، في الأسس المنهجية لصناعة المؤرخ، يظهر ذلك من خلال تسييج عمله بمحاذير تقيه من الانزلاقات الإبيستيمية والمنهجية الممكنة، والانطلاق من هواجس منهجية أطرت مقاربه للموضوع. فضلا عن دمج المُلَفِّت بين المقاربة المعرفية المعنية بإبراز معالم الشخصية المغربية، على النحو الذي تشكلت به عبر الزمن الطويل، وبين البعد المنهجي والإبيستيمولوجي المعني بمراجعة بعض المفاهيم والقوالب المنهجية، انطلاقا من رؤية نقدية تروم المساهمة في تطوير وتجديد صناعة الكتابة التاريخية؛ من بين تلك المقولات المنهجية يمكن الوقوف عند مسألة التحقيق، التي يدعونا هذا الكتاب ولو بصورة غير مباشرة، إلى إعادة التفكير فيها وتجاوز النظرة التقليدية التي تجعلها أداة لتقسيم الزمن بشكل ميكانيكي، وتجعل المؤرخ تائها في بحر لا قرار له، بحر البحث عن الأصول، ولاسيما إن كان ذلك البحث موجها بخلفيات إيديولوجية معينة. جعلت هذه الرؤية المؤلف ينتبه إلى أن التحقيق المعتمد في أبحاث سابقة حاولت التأصيل للشخصية المغربية، اعتوره خلل إبيستيمولوجي، كونه يقفز على مرحلة التاريخ السحيق، التي تشكل البنية

التحتية لتاريخ المغرب، وهو ما جعل باب التأصيل لفكرة المغرب مفتوحة على آفاق رحبة لا تقف فقط عند استثمار آخر ما توصلت إليه الأبحاث الأثرية في هذا الباب، بل تتجاوز ذلك للاستفادة من بعض المقاربات التي تسعف في فهم فكرة المغرب وتفكيك عناصر التعقيد التي تجعل شخصية المغربي عصية على الفهم، ومنها أطروحة التخوم للمؤرخ الأمريكي فريديريك جاكسون تورنير، الذي انتبه إلى وجود روافد أخرى غير تقليدية هي التي شكلت الهوية الحقيقية للولايات المتحدة الأمريكية، وهو ما يجعلنا ننتبه إلى فكرة مفادها؛ أن تكوين فكرة المغرب وشخصيته ليست بالضرورة مرتبطة بروافد مجالية تجعله متأثراً دائماً بما هو قادم من الخارج، وأن مجاله وحيزه الجغرافي هو الفاعل الأساس ذي التأثير الأقوى في صهر وتشكيل وإنتاج الجزيئات التي تكونت منها الشخصية المغربية.

في ذات السياق استعان المؤلف كذلك بأطروحة الأنثروبولوجي الأمريكي رالف لينتون الذي وجه اهتمامه ليأخذ الخلفية الثقافية للشخصية بعين الاعتبار، وهي خلفية تشكلت بالدرجة الأولى نتيجة التفاعل الجدلي المنتج بين السلوكات الفردية والممارسات الجماعية، بين ذاكرة الذات وذاكرة الجماعة، تفاعل كون ما يسمى بـ "المعتاد"، المعبر عنه بسلوكيات عفوية. كما يحضر في هذا السياق كذلك مفهوم "الهابيتوس" الذي نحته عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو ليحبر به عن أفعال عفوية وتلقائية تصدر عن الإنسان انطلاقاً من موروثاته السابقة لتوجيه سلوكه في التفاعل مع المحيط مما يجعلها بمثابة معبر من الفرد إلى الجماعة فتصير تركيباً معبراً عن لسان حال الأمم ودالاً على شخصيتها الجماعية.^(١٠)

يصل المؤلف في نهاية منجزه، إلى استشراف أفق بحثي يُعَنَى بالبحث في معنى **الشخصية المغربية أو الذات المغربية،** مفاده؛ أن إعادة التفكير والتأمل في السيرة التي تشكلت عبرها نفسانية وشخصية الإنسان المغربي في الأمد الزمني الطويل، لابد وأن تقود الباحث إلى فهم البيئة التحتية للتاريخ المغربي البطيء، بنية غنية بزخمها وترسباتها الحضارية، التي وجدت في جغرافيا البلاد، بحدودها البرية التي تجعلها منتهى المسير للقادم إليها من الشرق، حضناً يعيد تشكيل وصهر تلك الترسبات محلياً، الشيء الذي يجعل التأثيرات القادمة من الشرق محدودة الأثر ومنحصرة في التخوم.

حفظت هويتها الخاصة من خلال تفاعلها العميق مع بيئتها المحلية. هذا التفاعل الطويل الذي عبر عن نفسه في طوابق حضارية متعددة أسهم في تشكيل سلوكيات وذهنيات تحمل خصوصية مغربية مميزة.

المؤلف يبني أطروحته على منهجية علمية تأصيلية، مستندة إلى مقاربات تاريخية واجتماعية وعلمية متنوعة، مما يعكس عمق البحث التاريخي والنقدي الذي ينتهجه. في الوقت ذاته، يبتعد عن السرد التقليدي أو الانحياز الإيديولوجي، ليعرض قراءة منفتحة ومستقبلية للشخصية المغربية، معتمداً على مفاهيم رائدة في مجالات السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا والتاريخ.

كما يظهر الكتاب كيف أن الشخصية المغربية قد تأثرت بمتغيرات سياسية واجتماعية كبيرة، بدءاً من الصدمة الاستعمارية وصولاً إلى تحديات العصر الحديث. لكن في ذات الوقت، يبرز الكتاب الأمل في قدرة الذات المغربية على تجاوز أزماتها وتحقيق نهوض اجتماعي وحضاري من خلال الثقة بالنفس واستثمار ما توفره تراكمتها التاريخية. إذا كانت بعض الجوانب من الشخصية المغربية تعكس ملامح من القصور أو التردد أمام الآخر، فإن الكتاب ينتهي بتأكيد على إمكانية تجاوز هذه العقبات بإعادة بناء الثقة الذاتية وفتح آفاق جديدة للتقدم والمستقبل.

الإحالات المرجعية:

(١) الطيب بياض، الشخصية المغربية تأصيل وتأويل، منشورات باب الحكمة، تطوان، الطبعة الأولى، ٢٠٢٤، ٩١ صفحة.

(٣) الطيب بياض، الشخصية المغربية، المرجع السابق، ص. ٤.

(٤) المرجع نفسه، ص. ١٩.

(٥) المرجع نفسه، ص. ٢٠.

(٦) المرجع نفسه، ص. ٢٤.

(٧) المرجع نفسه، ص. ٢٥.

(٨) يبرز هذا الأسلوب في مختلف أعمال المؤلف التي تناول فيها قضايا تتصل بتاريخ الذهنيات والرحلة والتاريخ الاقتصادي وتاريخ الزمن الراهن.

(٩) المرجع نفسه، ص. ١٦.

(١٠) المرجع نفسه، ص. ٣٠-٣١.

يضيف إلى ذلك مسألة أخرى على جانب كبير من الأهمية، لم يكن غريباً أن يُختتم بها كتاب جعل من المدخل الإشكالي أسلوباً في تفكيك وإعادة بناء موضوع الشخصية المغربية، فإذا كان الانطباع القوي الذي يصاحب القارئ منذ البداية وعبر مختلف اللحظات الجوهرية في الكتاب، متعلقاً بذلك التفرد والتميز الذي اتسمت به نفسانية الإنسان المغربي، في تكوينه الذهني وفي علاقته بالآخر مقارنة مع جواره القريب، فإن كلمة الختم، التي اختارها المؤلف، قد وضعت الأصبع على مكن الخلل الذي ينبغي الاجتهاد في تجاوزه، خلل رصدته العين الأنثروبولوجية حينما حاولت أن تعكس وجه السؤال المألوف، الذي يتبادر إلى ذهن كل من يروم فهم نفسانية الذات، فيسارع لتعداد مآثرها ومناقبها ومظاهر التميز والتفرد فيها، ليجيء السؤال المعكوس هذه المرة حول مكامن القصور والخلل في شخصيتنا، والتي من جملتها التهرب من تحمل المسؤولية، وعقدة النقص والإحساس بالدونية أمام الآخر المتفوق، ثم العلاقة المتوترة مع الزمن وما نتج عنها من هدر لا حدود له. يقترح بياض لكل هاته الأعطاب والأدواء حلاً كامناً في مسألة الثقة بالنفس وتجاوز الإحساس بالدونية إزاء الآخر، مستدلاً على وجاهة هذا الطرح بمختلف المحطات التاريخية، التي بدت فيها الذات مبتكرة وقادرة على تجاوز أزماتها كلما وثقت بنفسها. محطات، يؤكد الكتاب، أن صفحاته عاجزة عن استيعابها، فكان الخيار انتقاء ما هو قريب منها إلى زمننا الراهن، فكانت المسيرة الخضراء عام ١٩٧٥ وكان التدبير الذاتي لزلزال الحوز عام ٢٠٢٣، مروراً بمحطات مشرقة أخرى، أكثرها إشراقاً، التدبير الذكي لملف العدالة الانتقالية مع هيئة الإنصاف والمصالحة مع مطلع الألفية الثالثة.

خاتمة

من خلال القراءة المتأنية لكتاب "الشخصية المغربية: تأصيل وتأويل" للمؤرخ الطيب بياض، يتضح أن المؤلف يقدم مقاربة مبتكرة وفريدة لدراسة الشخصية المغربية عبر الزمان الطويل، مشدداً على ضرورة العودة إلى جذور هذا التكوين النفسي والذهني التي تشكلت في سياقات حضارية متنوعة. يظهر الكتاب كيف أن الشخصية المغربية، رغم تأثرها بالعديد من الثقافات الخارجية، قد

المسألة المتعلقة بزراعة الكروم في المغرب

قراءة تاريخية تحليلية

فؤاد المستفيد

باحث دكتوراه تاريخ معاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس
فاس - المملكة المغربية



بيانات الأطروحة

Titre:	La question viticole au Maroc : thèse pour le doctorat / soutenue... par Jacques Pérotin ; Faculté de droit de l'Université de Bordeaux.	أطروحة دكتوراه المسألة المتعلقة بزراعة الكروم في المغرب
Auteur :	Pérotin, Jacques. Auteur du texte.	قدمت وأُجيزت أمام كلية الحقوق بجامعة
Éditeur:	impr. R. Samie (Bordeaux).	بورجو في ١٢ يونيو ١٩٣٦، الساعة الرابعة مساءً
Date d'édition:	1936.	إعداد الطالب: جاك بيروتان (Jacques Pérotin)
Contributeur:	Université de Bordeaux. Faculté de droit. Éditeur scientifique.	
Langue:	Français.	
Format:	1 vol. (299 p.) : tableaux ; in-8.	
Format:	Nombre total de vues : 317.	

يتناول هذا المقال بالدراسة والتحليل أطروحة جاك بيروتان (La question viticole au Maroc، ١٩٣٦)، أحد أبرز ممثلي الفكر الكولونيالي الفرنسي، من خلال مقارنة نقدية تكشف البنية الإيديولوجية التي تأسس عليها الخطاب الأكاديمي الاستعماري في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. يهدف البحث إلى تفكيك الأسس النظرية التي اعتمدها بيروتان في تمثيل الفضاء المغربي ومجتمعاته، وكيف سعى عبر أدوات البحث التاريخي والجغرافي إلى إضفاء مشروع علمية على المشروع التوسعي الفرنسي. يُبرز المقال التداخل بين المعرفة والسياسة في الخطاب الكولونيالي، حيث تحولت الدراسات الجامعية إلى أداة لهيمنة رمزية تسبق السيطرة المادية. كما يوضح أن قراءة بيروتان للتاريخ المغربي لم تكن موضوعية أو محايدة، بل خضعت لمنظور استعماري يسعى إلى نفي السيادة المغربية وتبرير التدخل الفرنسي تحت غطاء "المهمة الحضارية". ومن خلال تحليل السياق الفكري والسياسي للأطروحة، يخلص المقال إلى أن خطاب بيروتان يشكل نموذجاً دالاً على توظيف المعرفة لخدمة الغاية الاستعمارية، مما يستدعي إعادة قراءة هذا التراث الكولونيالي بعين نقدية تفكك رواسته في الدراسات التاريخية الحديثة.

معرف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2026.489450 **كلمات مفتاحية:** زراعة الكروم؛ الحماية الفرنسية؛ الاقتصاد الكولونيالي؛ الهيمنة المعرفية؛ الاستعمار الفرنسي؛ الخطاب الكولونيالي؛ التنمية الاقتصادية الموجهة؛ أزمة الكروم

مقدمة

يُشكّل التاريخ الاقتصادي للمغرب خلال فترة الحماية الفرنسية (١٩١٢-١٩٥٦) أحد المفاتيح الأساسية لفهم آليات السيطرة الكولونيالية التي لم تكن مجرد احتلال عسكري أو سياسي، بل منظومة متكاملة من المعرفة والإدارة والهيمنة الاقتصادية. ففي العقود الأولى من القرن العشرين، تحوّل المغرب إلى حقل

تجريبي لمجموعة من السياسات الزراعية والمالية والإدارية التي صاغتها فرنسا، ليس فقط لتأمين مواردها الاقتصادية، بل أيضاً لإعادة تشكيل المجتمع المغربي في ضوء مفاهيم "العقلانية" و"التمدين" كما فهمها الفكر الأوروبي الحديث. في هذا السياق، تبرز أطروحة جاك بيروتان الموسومة بـ "La question viticole au Maroc" (١٩٣٦)

بوصفها وثيقة أكاديمية تعكس بعمق التوجهات الفكرية والإيديولوجية للمؤسسة الكولونiale الفرنسية. فرغم طابعها الاقتصادي الظاهر، فإنها تنتمي إلى نمط من الخطابات التي جعلت من العلم وسيلة لتبرير الهيمنة. ومن البحث الأكاديمي أداة لإعادة إنتاج التمثلات الكولونiale. إن دراسة هذه الأطروحة تتيح لنا الولوج إلى أحد أخطر أبعاد المشروع الاستعماري: البعد المعرفي الذي يمنح الاحتلال شرعيته عبر اللغة الأكاديمية وادعاء الموضوعية العلمية.

مثلت فترة الثلاثينيات من القرن العشرين فترة دقيقة في تاريخ المغرب المعاصر، حيث بدأت الإدارة الفرنسية في إعادة تنظيم القطاع الزراعي وفق منطق رأسمالي يستجيب لحاجات السوق الفرنسية. لا لحاجات المجتمع المغربي. فظهرت مشاريع كبرى في مجالات الكروم والقمح والمواشي، رافقها خطاب علمي كثيف أنتجته مؤسسات كالمعهد الزراعي المغربي والمكتب الشريف للبحث الزراعي. وكان بيروتان أحد أبناء هذا السياق المعرفي، إذ صاغ أطروحته في حضان هذا المناخ الذي جمع بين الطموح العلمي والوظيفة السياسية للمعرفة.

تسعى هذه الدراسة إلى إعادة قراءة أطروحة جاك بيروتان ضمن منظور تحليلي-نقدي يربط بين النص الأكاديمي ومحيطه الكولونالي. فهي لا تتعامل مع الأطروحة كبحث اقتصادي فحسب، بل كوثيقة فكرية تعكس شبكة من العلاقات بين العلم والسلطة والإيديولوجيا. وتقوم الفرضية المركزية على أن بيروتان، من خلال لغته التقنية وتحليله لإنتاج الكروم، كان يشارك - بوعي أو بدونه - في صياغة خطاب كولونالي يسعى إلى إضفاء طابع "العقلانية العلمية" على سياسات الاستغلال الزراعي الفرنسي بالمغرب.

ومن ثم، تندرج هذه الأطروحة في مشروع أوسع يهدف إلى تفكيك البنية المعرفية للاستعمار من خلال تحليل نصوصه العلمية والاقتصادية، واستجلاء الكيفية التي حوّلت بها الإمبريالية الحديثة أدوات البحث الأكاديمي إلى أدوات شرعية. كما تسعى الدراسة إلى إبراز موقع أطروحة بيروتان داخل تطور الفكر الاقتصادي الاستعماري الفرنسي، ومقارنتها بخطابات معاصرة لها صدرت عن إداريين وباحثين مثل بول أودينو، وليون دوتي، وشارل أندري جوليان، ممن اشتغلوا على إعادة تعريف علاقة المغرب بفرنسا في ضوء منطق "التنمية الموجهة".

لقد ارتكزت هذه الدراسة على منهج مزدوج يجمع بين التحليل التاريخي والسيميولوجي للخطاب، من خلال تتبع الأبعاد المفهومية واللغوية التي تشكلت حول ثنائية "التأخر/التقدم"، و"التقليد/الحداثة"،

و"الفوضى/العقلانية"، وهي الثنائيات التي أسست لخطاب التبرير الاستعماري في شمال إفريقيا. كما تم اعتماد مقاربة نقدية تستلهم أعمال ميشال فوكو حول علاقة المعرفة بالسلطة، وإدوارد سعيد حول تمثيلات الشرق في الفكر الغربي، وفرانز فانون حول البنية النفسية للهيمنة الكولونiale.

إن قراءة أطروحة بيروتان بهذا المنظور تمكّن من تجاوز النظرة الاختزالية التي تحصر النص في بعده الاقتصادي، نحو فهمه كبنية معرفية متكاملة تندرج ضمن مشروع استعماري شامل. ف"العلم" في هذه الحالة لم يكن محايداً، بل كان لغة الهيمنة الجديدة التي تتخفى خلف مفردات التقنية والتنمية. وعليه، فإن الغاية من هذه الأطروحة ليست إعادة سرد تاريخ الكروم في المغرب، بل تفكيك الخطاب الكولونالي الذي استثمر هذا التاريخ لإنتاج شرعية معرفية واقتصادية للاستعمار الفرنسي، وما ترتب عنه من آثار فكرية ومؤسسية ما زالت حاضرة في الدراسات الاقتصادية حول المغرب إلى اليوم.

الفصل الأول: السياق العام لأطروحة جاك

بيروتان (١٩١٢-١٩٣٦)

١- الإطار الزمني والسياسي

ظهرت أطروحة جاك بيروتان سنة ١٩٣٦، في مرحلة حساسة من تاريخ المغرب تحت الحماية الفرنسية، حين بلغت السياسات الزراعية الكولونiale أوجها. فبعد عقدين من "التهذبة العسكرية" (١٩١٢-١٩٣٤)، اتجهت الإدارة الفرنسية نحو ما سمّته بـ«**التهذبة الاقتصادية**» (pacification économique)، أي إدماج الأراضي المغربية ضمن شبكة الإنتاج الفرنسي، خاصة في الميدان الفلاحي^(١). كانت فرنسا، المتأثرة بتجربتها الطويلة في الجزائر، تسعى إلى نقل نموذج الزراعة المتوسطية الأوروبية إلى المغرب، معتمدة على المعمرين الفرنسيين الذين انتقلوا من مستعمرة الجزائر بعد أزمة النبيذ هناك في نهاية القرن التاسع عشر^(٢). وبهذا أصبحت زراعة الكروم إحدى ركائز السياسة الزراعية الجديدة، رغم طابعها الثقافي والديني المثير للجدل في مجتمع مسلم.

في هذا السياق، جاءت أطروحة بيروتان لتجيب عن سؤال عملي بالنسبة للإدارة الاستعمارية: كيف يمكن تنظيم قطاع النبيذ المغربي بما يخدم مصالح المعمرين دون أن يصطدم بالبنية الاجتماعية والدينية المحلية؟ وهو سؤال ذو أبعاد اقتصادية وقانونية في آن واحد، جعل من بيروتان أحد أبرز المتخصصين فيما كان يُعرف آنذاك بـ«القانون الزراعي الاستعماري» (droit agricole colonial).

يشير بيروتان في مقدمة أطروحته إلى أن الدافع وراء بحثه هو "الأزمة الكرومية التي تهدد مستقبل الاستيطان الفلاحي بالمغرب"^(٣). مبرراً أن مسألة النبيذ لم تعد مجرد قضية تجارية، بل أصبحت "مشكلة اقتصادية وطنية" بالنسبة لفرنسا. ومن ثم، فالأطروحة تنطلق من خلفية سياسية اقتصادية واضحة، تسعى لتثبيت هيمنة فرنسا الزراعية على المغرب.

٢- الإطار الأكاديمي والفكري

لم تكن أطروحة بيروتان عملاً فردياً معزولاً، بل ثمرة تيار فكري وأكاديمي واسع داخل جامعة بوردو، التي كانت آنذاك مركزاً رئيسياً للدراسات القانونية والاقتصادية المرتبطة بالمستعمرات. فقد عُرفت كلية الحقوق ببوردو منذ مطلع القرن العشرين بإنتاجها لأبحاث تتناول القضايا الاقتصادية والاجتماعية في الجزائر وتونس والمغرب، في إطار ما سُمّي بـ«المدرسة الكولونيالية البوردولية» (École coloniale bordelaise). ويُذكر من أبرز أساتذتها أوغستان برنار (Aug. Bernard)، الذي نشر سنة ١٩١٣ مؤلفه المرجعي Le Maroc، حيث وضع فيه الأسس الفكرية للنظام الزراعي الاستعماري القائم على استغلال الأراضي الخصبة لفائدة المعمرين^(٤). وقد استند بيروتان في أكثر من موضع إلى هذا المرجع، خصوصاً في حديثه عن قدم زراعة الكروم في المغرب منذ العهد الفينيقي والروماني^(٥).

إن انتماء بيروتان إلى هذه المدرسة الفكرية جعله يرى في المغرب فضاءً اقتصادياً قابلاً "للتحديث" عبر تدخل العلم والقانون الفرنسيين. ولذلك فإن أطروحته ليست مجرد دراسة تقنية في الزراعة، بل تعبير عن رؤية أيديولوجية ترى في الاستعمار مشروعاً "تمدنياً" (mission civilisatrice)، يُحوّل الأرض "غير المستغلة" إلى مجال إنتاجي يخضع لمنطق السوق الرأسمالي الفرنسي^(٦).

٣- السياق الاقتصادي الدولي

تزامنت كتابة أطروحة بيروتان مع الأزمة الاقتصادية العالمية لسنة ١٩٢٩، التي أثّرت بعمق على أسواق النبيذ في فرنسا وأوروبا. فقد أدى انهيار الأسعار إلى تراكم فائض ضخم من النبيذ في المستعمرات، خاصة الجزائر، مما دفع العديد من المعمرين إلى البحث عن فضاءات جديدة للزراعة – وكان المغرب المجال الأنسب لذلك.

في هذا المناخ، شهدت فترة ما بين ١٩٢٥ و ١٩٣٥ توسعاً سريعاً في المساحات المخصصة للكروم بالمغرب، إذ ارتفعت من ١٠.٠٠٠ هكتار إلى أكثر من ٢٣.٠٠٠ هكتار^(٧) لكن هذا التوسع لم يُرافقه تنظيم قانوني أو تجاري ملائم، فاندلعت ما سُمّيت بـ«الأزمة الكرومية

المغربية» بين ١٩٣٣ و ١٩٣٥، والتي اعتبرها بيروتان "نتيجة مباشرة لغياب التشريع الملائم وللظروف الاقتصادية العالمية"^(٨). وقد جعلت هذه الأزمة من دراسة بيروتان وثيقة علمية ذات طابع عملي، إذ قدّم مقترحات لتقنين الزراعة الكرومية، وتنظيم التسويق الداخلي والخارجي للنبيذ المغربي، بما ينسجم مع السياسات الفرنسية في الجزائر وتونس.

٤- العلاقة بين الاقتصاد والدين

من الملاحظ أن بيروتان، شأنه شأن معاصريه من الباحثين الفرنسيين، لم يُخفِ دهشته من التناقض بين توسّع زراعة الكروم في المغرب وبين الطابع الإسلامي للمجتمع المغربي. ففي مقدمة أطروحته، يصف هذه المفارقة بأنها "حالة فريدة في العالم الإسلامي، حيث يزدهر إنتاج النبيذ في بلد تُحرّمه ديانتُه"^(٩). غير أن بيروتان لا يتعامل مع هذا البعد بوصفه مسألة دينية، بل باعتباره "عائقاً اجتماعياً واقتصادياً" يحثّ من نمو السوق المحلية، فهو لا يرى في تحريم الخمر موقفاً دينياً مشروعاً، بل "عاملاً سوسيولوجياً" ينبغي تجاوزه أو التحايل عليه، وهو ما يعكس النزعة الوضعية الاستعمارية التي تختزل الثقافة والدين في متغيرات اقتصادية قابلة للضبط القانوني.

٥- الإطار القانوني والإداري

كان صدور ظهيره يناير ١٩٣٥ (Dahir du 5 janvier 1935) خطوة محورية في تاريخ الزراعة الكرومية بالمغرب، إذ نصّ على تنظيم زراعة الكروم وتصنيع النبيذ وتسويقه، بهدف الحدّ من الفوضى الإنتاجية التي عرفتتها السنوات السابقة. وقد شكّل هذا الظهير موضوعاً رئيسياً في أطروحة بيروتان، التي خصص له فصلاً كاملاً بعنوان "La réglementation viticole au Maroc"^(١٠). يُبرز الباحث من خلاله دور الإدارة الفرنسية في "إعادة النظام" إلى قطاع النبيذ عبر التشريع، بما يتناسب مع "مصالح الاقتصاد الإمبراطوري الفرنسي". فالقانون هنا لا يُفهم كأداة لتنظيم الإنتاج فقط، بل كوسيلة للهيمنة الاقتصادية والسياسية على المجال الزراعي المغربي.

٦- التحليل النقدي للسياق

من خلال تحليل السياق العام للأطروحة، يمكن القول إن جاك بيروتان كتب بحثه في لحظة من التحوّل داخل النظام الاستعماري الفرنسي: من الهيمنة العسكرية إلى الهيمنة الاقتصادية، ومن السيطرة المباشرة إلى التنظيم التقني والقانوني. إنّ أطروحته لا تنفصل عن المشروع الكولونيالي الأشمل، الذي سعى إلى تحويل الزراعة المغربية إلى امتداد للأسواق الفرنسية، خصوصاً في مجال النبيذ، مع تجاهل العوامل الثقافية والدينية والاجتماعية

المحلية. وبذلك، تمثل أطروحة بيروتان وثيقة نموذجية لحقبة من الفكر الكولونيالي الذي اتخذ الخطاب الأكاديمي والعلمي غطاءً لتبرير السيطرة الاقتصادية. فهي تنطلق من منطلق «إصلاحي» ظاهري، لكنها في جوهرها جزء من منظومة معرفية استعمارية تجعل من «التنظيم الاقتصادي» مرادفًا لـ«إخضاع المستعمرات».

الفصل الثاني: تمثيلات جاك بيروتان لتاريخ الكروم في المغرب قبل الحماية الفرنسية.

في القسم الأول من أطروحته، المعنون بـ «La constitution du vignoble utile avant la colonisation française» (تكوين الكروم المفيدة قبل الاستعمار الفرنسي)، يسعى جاك بيروتان إلى إعادة بناء تاريخ زراعة الكروم في المغرب منذ العصور القديمة حتى بداية القرن العشرين. ويظهر من خلال هذا الجزء أن الباحث لا يكتفي بوصف المراحل الزراعية، بل يسعى إلى إثبات فرضية مركزية، مفادها أن زراعة الكروم جزء أصيل من تاريخ الأرض المغربية، وأن الاستعمار الفرنسي لم يأتِ إلا ليُعيد لهذه الزراعة «رونقها الطبيعي»^(١١). هذه الفرضية ليست مجرد استنتاج تاريخي، بل تُعبر عن موقف أيديولوجي استعماري يهدف إلى شرعنة النشاط الكرومي في بلد مسلم، عبر نسبه إلى جذور «قديمة» ما قبل إسلامية، أي إلى الحضارات الفينيقية والرومانية.

١- العصور القديمة: من الفينيقيين إلى الرومان

يبدأ بيروتان عرضه التاريخي بالإشارة إلى أن المغرب، «بفضل مناخه وتربته، كان منذ أقدم العصور أرضاً ملائمة لزراعة الكروم»^(١٢). ويستند في هذا القول إلى ما ورد عند أوغستان برنار في مؤلفه Le Maroc^(١٣)، الذي يؤكد أن الفينيقيين هم أول من علّم السكان الأصليين تقنيات زراعة الكرمة وصناعة النبيذ. ويتابع بيروتان قائلاً إن الرومان، بعد سقوط قرطاج، «نظموا الزراعة في موريطانية الطنجية» واهتموا بالقمح والزيت أكثر من اهتمامهم بالنبيذ، رغم أن الكروم كانت «مزهرة في أطراف ويلي وعلى السفوح الخصبة لزهرهون»^(١٤). ويُورد نقلاً عن تقارير أثرية أن بعض الرحالة الرومان وصفوا عناقيد العنب في تلك المنطقة بأنها «هائلة الحجم، مما يدل على خصوبة الأرض المغربية واستعدادها الطبيعي لهذه الزراعة»^(١٥).

وبصل بيروتان إلى استنتاج مهم في هذا السياق، وهو أن الكروم في العهد الروماني لم تكن موجهة للتصدير، بل للاستهلاك المحلي، مما يجعلها «زراعة

ثانوية» لكنها ثابتة في المشهد الفلاحي المغربي القديم. ويعتّل غياب التصدير بعوامل مناخية وتقنية، مثل «حرارة الجو في موسم الجني وصعوبة النقل والحفظ في غياب الوسائل الحديثة»^(١٦). إن ما يثير الانتباه في هذا التحليل هو أن بيروتان يتعامل مع التاريخ القديم بنفس منطق الاقتصاد الحديث؛ فهو يقيس نجاعة الزراعة في العصور القديمة على أساس الربح والتصدير، متجاهلاً السياق الاجتماعي والثقافي لتلك الفترات. كما أن حديثه عن «استمرار الكروم منذ العصور الرومانية» يهدف إلى تقديم شرعية «تاريخية» لوجود الكروم الحديثة في المغرب الكولونيالي، أي إلى تبرير الحاضر بالاستناد إلى ماضٍ «مشترك» بين الرومان والفرنسيين.

٢- التحولات الزراعية في المغرب خلال العصور

الإسلامية: من الانحسار إلى الاستمرارية

ينتقل بيروتان بعد ذلك إلى تناول المرحلة الإسلامية، حيث يؤكد أن «فتح العرب للمغرب أدى إلى انحسار صناعة النبيذ بسبب تحريم الخمر في الإسلام، دون أن تختفي الكروم تمامًا»^(١٧). ويلاحظ هنا أن الباحث يعتمد على فرضية «الاستمرارية الجزئية»، أي أن زراعة الكروم ظلت موجودة وإن تغيّر هدفها. فقد تحولت إلى إنتاج العنب الطازج والزبيب بدلاً من النبيذ، كما استمرت بعض أشكال النبيذ التقليدي في أوساط «اليهود والسكان الأمازيغ في الأطلس والسهول»^(١٨).

ويضيف أن «المغاربة حافظوا على الكرمة لغايات غذائية وتجارية محلية، دون أن يطوروا تقنيات التخمر أو التسويق كما فعل الأوروبيون»^(١٩). وفي هذا الطرح تبرز النزعة التقويمية الاستعمارية التي ترى في الزراعة المغربية «بدائية» و«راكدة»، في مقابل الزراعة الأوروبية «المتقدمة» و«العقلانية».

غير أن هذا التحليل يتجاهل، كما نلاحظ من منظور المؤرخ المغربي المعاصر، أن الإسلام لم يمنع زراعة العنب، بل حصر تحريمه في الخمر كمنتوج مسكر لقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَلْطَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ قَاتِبْتُمُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»^(٢٠). كما أن استمرار الكروم في المناطق المغربية خلال القرون الوسطى لم يكن بالضرورة مؤشراً على «قصور تقني»، بل على تحول في الاستخدامات الزراعية بما يتناسب مع القيم الدينية والاجتماعية السائدة.

إن بيروتان، في هذا المستوى، لا يصف الواقع كما هو، بل يُعيد تأويله لخدمة تصويره المسبق عن ضرورة «إنقاذ» الزراعة المغربية من الجمود عبر «التحديث الفرنسي».

٣- الزراعة المغربية قبل الحماية الفرنسية: دراسة للفترة الممتدة من القرن التاسع عشر إلى مطلع القرن العشرين.

يختم بيروتان هذا الجزء بالإشارة إلى أن "القرن التاسع عشر شهد بداية عودة الاهتمام بزراعة الكروم في المغرب، خصوصاً في المناطق القريبة من المدن الساحلية"^(٢١). ويعزو ذلك إلى الاحتكاك المتزايد بالأوروبيين (التجار الإسبان والفرنسيين بالخصوص)، وإلى تدهور إنتاج النبيذ في أوروبا بسبب مرض الفيلوكسيرا (phylloxera)^(٢٢)، ما دفع بعض التجار إلى جلب كروم جديدة إلى شمال إفريقيا. ويقول في هذا السياق: «إن المغرب، بفضل موقعه ومناخه، كان مدعواً إلى أن يكون امتداداً طبيعياً للكروم الأوروبية، غير أن غياب الإدارة الحديثة والمبادرة التقنية حال دون ذلك»^(٢٣).

هذا الخطاب يندرج ضمن ما يمكن تسميته بـ "القدر الزراعي الاستعماري"، أي فكرة أن الأرض المغربية "مقدّر لها" أن تخضع للتقنيات الأوروبية لتبلغ اكتمالها. وبذلك يمهد بيروتان للمرحلة التالية، أي مرحلة "إعادة الإحياء الكروم في المغرب" التي سينجزها الاستعمار الفرنسي بعد ١٩١٢.

٤- القراءة التاريخية النقدية

من خلال هذا العرض، يمكن القول إن بيروتان يُعيد بناء تاريخ الكروم في المغرب وفق مبدأ الاستمرارية الموجهة:

- فالفينقيون والرومان يمثلون "الأصل المشروع".
- والفترة الإسلامية تمثل "الانقطاع العقائدي".
- أما الاستعمار الفرنسي فهو "العودة إلى الأصل" تحت راية التحديث والعقلانية.

إن هذا التسلسل الزمني لا يُعبّر عن قراءة موضوعية للتاريخ، بل عن بنية خطاب استعماري تهدف إلى ترسيخ مشروعية الوجود الفرنسي في المغرب عبر استعارة رمزية من الماضي. فالرومان، في هذا المنظور، هم "الفرنسيون القدماء"، والمغرب هو "إفريقيا الرومانية الثانية"، والفرنسيون هم "الورثة الطبيعيون" لمهمة التمدين الزراعي. من هنا نفهم قول بيروتان بأن «المغرب لم يعرف قط فترة انقطاع تام في زراعة الكروم، بل فقط فترات خمول مؤقتة تنتظر أن تُبعث من جديد»^(٢٤). فهي جملة تحمل أكثر من معنى تاريخي؛ إنها إعلان رمزي عن استمرارية الهيمنة المتوسطية، وتحول الخطاب التاريخي إلى أداة تبرير اقتصادي.

يُظهر تحليل هذا القسم من أطروحة بيروتان أن المؤلف اعتمد منهجاً انتقائياً في كتابة التاريخ الزراعي المغربي، إذ جمع بين المعطيات الأثرية والروايات

الأدبية، لكنه أعاد ترتيبها وفق منطق يخدم الأطروحة الكولونيالية. لقد كانت الغاية من هذا "التاريخ الكرومي" ليست استكشاف الماضي في ذاته، بل تهئية أرضية فكرية لتبرير الاستيطان الزراعي الحديث. وهكذا، تحولت دراسة تاريخ الكروم عند بيروتان إلى أداة إيديولوجية تُظهر أن الفرنسيين لم يفرضوا زراعة جديدة، بل استعادوا تقليداً "ضائعاً" منذ العصور الرومانية. ومن ثم، فإن هذا التاريخ "المحايد ظاهرياً" هو في جوهره سرديّة استعمارية مغلفة بالعلم.

الفصل الثالث: تطور الكروم المغربية تحت التأثير الأوروبي قبل وبعد بداية الحماية (١٩٠٠-١٩٣٠)

يُعدّ هذا الفصل من أهم أقسام أطروحة جاك بيروتان، لأنه يشكّل المرحلة الانتقالية بين التاريخ الزراعي التقليدي للمغرب وبين التأسيس الاستعماري الحديث للكروم. فبعد أن قدّم بيروتان عرضاً "تاريخياً" للعصور القديمة والإسلامية، ينتقل هنا إلى القرن العشرين ليصف كيف تم "إحياء" زراعة الكروم بفضل المبادرة الفرنسية، رابطاً بين هذا التطور ونجاح السياسة الاقتصادية للحماية الفرنسية.

يبدأ الباحث هذا الجزء بقوله: «إن زراعة الكروم في المغرب لم تتخذ شكلها العصري إلا مع دخول الفرنسيين، الذين أدخلوا التنظيم العلمي والتقني إلى نشاط ظل بدائياً حتى بداية القرن العشرين»^(٢٥). ويكشف هذا التصريح منذ البداية عن المنظور الكولونيالي الذي يميز الأطروحة: فالزراعة "العصرية" لا تبدأ إلا بقدوم الأوروبي، أما ما قبلها فهو مجرد "عفوية محلية" غير منتجة.

١- المرحلة الأولى : بدايات النشاط الكرومي قبل الحماية (١٩٠٠-١٩١٢)

يُشير بيروتان إلى أن أولى التجارب الفرنسية لزراعة الكروم في المغرب بدأت في السنوات الأولى من القرن العشرين، أي قبل توقيع معاهدة الحماية سنة ١٩١٢. فقد كانت مناطق مثل الشاوية والسهول الساحلية بين الدار البيضاء والرباط تستقطب تجاراً ومزارعين فرنسيين قادمين من الجزائر، الذين "هربوا من الأزمة الكروم بالجزائر التي بلغت ذروتها بين ١٨٩٨ و١٩٠٥"^(٢٦).

ويشرح الباحث أن هؤلاء المعمرين استثمروا في الأراضي الخصبة القريبة من الموانئ، لأنهم وجدوا فيها مناخاً مماثلاً لمناخ الساحل الجزائري، وأراضي سهلة الحرث وغنية بالمواد المعدنية. ويقول في هذا السياق: «لقد نقل هؤلاء المزارعون معهم كل خبرتهم التقنية في زراعة الكرمة، فأعادوا

ويشير أيضًا إلى دور البنوك الفرنسية. خاصة Crédit foncier و Banque de Paris et des Pays-Bas d'Algérie et de Tunisie. في تمويل المزارع الجديدة^(٣٢). بهذا الشكل، أصبحت الكروم أداة لربط الاقتصاد المغربي بالمنظومة المالية الفرنسية. أي دمج المستعمرة في السوق الرأسمالية الأم. أما من حيث التنظيم التقني، فقد أنشأت الإدارة الزراعية محطات للتجارب الزراعية (stations expérimentales) في مكناس وسلا، أشرف عليها خبراء زراعيون فرنسيون مختصون في الكروم. ويذكر بيروتان أن هذه المحطات "اختبرت أصنافًا متعددة من العنب لتحديد الأنسب للمناخ المغربي"^(٣٣)

٥. التوسع الإنتاجي ومشكل التسويق

بين عامي ١٩١٨ و ١٩٣٠، ارتفعت المساحة المزروعة بالكروم من حوالي ٢٠٠٠ هكتار إلى أكثر من ١٠٠٠٠ هكتار^(٣٤). ويُقدّر بيروتان الإنتاج السنوي في نهاية العشرينيات بحوالي ٤٠٠٠٠ هيكولتر من النبيذ، أغلبه من النوع الأحمر، مشيرًا إلى أن الجودة كانت "مرتفعة نسبيًا بفضل الرقابة التقنية الفرنسية"^(٣٥). لكنّه في الوقت نفسه يُقرّ بأن السوق المغربية الداخلية شبه معدومة، لأن "السكان المسلمين لا يستهلكون النبيذ إلا استثناءً، في حين أن المستهلكين الأوروبيين بالمغرب محدودو العدد"^(٣٦). ومن ثمّ، كان لا بد من توجيه الإنتاج نحو التصدير إلى فرنسا، خصوصًا بعد الأزمة التي عرفتتها الكروم الجزائرية. إلا أن القوانين الفرنسية كانت تحمي النبيذ المحلي في فرنسا، ما جعل نبيذ المغرب يواجه صعوبات جمركية وتسويقية. وهكذا بدأت تظهر ملامح أزمة فائض الإنتاج التي ستفجر في الثلاثينيات، وهي التي شكّلت الدافع المباشر لكتابة أطروحة بيروتان نفسها^(٣٧).

٦. التفاعل الاجتماعي والثقافي

من الناحية الاجتماعية، يقدّم بيروتان صورة نمطية عن الفلاح المغربي، إذ يقول إن "العقلية الأصلية لا تزال تنفر من زراعة الكرمة لأنها ترتبط في الوجدان الشعبي بصناعة الخمر المحرّمة"^(٣٨). ويستنتج من ذلك أن نجاح الزراعة الكرومية "مرهون بمدى استقرار المستعمرين الأوروبيين"، أي أن المشروع الزراعي الكولونيالي يستبعد السكان الأصليين من المعادلة الإنتاجية. من الواضح أن هذا التصور يتجاهل البعد الثقافي والديني للمجتمع المغربي، ويحوّله إلى "عامل عرقلة اقتصادية"، وهو خطاب نمطي يكرّس النظرة الاستعمارية للاستعمارية. إن بيروتان لا يرى في الفلاح المغربي شريكًا محتملًا في التنمية الزراعية، بل مجرد عنصر

غرسها في أرض جديدة تستجيب لنفس المتطلبات الطبيعية تقريبًا^(٣٩). ويلاحظ أن بيروتان يتحدث هنا عن "إعادة زرع" (replantation) وليس عن "استحداث"، في إشارة إلى رؤيته الاستمرارية المزعومة بين الماضي الروماني والحاضر الفرنسي، كما أشرنا في الفصل السابق.

أما من حيث البنية القانونية، فيشير الباحث إلى أن غياب إدارة زراعية منظمة قبل ١٩١٢ جعل هذه المبادرات محدودة وغير خاضعة لأي إشراف رسمي. ومع ذلك، فقد أسهمت هذه المرحلة في تجريب أنواع من الكروم الأوروبية (خصوصًا من نوع Grenache و Carignan)، التي ستصبح لاحقًا أساس النبيذ المغربي في عهد الحماية^(٤٠).

٢- المرحلة الثانية: زراعة الكروم في عهد

الحماية (١٩١٢-١٩٣٠)

بعد توقيع معاهدة فاس سنة ١٩١٢، دخل المغرب مرحلة جديدة من "التحديث الزراعي" في إطار السياسة الاقتصادية الفرنسية. يذكر بيروتان أن الحماية اعتبرت الزراعة أحد أهم أدوات "التهدئة الاقتصادية"، وأنها وضعت نصب عينها هدفين أساسيين:

١. تحقيق الاكتفاء الغذائي لتقليص الواردات من فرنسا،

٢. تطوير زراعات تصديرية تعزز حضور المغرب في السوق الفرنسية^(٤١).

وبين هذه الزراعات، حظيت الكروم بمكانة خاصة لأنها تمثل منتجًا ذا قيمة مضافة عالية، وتشارك مع الجزائر في نفس السوق الفرنسي. وقد أشرف على هذه السياسة الإقامة العامة بالرباط (Résidence Générale du Maroc)، التي أنشأت في سنة ١٩١٨ مصلحة الزراعة العامة (Service de l'Agriculture Générale). يشير بيروتان إلى أن أحد أبرز مهندسي هذه السياسة كان السيد ماليه (Mallet)، الذي وضع برنامجًا لتوسيع المساحات المزروعة بالكروم في مناطق الغرب ومكناس وسيدي قاسم والسهول الأطلسية^(٤٢).

التنظيم الإداري والاقتصادي

في هذا السياق، تم وضع تشريعات جديدة لتأطير الملكية الزراعية. فقد حُصصت أراضي شاسعة للمعمرين الأوروبيين عبر نظام "التحفيز الاستعماري"، الذي مكّنهم من استغلال الأراضي الخصبة بأثمان رمزية أو عبر عقود امتياز طويلة الأمد. ويقول بيروتان: «كان لا بد من توفير شروط الملكية العصرية لتشجيع المعمرين على الاستثمار في قطاع الكروم، لأن زراعة الكروم تتطلب استقرارًا طويل المدى ومصاريف أولية مرتفعة»^(٤٣)

سلبى أو مقاوم "ينبغي تجاوزه بالتربية الاقتصادية"^(٣٩).

تظهر هذه المرحلة من تحليل بيروتان أن تأسيس الكروم الأوروبية بالمغرب لم يكن مجرد نشاط فلاحى، بل أداة سياسية واقتصادية لإحكام السيطرة على الأرض والثروة. فزراعة الكروم كانت من الزراعات الرأسمالية المكثفة التي تتطلب استثماراً كبيراً ورقابة تقنية دقيقة، وهو ما لم يكن متاحاً إلا للمعمرين المدعومين من الإدارة الفرنسية. إن هذا النموذج الزراعي يُجسد جوهر المشروع الكولونيالى: تحويل الأرض المغربية إلى مجال إنتاج موجه نحو الخارج، مع تهميش السكان الأصليين دينياً واقتصادياً. وبذلك أصبحت الكروم رمزاً مزدوجاً: رمزاً "للتحديث الزراعي" في الخطاب الفرنسي، ورمزاً "للتغريب الاقتصادي" في الوعي المغربى.

يمكن القول إن الفترة الممتدة من ١٩٠٠ إلى ١٩٣٠ مثلت مرحلة تأسيس البنية الكرومية الكولونiale التي ستحدد مصير هذا القطاع خلال العقود التالية. لقد سعى بيروتان من خلال أطروحته إلى تقديم هذه المرحلة بوصفها "نجاحاً علمياً واقتصادياً"، لكنه تجاهل أن هذا "النجاح" تحقق في سياق نزع الأراضي وإقصاء الفلاحين المحليين من الإنتاج الزراعي العصري. ومن ثم، فإن أطروحته، رغم قيمتها الوثائقية الدقيقة، تكشف عن تناقض جوهري في الفكر الاستعماري الفرنسي: فهو يرفع شعار التحديث والعقلنة، لكنه يرسّخ التبعية الاقتصادية ويغذي التفاوت الاجتماعى.

الفصل الرابع: أزمة فائض الإنتاج الكرومي في المغرب (١٩٣١-١٩٣٥)

تشكل أزمة فائض الإنتاج الكرومي (la crise de surproduction viticole) التي عرفها المغرب في مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين الحدث الاقتصادي المركزي في أطروحة جاك بيروتان، إذ تُعتبر الدافع المباشر لكتابته. فقد رأى الباحث أن هذه الأزمة تمثل "امتحاناً حقيقياً لقدرة النظام الكولونىالى على تنظيم قطاع اقتصادى نشأ في بيئة اجتماعية ودينية معارضة له"^(٤٠). لقد كان قطاع الكروم في المغرب في نهاية العشرينيات رمزاً للنجاح الزراعي الفرنسي، غير أن هذا النجاح سرعان ما انقلب إلى فائض إنتاج ضخم أدى إلى انهيار الأسعار وتعثّر التسويق، وهو ما كشف هشاشة الأسس الاقتصادية للنظام الاستعماري نفسه.

١- الأسباب البنيوية للأزمة

يُحدد بيروتان مجموعة من الأسباب التي أدت إلى هذه الأزمة، يمكن تصنيفها في ثلاثة مستويات:

١-١- الأسباب التقنية والكمية

بين سنتي ١٩٢٥ و ١٩٣٤ ارتفعت المساحة المزروعة بالكروم من حوالي ١٠.٠٠٠ هكتار إلى أكثر من ٢٣.٠٠٠ هكتار^(٤١). وكانت هذه الزيادة نتيجة المضاربة الزراعية (spéculation agricole) التي مارسها المعمرون الأوروبيون في ظل غياب ضوابط قانونية. كما أدى تحسن الظروف المناخية في تلك الفترة إلى وفرة المحصول بشكل غير مسبوق، في حين لم يكن السوق الداخلى قادراً على استيعاب هذه الكميات.

٢-١- الأسباب الاقتصادية والتجارية

يُوضح بيروتان أن "الطلب الداخلى على النبيذ في المغرب ضعيف جداً، لأن السكان الأصليين لا يستهلكونه لأسباب دينية، ولأن المستهلكين الأوروبيين قلة عدداً"^(٤٢). وبالتالي فإن الاعتماد الكلى على التصدير إلى فرنسا جعل السوق المغربية رهينة للتقلبات الخارجية. لكن فرنسا نفسها كانت آنذاك تعيش أزمة نبيذ خانقة بعد فائض الإنتاج في الجزائر وجنوب فرنسا، ما جعل النبيذ المغربي يُعامل معاملة المنتج الأجنبي الخاضع للرسوم الجمركية^(٤٣).

٣-١- الأسباب السياسية والإدارية

يشير بيروتان إلى غياب "سياسة زراعية موحدة" في المغرب خلال عشرينيات القرن العشرين، حيث لم تضع الإقامة العامة أي مخطط شامل لتنظيم الإنتاج والتسويق^(٤٤). وقد أدى ذلك إلى تضارب المصالح بين المعمرين الفرنسيين والإدارة الاستعمارية: فالأولون يبحثون عن الربح السريع، بينما تسعى الإدارة إلى التحكم في الأسعار وحماية النظام الاقتصادي العام.

٢- مظاهر الأزمة

تجلت الأزمة في عدة ظواهر مترابطة: تكدس الإنتاج غير المباع في المزارع والمخازن، حتى بلغ الفائض ما يقرب من ٣٠.٠٠٠ هيكٲولتر سنة ١٩٣٤^(٤٥).

نخفاض الأسعار إلى أقل من النصف مقارنة بسنة ١٩٢٨، مما أدى إلى إفلاس العديد من المنتجين الصغار.

تراجع المساحات المزروعة بعد ١٩٣٥ بسبب اقتلاع الكروم الضعيفة أو غير المجدية اقتصادياً.

ويصف بيروتان هذه الوضعية بعبارة دقيقة: «لقد تحولت زراعة الكروم في المغرب من رمز للنجاح الاستعماري إلى عبء اقتصادى على الإدارة الفرنسية»^(٤٦).

- والنظام الاجتماعي المغربي الذي يقوم على القيم الإسلامية.

ه- التحليل التاريخي النقدي

يُبرز تحليل بيروتان لأزمة ١٩٣١-١٩٣٥ أن تفكك القطاع الكرومي لم يكن ناجماً عن سوء الأحوال الطبيعية أو ضعف الإنتاجية، بل عن تناقض داخلي في بنية الاقتصاد الكولونيالي نفسه. فالنمو غير المتوازن، القائم على استغلال الأرض المغربية لخدمة السوق الفرنسية، جعل الزراعة المغربية تابعة بالكامل لتقلبات الخارج. من منظور المؤرخ المغربي المعاصر، تمثل هذه الأزمة نقطة تحوّل في تاريخ السياسة الزراعية الاستعمارية، لأنها كشفت حدود "التمدين الاقتصادي" الذي كانت فرنسا تتبجح به. فبدل أن تُحقق التنمية، أدّت سياسة الكروم إلى استنزاف الموارد المائية والأراضي الخصبة، وإلى تهميش الفلاح المغربي من دورة الإنتاج الحديثة. كما أن الخطاب الذي قدّمه بيروتان، رغم دقته في التحليل الاقتصادي، بقي أسيراً للرؤية التبيرية الكولونيالية التي تُحمّل "الظروف الطبيعية والدينية" مسؤولية الأزمة، متجاهلاً جذورها البنوية في الاحتكار الأوروبي والتبعية البنكية والمالية.

تعدّ أزمة فائض الإنتاج الكرومي في المغرب بين ١٩٣١ و١٩٣٥ مرآة لأزمة أعمق في المشروع الاستعماري الفرنسي، الذي حاول تحويل الزراعة المغربية إلى امتداد للاقتصاد الفرنسي دون مراعاة الخصوصيات المحلية. وقد شكّلت هذه الأزمة بداية وعي داخل الإدارة الفرنسية بضرورة "تنظيم" القطاع، لكنها أيضاً أبرزت حدود هذا التنظيم ما دام يقوم على منطق السيطرة لا الشراكة. إن أطروحة جاك بيروتان تُقدّم في هذا الصدد وثيقة ثمينة لفهم الطابع الاقتصادي للهيمنة الكولونيالية، لكنها تكشف في الآن نفسه تناقضها الأخلاقي والمعرفي: فالعلم الاقتصادي الذي تستند إليه الأطروحة ليس علماً محايداً، بل أداة لإدارة الاستعمار.

الفصل الخامس: الخطاب الكولونيالي في

أطروحة جاك بيروتان (١٩٣٦)

إذا كانت فصول الأطروحة السابقة تصف منطق الاقتصاد الكولونيالي، فإن الفصل الخامس من دراستنا يحاول تفكيك الخطاب الذي يمنح لهذا الاقتصاد شرعيته المعرفية والأخلاقية. فأطروحة بيروتان ليست مجرد دراسة اقتصادية عن الكروم، بل هي قبل كل شيء نصّ أيديولوجي ينتمي إلى ما يسميه الباحث إدوارد سعيد بـ«خطاب الاستشراق الاقتصادي»، أي استخدام مفردات "العقلنة" و"التمدين" لتبرير السيطرة على الشعوب

٣- رد فعل الإدارة الفرنسية

أمام تفاقم الأزمة، تدخلت الإقامة العامة بالرباط عبر سلسلة من الإجراءات التنظيمية التي هدفت إلى ضبط السوق ومنع المضاربة:

أ. الظهير الشريف المؤرخ في ٥ يناير ١٩٣٥

يُعد هذا الظهير (Dahir du 5 janvier 1935) أهم إنجاز تشريعي في تاريخ السياسة الكرومية بالمغرب. فقد نصّ على:

١. تقييد التوسّع في زراعة الكروم بترخيص مسبق من الإدارة الزراعية.
٢. إنشاء سجل رسمي للمنتجين لتحديد الكميات المسموح بها في السوق.
٣. فرض نظام رقابة على النبيذ المنتج محلياً عبر بطاقات منشأ (certificats d'origine).
٤. تنظيم التصدير نحو فرنسا بالتنسيق مع وزارة الزراعة الفرنسية^(٤٧).

ويبرز بيروتان أن الهدف من هذا التشريع لم يكن فقط اقتصادياً، بل أيضاً سياسياً، إذ سعت فرنسا إلى إثبات قدرتها على "إدارة الاقتصاد المغربي بفعالية علمية"^(٤٨).

ب. إنشاء تعاونيات لإنتاج الكروم

أسست فرنسا عدة تعاونيات زراعية للنبيذ في المغرب (coopératives viticoles françaises). تكفلت بتخزين النبيذ وتسويقه وتنظيم أسعاره. وقد رأت الإدارة أن هذه المؤسسات تمثل "نقطة التقاء بين التقنية والاقتصاد والسياسة"، أي أنها تضمن استمرار الهيمنة الفرنسية تحت غطاء "التنظيم المهني"^(٤٩).

٤- التناقضات الاجتماعية والدينية

يتوقف بيروتان عند المفارقة الكبرى التي أثارها الأزمة: «إننا أمام اقتصاد زراعي مزدهر في بلد لا يستهلك منتوجه الرئيسي»^(٥٠). فالنبيذ، باعتباره منتوجاً محزماً دينياً، لم يجد له سوقاً طبيعية داخل المغرب، مما جعل للاقتصاد الكرومي اقتصاداً موجّهاً بالكامل نحو الخارج. لكن المفارقة الأعمق تكمن في أن هذا المنتج الممنوع في الثقافة الإسلامية أصبح أحد ركائز السياسة الزراعية الفرنسية، وهو ما جعل الأزمة الاقتصادية تتخذ بعداً أخلاقياً وسياسياً في آن واحد. فالمعمرون الفرنسيون رأوا في تحريم الخمر "عقبة ذهنية" ينبغي تجاوزها بالتربية والتحديث، بينما اعتبرها المغاربة حداً شرعياً يحميهم من التغريب الثقافي. ومن ثمّ، لم تكن الأزمة الكرومية مجرد أزمة إنتاج، بل صداماً بين نظامين قيميين:

- النظام الرأسمالي الكولونيالي الذي يسعى إلى الربح والتوسع،

باسم التنمية.^(٥١) في هذا الإطار، سنحاول في هذا الفصل تحليل اللغة والمفاهيم التي يوظفها بيروتان لتصوير المغرب والمغاربة، مع بيان كيف تتحول المعرفة الاقتصادية والقانونية إلى أداة للهيمنة الاستعمارية تحت غطاء "العلم".

١- الاقتصاد والعلم كغطاء للهيمنة

يقدم بيروتان أطروحته بوصفها "بحثاً علمياً" في الاقتصاد الفلاحي المغربي، لكنه منذ الصفحات الأولى يُظهر انتماءه الكامل إلى المشروع الكولونيالي الفرنسي. يقول في المقدمة: «إن المغرب، الذي لم يعرف التنظيم الزراعي إلا منذ وقت قريب، مدعو بفضل الحماية الفرنسية إلى دخول عصر التقدم والعقلانية الاقتصادية»^(٥٢). تُبرز هذه العبارة التصور المركزي في الخطاب الكولونيالي: أن الاستعمار ليس غزواً بل "مهمة تمدينية" (mission civilisatrice). ويستعمل بيروتان لغة علمية دقيقة (تنظيم - عقلانية - تقدم) لكنها محملة بدلالات تفوق البعد التقني؛ فهي تفترض مسبقاً أن المغرب "خارج التاريخ الاقتصادي" وأن فرنسا هي التي تُدخله إليه.

من هنا يتحول العلم إلى أداة تبرير سياسي. فالاستعمار عند بيروتان ليس علماً محايداً، بل وسيلة "لإثبات الحاجة إلى استمرار الإدارة الفرنسية" في تنظيم الزراعة^(٥٣). إنه ما يمكن تسميته بـ "العقلنة الكولونيالية" (rationalité coloniale): تقديم السيطرة بوصفها تقنية حديثة لإدارة الموارد.

٢- مفردات الخطاب: "التمدين الزراعي" و"السكان الأصليون"

يُكرر بيروتان في أكثر من موضع مصطلح civilisation agricole (التمدين الزراعي)، في مقابل "البداية" (primitivisme agricole) التي ينسبها إلى الفلاح المغربي. ويقول في هذا الصدد: «إن الزراعة المغربية ظلت طوال قرون نشاطاً غير منظم، يخضع للأهواء والمواسم، دون تخطيط أو تقنية. وقد جاءت الحماية الفرنسية لتعلم الفلاح المغربي معنى النظام والانتظام»^(٥٤).

هنا يبرز الأسلوب الأبوي الذي يميز الخطاب الكولونيالي:

- الفرنسي "المعلم"،
- والمغربي "المتخلف"،
- والاستعمار "رسالة تربية".

كما يستخدم بيروتان مصطلح indigène (السكان الأصليون) أكثر من خمسين مرة في أطروحته. هذا المصطلح، كما يبين Chaudenson (١٩٩٢)، لا

يحمل في اللغة الفرنسية المحايدة معنى سلبياً، لكنه في الخطاب الكولونيالي كان يعني "الآخر الأدنى"، أي الذي لا يملك حق المبادرة السياسية أو الاقتصادية^(٥٥). وبالفعل، يكتب بيروتان: «إن السكان الأصليين لم يبلغوا بعد مستوى النضج الاقتصادي الذي يسمح لهم بتسيير قطاع الكروم العصري»^(٥٦). بهذا التوصيف، يبرر الباحث استبعاد المغاربة من أي مشاركة فعلية في القطاع الزراعي الحديث، ويحول "العجز" إلى صفة جوهرية في "الطبيعة المغربية".

٣- التناقض الخطابى: "المغرب الطبيعي" و"المغاربة غير القادرين"

من المفارقات الكبرى في نص بيروتان أنه يمجّد الأرض المغربية في الوقت الذي ينتقص من أهلها. فهو يكتب أن "تربة المغرب ومناخه يجعلان منه من بين أفضل أراضي العالم لزراعة الكروم"^(٥٧)، لكنه يضيف في موضع آخر أن "العقلية المحلية لا تسمح باستغلال هذا المورد بطريقة اقتصادية فعالة"^(٥٨). بهذا الخطاب المزدوج، يُحوّل بيروتان "الأرض" إلى كيان منفصل عن "الإنسان"، ويُقدّم الاستعمار كجسر يعيد الوصل بينهما. هذه الثنائية - "الأرض الخصبة / الإنسان العاجز" - تُعدّ إحدى الركائز الخطابية للهيمنة، لأنها تُبرّر السيطرة الأجنبية باعتبارها استثماراً عقلانياً في أرض مهمة.

٤- التبرير الأخلاقي والسياسي للاستعمار

تبلغ اللغة التبريرية ذروتها عندما يتحدث بيروتان عن دور فرنسا في "إحياء" الزراعة المغربية: «لقد كان على فرنسا أن تُعيد إلى المغرب حيويته الزراعية التي فقدتها منذ العصور القديمة»^(٥٩). بهذا المنطق، يُصبح الاستعمار فعل استعادة للزمن الروماني المجيد، لا غزواً جديداً. ويوظف بيروتان هنا البنية الرمزية ذاتها التي استخدمها المؤرخون الفرنسيون في الجزائر (مثل Augustin Bernard و Camille Rousset)، حيث يُصور المستعمر بوصفه "وريث الحضارة الرومانية" في شمال إفريقيا^(٦٠).

أما على المستوى السياسي، فإن بيروتان يرى أن وجود فرنسا في المغرب هو ضمان للتقدم الاقتصادي والاستقرار الاجتماعي، فيقول: «إن غياب الإدارة الفرنسية سيؤدي إلى عودة الفوضى الزراعية القديمة»^(٦١). بهذه الجملة يتجاوز بيروتان الاقتصاد إلى تأليه السلطة الاستعمارية، محولاً الإقامة العامة إلى "شرط للتمدين".

٥- الصورة النمطية للفلاح المغربي

يقدم بيروتان الفلاح المغربي في أطروحته كعنصر جامد ومقاوم للتغيير: «إن الفلاح الأصلي، المتمسك بعاداته الدينية والتقليدية، يظل بعيداً عن روح المبادرة الاقتصادية»^(٦٢). وهذه الصورة تعكس

تكشف دراسة الخطاب في أطروحة جاك بيروتان أن الباحث، رغم مظهره الأكاديمي، كان يكتب في خدمة المشروع الكولونيالي الفرنسي. فاللغة العلمية التي يستخدمها (النظام، التحديث، العقلنة) تُخفي في جوهرها مشروعًا سياسيًا هدفه شرعنة السيطرة الاقتصادية والاجتماعية على المغرب. لقد نجح بيروتان في تقديم صورة "علمية" للمغرب الزراعي، لكنه فشل في إدراك البعد الإنساني والثقافي للمجتمع المغربي. ومن ثم، فإن أطروحته تمثل نموذجًا صريحًا لـ تدخل المعرفة بالسلطة في الخطاب الاستعماري الحديث.

خاتمة

توضح دراسة أطروحة جاك بيروتان La question viticole au Maroc (١٩٣٦) أن البحث الأكاديمي لم يكن مجرد ممارسة علمية محايدة، بل أداة سياسية واستعمارية لترسيخ الهيمنة الفرنسية على الزراعة المغربية. من خلال إعادة بناء السياق التاريخي والاقتصادي والقانوني، يمكن استنتاج عدة نقاط جوهرية:

- **الهيمنة المعرفية:** استخدمت الأطروحة التاريخ والزراعة والقانون لتبرير المشروع الاستعماري، مع تقديم الاستعمار على أنه امتداد طبيعي للتاريخ.
- **الأداة الاقتصادية:** مثلت زراعة الكروم جزءًا من استراتيجيات استغلال الأراضي المغربية وربطها بالأسواق الأوروبية، بما يعكس سيطرة الاقتصاد الكولونيالي على السياسة المحلية.
- **الأبعاد الثقافية والاجتماعية:** تجاهل بيروتان العوامل المحلية، مقلصًا المجتمعات المغربية إلى عناصر اقتصادية، وهو نمط متكرر في الخطاب الكولونيالي.

في النهاية، تقدم الأطروحة مثالًا حيًا على التقاء المعرفة بالسلطة، حيث يصبح البحث الأكاديمي أداة لتبرير الهيمنة الاقتصادية والسياسية، مع إعادة إنتاج صورة المغرب "الماضي" المتخلف اقتصاديًا وثقافيًا، الذي يحتاج إلى العقل الأوروبي الحديث لإعادة الإحياء والتنظيم.

النمط المكرر في الأدبيات الاستعمارية التي سبقت بيروتان، مثل كتابات Célérrier (١٩٣١) و Hoffherr (١٩٣٢)، حيث يُنظر إلى المغربي باعتباره "عائقًا حضاريًا" أمام تحديث الأرض. لكن هذه الصورة تتجاهل، كما تشير الدراسات المغربية الحديثة، حقيقة أن الفلاحين المغاربة مارسوا مقاومة اقتصادية صامتة تمثلت في الحفاظ على أنماط الإنتاج التقليدية كنوع من الدفاع عن الهوية الدينية والاجتماعية^(٦٣).

٦- اللغة كأداة سلطة

تحليل المفردات والمصطلحات في أطروحة بيروتان يكشف أن اللغة ليست مجرد وسيلة وصفية، بل أداة لإعادة تشكيل الواقع بما يخدم أهداف الاستعمار. فالمصطلحات مثل civilisation, modernité, progrès, rationalité، تشتغل كمفاتيح رمزية تمنح شرعية لـ "مشروع الهيمنة الاقتصادية". وبذلك تتحول الأطروحة إلى خطاب سلطة يدمج بين المعرفة والهيمنة في آن واحد، وهو ما وصفه ميشيل فوكو بـ le savoir-pouvoir^(٦٤).

٧- مقارنة مع الخطاب الاستعماري العام

من الناحية المقارنة، يمكن القول إن بيروتان يُمثل الجيل الثاني من الخطاب الكولونيالي الفرنسي:

- **الجيل الأول** (أواخر القرن ١٩) ركّز على التبرير العسكري والديني (التمدين، الحماية، "رسالة فرنسا").

- **الجيل الثاني** (الثلاثينيات) ركّز على الشرعية الاقتصادية والعلمية.

ففي حين كان أوغستان برنار يكتب عن "رسالة فرنسا في المغرب"، أصبح بيروتان يتحدث عن "التنظيم العلمي للزراعة المغربية". لكن الجوهر واحد: إضفاء الطابع الأخلاقي على السيطرة، وتحويل الهيمنة إلى ضرورة علمية.

٨- التحليل التاريخي النقدي

من منظور المؤرخ المغربي المعاصر، يمكن قراءة أطروحة بيروتان كوثيقة نموذجية لفهم التحول في الفكر الاستعماري الفرنسي من خطاب "التمدين الثقافي" إلى خطاب "التنمية الاقتصادية". فهي تُظهر كيف انتقل الاستعمار من لغة "الإنقاذ" إلى لغة "الإصلاح"، ومن تبرير الغزو بالسلاح إلى تبريره بالقانون والعلم. إن هذا التحول لا يُلغي الطابع الأيديولوجي للاستعمار، بل يُعمقه، لأن العلم هنا لا يُحرّر بل يُقنّن السيطرة. وبذلك، تصبح أطروحة بيروتان مثالًا واضحًا على ما يمكن تسميته بـ "الاستشراق الاقتصادي"، أي إنتاج معرفة حول الآخر بهدف السيطرة عليه اقتصاديًا وثقافيًا في الوقت نفسه.

- (36) Ibid, p. 40.
 (37) Ibid, p. 42.
 (38) Ibid, p. 43.
 (39) Ibid, p. 44.
 (40) Ibid, p. 47.
 (41) Ibid, p. 48.
 (42) Ibidem.
 (43) Ibid, p. 50.
 (44) Ibid, p. 51.
 (45) Ibid, p. 52.
 (46) Ibid, p. 53.
 (47) Ibid, pp. 58-59.
 (48) Ibid, p. 60.
 (49) Chabert, Le Vignoble marocain, op. cit, p. 22
 (50) J. Pérotin, La question viticole au Maroc, op. cit, p. 54.
 (51) Said, Edward W. Orientalisme, Panthéon Books, New York, 1978. p. 121.
 (52) J. Pérotin, J, La question viticole au Maroc, op. cit, p. 5.
 (53) Ibid, p. 61.
 (54) Ibid, p. 33.
 (55) Chaudenson, Robert. Langues et cultures : regards sur la francophonie. : L'Harmattan, Paris, 1992, p. 283,
 (56) J. Pérotin, J, La question viticole au Maroc, op. cit, p. 43.
 (57) Ibid, p. 12.
 (58) Ibid, p. 44.
 (59) Ibid, p. 11.
 (60) Bernard, Augustin. Le Maroc, op. cit, p. 80.
 (61) J. Pérotin, La question viticole au Maroc, op. cit, p. 72.
 (62) Ibid, p. 43.
 (٦٣) أبو طالب، عبد الجليل. الاقتصاد المغربي في عهد الحماية الفرنسية. الدار البيضاء: دار أفريقيا الشرق، ١٩٩٩، ص. ١١٥.
 (64) Foucault, Michel. Surveiller et punir: Naissance de la prison, Gallimard, Paris, 1975, p. 27.

- (1) Adam, André. Histoire de Casablanca: des origines à 1914. CNRS Éditions, Paris : 1968, p. 412.
 (2) Bernard, Augustin. Le Maroc, Félix Alcan, Paris, 1913. p. 105.
 (3) Pérotin, Jacques, La question viticole au Maroc : thèse pour le doctorat, impr. R. Samie, Bordeaux, 1936, p.2.
 (4) Bernard, Augustin. Le Maroc, p. 80
 (5) J. Pérotin, La question viticole au Maroc. Op. cit, p. 14.
 (6) René Hoffherr, L'économie Marocaine : avec deux cartes économiques, Collection des centres d'études juridiques), Librairie du Recueil Sirey, Paris, 1932, p. 57
 (7) J. Pérotin, La question viticole au Maroc. Op. cit, p.49.
 (8) Ibid, p. 50.
 (9) Ibid, p.5.
 (10) Ibid, pp. 58-63.
 (11) Ibid, p. 11.
 (12) Ibid, p. 12.
 (13) Bernard, Augustin. Le Maroc, p. 80
 (14) Pérotin, La question viticole au Maroc, op. cit, pp. 13-14.
 (15) Ibid, p.14.
 (16) Ibid, p.15.
 (17) Ibid, p.16.
 (18) Ibid, p.17.
 (19) Ibid, p.18.

(٢٠) سورة المائدة، الآية ٩.

- (21) Ibid, p. 20.
 (٢٢) الفيلوكسيرا ليست مرضاً ميكروبياً بل حشرة صغيرة تصيب جذور وأوراق كروم العنب وتتسبب في موت النبات تدريجياً. أحياناً يُشار إليها أيضاً بـ حشرة العنكبوت الصغير للكرمة في بعض المصادر القديمة، لكن الأكثر شيوعاً هو فيلوكسيرا العنب
 Macedo, Marta, "Port Wine Landscape: Railroads, Phylloxera, and Agriculture Science," Agricultural History 85, 2 (2011): 157–73 CrossRefGoogle Scholar, 163–64.
 (23) Ibid, p.21.
 (24) Ibid, p.19.
 (25) Ibid, p. 23.
 (26) Ibid, p. 24.
 (27) Ibid, p. 25.
 (28) Ibid, p. 26.
 (29) Ibid, p. 30.
 (30) Ibid, p. 32.
 (31) Ibid, p. 33.
 (32) Ibid, p. 34.
 (33) Ibid, p. 36.
 (34) Ibid, p. 38.
 (35) Ibid, p. 39.



2008 - 2026



مُؤَسَّسَةُ كَانِ لِلدِّرَاسَاتِ وَالترجمة وَالنشر
Kan Foundation for Studies,
Translation and Publishing

<https://kan.journals.ekb.eg>

Historical Kan Periodical

ISSN: 2090 – 0449 (Online).

Peer-reviewed, open-access journal,
indexed and abstracted in several
international databases.

<https://portal.issn.org/resource/ISSN/2090-0449>
<https://www.facebook.com/historicalkan>